

الرقم الدولي:

ISSN: 2321-7928

مجلة الهند

مجلة فصلية محكمة

المجلد: 5 العددان: 4-3

يوليو - ديسمبر 2016 م

مدير التحرير

د. أورنوك زيب الأعظمي

نائب مدير التحرير

محمد عمران علي ملا

تصدر عن

مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال تrust

بولفورد، بنغال الغربية

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:

عنوان البريد:

مولانا آزاد آئدیل إیجوکیشنال ترست،

بولفورد، بنغال الغربية

رقم البريد: 731235

الهيئة الاستشارية

أ. د. بشري زيدان (مصر)	أ. د. فيضان الله الفاروقى (الهند)
السيد محمد دانش الأعظمي (البحرين)	د. صالح البلوشي (عمان)

هيئة التحرير

محمد عمران علي ملا (نائب مدير التحرير)	د. أورنوك زيب الأعظمي (مدير التحرير)
محمد معتصم الأعظمي (عضو)	د. هيفاء شاكري (عضو)

عنوان البريد الإلكتروني:

aurang11zeb@yahoo.co.in (1)

azebazmi@gmail.com (2)

الاشتراك السنوي:

500 روبية (للطلاب) 1000 روبية (للسادة والمكتبات)

نشرها وطبعها محمد عمران علي ملا نائب مدير مجلة الهند،
مولانا آزاد آئدیل إیجوکیشنال ترست، بولفورد، بنغال الغربية،
رقم البريد-731235

في هذا العدد

الصفحة

6-5

د. أورنك زيب الأعظمي

الافتتاحية

مقالات وبحوث:

66-7

-الشيخ أمين أحسن الإصلاхи

تفسير تدبر القرآن (11)

ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي

119-76

-امتياز علي عرضي

كتاب الأخبار للجاحظ

ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي

153-120

-البروفيسور الطاف أحمد الأعظمي

الدولة الإسلامية (2)

ترجمة: د. هيفاء شاكري

197-154

-د. ماجد محمد عبد الدلاعه

حديث الولي بين مؤيديه ومعارضيه،
دراسة حديثية موضوعية

225-198

-د. محمد فوزي مصرى رحيل

تراث الإسلامي في تصنيف
العلوم، القلقشندي نموذجاً

249-226

-د. أورنك زيب الأعظمي

دور شرف "شمس العلماء" في نشر
وتطوير اللغة العربية وأدابها (العلامة
محمد شibli النعmani نموذجاً)

335-250

-د. صاحب عالم الأعظمي الندوى

إسهام ملفوظات الشيخ أحمد
السرهندي في إصلاح الفكر
الإسلامي للإدارة المغولية،
"المكتوبات الربانية" نموذجاً

- من القاعدة البغدادية إلى صحيح البخاري**
- أبو المعالي القاضي أطهير المباركفوري
- 371-336
- ترجمة: د. أورنوك زيب الأعظمي
- د. أورنوك زيب الأعظمي
- 402-372
- "مقال في بلاد البنغال" دراسة تحليلية
- بدر جمال الإصلاحي
- 413-403
- النيلوفر
- استعراض كتاب:**
- صفحات من حياة المغفور له بإذن الله تعالى السلطان سعيد بن تيمور سلطان مسقط وعمان
- غياث الإسلام الصديقي الندوى 418-414
- قصائد ومنظومات:**
- قصيدة في تهنئة الدكتورة هيفاء شاكري بتشرفها بجائزه رئيس جمهورية الهند
- 421-419
- أخبار وتقارير:**
- الندوة الدولية حول: الحكمة الهندية: بانتش تانтра (كليلة ودمنة)،
- غياث الإسلام الصديقي الندوى 425-422
- الأستاذ بدر جمال الإصلاحي ينال جائزه رئيس جمهورية الهند لخدمته للغة العربية للسنة 2016م
- 429-426
- محمد معتصم الأعظمي

مجلة الهند

الافتتاحية

الحمد لله الذي وفقنا لإصدار المجلة الإنجليزية عن الدراسات العربية والإسلامية التي كانت حلمنا منذ أن نشرنا مجلة الهند. نشرنا المجلة واستلمنا رسائل لا تحصى من قبل الكتاب والباحثين وكذلك من قبل علماء اللغة الإنجليزية فالكل شجعونا على إصدارها ثم على علوّ مستواها وجودة قسيمها فالحمد لله حمدًا كثيراً طيباً. لم نرد هذا إلا لخدمة العلم والفن ولا نريد جزاء إلا عند الله العزيز الحكيم.

بين أيديكم العددان من مجلة الهند ونصدرهما كعدد مزدوج ويشتمل هذا العدد على عشر مقالات أصلية ومتدرجة قام بها علماء الهند والعرب. وذيلنا هذه المقالات باستعراض لكتاب وقصيدة وتقرير وبشري.

فالمقالة الأولى هي الحلقة الـ11 لترجمة تفسير "تدبر قرآن" وهي ترجمة الآيات من 122 حتى 162، والمقالة الثانية تحقيق "كتاب الأخبار للجاحظ" الذي قام به المحقق الهندي الشهير امتياز علي عرضي وأما المقدمة فقامت بترجمتها العربية. والمقالة الثالثة هي الحلقة الثانية لترجمة كتاب "إسلامي رياست" وهذه الحلقة تتحدث عن القانون الإسلامي (الشريعة)، وأما المقالة الرابعة فهي عن الولاية وشروطها وتميزها، والمقالة الخامسة عن مساهمة القلقشندي في تصنيف العلوم، والمقالة السادسة تذكر دور شرف "شمس العلماء" في نشر وتطوير اللغة العربية وآدابها. والمقالة السابعة عن إسهام ملفوظات الشيخ أحمد السرهندي في إصلاح الفكر الإسلامي للإدارة المغولية بالتركيز على "المكتوبات الربانية" وأما المقالة الثامنة فهي ترجمة عربية للسيرة الذاتية للقاضي أبي المعالي أطهر المباركفوري الذي يعرفه العرب كمعرفة أبنائهم. والمقالة التاسعة عن رحلة "مقال في بلاد البنغال" التي قام بها محمد بن ناصر العبودي وأما المقالة العاشرة فهي عن

مجلة الهند

النيلوفر وكتابها العالم الهندي الشهير الأستاذ بدر جمال الإصلاحي الذي يفقد نظيره في العلم بحيوانات الهند وأشجارها.

وقفينا هذه المقالات باستعراض لكتاب الدكتور صالح البلوشي الذي له اليد البيضاء في تدوين تاريخ عمان السياسي والعلمي، ويتبعها قصيدة في تهنئة الدكتورة هيفاء شاكري بمناسبة تشرفها بجائزة رئيس جمهورية الهند للعام 2015م ثم يأتي تقرير لندوة دولية عقدت في قسم اللغة العربية وأدابها بجامعة دلهي وختمنا هذا العدد المزدوج ببشرى إعلان الحكومة الهندية عن تشريفها الأستاذ بدر جمال الإصلاحي بجائزة رئيس الجمهورية للعام 2016م والأستاذ الإصلاحي فاقد النظير في الهند عن المهارة في حيوانات الهند وأشجارها وما تميز بها.

ونشكر كل من ساعدوني في إعداد ونشر هذا العدد، ونبشر بأن العدد القادم سيكون خاصاً بحياة وخدمات الإمام عبد الحميد الفراهي فنرحب بما يقدمه الباحثون من مقالات وبحوث وترجمات عن الموضوع.

د. أورنوك زيب الأعظمي

مجلة الهند

تفسير تدبر القرآن

(تفسير سورة البقرة)

-الشيخ أمين أحسن الإصلاحي^١

ترجمة من الأردوية: د. أورنک زب الأعظمی^۲

(الحلقة الحادية عشرة)

(141-122) تفسیر الآیات -47

قد اتضحت مما سلف من المباحث أن أشد عرقلة وأصعها لأهل الكتاب لاسيما اليهود في سبيل قبولهم للإسلام كانت غرورهم بأنهم أولاد إبراهيم فاللهى ما هم يمسكون به والدين ما هم يتبعونه فلا كانوا يعترفون بنجاة أحد خارج نطاقهم ولا كانوا يقولون بنبوة أحد أو رسالته خارج حدودهم فالطريقة الوحيدة لنيل النجاة واللهى عندهم كانت هي أن يكون المرء إما يهودياً أو نصرياناً فقام القرآن بالرد على زعمهم هذا بطرق مختلفة. وفيما يأتي يتم الرد على ما زعموه عن طريق تقديم جزء من قصة حياة إبراهيم وأولاده، يؤيد دعوة النبي ورسالته ويرد على كافة دعاوى اليهود والنصارى والمشركين. وبما أن إبراهيم كان آباً وإماماً لكلا الثقلين بنى إسرائيل وبني إسماعيل فيثبت هذا الجزء من التاريخ حجة لكلِّيَّهما على السواء. لو تفكّرنا من هذه الجهة لشعرنا أن البحث الذي ابتدئ ببني إسرائيل خاصاً وببني إسماعيل عاملاً منذ بدء هذه السورة قد بلغ هنا نهايته.

وَمَا أَوْضَحَهُ الْقُرْآنُ هُنَا فِي ضُوءِ هَذِهِ الْقَصْةِ سِيَّاْتِي تَفْصِيلُهَا خَلَالِ تَفْسِيرِ الْآيَاتِ لِكُنْ نُودُّ أَن نُشِيرَ إِلَى أَمْوَارِ مُبَدِئَيَّةٍ خَاصَّةٍ لَكِي يَتَضَعَّ نُظُمُ الْكَلَامِ وَسِيَاقُهُ، فَهِيَ كَمَا يَلِي:

^١ كاتب ومفسر هندي له مؤلفات عديدة ترجم البعض منها إلى العربية والإنجليزية

² مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وأدابها، الجامعة الملكية الإسلامية، نيو دلهي، الهند.

مجلة الهند

1. منصب الإمامة والسيادة الذي وهبه الله تعالى لإبراهيم عليه السلام لم يظفر به كشيء موروث بل هذا كان مما وهبه الله تعالى فأولاً امتحن الله طاعته ووفاءه عن طريق مختلف البلاءات فلما نجح فيها أعطاه هذا المنصب فهذا المنصب يبني على الصفات لا على النسب والحسب فلا يليق به من بين ذريته إلا من يتصرف بهذه الصفات فلا يجدر به الفجرة الخائنة.
2. قد قرر الله تعالى بيت الله مركزاً لكافحة ذرية إبراهيم فأمر بجعلها قبلة كما ولي أمره إبراهيم وإسماعيل.
3. دعا إبراهيم وإسماعيل، حين بناء هذا البيت، أن تبعث أمة مسلمة من بين ذريتهما وأن يبعث رسولٌ منهم.
4. إن هذا الرسول هو مظهر هذا الدعاء الإبراهيمي وداعٍ لهذه الملة الإبراهيمية وعلى هذا فمن يجتنب دعوته مدعياً باتباع الملة الإبراهيمية يخدع نفسه.
5. قد أوصى إبراهيم ويعقوب أولادهما بهذه الملة الإسلامية وعقد أولاد يعقوب الميثاق معه على أن يحيوا عليها ويموتوا.
6. إن هذه الأحداث والحقائق تتطلب أن لا يخوض أهل الكتاب في عصبية اليهودية أو النصرانية ويتبعوا هذه الملة الإبراهيمية التي يدعو إليها النبي محمد ﷺ ولا يفرقوا بين أنبياء الله ويختاروا دين الإسلام الذي هو دين مشترك بين كافة الأنبياء والرسل فمن يرد أن يصطحب بصبغة الله فليختاروا صبغة الإسلام وهذه هي صبغة ربانية وليست اليهودية ولا النصرانية فمن يرد أن يختار صبغة غير صبغة الله فهم يكُونون لهم حزباً غير حزب الله جل سلطنته.
7. إن الدعوى بأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وغيرهم من أنبياء تلك السلسلة كانوا يهوداً أو نصارى فمن يدّع بما سلف فهو يريد إخفاء الحق فالله أعلم منهم بدين ومنذهب هؤلاء الأنبياء.
8. والشيء الأخير الذي تكرر بيانه مرتين هو أن الآباء الذين تعتمدون عليهم هم مضوا لسبيلهم وسيلقون جزاء ما قدّموه من الأعمال فلا تتمتعون من فضل أي عمل منهم ولا تسئلون عن شيء مما قدّموه.

مجلة الهند

طبع هذه المباحث أمام عينيك ثم اتل ما يلي من الآيات. قال الله تعالى:

"يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نَعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَلَّتُكُمْ عَلَى الْعَلَمِينَ ^(١٦٦)
وَأَتَقْوُا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْاً وَلَا يُقْبِلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ
يُنْصَرُونَ ^(١٦٧) ۝ وَإِذْ أَبْتَلَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَهُمْ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً
قَالَ وَمَنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنْالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ^(١٦٨) ۝ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَنَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمَّا
وَأَتَخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلِّي وَعَهْدَنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهَرَا بَيْتَ الْمَطَافِينَ
وَالْعَدَكِينَ وَالرُّكْحَ السُّجُودِ ^(١٦٩) ۝ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمَ رَبِّي أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ
مِنَ الشَّمَرَاتِ مَنْ ظَانَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتَهِنُ وَقَلِيلًا ثُمَّ أَصْطَرْهُ
إِلَى عَذَابِ الْتَّارِ وَبَيْسَ الْمَصِيرِ ^(١٧٠) ۝ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا
تَقَبَّلَ مِنَّا إِنَّا أَنْتَ الْسَّمِيعُ الْعَلِيمُ ^(١٧١) ۝ رَبَّنَا وَأَجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمَنْ ذُرِّيَّتَ أُمَّةً مُسْلِمَةً
لَكَ وَأَرَى مَنَاسِكَنَا وَتُبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْتَوَابُ الرَّحِيمُ ^(١٧٢) ۝ رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ
يَنْهَا عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعْلِمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُرَكِّبُهُمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ^(١٧٣)
وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفَهَهُ وَلَقَدْ أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ
فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الْصَّالِحِينَ ^(١٧٤) ۝ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ^(١٧٥) ۝ وَوَصَّى بِهَا
إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْوُبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَنِي لَكُمُ الْدِيَنَ فَلَا تَمُوتُنَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ^(١٧٦)
أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ
إِلَهَكَ وَإِلَهَءَابِلِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهَنَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ^(١٧٧) ۝ تِلْكَ أُمَّةٌ
قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبْتُ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(١٧٨) ۝".

48- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكُرُوا نَعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَلَّتُكُمْ عَلَى الْعَلَمِينَ ^(١٦٦)
وَأَتَقْوُا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْاً وَلَا يُقْبِلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَعَةٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ^(١٦٧)
قد مضت هاتان الآيتان بشيء من الاختلاف في كلماتها وقد ناقشناهما بكل تفصيل
فليراجع القارئ الآيتين 47 و 48.

مجلة الهند

وَإِذْ أَبْتَأَ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ وَيَكَلِّمُهُ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي
قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّلِيلُينَ ﴿١٢﴾

الابتلاء يعني الامتحان والاختبار وهذه سنة من سنن الله لتربية العباد الخلقية فهو ينمي ويزكي من مؤهلات العباد ما قد أودعه الله فيهم وبه يميز بين الصالح والفاجر. ويتم هذا البلاء عن الوضعين: المخالف والموافق، الساز والحزن، والمشجع والمؤنس، ولا يراد به في أيهما أذاهم بل الهدف الأساسي، كما ذكرناه آنفًا، تنمية ما خفي فيهم من المؤهلات وتزكيتها. ولنكتف هنا بهذه الإشارة وستتناول ذلك بشيء من التفصيل فيما بعد.

كلمات جمع كلمة وهي تعني كلمة مفردة كما هي تعني كلامًا تاماً، والمراد هنا بالكلمات أحكام الله التي أعطاها الله لإبراهيم لامتحان عزيمته واستقامته وبدوره هو عمل على تلك طائعاً غير منكر فمثلاً أنه أذن في معبد قومه الوثني امتثالاً بأمر الله وكسر الأصنام التي لم تزل تعبد منذ قرون ثم ألقى في النار عقاباً على هتك عزة دينه القديم فهو وتب فيها بدون أدنى مخافة، وأراد ملك جبار أن يثنيه عن الدين الحق فخيّبه عن طريق حججه الباهرة، وأمر بالهجرة إلى غير بلاده مغادراً الأسرة والعقارب والقوم والوطن فهاجرهم وارتحل إلى بلاد غير بلاده، وأمر بأن يذبح ولده الوحيد الحبيب لديه في الغربة فامتثل بهذا الأمر بدون أي تفكير وتل ابن ثلاثة عشر عاماً بالجبين. فكل ثانية من ثوانٍ حياته مليئة بهذه المحامد الكبرى الفديدة المليئ وقد ذكرنا نتفاً منها على سبيل المثال.

وما استخدمه الله تعالى من كلمة "الكلمات" للتعبير عن أحكامه وإرشاداته تطوي نكتة بلاغية خاصة وهي أن "الكلمة" تحمل بين جنبيها نوعاً من الإجمال والإبهام فهي مثل "كُنْ" تقدم للمخاطب أمراً يجب الامتثال به ولكن لا يجب أن يتبعه فلسفته وأجره وجزاءه، فمثل هذه الأحكام تكون أشد اختبار لامتحان الوفاء والطاعة فمن ينجح في مثل هذا الامتحان فله جزاءه المناسب بشدة امتحانه فمثلاً أن الله أرى إبراهيم في المنام أنه يذبح ولده الحبيب ولم يوضح الباعث عليه ولا يبين الأجر عليه، فكان لإبراهيم أن يعتبر هذه الرؤيا حلمًا ولا غير كما كان له أن يأولها

مجلة الهند

تؤيّلاً ما ولكنه كما يمثل كل شيء من هذا الكون بكلمة الله "كن" غير مناقش عن فلسفتها ولا باحث عن أجرها فكنزلك لم يسأل إبراهيم عن فلسفتها ولا الجزاء عليها فلما سئل عن أن يثبت في النار فوتب فيها، وأمر بأن يغادر القوم والوطن فغادر، وأمر بأن يذبح الولد ففعل بما أمر، ولأجل هذا النوع الخاص لهذه الأحكام المليئة بالاختبار عبر القرآن عنها بالكلمات.

ولو أن كل واحد من هذه الاختبارات كان صعباً شديداً ولكن امتحان ذبح الولد كان فوق هذه الامتحانات شدة وصعوبة فخياله تفتر به عزيمة المرء ولكن إبراهيم قد نجح فيه، وعلى هذا وعده الله بـ"إني جاعلك للناس إماماً". إن هذا الوعد الوحد يشمل وعدين اثنين أحدهما أن الأقوام العظمى تولد من نسل إبراهيم وآخرهما أنه سيكون إماماً لكلهم. وقد استحق هذا الجزاء العظيم أنه لم يغادر أسرته وقومه لله فحسب بل رضي بأن يذبح ولده الحبيب في الغربة، الذي كان هو المركز الوحد لكافة آماله في شيخوخته وغربته، ولو أن اليهود قد قاموا بتحريفات متنوعة في هذا الجزء الخاص من سيرة إبراهيم في كتابهم التوراة ولكن هذا الوعد مذكور فيها بتصريف في كلماته، اقرأ ما يلي من الآيات:

"ونادى ملاك رب إبراهيم ثانية من السماء وقال بذاتي أقسمت يقول رب إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيديك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيراً كنجموم السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر ويرث نسلك باب أعدائه ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض. من أجل أنك سمعت لقولي" (التكون: 18-22)

وللإيفاء بهذا الوعد جعل الله أقواماً عظيماً من نسل إسحاق وإسماعيل، كان إبراهيم أبيهم وإمامهم بالاتفاق ثم ابتدأت سلسلة النبوة والرسالة فهم كما بروز فيهم ملوك جبارون فتحوا بلاد الأعداء ثم بعث لهم محمد النبي الخاتم الذي هدى به الله كافة العالمين.

فلما وعد الله هذا مع إبراهيم فسأله هل هذا العهد للإمامية والسيادة يختص به أم يرثه ذريته فأجاب عليه الله قائلاً: "لَا يَنَالُ عَهْدِ الظَّالِمِينَ" فالمراد من "الظالم" في القرآن ليس مجرد من يظلم غيره بل ربما يراد به من خاض في الشرك والكفر فيظلم نفسه، قال تعالى مثلاً: "كَمِئُونَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِئُونَ مُقْتَصِدٌ" (سورة فاطر: 32) وقال "

مجلة الهند

وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا حُسْنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِيهِ مُبِينٌ" (سورة الصافات: 113) فمعنى ذلك أن من يبقى من ذريتك على مذهبك ويستقيم على ما أعطيته من الهدى والشريعة فهو يرث هذا المنصب بعده ولكن من لا يوفي بالوعد ويكرر نعمة الله فيتبع سبيل الشيطان فلا حظ له من هذه الإمامة والسيادة.

وقد صرّح عن ذلك هنا لكي يتضح جلياً لبني إسرائيل وبني إسماعيل أن الفخر الذي يجدونه في أنفسهم بكونهم من سلالة إبراهيم وعلى ذلك ظنوا أنفسهم براء عن مسؤوليات الإيمان والعمل كلها، هذا الفخر باطل تماماً فلا حظ من تراث إبراهيم لمن خاض في الشرك والكفر وقد أوضح الله هذا الأمر لإبراهيم يوم أعطاه منصب الإمامة والسيادة.

ونرى أنما أحالنا إليه من التوراة سابقاً قد كان يشمل هذه الصراحة ولكنه بما أن هذا الأمر كان خلاف مرضاه اليهود فقاموا بحذفه كما حرفوا غيره من حلقات هذه السلسلة المخالفة لأهوائهم وقد كشف الإمام الفراهي عن مثل هذه التحريرات في رسالته "الرأي الصحيح فيمن هو النبي" ومن يوْد التفصيل فليراجع تلك الرسالة.
وَإِذْ جَعَلْنَا أَبْيَثَ مَئَابَةً لِلثَّالِسِ وَأَمَّا وَأَنْجَدُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلَّ وَعَهَدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ ظَهِيرًا يَبْيَقِي لِلظَّاهِيفَيْنَ وَلِلْعَكْفِيَّنَ وَلَرُكْغَ السُّجُودِ ^(١٥)

والمراد من "أَبْيَثَ" هو بيت الله أي الكعبة الشريفة وقد استخدمت هذه الكلمة في صورتها هذه مجرد بيت الله الحرام، وقد عبر عنها في كتاب "التكوين" للتوراة بـ"بيت إيل" ، وـ"إيل" بالعبرية تعني "الله".

والثابة هي المركز والمرجع، أي التي يرجع إليها كل الناس ويتعلقون بها ويعتبرونها مرکزاً لهم وقبلة.

والمراد من "الثالِسِ" الذين جاء ذكرهم في "إِنِّي جَاعِلُكَ لِلثَّالِسِ إِمَاماً" أي ذرية إبراهيم كلها التي أعطيت إمامتها وسيادتها لإبراهيم عليه السلام فهي ولو كانت من نسل إسحاق أو من سلالة إسماعيل فكما حكم الله تعالى أن يجعل إبراهيم إماماً لذريته كلها فكذلك قال الله تعالى إن يجعل بيته للعبادة يكون مرکزاً وقبلة لكافة ذرية إبراهيم وثم يتسع نطاق بركته للعالم كله عن طريق ذرية إسماعيل كما سيأتي.

مجلة الهند

وقد قدم الأستاذ الإمام تحقيقه في هذا الأمر كما يأيُّ: "اعلم أنهم أمروا من أول أمرهم باتخاذ جانب مكة قبلة لأكبر قربينهم، وبيان ذلك أنه كان من الواجب في أمر القربان أن يؤتى إلى المعبد أمام الرب، وكان قدس الأقدس يوجه إلى الجنوب --- وكذلك الضحية السنوية التي هي أكبر الأضاحي عندهم توجّه إلى الجنوب.

ولم يعرف أهل الكتاب حكمة ذلك، راجع الفصل الثاني. فنقول: الأغلب أنهم لم يجبوا البحث عنها، وكتموها عمداً. فإن خيمة عبادتهم كان من الأول وجهها إلى الشمال، سفر الخروج (27:9):

"وتضع دار المسكن إلى جهة الجنوب نحو التيمن" أيضاً فيه (40: 22-24) وجعل المائدة في خيمة الاجتماع في جانب المسكن نحو الشمال خارج الحجاب (23) ورتب عليها ترتيب الخبر أمام الرب كما أمر الرب موسى (24) ووضع المثارة في خيمة الاجتماع مقابل المائدة في جانب المسكن نحو الجنوب".

وذلك ليكون من يأتي إلى الرب متوجّهاً إلى الجنوب أي إلى مكة المكرّمة والمنحر الإبراهيمي. ويؤكد ذلك أنه في داخل الخيمة كان المسكن المقدس الرياني في الجنوب وكان الذبيح بين يديه إلى جهة الباب ولذلك كان المقرب بقدس الأقدس يقوم على شمال الذبيح ليكون متوجّهاً إلى المسكن، فيكون متوجّهاً إلى الكعبة. وعندها المروءة التي هي المنحر الأول. وعند هؤلاء مسكن إسماعيل عليه السلام".¹

اتضح من هذا التفصيل أنه كما أن الكعبة هي قبلة صلواتنا وأضاحينا وكذلك أمر بأن تجعل الكعبة قبلة لكافة عبادات وأضاحي ذرية إبراهيم وعلى هذا فقد نصب مخيّم عبادتهم متوجّهاً هذه الجهة كما بني البيت المقدس، فيما بعد، على هذه الجهة ولكن الهدوء قد حاولوا أن يخفوا هذه الحقيقة مجرد عصبيتهم.

ويمضي الأستاذ الإمام يوضح هذا الأمر كما يلي: "ومما يؤكد ذلك أن الله تعالى جعل بلدة إسماعيل قبلتهم، فأسكن إبراهيم أولاده في مشرق العرب وشماله، ولكن جعل لهم قبلة إلى مسكن إسماعيل، فإنه أنزله أمام

¹ الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح، ص 59 (طبعة محققة)

مجلة الهند

جميع إخوتهم. التكوين (25:18): "وسكنوا من حويلة إلى أشور التي أمام مصر حينما تجيء نحو أشور أمام جميع إخوتهم نزل" والتكوين (16:12): "إنه يكون إنساناً وحشياً يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع إخوته يسكن".

ولا يصح لذلك تأويل آخر. فإن أولاد إبراهيم غير بني إسماعيل سكنوا في المشرق والشمال فلا يكون أمام جميعهم إلا أن يكون في جهة قبليهم، فجعل الله إبراهيم إماماً وأورثه إسماعيل.

وأشار القرآن إلى ذلك حيث قال تعالى: "وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمّن" وأكبر هذه الكلمات ذبح ولده "قال إني جاعلك للناس إماماً، قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين. وإذ جعلنا البيت مثابة للناس (أي مرجعاً يتوجهون إليه) وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى" فلم يجعل مسكن إسماعيل قبلة لقرايبهم إلا لكون المنحر الإبراهيمي عنده¹.

وأما "واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى" فهي إيضاح مزيد للفقرة السابقة فلا حاجة إلى أن يضم إليها تصريح "قلنا" أو "أمرنا" فقد قيل شيء واحد في كلتا الفقرتين عن جهتين مختلفتين فقال أولاً أن الله حكم بأن يجعل بيته مركزاً وقبلة لكافة ذرية إبراهيم ثم قال إن إبراهيم وأولاده أمروا، لتنفيذ هذا الحكم، بأن يجعل جزءاً من مسكن إبراهيم مصلى.

وقد استخدم هنا كلمة "مقام إبراهيم" مما هو المراد من هذه الكلمة؟ نجد رأيين للمفسرين في هذا الشأن فترى الطائفة الأولى أن المراد منه ذلك الحجر الذي قيل عنه أن إبراهيم كان يقوم عليه فيبني البيت الحرام وأما الطائفة الثانية² فيرى أن المراد به منطقة الحرم كلها فقد اتخذت بها هذه الطائفة مسكن إبراهيم ومقره بدلاً من أن تريده به شيئاً يقوم عليه، ونقول بصحة القول الثاني فكما أن هذا التأويل يطوي بين جنبيه سعة المعنى وجماعيته فكذلك أنه يوضح ما يشير إليه السياق الذي قيل فيه هذا الأمر فقد أراد القرآن هنا إثبات أن هذا البيت لم ينزل قبلة لذرية

¹ المصدر نفسه، ص 60 (طبعة محققة)

² يضم إلى هذه الطائفة أكبر علماء التفسير أمثال ابن عباس وعطاء ومجاهد.

مجلة الهند

إبراهيم كلها وذلك لأنه هذا البيت الذي بناه إبراهيم أول ما بناه، بأمر من الله، في مكانه الذي سكنه مع إسماعيل بعد الهجرة.

هذه قضية نزاعية بيننا وبين اليهود فقد قام اليهود بتحريفات تافهة في المذبح وقصة حياة إبراهيم لكي يقطعوا علاقته مع الكعبة والمذبح وهكذا فقد حاولوا أن يثبتوا أن الولد الذي ذبحه إبراهيم هو إسحاق لا إسماعيل والمكان الذي ذبحه هو جبل يروشلم لا المرور والبيت الذي بناه لعبادة الله هو البيت المقدس لا البيت الحرام والمنطقة التي توطنها بعد الهجرة هي كنعان لا جوار الكعبة، وبما أن التوراة هي الوسيلة الوحيدة لتصديق هذه البيانات أو تردیدها وأن اليهود قد قاموا بالتحريف في التوراة حسب مرضاتهم كما ذكرنا آنفًا فكشف القناع عن الحقائق كان صعباً للغاية ولكن أستاذى الإمام الفراهي في رسالته "الرأي الصحيح فيما هو النبیع" قد قام بكشف الغطاء عن كافة تحريفات اليهود تلك في ضوء دلائل التوراة نفسها فإنه أثبت بمحتويات التوراة أن إبراهيم، بعدما خرج من وطنه، ترك والدة إسحاق بكنعان ولكنه أقام مع ولده وزوجته في صحراء بئر سبع. كانت هذه المنطقة غير ذات زرع وعلى هذا فهو حفر بها سبع آبار وزرع الأشجار وهنا رأى في المنام أنه يذبح ولده الوحيد فجاء به جبل المرور وأراد أن يحقق ما رآه، وبجوار هذا الجبل أسكن إسماعيل ثم رجع منه إلى بئر سبع واصطفى لإقامته مكاناً يكاد يكون قريباً من الكعبة ويمكن منه أن يعود إلى إسحاق.

قد أثبت الإمام الفراهي هذه كلها بدلائل قاطعة من التوراة، وبما أن تقديم المقتبسات يملّ القراء فاكتفينا بتلخيص المبحث بكلماتنا فمن يود التفصيل فليراجع رسالته القيمة.

ومن البديهي أن إبراهيم لما أقام بهذه المنطقة ولم يقم بالشام فلا بد من أن يؤمر بأن يبني مركزاً لأداء الصلوة وعلى هذا فقد بنى بيت الله امتثالاً لهذا الحكم، الذي ذكر في كتاب التكوين للتوراة باسم بيت إيل، وبيت الله وبيت إيل لهما معنى واحد فـ"إيل" تعني "الله" بالعبرية. فإن يرد اليهود بهذا البيت المقدس فبصرف النظر عن أن إبراهيم لم يجعل هذه المنطقة مقرّه فالشيء البارز الذي يكذب هذه الدعوى أن

مجلة الهند

البيت المقدس قد تم بناؤه بيدِي سليمان بعد إبراهيم بـملايين السنين، وبناء على قدم الكعبة وأوليتها فقد عَبَر عنها القرآن بـ"البيت العتيق" وـ"أول بيت" فقال تعالى "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لِلَّذِي يَبْكَهُ مُبَارَّكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيْتَنَا مَقَامٌ لِإِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ وَكَانَ ءَامِنًا" (سورة آل عمران: 96-97).

فهنا عَبَر عن بيت الله بـ"مصلى" الكلمة التي تشير إلى الهدف الأصيل وراء بنائه بأنه سيكون مركزاً للصلوة وقد دعا إبراهيم حين إسكان إسماعيل بجوارها "ربنا ليقيموا الصلوة" ولكن أولياءها المشركين والمبتدعين الجاهليين قد جعلوها مركزاً للبدع وبقيت الصلوة مجرد تقليد وثني للنفح والتصفيق فإن تفکروا من هذه الجهة فستعلمون أن كلمة "مصلى" هنا إشارة إلى أن كلاماً فرعياً لإبراهيم الهدف الأساسي لقبلتهما¹ والآن قد بعث الله نبيه هذا الذي سيقوم بإحياء هدفها الأساسي.

وعهدنا إلى إبراهيم --إنما: لما يأتي "عهد" بصلة "إلى" فهو يعني حمل مسؤولية عليه أو تقييده بشرط ما فقال تعالى مثلاً: "وَلَقَدْ عَهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنِسِيٍّ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزَّمًا" (سورة طه: 115) وقال أيضاً: "أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَيَ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ" (سورة يس: 60) فـ"عهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل" يعني أن الله قد حملهما مسؤولية تولية الكعبة وقيدهما بأن يطهرا هذا البيت للطائفين والمعتكفين والرَّاكع السجود.

والهدف وراء تطهير البيت يعني بدءياً تطهيره من كل ما يخالف هدف بنائه سواء كان ذلك نوعاً من النجاسة التي تعكر صفو أمنحة العباد أو لغوً من اللاعبين يخل بخشوعهم أو أصناماً وأوثاناً تحول بيت الله إلى مركز الشرك وعبادة الأوثان فقد حمل إبراهيم وإسماعيل أن يطهرا بيت الله عن كل ما سلف من الدنس والنجس ويشهد التاريخ بأنهما قد أديا خدمتهما ولكن ذريتهما لما وقعت في هوة الشرك وعبادة الأوثان فيما بعد فخالفوا ما حمل على كاهل أبيهما من المسؤولية وجاءوا بالأصنام

¹ ولنلاحظ هنا أنه كما شطب الهدوء ذكر الكعبة عن أدبهم الديني فكذلك محو ذكر الصلوة عنه فإن بقي لديهم شيء ما فهو الذبح فمعبدتهم ليس إلا مركزاً للذبح فلا يعني بالصلوة فيه، وربما يخطر ببالك أنهم لما قطعوا علاقتهم عن الكعبة فحرموا الله الصلوة التي كانت هي هدفها الأساسي.

مجلة الهند

فنسبوها في كل زاوية منه وساموا من أراد أن يعمّروا هذا البيت من جديد من ذكر الله والطواف والاعتكاف والسجود فأخرجوهم منه وقد أشار القرآن إلى فجر تاريخ الكعبة لكي يدرك القريش مسؤولياتهم تجاه هذا البيت ولكنهم لما أنكروا إدراكتها فأعلن الله بأنهم معزولون عن منصب تولية هذا البيت فقال: ما كان للمسّرّكين أن يعمرُوا مساجِدَ اللَّهِ شَهِيدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ وَفِي أَنَارٍ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مساجِدَ اللَّهِ مَنْ عَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمَ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الْزَكُوَةَ وَلَمْ يَنْخُشْ إِلَّا اللَّهُ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهَتَّدِينَ ﴿١٨﴾" (سورة التوبه: 17-18). فأمر هنا بأن يخصّ هذا البيت بثلاثة أشياء؛ الطواف والاعتكاف والركوع والسجود. فالطواف يعني طواف بيته صلى الله عليه وسلم فأوضح النبي ﷺ بسننته طريقته التي كان يطردها إبراهيم عليه السلام فالطواف نوع من الصلوة ولكن هذه الصلوة لن تؤدي إلا عند الكعبة الشريفة ولأجل خصوصيته هذه سبق ذكره العادات الأخرى فيختص بهذه الصلوة قدر ما يثور من عواطف الحب الرباني فيها في حدود الكرامة والأدب فقصبة الشمعة والشرارة تعود حقيقة شريطة أن تشوب جانب المرء حياة مؤهلاً بيمان خالص.

العاكف من العكوف وهو صرف النظر عن الأشياء الأخرى والالتزام بشيء خاص ومنه الاعتكاف الذي هو عبادة التفكير والتذكرة والذكر فينعزل العبد عن كل شيء ويركز إلى حالقه فيذكره وقد أوضح النبي ﷺ صورته الصحيحة بسننته فكما أن الطواف يطوي بين جنبيه ما يثير في المرء عواطف الحب الإلهي كذلك الاعتكاف فهو يثبت العقل والقلب على ذكره تعالى.

الرَّكْعُ جَمْعُ الرَّاكِعِ وَالسَّجْدَةُ جَمْعُ السَّاجِدِ وقد بيننا تحقيق كلمتي "ركوع" و "سجدة" حين تفسير الآيات 34-42 وهنا وردت هاتان الكلمتان للتعبير عن الصلوة فالتعبير عن الصلوة بالركوع والسجود يدل على حققتين مهمتين إحداهما أن هذين من أهم وأقدم أركان الصلوة فلو وقع شيء من التغيير في ظاهر الصلوة ولكنهما يضممان إلى صلوتنا كما هما يضممان إلى صلوة إبراهيم، والأخرى أنه لم يرد من الصلوة مجرد الذكر والتفكير بل أريد بها صورتها الخاصة وهيئتها المعلومة، ويكمّن جمال صورتها الحقة وهيئتها المعلومة في الركوع والسجدة.

مجلة الهند

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ وَمِنَ الْمُحَرَّاتِ مَنْ ظَانَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمُ الْآخِرُ قَالَ وَمَنْ كَفَرْ فَأُمَّتُهُ وَقَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرْهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيَئُسَ الْمَصِيرِ^(١)
رَبِّي أَجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الْمُحَرَّاتِ: آمِنٌ يَعْنِي مَأْمُونٌ وَمُطمَئِنٌ وَقَدْ قَامَ
إِبْرَاهِيمُ بِهَذَا الدُّعَاء لِلأَرْضِ الَّتِي أَسْكَنَ إِسْمَاعِيلَ فِيهَا وَبَنَى فِيهَا بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامَ، وَهَذِهِ
الْمَنْطَقَة، كَمَا اتَّضَحَ لِنَا، كَانَتْ مَحْرُومَةً مِنَ الْحَضَارَةِ وَالْمَدِينَةِ وَالْعُمَرَانِ وَالْخَصْبَةِ
فَكَانَتِ الْقَبَائِلُ الْبَدوِيَّةُ يَنْتَقِلُونَ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ فِي الْبَحْثِ عَنِ الْمَيَاهِ مِثْلُ تَحْوُلِ
الْمَوَاسِمِ وَأَمَّا مَعَاشُهُمْ فَهُوَ كَانَ إِمَّا رَعِيَ الْإِبْلُ أَوَ الصَّيْدُ أَوَ السَّلْبُ وَالنَّهَبُ فَكَانَتْ هَذِهِ
الْمَنْطَقَةُ تَعْانِي خَاصَّةً مِنْ قَضَيْتَيْنِ حِينَ وَرَدَهَا إِبْرَاهِيمُ أَوْلَاهُمَا الْأَمْنَ وَالْأُخْرَى الْغَذَاءِ.
فَدَعَا إِبْرَاهِيمُ لِهَذِينِ الشَّيْتَيْنِ فَقَبُولُ هَذَا الدُّعَاء مِنَ اللَّهِ وَظُهُورُ بَرَكَاتِهِ لِهَذِهِ إِبْرَاهِيمَ
وَأَهْلِي هَذِهِ الْمَنْطَقَةِ ثَابَتْ قَطْعًا مِنَ التَّارِيخِ بِحِيثُ لَا يَنْكُرُهُ أَلَّا عَدُوُّ لِلْإِسْلَامِ
وَالْمُسْلِمِينَ، وَمَا يَعْجَبُنَا أَنَّ اللَّهَ قَدْ وَهَبَ هَذِينِ الشَّيْتَيْنِ بِوَاسْطَةِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ فَلَمْ
يَحْتَاجُوا إِلَى دَافِعٍ آخَرَ لِلتَّحْطِيَّةِ مِنْ هَذِهِ النَّعْمَ فَمَا عَبَرَ بِهِ الْقُرْآنُ عَنْ هَذَا الْبَيْتِ مِنْ
كُونِهِ "مَبَارَكًا" يَظْهُرُ فِي هَذِهِ النَّعْمَ كَذَلِكَ.
وَالآنَ تَعَالَ نَرَتِلُكَ الصُّورَ الَّتِي ظَهَرَ فِيهَا دُعَاءُ إِبْرَاهِيمَ هَذَا لِأَهْلِي هَذِهِ الْمَنْطَقَةِ.

أَوْلَاهَا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَحْرِمْ بَيْتَ اللَّهِ بِلِ الْأَرْضِ الَّتِي يَقْعُدُ فِيهَا فَالْقَتَالُ فِيهَا حَرَمٌ
الْحَمْلَةُ عَلَى أَحَدٍ، وَقَتْلُهُ فَمَنْ دَخَلَهَا فَقَدْ دَخَلَ حَمَلَةَ اللَّهِ فَلَمْ يَسْعُ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَعرَّضَ
لَهُ وَأَمَّا خَارِجُ حَدُودِهَا فَكَلِهُ خَطَرُ الْأَرْضِ دَاخِلُ حَدُودِ بَيْتِ اللَّهِ أَمْنٌ كَلِهَا حَتَّى حَرَمٌ
أَذْيَ حَيْوانُ أَوْ طَيْرُ فَخَاطَبَ اللَّهُ الْقَرِيشِيُّونَ مُشَبِّهِ إِلَى هَذَا الْإِحْسَانِ بِهَذِهِ الْكَلْمَاتِ "أَوْ لَمْ
يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَحَكَّمُ أَنَّاسٌ مِنْ حَوْلِهِمْ" (سُورَةُ الْعَنكِبُوتِ: 67).
وَآخِرُهَا إِنَّهُ حَرَمٌ أَرْبِعَةُ أَشْهُرٍ لِزِيَارَةِ هَذَا الْبَيْتِ وَحْجَّهُ فَقَدْ مَنَعَ الْقَتَالَ وَإِهْرَاقَ الدَّمَاءِ
فِيهَا وَنَظَرًا إِلَى حِرْمَتِهَا تَلَكَ فَيَغْمُدُ أَشَرَّ النَّاسِ سِيَوفَهُمْ وَتَبَدَّلُ أَشَرُّ مَنْطَقَةٍ وَأَخْطَرُهَا
إِلَى مَنْطَقَةٍ آمِنَةٍ لِكَيْ يَأْتِيَ النَّاسُ إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ لِأَدْاءِ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةِ ثُمَّ لِيَرْجِعُوا إِلَى
بَيْوَتِهِمْ آمِنِينَ.

وَثَالِثُهَا أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَمِنَ هَذَا الْبَيْتَ مِنْ أَخْطَارِ الْأَعْدَاءِ الْخَارِجِيِّينَ وَحَمَاهُ مِنْهَا فَيَشَهِدُ
تَارِيخُ هَذَا الْبَيْتِ أَنَّ الْأَعْدَاءِ الْخَارِجِيِّينَ لَمْ يَجْتَرُوا أَوْلَى عَلَى شَنَّ الْغَارَةِ عَلَيْهِ وَإِنْ هُمْوَهَا

مجلة الهند

فقد خيّبهم ورجع لهم عذاباً نكالاً وما عانى به جنود أبرهة من العذاب النكال
قد صانه القرآن في سورة الفيل.

وكذا فتحت بركة هذا البيت أبواباً لرغدة العيش لأهالي هذه الأرض ونريد أن نشير،
فيما يلي، إلى بعض جوانب هذه البركة:

أولها أن الناس قد توجّهوا نحوها بما أنها تقررت مركزاً للحج فكلما انتشرت دعوة
إبراهيم توجّه الناس من كل فج عميق نحوها أفواجاً وهكذا فقد راجت التجارة فيهم
وجعلت أمتعة كل نوع تصل إلى أسواق مكة كما جعل يصدر منها ما كان ينتج فيها،
وقد كان المعاش في هذه الديار مبنياً، كما ذكرنا آنفاً، على رعي الإبل أو الصيد أو
السلب والنهب ولكنه الآن قد كثر من كل نوع من الرزق والثمرة بما مهد سبيل التجارة
وبالتالي فقد وقع تغيير جميل في معيشة الناس.

وثانها: وبفضل تولية أمور الكعبة نالت ذرية إسماعيل من العزة والكرامة ما أعطاهم
سيادة دينية وسياسية على العرب كلهم، وبالتالي فقد بدأت ترحل قواقلهم التجارية
إلى الشام واليمن وتعود منهما بدون مخافة بل يدل التاريخ على أن الطرق التي كانت تمرّ
منها قواقلهم كانت تعطيم القبائل التي تسكن عليها ضمائراً وكفالة لحفظهم وصيانتهم.

فقد طلب منهم القرآن محياً إلى أسفارهم التجارية تلك في سورة الإياء فقال
"فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَأَمَّنَهُمْ مِنْ حَوْفٍ ۝" (سورة
قريش: 43) وذلك لأن هذا كان من بركة ذاك البيت أنهم تمعنوا من الأمان في صحراء
غير ذات زرع مليئة بالمخاطر ومهدت لهم السبيل لرخاء العيش.

وتتضح جوانب البحث هذه اتضاحاً تاماً إلا أن هناك أمراً يمكن أن يخل ببعض
الأذهان وهو أن الدعاء الذي قام به إبراهيم لأولاده كان يختص بالثمرات فقط،
ودعاء أحد لرزق أولاده وهم في الصحراء أمر فطري ولكن يصعب هنا أن إبراهيم
خصّ هذا الدعاء بالثمرات ويرى الذوق أن يعمم إبراهيم دعاءه ويترك الأمر لربه تعالى
ولا يجمل برسول أن يشترط دعاءه بشيء ما فيبدو من الأدعية التي قام بها الأنبياء
الآخرون وحتى إبراهيم ذاته أن الداعي قد اجتنب مثل هذا الشرط في الدعاء.

مجلة الهند

وهذا الخلل، عندي، قد وقع في أذهان الناس بما أنهم يرون أن معنى الثمرات هو الفواكه فحسب والحال أن الثمرات لا تعني الفواكه فحسب بل هي تشمل كل صنف من الأغذية فالكلمة العربية التي تختص بالثمرات هي الفواكه فكلمة الثمرات في معناها العام الذي ذكرناه هنا، وفي مثل هذه المواقع ذكر القرآن نتيجة دعاء إبراهيم فقال "أَوْلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَاماً ءَامَنَا بِجَنَّى إِلَيْهِ شَمَرْتُ كُلِّ شَيْءٍ" (سورة القصص: 57) فالثمرات هنا ليست للفواكه فقط.

وقد ذكرنا فيما سبق أن الأرض التي أسكن فيها إبراهيم إسماعيل كانت غير مسكونة ولا ذات زرع، وقد استخدم لها التوراة كلمة "صحراء" كما عبر عنها إبراهيم بـ"غير ذات زرع" وكذا يبدو من التوراة أن إسماعيل كان يقضي حياته على الرعي والصيد ولذلك فهو كان يقضي معظم أوقاته خارج داره، وهذا من البديهي أنه لما كانت حياة المرء مبنية على الرعي والصيد فلن يمكن أن تكون تلك الحياة مطمئنة وهادئة وذات قرار، الحياة التي كانت ضرورية لأداء واجبات تولية بيت الله وإتمام تلك البعثة، الأمر الذي فوضه إبراهيم إلى إسماعيل وعلى هذا فقد دعا له إبراهيم أن يوفق الله هدوءاً واطمئناناً حضريًا بدلاً من فوضى وقلق البداوة لكي يخدم هذا المركز الدولي للتوحيد وعبادة الله بكل اطمئنان وسكينة، الخدمة التي فوضت إليه. قد نقل دعاء إبراهيم هذا في سورة إبراهيم أيضًا وفيها يزيد عدد بعض الكلمات، الأمر الذي يضفي الواقع الذي أشرنا إليه آنفًا فقال تعالى:

"رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي رَزْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمَ رَبَّنَا لِيَقِيمُوا الْصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوَى إِلَيْهِمْ وَأَرْزُقْهُمْ مِنَ الْثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٤٣﴾" (سورة إبراهيم: 43)

وإن تمعن النظر في كلمات هذا الدعاء فتجد أن إبراهيم قد طلب لإسماعيل وذرته شيئاً فوضى في حق ذلك الطلب شيئاً. أما الطلب الذي قدّمه فهو أن تميل قلوب الناس إليهم وارزقهم من الثمرات كما وصى لهم أن هذه الأرض غير ذات زرع ولكني أسكت ذريتي هنا مجرد أن يخدموا بيتك المحرم ويقيموا الصلاة للدعوة إلى عبادتك فتفتّح أنه لما يوجه رزق الثمرات بأهلاً أرض غير ذات زرع فلا يكون غرضه من

مجلة الهند

الثمرات مجرد الفواكه بل غرضه هو أن يتمتعوا من اطمئنان الحضارة وهدوئها بدلاً من فوضى وقلق البداوة لكي يخدموا البيت المحرّم والدين الحق أكثر فأكثر فما قيل في نهاية الآية بـ "لعلهم يشكرون" فهو أيضاً لا يخلو من فائدة عظيمة أي إذا طلبت لهم حياة مليئة بالهدوء والاطمئنان (Settled Life) فلا أريد بها توفير أسباب الرفاهية لهم بل لكي يلتقطوا إلى بعثتهم ويسكروك أكثر فأكثر.

من آمن منهم بالله واليوم الآخر --- إلخ: والدعاء الذي قدّمه للرزق اشترط فيه أن يستحقه من يؤمن بالله واليوم الآخر، ولا شك أن إبراهيم قد ذكر هذا الحذر على أنه قد استلم الرد حين السؤال عن الإمامة والسيادة أن لا يستحق هذا المنصب من هو مشرك وكافر فنظرًا لهذا قيد إبراهيم دعاءه بأنه يطلب هذا للمؤمنين فحسب. ومن هنا نقدر درجة الإسلام والرضا التي تولّها إبراهيم فإن فطن لشيء فيه رضا الله توجه نحوه ولو أن ما فطن له كان هدفه شيئاً آخر.

وهنا أوضح الله تعالى أن لا نقيس شؤون الإمامة والخلافة على شؤون معيشة الدنيا وبالعكس ولكن هذا لا يعني أن كفران نعمتهم هذا يسبب حرمانهم من النعم فيرزق الله كل من ولد في هذه الدنيا لأجل مسمى إلا من يكفر نعمه فهو خالد في النار، والسنة التي اختارها الله تعالى في هذا الشأن قد ذكرها في القرآن فنكتفي هنا بالإشارة.

وإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقُوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلَ مِنَا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ^{١٦٧}

القواعد جمع قاعدة وهي تعني البناء والأساس وفي الآية السالفة أمر بناء هذا البيت والآن يتم تذكير الدعاء الذي قدّمه إبراهيم وإسماعيل أمام ربّهما الجليل خلال بناء هذا البيت والأ Kami والآمال التي عقداها معه والفيض العظيم الذي دعوا الله لتتدفقه في المستقبل. ولم نجد هذا الجزء من سيرة إبراهيم إلا عن طريق القرآن ولذلك فقد قام اليهود، كما ذكرناه، إما بحذف هذا الجزء أم بالتحريف فيه حسب هواهم ولكن هذا جزء لازم من سيرته، تبدو سيرته غير تامة بدونه فأنعم الله القرآن علينا بأن سدّ هذا النقص.

رَبَّنَا تَقَبَّلَ مِنَا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ: هذه الفقرة يمكن أن تعني أن البيت الذي نبنيه لعبادتك تقبله منا وتقبل خدمتنا هذه كما يمكن أن تعني أننا نقدم إليك بعض الطلبات

مجلة الهند

أثناء بناء بيتك المحرّم تقبل هذه الطلبات منا، إني أرجح المعنى الآخر لأن هذه الفقرة تصير، أولاً، مدخلاً للدعاء كله الذي يلتحقها وثانياً أنه كما يتعلّق ببناء الكعبة فكان يعمله إبراهيم وإسماعيل امثلاً بأمر الله تعالى، الذي قد مضى آنفًا فقبول هذه الخدمة كان معلوّماً من قبل، وكذا أحيل إلى صفتين اثنتين لله تعالى في "إنك أنت السميع العليم"، الصفتين اللتين يتكل عليهما العبد ويذعن الله سبحانه وتعالى وما يطويه من الحصر إظهاراً للإسلام الكامل والاتصال التام من قبل من يبسط يديه للدعاء.

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتَنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ
أَنْتَ الْوَّابُ الرَّحِيمُ

وتكرار "ربنا" من خلال الدعاء وإحالة الصفات الإلهية الموافقة لمحتوى الدعاء جزء من آداب الدعاء وبه يتأل الدعاء القبول من رب، والدعاء المذكور هنا مثال جيد لاستخدام هذين الأدبين الحكيمين.

أول ما دعا به الوالد والولد كلاهما هو جعلهما مسلمين و"المسلم" يعني مطيناً كاملاً لله تعالى فتبعد عنه حقائق عديدة منها أن يجعل المرأة نفسه أولاً من خلال أدعية الإيمان والإسلام وطلب الخشية والتقوى فإنها مما لا يستغنى عنه أحد منا ولو على درجته ومنزلته، وأن لا حدّاً تهائياً لدرجات الإسلام فكان يدعو الكاملين في الإسلام أمثال إبراهيم وإسماعيل لجعلهما مسلمين، وأن إبراهيم وإسماعيل لم يدعوا لجعلهما يهوديين ولا نصاريين بل دعوا لجعلهما مسلمين حين بدء بناء مركز بعثهما وهذا ما يدل عليه نظم الكلام ويتصل بهذا الموضع خاصة.

وَمِنْ ذُرِّيَّتَنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ؛ وبعد جعلهما مسلمين دعوا بعثة أمة مسلمة من بين ذريتهما وبما أنه لم يحضر هذا الدعاء من بين ذرية إبراهيم سوى إسماعيل فهذا يعني صريحاً أن هذا الدعاء كان مختصاً بذرته فقد بعث من بين ذريته محمد، ﷺ، وبفضل دعوته برت أمة مسلمة قدم لها هذا الدعاء. ولو أن هذه الأشياء قد محبت من التوراة ولكن هذه النبوة توجد بالنسبة للولد الذبيح أن "ويبارك في نسلك جميع أمم الأرض".

وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا: "أرنا" فعل الأمر من الإرادة أي دلنا. والله يهدي عباده إلى دينه وشرعاته بنوع من الوحي الذي نسميه "القرآن الكريم" كما يرسل ملوكاً من

مجلة الهند

ملائكته في رؤيا المرء أو الكشف فيريه ما هو المراد، وهذا النوع من الوجي يسميه القرآن بـ"إراعة" فالأنبياء الذين بعثوا قبل النبي ﷺ قد أوحى الله إليهم، في معظم الأحيان، عن طريق الإراعة أي إما كان الله يرهم في الرؤيا ما هو المراد أو يظهر لهم ملك فيدلّهم على ما هو المطلوب ولذلك أمثلة كثيرة في التوراة وإلى هذه الإراعة قد أشار إبراهيم وإسماعيل في دعائهما.

مناسك جمع منسك وهو من النسك الذي يعني أصلاً غسل الشيء وتطهيره فيقال نسك الثوب ينسكه نسكاً: غسله وطهّره ومنه النسك الذي يعني الأضحية فالاضاحي تطهّر العباد عن دنس الإثم وتقرّبهم منه تعالى ومنه المنسك الذي يعني طريقة الذبح والمذبح كلّهما وجمعه مناسك وهي تحوي كافة أساليب وتقالييد الحج فقال تعالى "فَإِذَا قَضَيْتُم مَنَسِكَكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ" (سورة البقرة: 200).

وتب علينا: التوبة تعني الرجوع إلى شيء والالتفات إليه وعندما تأتي لها صلة "إلى" فهي تدل، كما بيناها حين توضيح الآية 37، على معنى الرحمة وقد أشار إلى هذا المدلول بالفقرة "إنك أنت التواب الرحيم" فلما يرجع العبد إلى ربه خاشعاً فيقبل إليه رب الرحيم برحمته الواسعة.

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَشْلُوْ عَلَيْهِمْ ءَايَتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَبَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيْهِمْ
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾

"وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ" أي من ذريتنا وبما أنه لم يرافق إبراهيم سوى إسماعيل بهذه المناسبة وهو الذي كان يتم إسكانه بواد غير ذي زرع فيتعلق هذا الدعاء مع ذريته ولا غير وهو لا يمت بصلة إلى ذرية إسحاق عليه السلام وكذا يبدو من كلمات التوراة أن النبي الخاتم كان سيعث في بني إسماعيل فقد جاء في نبوة موسى المذكورة في الباب الثامن عشر للثنينية "أقيم لهمنبياً من وسط أخوتهم مثالك وأجعل كلامي في فمه فيكلّهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع كلامي الذي يتكلّم به باسمي أنا أطالبه". فهذه الكلمات تصرح عن أن المراد منهم بنو إسماعيل وإن كان المراد منهم بنو إسماعيل لقال "منهم" بدلاً من "من بين إخوتهم"

مجلة الهند

وكذا يكون "من بينك" بدلاً من "من بين إخوتك" فيبدو من هذا أن المبعوث الذي بشر به كان رسولاً، ونفس الكلمة جاءت في دعاء القرآن المذكور أعلاه وسنوضح الفرق بين النبي والرسول في موقع يناسبنا.

والرسول الذي دعي لبعثته ذكرت له ثلاثة أهداف أولها تلاوة الآيات، وثانيها تعليم الكتاب والحكمة، وثالثها التزكية.

الآية هي التي يستدلّ بها على شيء ومن هنا كل ما في السماوات والأرض آية وذلك لأن كل شيء فيما دليل على قدرة الله وحكمته، ومختلف صفاته للخلق والتنظيم، وكذا من الآيات تلك المعجزات التي برزت على أيدي الأنبياء لأنها أيضاً تدلّ على صدق مقدمها، وكذا استخدمت هذه الكلمة لكل جملة قرآنية على حدة وذلك لأن كل آية منها دليل وبرهان نعلم به صفات الله وأحكامه وما يرضيه تعالى.

وكلمات "يتلو عليهم" تبدي هذا التوكيد وال الخيار اللذين يتسلح بهما رسول من الله فيبعث على الأرض ولنعلم أن الرسول لا يكون قارئاً له صوت حلو يتلو آيات كتاب الله بل هو سفير لله لدى الناس فيخبرهم بأحكام ودلائل خالق ومالك السماء والأرض وكذا كلمة الآية للوحي الرياني تكشف عن الواقع بأن دين الله لا يبني على التحكم والجبر بل هو ينحصر كله في الدلائل والبراهين وكل فقرة منه تطوي دليلاً عليها.

والآن لنتفَّغر على كلمات "تعليم الكتاب والحكمة"، وهذا بديهي أن التعليم شيء يختلف عن التلاوة تماماً فالتلاوة الآيات هي أن الرسول قد أخبر الناس بأن الله قد أوحى إليه وأما فهو أن يوضح مشاكل رجال كل مستوى برحمة وشفقة، ويشرح مجاملاتها، ويكشف عما يختفي فيها ويشرح ما أضمر فيه، وإن ثارت أسئلة في أذهان الناس بعد هذا الشرح فيرد عليهم وفوق ذلك أن يطرح الأسئلة للتربية أذهانهم ويحاول أن يسأل عنهم الردود عليها لكي ينشأ فيهم القابلية للت弟兄 والتفكير في كتاب الله وفي القضايا الراهنة. هذه الأشياء كلها من لوازم التعليم وكل من درس سيرة النبي الأمي لا يخفى عليه أنه قد استخدم هذه الطرق كلها لتربية صحابته رضي الله عنهم.

وقد ذكر مع التعليم أمرين آخرين وهما الكتاب والحكمة.

مجلة الهند

فالبديهي أن المراد من الكتاب هو القرآن الكريم وقد قمنا بتحقيق هذه الكلمة حين تفسير الآية الثانية لهذه السورة وأما كلمة "الحكمة" فننقل فيما يلي ما قام به الإمام الفراهي من تحقيقه:

"--- وأما الحكمة فهي اسم للقوة التي منها ينشأ القضاء بالحق. قال تعالى في نعت داؤد: "آتيناه الحكمة وفصل الخطاب" فذكر الأثر بعد القوة التي هي مصدر ذلك الأثر وكما أن القول الفصل من آثار الحكمة فكذلك طهارة الخلق وحسن الأدب من آثارها ولذلك كانت العرب تطلق اسم الحكمة على قوة جامعه لرزانة العقل والرأي وشرفه الخلق الناشئة منها فسموا الرجل العاقل المهدب حكيماً وكذلك يطلقون اسم الحكمة على فصل الخطاب وهو القول الحق الواضح عند العقل و القلب --"¹ وذكر الحكمة هنا بالكتاب دليل على أن تعليم الحكمة شيء زائد على تعليم الكتاب ولو أنها مأخوذة من القرآن بإسره ولذا فمن يريد بها الحديث فنقيم لهم وزناً، ولنلاحظ هنا أنه بما أن الحكمة قول حكيم كما هي القابلية للفظ القول الحكيم فكما أن تعليم الحكمة يحوي إخبار الناس بأقوال حكيمه فكذلك هو يحوي إنشاء الصفة والقابلية للحكمة في الناس.

والهدف الثالث المذكور لبعثة الرسول هو التزكية وهي تشتمل على معنيين أحدهما التطهير وآخرهما التنمية وعندنا يتلازم الأمران فالشيء الذي يخلو مما يعارضه ويعرقه سبيله فهو ليئمون طبق حداراته الفطرية. فما يقوم به الأنبياء من تزكية النفوس البشرية يشملها هذا الأمران فهم كما يطهرون قلوب الناس وأعمالهم وخلقهم من المفاسد فينمون أعمالهم وأخلاقهم ثم ينشأون فيهم الصمود الثابت وقوة إثبات الاستقامة ضد المساوى والعرقل في سبيل الحق وعلى هذا فتزكية النفوس، مقابل تعليم الكتاب، تتطلب الدقة والجهد، الصبر والممارسة فقد ذكرها القرآن كهدف وغرض للدين كله والشريعة كلها. وسنقوم بتوضيح هذا الأمر في موقع يناسبنا.

وفي نهاية الآية أحيل إلى صفاتي الله: العزيز والحكيم فالعزيز يعني المنبع والمسيطر أي الذي يحكم على هذا الكون بكل قوة وخيار وأما الحكيم فهو يعني الذي يتصرف كل

¹ مفردات القرآن، ص 34-35

مجلة الهند

عمل له بالحكمة والمصلحة والهدف وقد أحيل إلى صفي الله تينك جنباً بجنب وهذا يشير إلى أن الله يحكم على هذا الكون بكل قوة وخيار ولكنه لا يسيئ استخدام قوته وخياره بل كل ما يفصل هو يعني فيه بالحكمة والمصلحة فلا يخلو أي عمل منه عن الحكمة والمصلحة.

والهدف وراء إحالة هاتين الصفتين هو أن الله الذي هو عزيز وحكيم فعزته وحكمته تلزم أن يرسل في مملكته التي خلقها هو رسولًا منه يخبر شعبه بأحكامه ويعلم شريعته وحكمته.

وَمَنْ يَرْغُبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْتَهُ فِي الدُّنْيَاٌ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٦﴾

عندما تأتي "رغبة" بصلة "عن" فهي تعني التنفر عن شيء والاستعراض عنه. و"سفه" تأتي لازمة في معظم الأحيان ولكنها في بعض الأحيان تأتي متعددة مثل "سفه نفسه" أي أفسد نصيبه و"سفه رأيه" أي اختار رأياً ملؤه الحمق وكذا "سفه نفسه" يعني أنه سبب نفسه في السقوط في الحماقة.

هذا الأسلوب يجمع بين الاستعجاب والتأسف والإشارة فيه إلى اليهود فالمعنى أنهم يدعون بكونهم أتباعاً لللة إبراهيم بل يزعمون أنفسهم هم المتعبدين لها، هذا في جانب وفي جانب آخر أنهم يتصرفون عن دعوة الرسول الذي بعث داعياً لللة إبراهيم ويعتبرون من يجرب على هذه الدعوة حمقاء وسفهاء وهل حماقة وسفاهة أشد وأشنع مما هم يفعلون؟

ولقد اصطفينا في الدنيا: هذه إشارة إلى ذلك الاصطفاء الذي وفقها الله له لسيادة وإماماً أقواماً في العالم والتي قد جاء ذكرها في الآية السابقة (124)، ومعناها أن الذي اختاره الله لإماماً الناس كلهم لا يرضى عن اتباع ملته إلا من هو سفيه أبله. واستخدمت كلمة "الصالحين" في القرآن لعامة الصالحة كما استخدمت للطائفة التي يضم إليها الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون، وقد استخدمت هذه الكلمة هنا للمعنى الأخير.

إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ وَأَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمَتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٦﴾

مجلة الهند

الإسلام يعني تفويض المرء ذاته إلى مرضاعة الله وأحكامه وهنا أشير به، عندنا، إلى ذبح الولد، ولو أن كافة الاختبارات التي نجح فيها كانت لامتحان إسلامه كأن كل اختبار قد واجهه طلب منه "أسلم" ولكن الأمر بذبح إسماعيل الذي اصطفى فيه للإمامية بعدما نجح فيه كان يطلب منه نموذجاً للتوفيق التام لا يمكن أن يعبر عنه بكلمة سوى "أسلم" وقد استخدمت هذه الكلمة للإشارة إلى واقعة الذبح في الموضع الأخرى للقرآن فمثلاً قال تعالى "فَلَمَّا أَسْلَمَ وَتَلَّهُ لِلْجَبَّينِ" (سورة الصافات: 103).

وبالإشارة إلى هذا الحدث بكلمة الإسلام قد كشف القرآن عن حقائق عديدة أولها أنما وفقه الله إبراهيم من الاصطفاء في الدنيا والآخرة هو جزاء لتضحياته، كما أشير إليها في الآية 124، التي قدمها في سبيل إرضاء الرب جل سبحانه فلم يتمتع من هذه العظمة مجاناً كما يود اليهود أن ينالوها. وثانيتها أن إبراهيم أمر بأن يسلم وبالتالي فهو أظهر بقوله وعمله ما أمر به لا اليهودية والنصرانية كما يزعمها اليهود والنصارى. وثالثتها أن روح الإسلام الأصلية هي تفويض المرء ذاته للرب تعالى حتى لا يكون أعزّ شيء وأحبيه، أعزّ من الله وأحبّ منه لدى العبد.

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَيْنَىٰ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَنِي لَكُمُ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ^(١٢)

التوصية تعني التعليم والتلقين سواء يقوم بها المرء حين موته أو في أي مرحلة من مراحل حياته.

والضمير في "بها" ترجع إلى ملة الإسلام التي جاء ذكرها في الآية السابقة بـ"ملة إبراهيم". ولو أن وصية إبراهيم هذه لا توجد في أي موضع من صحف اليهود ولكن من البديهي أن الأنبياء والرسل قد سنوا طريق النصح والتوصية في أمر الدين. أما أولادهم وذرياتهم وقد نقلت مثل هذه الوصايا والنصائح من أكبر عشائر وأسربني إسرائيل وإسماعيل حتى نجد في التلمود وصية ليعقوب تشبه بما ذكره القرآن من الوصية ولقد تقام مثل هذه التقاليد على أيدي أكبر العشائر والأسر فهذا من المتيقن أن إبراهيم قد خلف هذه السنة للمتأخرین وأما القول بأنه قد أوصى ذريته بملة الإسلام فهذا واضح إلى حد لا يحتاج إلى دليل آخر فيتضح مما ذكر

مجلة الهند

من قصة حياته أن الملة التي عرفها، ودعا إليها، وأظهرها عن تصحياته العظمى فكيف له أن يعرض عن تلك الملة فيوصي أولاده باليهودية والنصرانية اللتين لم يعرفهما من قبل.

وقد جاء ذكر يعقوب مع إبراهيم هنا لأن بني إسرائيل كانوا من ذريته مباشرة والمعنى أنه قد جاءت الوصية بملة الإسلام أباً عن جد حتى ثلث سلاسل من إبراهيم فلم يتنقل شيء عن اليهودية ولا النصرانية فمن يدعى بملة إبراهيم فليتبع الإسلام لا اليهودية والنصرانية.

المراد بالدين هو الدين الحقيقي الذي استمر منذ البداية دين الله وهو الإسلام فقال في موضع آخر "إن الدين عند الله الإسلام" (سورة آل عمران: 19) وقال في موضع آخر "أَفَغَيْرِ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يَرْجِعُونَ" (سورة آل عمران: 83) وهذا هو دين الله وهو الذي أرسله الله تعالى عن طريق أنبيائه ورسله كل مرة وقد أوصى إبراهيم ويعقوب أولادهما بأن يتبعوه ويحيوا عليه وثم يموتو ولكن بني إسرائيل قد قاموا بالتحريف فيه وغيروا شكله وأقاموا مقامه فتنة اليهودية والنصرانية.

ويتضمن قوله تعالى "فلا تموتون إلا وأنتم مسلمون" أن أمانة هذا الدين كبرى وعليكم أن يؤذوها من الولادة إلى الوفاة فستأتي في سبيلها عراقب منيعة وعليكم أن تصعدوا لها بكل ثبات واستقامة فاحذروا أن لا يضللكم الشيطان في مرحلة من مراحل حياتكم فعليكم أن تحببوا لها وتموتوا عليها.

أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءً إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِيٍّ قَالُوا نَعْبُدُ
إِلَهَكَ وَإِلَهَ أَبَابِيكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهَنَا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٢٣﴾

وهذا الأسلوب الاستفساري قد اختير لتبنية المخاطب وجعل الخطاب أكثر تأثيراً ومعنى ذلك أنكم تدعون أن آباءكم كانوا يتبعون اليهودية والنصرانية فهل كنتم شهداء حين موت يعقوب ودعا أولاده للوصية وأي شيء أخذ وعد معهم وعد التوحيد والإسلام أم اليهودية والنصرانية؟ وبعد هذا السؤال نقل القرآن سؤال يعقوب الموجه إلى أولاده وردتهم عليه الذي يصح عن التوحيد والإسلام، والرواية

مجلة الهند

التي توجد في أدب اليهود الديني عن هذه الوصية كلماتها تؤيد ما يدعي القرآن لا ما يتقوله بنو إسرائيل ولو أنها مختلفة عن القرآن اختلافاً ما، فهذه الكلمات لا تمت إلى اليهودية أو إلى النصرانية بصلة¹.

ولنلاحظ هنا أن القرآن قد خص من بين الوصايا حين الموت وصية يعقوب التي تهدف إلى الإشارة إلى أمور عديدة أولها أن يعقوب عليه السلام قد أخذ هذا الميثاق من أولاده حين بلغ أجله المسمى فلا مجال للخيال بأنه قد وقع أي تغيير في مذهبة، وثانيها أن الميثاق الذي يأخذنه أب كريم رحيم وهو رسول من الله، يأخذه من أولاده حين يرى الموت قائماً أمامه ويكون أهم حدث بينه وبين أولاده، وهذا أكبر وأهم واجب للأولاد البارزة أن يوفوا بذلك العهد في أصعب وضع وأسهله فلا يخالف هذا الميثاق إلا الخلف منهم، وثالثها أن آخر واجب لوالد يخاف الله ويحب أولاده أن يفكّر في آخرتهم في حياته وحين موته ويلقّنهم على الاستقامة على الدين الحق، والحياة والمماة على ذاك الدين. وباستخدام "ما" في سؤاله "ما تعبدون من بعدي" قد وسع يعقوب عليه السلام لكي يظهر ما يختفي في ذهن المجيب من تذبذب بشأن الإله ولكن بيده من ردّ أولاده عليه أن أذهانهم كانت خالية عن أي نوع من التذبذب بشأن الإله فقد أقرّوا بتوحيد الإله بكلمات صريحة واعتبره حريّا بالعبادة والطاعة.

وكذا يجدر بالذكر في هذه الآية أن الشعور بالفخر والثقة الموجود في اعتراف أولاد يعقوب بأن إبراهيم وإسحاق من آباءهم يوجد نفس الشعور بالفخر والثقة في إشارتهم إلى إسماعيل عليه السلام، الأمر الذي يثبت أن أولاد يعقوب لم تأت فهم

¹ وقد نقل كبارنا الشيخ عبد الماجد الدربيابادي مثالين عن أدب اليهود الديني أولهما من وصية إسحاق والآخر من وصية يعقوب وهما كما يلي:

"فلما أحس إسحاق أن أجله قد آن فدعا ولديه إليه وقال إنني أشدكم بما بالله الذي هو الأعلى والعظيم والقيوم والعزيز والذي هو خالق السماوات والأرض وما بينهما أن لا تخافوا إلا إياه ولا تعدوا إلا إياه". (قصص اليهود لكتز برغ، 416/1)

"قال يعقوب لأولاده إني أخاف من أحدكم أن يميل إلى الوثنية فرد عليه الاثنا عشر ولدًا له: استمع يا إسرائيل، يا أبي! إن إلينا هو الإله الأزلي فكما تؤمن بإله واحد فكذلك نؤمن بإله واحد ولا غير". (قصص اليهود لكتز برغ، 141/2)

مجلة الهند

العصبية ضد إسماعيل وذرته حتى عصر يعقوب نفسه، إنما هذه من نتائج عصر ما بعد موت يعقوب عليه السلام.

يَلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَقْتَ لَهَا مَا كَسَبْتُمْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا سُلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(٢٧)
جاءت هذه الآية مرتين في هذه السلسلة الكلامية فأولاً جاءت هنا ثم في نهاية هذا الجزء حيث تنتهي هذه السلسلة، والسبب وراء ذلك أن هذه هي خلاصة البحث التي ي يريد القرآن أن يقدمها أمام المخاطبين في يريد بها القول إن فخركم وثقتكم كلها قد بقيا بأيائكم فترغبون أنتم قد أذوا فرائضكم فلم يبق لكم سوى التمتع مما سلفوه من الخيرات فلم يبق أي واجب على أكتافكم فهذا الفخر وتلك الثقة يبنيان على الزعم والظن فقد أذوا ما كان واجباً عليهم ثم رجعوا إلى ربهم فهم يتمتعون من حسناتهم فلا خلاق لكم منها فعليكم واجباتكم فإن تؤذنها حقاً فستمتعون من ثوابها وإنما فستواجهون عاقبتها السيئة فلا تسئلون عند الله عن أعمال آياتكم بل عليكم أن تجيبوا بما قدّمتموه من الأعمال.

وَقَالُوا كُنُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَةُ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ^(٢٨)
وقد بيننا خلال تفسير الآية (111) أن اليهود والنصارى قد اتحدوا ضد الإسلام وجعلوا يقولون إن من يرد الهدى والنجاة فليكن هودياً أو نصرياً فهذا دينان سماويان فالدين الجديد الذي يقدم باسم الإسلام ليس بشيء.

فرد على هذا الاعتراض بأنه "ملة إبراهيم حنيفاً" فجاءت كلمة "ملة" هنا منصوبة فلا بد من أن نقدر فعل ما فالمفسرون عامة يقدرون الفعل الماضي أي قل إني اتبعت ملة إبراهيم ولكني قدرت هنا صيغة الأمر أي قل: اتبعوا ملة إبراهيم وله وجوه منها أن الرد هنا جاء على لسان النبي "قل" فالمناسب أن يكون الفعل الأمر على لسان النبي وثانية أن مثل هذا البيان قد جاء على لسان المسلمين "قولوا آمناً" فالأنسب أن نقدر هنا الأمر وثالثاً أنه كلما يأتي بالعربية مثل الأسلوب فالمراد منه عامة حتى المخاطب على شيء أو تحذيره عن شيء، الأمر الذي يناسب صيغة الفعل الأمر.

"حنيف" من الحنف الذي يعني الميل إلى شيء والركون إليه فالحنيف هو الذي يرغب عن كل شيء في الله، وهنا جاءت هذه الكلمة حالاً من إبراهيم الذي هو مجرور وقد

مجلة الهند

تردد النحويون في وقوع الحال عن المجرور ولكن الإمام الفراهي قد أثبت بدلائل قوية أن هذا الأسلوب عام في كلام العرب.

وقد أكثر القرآن صفة "гинيف" لإبراهيم عليه السلام والسبب وراء ذلك أن كلاً من اليهود والنصارى والمشركين كانوا يعتبرونه إماماً روحانياً وكانوا يدعون أن الدين الذي يتبعونه مما ورثوه عن إبراهيم عليه السلام وقد قام القرآن بالرد على دعواهم هذه بدلائل عديدة ثم قال إن إبراهيم كان حنيفاً فلم يضل عن الصراط المستقيم، ملة الإسلام، الذي أقامه الله له فلم يركن إلى ممرات اليهود والنصارى ولا خاض في ضلالات المشركين بل ثبت دائمًا على شارع الإسلام الذي فتحه الله له والذي هو الصراط المستقيم الهادي إلى الرب تعالى.

فُلُوْا عَامَنَا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرَّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُوَ
مُسْلِمُونَ ١٣٦

وهذا رد من قبل المسلمين على دعوة اليهود والنصارى بأنكم تهدون إذا كنتم بهوًّا أو نصارى، بأن تقولوا بأننا نؤمن بالله وهداه التي نزلت علينا والتي نزلت على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأساطير منهم عن طريق الأنبياء كما نؤمن بالهدي التي أنزلت على موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء من قبل ربهم فلا نفرق بين هؤلاء الأنبياء ولا نطير إلا إياه.

هذا موقف الأمة المسلمة أو الأمة الوسط أو كلمتها عن شريعة الله وأنبيائه ورسله وهذا يعني أن هذه الأمة لا ترد على هدى أنزلها الله ولا تكذببني أو رسول بل تؤمن بكل منهم بدون أي تفريق و موقفها أن التعاليم التي أعطاها الأنبياء والرسول لأممهم إما خلطت أممهم بها ما ليس منها أو نسوا حظاً منها فالشريعة التي أعطيت لهذه الأمة تقدم هدى الله الحقة في صورتها المائية والتامة.

الأساطير جمع السبط و معناها اللغوي هو النمو والانتشار وعلى هذا المعنى قد استخدمت هذه الكلمة لأولاد أب وفروعهم المختلفة وأما استخدامها لأولاد يعقوب فهو مشهور إلى حد كأنها وضعت لهم.

مجلة الهند

"لا نفرق بين أحد منهم" تعني أننا لا نتبع اليهود والنصارى بالتفريق بين هؤلاء فنؤمن بالبعض ونکفر بالبعض وقد أوضح هذا المعنى القرآن في مكان آخر فقال "وَيُرِيدُونَ أَن يُفْرِقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ تُؤْمِنُ بِعَصْرٍ وَتَكْفُرُ بِعَصْرٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَحَذَّلُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا" (سورة النساء: 150) فبدا من هذا أن الإيمان ببعض الأنبياء والإنكار ببعضهم عبارة عن الإنكار بكلهم وليس هذا مجرد التفريق بين الأنبياء والأنبياء بل بين الله ورسوله.

فَإِنْ ءَامَنُوا بِيَثِيلٍ مَا ءَامَنُتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلُّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكُمُ اللَّهُ وَهُوَ أَلْسَمِيعُ الْعَلِيمُ

أي وإن يقبلوا هذه الكلمة الجامعة ويؤمنوا بكلة الأنبياء والهدايات مثلما آمنتكم فلا شك أنهم يهتدون فليست اليهودية ولا النصرانية مما يهديك إلى الطريق المستقيم كما يدعى اليهود والنصارى بل الطريق هو الذي اختerte أنت أي الإيمان بكلة الأنبياء والرسل بدون أي تفريق وعصبية فإن ينكرون هذا الأمر فهذا يعني بالصراحة أنهم لا يريدون إلا معارضتك فتركوا طريق الاتحاد والاجتماع وجعلوا طريقاً لهم ضد طريق الله تعالى وخلقوا حزباً لا يمت إلى حزب الله بصلة، وإن هم عزموا على ذلك فدعهم يسلكوا هذه الطريقة والله يكفي منتقماً منهم. وفي النهاية أشار إلى صفتية السميع والعليم، وأراد بذلك تسليمة النبي أنما يقومون من مؤامرة ضدك لا تخاف منها فالله يكفيك مقاتلاً ضدتهم فهو يسمع كل شيء وعلم به.

صِبْغَةُ اللَّهِ وَمَنْ أَحَسَنَ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَبِيدُونَ

خوطب في هذه الآية اليهود والنصارى ووجهت الدعوة إليهم أنهم إذا أرادوا اصطدام بصبغة الله فليتركوا اليهودية والنصرانية وليصطحبوا بصبغة الله. هذه هي الكلمة الجامعة التي مضى ذكرها سابقاً. وبجانب جمع كافة هدايات الله وكافة أنبيائه ورسله فيها إن هذه الكلمة هي التي تصبغ الحياة الإلهية الحقة فإن تريدوا اصطدام حياتهم بصبغة الله فاصططبوا بها فهل صبغة أعلى وأسمى من صبغته، وفي كلمة

مجلة الهند

"الصبغة" هذه تعريض إلى تقليد التعميد لدى اليهود والنصارى، وكذا نصب الصبغة بدون فعل مذكور هنا يدل على أن يكون هنا فعل محنوف ي ضمن الحث والتحرير.

فُلْ أَنْجَحُونَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿٢٣﴾

أي إذا لم تؤمنوا بهذه الكلمة الجامعة التي تشمل الإيمان بكل الأنبياء والرسل، والهدىات التي أنزلها الله والإقرار بعبادة الله وطاعته فهم قد أصرروا على أن يؤمنوا ببعض الأنبياء ويكرروا بالبعض، ويؤمنوا ببعض هديات الله ويكرروا بالبعض الحال أن هذه الأنبياء والرسل كلهم من بعثهم الله وكل هذه الهدىات مما أنزله الله تعالى، وهكذا فهم يجاجونك في أمر الله لأن إلهك من هو ليس باليهيم والحال أن إلهك وإلهيم واحد وربك وربهم واحد ولا غير. وإن قد بلغوا في أمر هذا المبلغ بحيث جعلوا لهم إلهًا آخر فلا ترج منهم خيرًا بل اقطع هذا الحديث والنقاش وقل لهم بصراحة أن أعمالنا معنا ولكم ما عملتم أي لا مفاد لإجراء النقاش معكم فإن لم تخلصوا في أمر الله فلا تزيد أي نقاش معكم ونقول بصراحة أننا نخلص في أمر ربنا.

أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُ أَمَّ الَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِنَ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْهُ مِنَ الَّهُ وَمَا الَّهُ بِعَنِّيْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٦﴾

هذا طلب إعادة ما أدعتم هؤلاء اليهود والنصارى في أمر إبراهيم وذراته طليها منهم مجرد إتمام الحجة أي هل أنتم تقولون هذا الأمر العجيب بأن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأساطير كانوا يهودًا أو نصارى ثم سألهم بأسلوب ملؤه التنبية بأنه هل تعرف حال دينهم وعقيدتهم أم الله؟ ثم قال بأسلوب ملؤه الحسرة والأسف هل أحد أظلم من يكتوم شهادة من الله أي التوراة التي تحوي تفاصيل دينهم وعقيدتهم وها يعلم أن اليهودية أو النصرانية ليس لها حديث يذكر في زمانهم فقد اختلقتم هذا الاسم بعدهم بقرون وقد أنزل الله دائمًا على أنبياءهم ورسلهم الدين الذي يسمى بـ"الإسلام" ثم قال بأسلوب يملؤه التهديد الشديد إن ما تقومون به من أنواع الشر ضد دين الله ليس الله بجهل عنده فستلقون عاقبته.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ حَلَّتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٧﴾

مجلة الهند

قد مضت آية تشبهها وبنفس السياق وقد قمنا بتوضيحها هناك فاقرأ تفسير الآية
(134)

49- مسؤوليات محمد ﷺ رسولًا

ولو قد قمنا بقدر ما احتج إلىه من توضيح الآية (129) لهذه المجموعة من الآيات ولكنها بما أنها تتعلق بمسؤوليات النبي مباشرة، الأمر الذي قد أثار منكروا السنة في عصرنا أسئلة عديدة تافهة فنود أن نسلط مزيد الأضواء عليها.

فيبدع المنكرون للسنة أن النبي كان مسؤولاً كبني عن أن يبلغ ما ينزل عليه الله من الوحي وهذا تنتهي مسؤوليته كرسول فلا تقع عليه بعد ذلك أي مسؤولية من الله ولا يحتل قول منه أو فعل بدون الوحي مكانة شرعية وعندنا هذه الآية تكفي دليلاً على منكري السنة هؤلاء فما فصل فيها من واجبات النبي كرسول لا ينتهي على قراءة القرآن على الناس فحسب بل هي كذلك تشمل أشياء أخرى غير هذا وكذا يبدو من هذه الآية أن هذه الأشياء أيضاً قد ذكرت هنا كواجب من واجباته المختلفة كرسول.

اقرأ الآية يقول الله تعالى:

"رَبَّنَا وَأَبْعَثْتَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتَّلَوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ
إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ" (سورة البقرة: 129)

هذه كلمات الدعاء الذي قام به إبراهيم وإسماعيل لبعثة النبي الخاتم فلما بعث النبي طبقاً لهذا الدعاء فقال الله تعالى للعرب مثيراً إلى منته هذه الكبri:

"هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتَّلَوْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيَهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ" (سورة الجمعة: 2)

تفكروا في هاتين الآيتين فيتضح لكم أن النبي المتصف بهذه الصفات الذي ذكره إبراهيم في دعائه قد بعث النبي محمد متبعاً بتلك الصفات ذاتها وقام فيما بين الأميين من الأعمال التي دعا لها إبراهيم عليه السلام.

وأما فيما يتعلق بواجبات النبي في كلا الموضعين فلا خلاف في بيانهما وإن كان شيئاً من الخلاف في الآية السابقة تأخر ذكر التزكية عن غيرها من الأمور وأما في الآية الثانية فهي جاءت قبل تعليم الكتاب والحكمة ولكن بعد تلاوة الآيات. هذا الفرق ليس بما

مجلة الهند

يعاً به وقد أوضحتنا تقديم التزكية وتأخيرها في موضع آخر¹ بأنها غاية الدين والشريعة كلها وهدف أصلي لبعثة الأنبياء والشيء الذي يكون غاية أو هدفاً لشيء فهو يقدم في الإرادة ولو يتأخر في العمل فيمكن أن يقدم ذكره في المشروع الأصلي كما يمكن أن يكون مؤخراً وعلى هذا فقد تقدمت التزكية في موضع كما تأخرت في موضع آخر. وقد اشتركت الأشياء الأخرى في الآيتين سوى هذا الفرق في الترتيب وذكر فيما ما يلي من واجبات النبي كرسول:

1. تلاوة الآيات

2. تعليم الكتاب والحكمة

3. التزكية

أما فيما يتعلق بالواجب الأول فيما بين هذه الواجبات الثلاثة فنعرف بدون أي نقاش وخلاف أن المراد منه تعليم الناس القرآن الكريم، ويشهد الدين والعقل كلها أن أول واجب لرسول هو أن يبلغ ما يوحى إليه الله إلى العباد ولكن لا ننس أن هذا لم يكن بأن يقرأ الكتاب كله على الناس مرة واحدة بل أنزل نجماً في مدة 23 سنة وعلى هذا التدرج علمه النبي الناس، وهذا دليل على أن هذا ليس بكتاب سهل غير صعب بل هو كتاب يحوي بين جنبه ما دق ولطف من العلوم والمعارف والحقائق والأسرار فوجب له أن يتم تعليمه للناس قليلاً قليلاً حتى يتمكن المرء من خزانته. وأشار إلى هذا الواقع القرآن هكذا "وَقُرْئَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأُوهُ عَلَى الْأَنَاسِ عَلَى مُكَثٍ" (الإسراء: 106)

إن خصوصية القرآن المذكورة أعلاه تتطلب أن لا ينتهي النبي على قراءة القرآن مثل القراء فقط بل يعلّم الناس مثل أستاذ بكل اجتياز وعطف وعلى هذا فقد عدّ تعليم الكتاب واجبه الآخر بعد تلاوة الآيات فمسؤوليته عن تعليم الكتاب جزء من واجبات نبوته كما أن كونه معلماً جانب من جانب واجبات رسالته فما علّم الناس من الأمور وأخبرهم بها، لا نفصله عن واجبات رسالته ولا نقل من شأنه.

فالآن تفّرّغ ما هي متطلبات هذا الواجب التعليمي؟

¹ لفهم هذه النكتة يراجع الفصل الأول لكتابي "تزكية نفس".

مجلة الهند

وأول متطلب جوهري هو أنما استخدمه القرآن من المصطلحات الشرعية مثل الصلة والزكوة والحج والصيام والطواف وال عمرة والنكاح والطلاق وغيرها لم يتم توضيح صورها العملية فوجب على النبي أن يوضحها للناس لكي يسلكونها في حياتهم العملية ويتبعن لهم درجة أجزاءها المختلفة في الدين.

والواجب الثاني أن الأصول التي ذكرها القرآن لإقامة عوج الفكر والعمل يجب على النبي أن يكشف النقاب عن الجوانب الازمة لما تلزمها تلك الأصول وما تتطلبها لكي تثبت هي منارة نور للاستضاء في هذه المجالات.

وكذا أنما ذكر في القرآن من أحكام الشريعة هي مثل أصول ومبادئ فيمكن أن يأتي تحت كل أصل ومبادئ العديد من الصور، فوّض فيها تعين الأحكام إلى هداية المعلم واجتهاده فمن البديهي أن تستهدي الأمة في سبيل اجتهادها، الأمثلة التي أقامها معلم هذا الكتاب المعصوم باجتهاده.

والواجب الرابع أن القرآن يقدم نظاماً للحياة الاجتماعية ولكنه يكتفي بمجرد أصول تعين جوانبه الأربعة ويجعل المعلم مسؤولاً عن تفاصيلها وكياتها العملي. وقد تعلمه الناس بمجرد تعليم النبي ﷺ.

وفوق ذلك أن الآية التي نحن بصدده البحث عنها لم يكتفي بها ذكر تعليم الكتاب بل تجاوز إلى تعليم الحكمة فتعليم الحكمه أوسع وأدق من تعليم الشريعة فالمراد منها، كما كتبنا خلال تحقيق هذه الكلمة، الحكمة وال بصيرة والمعرفة التي تهدي الإنسان في أبعد جوانب الحياة حيث لا يجد نوراً يستضئ به.

فالآن تفكّر هل هذه الأشياء كلها من واجبات التعليم أم لا؟ وهل كان النبي مسؤولاً عن تعليم هذه الأشياء كلها كمعلم رباني؟ فإن جاء الرد على هذه الأسئلة كلها على نحو إيجابي والبديهي أنه لا يكون إلا على نحو إيجابي فتفكروا هل يجوز أن نفصل كل ما قاله النبي و فعل باعتباره معلماً ربانياً عن نطاق واجباته النبوية والرسولية وثم كيف يمكن أن نقل من شأنه؟ ثم تفكروا هل الأحاديث تشمل شيئاً غير هذه، أخبر به النبي كمعلم لكتاب والحكمة أو عمل عليه؟

مجلة الهند

والآن تفگروا عن التزكية فالبدوي أن التزكية أدق وأوسع من التعليم وقد أوضحتنا فيما سبق أن هذه الكلمة تحتوي التطهير والتنمية كلّيما فهي علمية كما هي عملية، ظاهرية كما هي باطنية، مادية كما هي جسدية، عقلية وروحية كما هي فردية واجتماعية فلنعلم بعض متطلباتها المبدئية التي هي كما يلي:

متطلباتها الأول اللازم أن ينقب المدّي في أذهان الناس وأعمالهم وأخلاقهم فيظهرها من الجرائم التي تسبّب الأمراض الروحية والخلقية بجانب أن يبذر فيها الحسنات التي تحسن ظاهر الإنسان وباطنه وتتفّق عاداته وسجايده.

ومقتضاها الثاني أن يقوم بتربية الناس بحيث أن يرسو فيهم أصل كل حسنة وتنفر طبائعهم عن كل سلالة.

ومقتضاها الثالث أن يخلق بفضل هذا التعليم وتلك التربية جوًّا يثبت مخيّماً تربويًّا واسعًا للتزكية النفوس فمن يسكن فيه يتأثر به ومن يدخل فيه يصطبغ بصبغته.

ثبت من هذا التفصيل بطلان هذه الفكرة بأنه لم يكن واجب النبي كرسول سوى تبليغ القرآن إليهم فتبليغ القرآن كان جزءً من واجباته النبوية فبجانب هذا إنه كان مسؤولاً عن تعليم القرآن كمعلم وتوضيح ما كمن فيه وما تضمنه، وما أجمل فيه وما أشير إليه، وما خفي فيه من الأسرار والحقائق دلالتهم على خزينة حكمه البديعة، وكذا وجوب عليه أن يعيّن أصول وفروع تربية الأفراد والجماعة في ضوء الحكمة القرآنية ثم يزكي الناس على تلك الأصول.

هذه الخدمات كلها كانت مما شمله واجبات نبوته وعلى فما قاله في هذه الأهداف قد اعتبرته الأمة مما يجب عليه العمل كما اعتبرت القرآن لازماً العمل عليه وصانته بنفس الأهمية واعتنت بنقله وروايته فيمكن أن يسأل أحد عن جزء منه أن نسبته إلى النبي ثابتة بالتحقيق أم لا تثبت ولكن إنكار كونه جزءاً من الدين والشريعة عبارة عن إنكار القرآن.

(142-162) تفسير الآيات

انتهى تفصيل أسباب وعلل عزل المهدود عن منصب الإمامة على هذه المجموعة من الآيات وكأنه الآن يتم الإعلان عن قيام أمّة جديدة تقوم مقامهم وهذه هي الأمة الوسط التي تثبت على الصراط المستقيم الذي هو الشارع الإلهي العام للدين الحق

مجلة الهند

فملتها ملة إبراهيم وقبلتها قبلة إبراهيم أي بيت الله الحرام ومن واجباتها ومسؤولياتها أنه كما أن الرسول شهد لها بدين الله الحق فكذلك هي تشهد لخلق الله بالدين. حتى نزول هذه الآيات كان النبي وال المسلمين يتوجهون نحو البيت المقدس في صلواتهم ولكن الآن وجب بالنسبة للملة الإبراهيمية أن يتوجهوا نحو المسجد الحرام وعلى هذا فقد صدر الأمر بتحويل القبلة ثم ذكرت تفاصيل رد الفعل هذا الذي ظهر للمهود ولبعض طوائف المسلمين بعد هذا الحدث وثم ذكرت حكم تحويل القبلة والإرشادات الالزمة عن القبلة، التي كانت لا مناص منها للمسلمين لإقامة المسلمين على الجادة المستقيمة بشأن القبلة والتي لأجل عدم اعتمادهم بها تنفر اليهود والنصارى عن القبلة الأصلية.

ثم أخذ الميثاق مع المسلمين كأمة مستقلة، بأنكم قد تميزتم عن كونكم أمة مستقلة عن المهود والنصارى فكما رسولكم رسولكم مختلف يتصف بكافة الصفات التي دعا لها إبراهيم عليه السلام فكذلك قبلتكم قبلة إبراهيمية فلا تخافوا المهود شيئاً وخافوا الله وحده لكي تحظوا من نعمة دين الله الكامل ويمهد لك السبيل إلى الشريعة الإلهية فإن تذكروا أذركم واشكروا لي ولا تكفرون.

ثم أشار إلى الأخطر المفطون لها التي يمكن أن تبرز من قبل المعارضين بعد ظهوركم كأمة مستقلة ثم أرشدتهم إلى الاستعدادات والأسلحة الخلقية والإيمانية التي يجب على المسلمين الاتصاف بها لمواجهة تلك الأخطر.

وفي النهاية أوضح بالنسبة عن الكعبة المكرمة أن الصفا والمروة من شعائر الله كما أن الكعبة المكرمة منها فإن المروة هي المذبح الحقيقي ولكن المهود قد حاولوا أن يخفوا هذه المعالم عن طريق التحريف لكي يقطعوا علاقة إبراهيم عليه السلام عن هذه الدار وبناءً على مساوئهم تلك فيستحق المهود أن يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. وبعد هذا المدخل أقرءوا الآن ما يلي من الآيات:

"**٥٣** سَيَقُولُ الْسُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَدُوهُمْ عَنْ قِبَلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ
يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ **٥٤** وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطَا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى
النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقُبْلَةَ الَّتِي كُنْتُمْ عَلَيْهَا إِلَّا لِتَعْلَمَ مَنْ

مجلة الهند

يَبْيَعُ الرَّسُولَ مِنَ يَنْقَلِبٍ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ^(١) قَدْ نَرَى تَنَلُّبَ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ فَأَنْوَيْنَكَ
قِبْلَةَ تَرْضَهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامَ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُوا وُجُوهَكُمْ سَطَرَهُ وَإِنَّ
الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحُقْقُ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِعَنِ الْعِلْمِ يَعْنِي
الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ عَيْنٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ
بَعْضٍ وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمْنَ الظَّالِمِينَ ^(٢) الَّذِينَ
عَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحُقْقَ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ^(٣) الْحُقْقُ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونُنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ^(٤) وَلِكُلِّ وِجْهَهُ هُوَ مُوْلَيْهَا فَأَسْتَقِيُّوا
الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ^(٥) وَمَنْ حَيَّثُ
خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامَ وَإِنَّهُ لَالْحُقْقُ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِعَنِ الْعِلْمِ يَعْنِي
وَمَنْ حَيَّثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامَ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُوا وُجُوهَكُمْ
^(٦) شَطَرَهُ لِشَلَالٍ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشُوْهُمْ وَاحْشُوْنِي
وَلَا تُقْبِلُ نَعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَّكُمْ تَهَنَّدُونَ ^(٧) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيهِكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَشْلُوْعُ عَلَيْكُمْ
عَائِيَتَنَا وَبِزَكِيرَكُمْ وَيَعْلَمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيَعْلَمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ^(٨)
فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاسْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ^(٩) يَأْتِيَهَا الَّذِينَ ظَاهَرُوا أَسْتَعِيُّوا بِالصَّابِرِ
وَالصَّالِوةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ^(١٠) وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ
لَا تَشْعُرُونَ ^(١١) وَلَتَبْلُوْنَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْحُوْفِ وَالْجُouْ وَنَقْصِ مِنْ أَلْمَوْلِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمَرَاتِ
وَبِيَتِرِ الْصَّابِرِينَ ^(١٢) الَّذِينَ إِذَا أَصْبَتْهُمْ مُصِيبَةً قَالُوا إِنَّ اللَّهَ وَإِنَّ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ^(١٣) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ
صَلَواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ^(١٤) إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَابِ اللَّهِ فَمَنْ
حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ أَعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَظَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلَيْمٌ
إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيْنَتِ وَالْهَدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ
أُولَئِكَ يَأْتِيْنَهُمُ اللَّهُ وَيَأْتِيْنَهُمُ الْلَّعْنُونَ ^(١٥) إِلَّا الَّذِينَ تَأْبُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَنْوَبُ

مجلة الهند

عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَابُ الرَّحِيمُ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ ﴿٤﴾ خَلِيلِيْنَ فِيهَا لَا يُخْفَفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٥﴾.

5- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَيْهُمْ عَنْ قِتْلَتِهِمُ اللَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطِ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦﴾

السفهاء جمع سفيه وهو يعني أحمق وأبله وهنا أشير به إلى اليهود والسبب وراء اعتبار اليهود سفهاء هو الذي أشرنا إليه خلال تفسير قوله تعالى " وَمَنْ يَرْعَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ " (سورة البقرة: 130) فكانت اليهود يدعون بأنهم أتباع ملة إبراهيم في جانب وفي جانب آخر قد شمرروا عن ساق جدهم لمعارضة النبي وتعلمه ودعوته الحال أنه (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قد جاء داعياً إلى ملة إبراهيم الحقة، ولا يقوم بهذه الحركة السيئة إلا من سفة نفسه وعلى هذا فقد استخدم لهم القرآن كلمة "السفهاء".

هذا مدخل إلى حكم تحويل القبلة الذي يأتي ذكره في الآيتين القادمتين فقد أشير في هذا المدخل إلى رد الفعل الذي سيظهر من قبل اليهود والمنافقين. والسبب وراء ذكر رد الفعل قبل الحكم الأصلي هو (1) أن الأمر بتحويل القبلة لم يكن شيئاً هيئاً بل فقد كان هذا أمراً يسبب ضجة كبيرة بين معارضي الإسلام ومعاصديه وعلى هذا فقد وجوب أن تعدد الأذهان لمواجهة رد فعله المفطون له قبل هذا الحكم، (2) وأنه قد كان اتصح لكل قارئ القرآن مما سبق ذكره من قصة إبراهيم وذريته أن دين إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأسباطهم كان هو الإسلام فالمراكز الذي بناه إبراهيم بمكة لعبادة الله كان مركزاً وقبلة لذريته كلها حتى أنه لما بني البيت المقدس قد تم توجيهه أضاحي بني إسرائيل إلى الكعبة المكرمة. إن هذه كلها تصرح أن اتجاه النبي ﷺ نحو البيت المقدس كان أمراً موقتاً وقد آن الأوان لأن يؤمر باتجاهه نحو الكعبة الشريفة بدلاً من البيت المقدس وعلى هذا فهذا المدخل كان إلى حدث كان ينتظره بوقوعه المسلمون بجانب اليهود والنصارى.

مجلة الهند

ما ولاهم عن قبلكم التي كانوا عليها: هذا بيان رد فعل أهل الكتاب على الأمر بتحويل القبلة أي إنهم كانوا حتى الآن قد رموا على المسلمين بأحجار الاعترافات والآن وقد تحولت القبلة فهم سيرفعون هذه الضجة أن المسلمين الذين كانوا يولون شطر البيت المقدس قبلة كافة الأنبياء والرسل والآن ماذا حدث بهم إذ حولوا قبلتهم وبهذا خالفوا ما قام به كافة الأنبياء والرسل.

قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم: هذا رد على اعتراض اليهود والنصارى المذكور أعلاه بأنكم لا علاقة لكم بالقبلة فإنكم قد رغبتם عن القبلة وخضتم في المشرق والمغرب فالنصارى كانوا يعتبرون المشرق قبلتهم بينما اليهود يعتبرون المغرب قبلتهم والحال أن الله ليس بمحدود في هذه الجهات فهو يحكم في المغرب كما يحكم في المشرق كما يحكم في الشمال والجنوب فإن يختص به شيء فالبيت الذي يخصه بنفسه ويقرره قبلة له ولا يتصرف بهذه الميزة سوى البيت الذي بناه إبراهيم وإسماعيل وهو الذي قد تقرر قبلة لكافة ذرية إبراهيم وعلمهما تم بناء البيت المقدس وقد وجدت معالم هذه الحقيقة في التوراة ولكنكم قد محظوظونا لمجرد عصبيتكم ولكن على الرغم من محاولاتكم المعارضة فقد هدى الله من شاء إلى الصراط المستقيم عن طريق هذا النبي الخاتم، والآن هم قد ساروا على طريق واضحة بعيدين عن ضلالاتكم¹.

وكذلك جعلناهم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً: والإشارة في "كذلك" إلى ما سبق من الحديث أي كما هديناكم إلى الصراط المستقيم مخرجكم من قيد المشرق والمغرب والأغلال والعراقيل التي خلقها اليهود والنصارى كذلك جعلناكم أمة ثابتة على شارع الدين الوسط مبعديكم عن ضلالات اليهود والنصارى لكي يشهد عليكم الرسول بدين الله ومن ثم تشهدون به على خلق الله.

الوسط مثل الولد يستخدم مذكراً ومؤنثاً واحداً وجمعًا ومعناها الشيء الذي يقع على قصد الشيئين ومن هنا تدرج هو لكونه جيداً لأن الشيء الذي يقع بين الشيئين لا بد أن

¹ ولفهم ما كتبناه هنا فهمنا جيداً ليراجع ما كتبناه تحت تفسير الآيتين (115 و125)

مجلة الهند

يكون متصفاً بالتوسط والاعتدال وهذا دليل فطري على كونه جيداً والسبب وراء اعتبار الأمة المسلمة أمة وسطاً أن هذه الأمة على قصد شارع الدين الذي فتحه الله عن طريق أنبيائه ورسله لهداية الحق والذي هو الشارع العام للهوى منذ الأزل، وقد ضلَّ اليهود والنصارى عن هذا الشارع بالتفريق بين أنبياء الله وأخرجوا ممرات بعضها للهود والبعض الآخر للنصارى وكذا ضلُّوا عن القبلة الحقيقية وسقطوا في فتنة المشرق والمغرب ولكن هذه الأمة لا تضل في وادي تلك الضلالات بل هي على شارع عام للدين فكلماتها ليست بالتفريق بل هي الكلمة الجامعة التي مضى ذكرها بكلمات تالية:

"قُولُواْ إِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُوَ مُسْلِمُونَ" (سورة البقرة: 136)

وكذا لم تقع هذه الأمة في فتنة المشرق والمغرب بشأن القبلة بل اتبعت قبلة إبراهيم التي لم تزل قبلة الأنبياء والرسل منذ عهد إبراهيم المبارك ولذلك فقد بني البيت المقدس معتبراً إياها قبلته ولكن اليهود حاولوا أن يخفوها لعصبيتهم الدينية.

وهذه هي خصوصية الأمة المسلمة الدينية التي تم اعتبارها خير أمة في غير هذا من مواضع القرآن وقد مضى آنفًا أن الشيء الذي يكون على توسط واقتصاد لا بد أن يكون خيراً وبما أن هذه الأمة أمة وسط فهي خير أمة.

يرى بعض الناس أنه بما أن دين اليهود صعب للغاية وأن دين النصارى سهل للغاية وأن الإسلام يقع بين وبين فالأمة التي تتبع هذا الدين تسمى أمة وسطاً ولكن هذه فكرة خاطئة لدينا. أما فيما يتعلق بالدين الحقيقي فدين اليهود ودين النصارى واحد لا غير فقد أوجب عيسى على أمته اتباع التوراة كما كان اتبعها واجباً على اليهود فإن علم شيئاً يختلف عما لها فهو لم يكن تعليماً مختلفاً عنها بل هو كان مثل حكمة الدين وروحه فقد ضلَّ اليهود عن حقائق الدين على حجتهم للدنيا ووقعوا في التقاليد وأخذوا بالألفاظ فحسب فجاء المسيح وعرف لهم بحكمة الدين فالإنجيل ليس بشيء خارج عن التوراة بل هو يرشد إلى حقائق التوراة بأسلوب حكيم.

مجلة الهند

لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً: هذا ذكر مسؤولية الأمة الوسط وال الحاجة إلى قيامها فقد اتضح من التفاصيل السابقة أن من أقامه الله لمنصب الهدى ترك ميثاق الله وراء ظهره وقام بالتغيير في شريعته وأضلا صراطه المستقيم ورغبا عن القبلة المقررة من قبله وأخفى الشهادات التي جعل أمينا لها وفي هذه الظروف إذا احتاج العالم البشري كله إلى شيء فهي حاجته إلى أمة وسط يقيمهما الله بينهم أمة تحمل دين الله عن طريق رسوله تعالى ثم تأمر الآخرين به إلى يوم القيمة. يستخرج من "لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً" أن مسؤولية "الشهادة على الناس" التي كانت على الرسول كرسول ورثتها أمته بعد موته والآن هذه هي مسؤولية هذه الأمة أن تشهد دين الله في كل عصر وبكل دولة وبكل لسان فإن تختلف في أداء هذا الواجب فهي تكون مسؤولة عن ضلال الآخرين وهي ستزور وزر الآخرين من الضالين.

-ذهب عامة المفسرين إلى أن هذه الشهادة تتعلق بالآخرة بأن هذه الأمة تشهد ضد الضالين يوم الآخرة على أن الأنبياء قد بلغوا دين الله إليهم ولكنهم اختاروا سبيل الضلال. ولكني لا أرى دليلاً على هذا التخصيص والتحديد فلا شك أن هذه الأمة تتشرف بكونها شهداء الله يوم الآخرة ولكنها تتشرف بهذه المنصب لمجرد أن الله قد شرفهم بهذه المنصب في هذه الدنيا فالآمة التي تشهد على الدين الحق في هذه الدنيا هي التي تشهد يوم الآخرة هل تم تبليغ دين الله إلى الناس أم لا؟

وما جعلنا القبلة التي كنت علمها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه: كلمة "جعل" لها معانٍ كثيرة فمنها تحليل شيء وتشريعه فقال تعالى مثلاً "ما

جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَابِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ" (سورة المائدة: 103)

و"علم يعلم" كما تعني العلم والتعيين فكذلك هي تعني التمييز والتلميح والإظهار فقال تعالى مثلاً: "وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ" (سورة محمد: 31) وقال "أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ أَذْنَينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ" (سورة آل عمران: 142). ول المعنى أنكم إذا أتيتم لكم الاتجاه نحو البيت المقدس في صلوتكم فهذا لا يعني أن هذه قبلتكم بل كانت هذه إجازة موقته والهدف وراء هذا لم يكن إلا لكي تميز خيركم

مجلة الهند

من شركم حينما نقوم بتحويلها فنعلم أيكم يتبع الرسول وأيكم يتبع تقاليده القديمة ويرجع إلى دينه القديم الذي تركه.

لنعلم هنا أنه لما أمر النبي بالصلوة تولى شطره نحو البيت المقدس، وفي البداية كان النبي يعمل على طرق الأنبياء السابقين حينما لم يجد إرشاداً واضحاً من الله ومن هذا النوع ما فعله بشأن القبلة، ويبدو من الروايات أنه كان يصلّي بحيث يتوجه البيت المقدس والبيت الحرام كلّهما ما دام في مكة ولكنّه حينما هاجر إلى المدينة فلم يسعه أن يتوجه نحو البيت الحرام لتبديل الجهة ف Paxac خاطره فجعل ينتظر بالوحي لتبديل القبلة ولكن شاء الله الحكيم أن يتوجه نحو البيت المقدس لمدة أخرى فقد صلّى النبي نحو البيت المقدس بعد الهجرة بـ 16 أو 17 شهراً حتى تم تحويلها قبل غزوة بدر بـ 2 شهرين.

وقد ذكر الله الحكمة فيبقاء القبلة نحو البيت المقدس لطول هذه المدة ثم لتحويلها بعدها أنه هكذا امتحن المسلمين وميّر خيرهم من شرهم لكي يتميّز من ضمّ إلى جماعة المسلمين من أهل الكتاب بعد الهجرة فاما يخلصوا انتسابهم إليها أم تفرّقوا عنها. وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم: أي تبديل هذه القبلة امتحان شديد لأنّ المرء إذا امتحن بشيء يتعلق بالدين خصوصاً فينقلب المرء جاهلاً ويرجع إلى تقليد القديم فهو لا يصبر على تبديل ما ولكن الشيء المهم في ذلك هو طاعة تامة لله ولرسوله وإخلاص الدين له ولذلك فلم يزل الله وأنبياؤه يهدون إلى هذه العصبيات التي هي العرقلة الشديدة للإخلاص فيشهد تاريخ الأنبياء والأديان أن الأمم قد مرت بهذا الامتحان بعد بعثة كلّنبي من الأنبياء فهذا الامتحان سنة من سنن الله تعالى، وبناءً على هذه السنة قد وقعت تغييرات في تقاليد الدين ورواياته لكي يسهل التمييز بين الصحيح والغلط فمن يقع في شبكة العصبيات القومية والطائفية يجد نقصه بهذا النوع من الامتحانات فهو لا يختار هدى الله ورسوله بل يعتكف على رواياته ولكن من يطوي بين جنبيه الإخلاص يوفق قبول هدى الله بفضل إخلاصه هذا ونفس الشيء حدث مع تحويل القبلة فمن انضم إلى جماعة المسلمين غير بعيد عن العصبيات القديمة بعد عنها بعد هذا التحويل

مجلة الهند

وبالعكس من ذلك فمن دخل الإسلام تحت عاطفة عبادة الله وطاعة رسوله قد فتح له هذا التحويل أبواباً واسعة لهدى الله ورحمته.

وأما القول "وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لروعه رحيم" رد على سؤال مهمٍ ييدو تلقائياً وذلك لأنَّه حينما يعتبر القرآن تحويل القبلة امتحاناً صعباً فلم شاء الله أن يمتحن الناس بهذا الامتحان الصعب، الأمر الذي يسفر عن ضياع إيمان العديد من الناس الذين سيفشلون في هذا الاختبار فرد القرآن على هذا السؤال بأنَّ الله لا يمتحن عباده لهذا الامتحان الصعب لكي يضيع الناس إيمانهم بل هذا الاختبار مظهر من مظاهر رأفة الله ورحمته وبمثل هذه الامتحانات تنمو مؤهلات العباد وبها يسهل استخدام قواهم وجدارتهم التي أودعها الله فيهم، وبها يتم تمييز الصحيح من الغلط، والمخلص من المنافق، والصالح من الفاجر فإن لم يعقد مثل هذا الاختبار فلا يبقى أي فرق بين الخير والشر، والتام والناقص، والصالح والفاخر ووجب بدننه أن يصدق كل مدعٍ ويعتبر كل كاذب صادقاً حتى لا يبقى أي ذليل وحجة لجزائهم ثواباً أو عقاباً يوم الدين، وإن تفَكروا المزيد على هذا الأمر تجدوا أنَّ جمال وحسن هذا الكون بإسرهِما وحكمته وبركته بإسرهِما تكمن في سنته تعالى للابتلاء فإن لم يكن هذا فيبقى هذا الكون كله عبئاً خالياً عن الحكمة والمصلحة.

ولنر هنا نكتة لغوية وهي أنَّ الله قد أحال هنا إلى صفتَيه "روعه" و"رحيم" فالروع من الرأفة التي يغليها دفع الشر بينما الرحيم من الرحمة التي يغليها إثباتات الخير فإنَّ تفكُّر تجد أنَّ الله قد راعى هذين الجانبين في سنته للابتلاء، اللذين تشير إليهم هذه الآية أي أنَّ يظهر العباد من المساوى والمناقص ويزنُّهم بالفضائل والمحاسن، ونكتفي هنا بهذه الإشارات وسنبحث عن تلك السنة في غير هذا الموضوع بمناسبات أخرى.

قد ذكر عامة المفسرين سياق هذه الآية بأنه لما تم تحويل القبلة فثار في الناس سؤال: ماذا يحدث مع من ماتوا قبل هذا الأمر فهل تقبل صلواتهم أم لا؟ وهذا رد على هذا السؤال ولكني لا أرى وجهًا معقولاً لنشأة هذا السؤال كما لا داعي للرد عليه فالامر هو الأمر الذي أشرنا إليه.

مجلة الهند

قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنوليتك قبلة ترضاه: لنحفظ هنا أسلوبًا يختص باللغة العربية وهو حذف الماضي المركب بالمضارع فيكتي "يُفعل" "كان يفعل"، وقد كثرت الأمثلة على ذلك في كلام العرب والقرآن، نقدم بعض الأمثلة من القرآن:
"فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ" مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ إِبْرَاهِيمَ مِنْ قَبْلُ" (سورة هود: 109)

فانظر أنه تعالى قال: "كما يعبد" وهو في الأصل "كما كان يعبد" فحذف "كان" من هنا.
وقال تعالى في سورة الزخرف:

النَّحْرُفُ: 6-7 سوره الْأَوَّلَيْنَ ﴿١﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّنْ نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٧﴾

فـ"وما يأتمم" هو في الأصل "وما كان يأتمم" ولكن حذف "كان" من هنا طبقاً للأسلوب العربي.

وجاء في سورة الأنعام:

فهنا "نري إبراهيم" في الواقع "كنا نري إبراهيم" ولكن حذف "كنا" طبقاً للأسلوب العام.

وطبقاً لهذا الأسلوب "قد نرى" في الواقع "قد كنّا نرى" وقد فككنا هذا الحذف في الترجمة فإن هذا الأسلوب لا يوجد في اللغة الأردية.

فالمعنى أنا كنا نرى تقلب وجهك في السماء بما أنك كنت تنتظر بتحويل القبلة انتظاراً شديداً فقد حكمنا أن نصرفك إلى القبلة التي تحبها.

قد مضى آنفًا أن النبي ﷺ كان يجمع بين القبلتين ما دام في مكة ولكنه لما هاجر منها لم يقدر على الجمع بينهما لاختلاف الجهات وعلى هذا فجعل خاطره يضيق عن انفصاله عن القبلة الإبراهيمية لاسيما حينما بدأ له عن طريق الولي أنه على ملة إبراهيم الذي دعا الله له وأن قبلة إبراهيم هي القبلة المشتركة بين كافة أولاده فجعل ينتظر بتحويلها وهذا من القاعدة العامة أن المرء يرفع بصره إلى ما يرجو منه فكان يرفع بصره إلى السماء من حيث كان جبريل ينزل إليه.

مجلة الهند

وكلمة "فلنولبتك" تشير إلى هذا الحكم الذي أصدره الله تعالى بالنسبة لتحويل القبلة وقد أوضحت في الترجمة ما خفي فيها من المعنى ولكنه كان يحتاج إلى بعض نظائره وأتذكّر أن الأستاذ الإمام قد أشار إلى بعض نظائره ولكن من الأسف أنني أفقد الآن ما أحيل إليه ويمكن أن أسدّ هذا النقص حين الطبع.

فول وجهم شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطّره: الشطر يعني الجهة والجانب والطرف والمراد من المسجد الحرام ذاك المسجد المحترم الذي يحيط بيته الله من كل جانب مثل دائرة فالقبلة هي بيته الله فقط فالناس يتوجهون نحو بيته الله داخل المسجد الحرام ولكنه يأتي تحت أمر القبلة لمن هو خارج حدوده وهكذا فقد تم توسيع مزيد بالنسبة للقبلة مثل المروءة التي هي المذبح الحقيقي ولكنها تم توسيعها إلى مني رحمة على الأمة المرحومة.

عندى هذه هي الآية التي نسخت ما سمح للنبي من أن يتوجه نحو البيت المقدس في البدء وأمر أن يتوجه نحو المسجد الحرام وأما القول "وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطّره" فهو مجرد أن لا يضل المسلمين فيما وقع فيه اليهود والنصارى فقد بينا، خلال تفسير الآية السابقة (115)، أن اليهود والنصارى ولو كانوا يعتبرون البيت المقدس قبلتهم داخله ولكنهم حينما خرجوا منه تفرّقت بهم القبلة شرقاً وغرباً فأرشد هذه الأمة إلى هذا لكيلا تقع في هذا الضلال بأن يولوا وجوههم نحو القبلة المعينة حيثما كانوا خارج المسجد أو داخله.

ولننظر في تبديل الخطاب الذي يبدو جلياً في هذه الآية فأولاً خاطب بصيغة الواحد "فول وجهم" ثم استخدم صيغة الجمع "فولوا وجوهكم" والسبب وراء ذلك هو أنه خاطب النبي أولًا ك وسيط ثم في المرة الثانية أوضح بأن الخطاب موجه إلى الأمة لا إلى النبي فحسب وكذا في الخطاب الأول تلميح لطيف بأن النبي كان مضطرباً لتحويل القبلة فلما أمر بتحويتها بشر بها النبي أولًا ثم أمته.

وإن الذين أتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون: المراد من "أنه" كون المسجد الحرام قبلة لهذه الأمة، وحقيقة هذا الأمر من قبل الله

مجلة الهند

كانت واضحة لأهل الكتاب تماماً وذلك لأن التفاصيل التي قدمها القرآن آنفًا يبدو منها جلياً ما يأتي:

1. أن اليهود كانوا يعلمون أن بيت الله مما قام إبراهيم وإسماعيل ببنائه، وهذا البيت قبلة لكافة ذرية إبراهيم.
2. أن النبي الخاتم سيبعث في بني إسماعيل ويعث الله به أمة مسلمة.
3. وأن قبلة هذه الذرية كانت هي بيت الله منذ البداية.

قد وجدت إشارات وتلميحات عن كل ما ذكرناه آنفًا وكانت بعثة النبي تثبت تلك الإشارات والتلميحات في كل آن ولكن اليهود كانوا يخفونهاوعيًّا وحسدًا لهم على بني إسماعيل وال المسلمين فقال مهدداً بما كانوا يفعلون "وما الله بغافل عما تعملون" أي ستواجهون عاقبة إخفاكم الحق.

وَلِئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَا تَعْوُا قَبْلَتَكُمْ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قَبْلَتَهُمْ
وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قَبْلَةَ بَعْضٍ وَلِئِنْ أَتَبْعَثَ أُهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا
لَمْ يَنْأِ الظَّالِمِينَ ١٤٥

في هذه الآية التفات إلى النبي وهي تعزّي النبي بأن ما يفعله اليهود بالنسبة للقبلة لا يبني على شك أو ريب بل كما أوضحتنا من قبل أنهما يفعلون ذلكوعيًّا مجرد بغضهم وحسدهم ولذلك فإن آتهم بالآلاف معجزة فلن يتبعوا قبلتك. فإن كان بإمكان شيئاً أن يقنعهما فهو ليس بالدلائل والمعجزات بل اتباعك قبلتهم ولكنه حينما اتضح لك الحق لم يبق لك أي مجال أن تتبع قبلتهم ثم أوضح أن إصرارهم هذا ليس لك فحسب بل اليهود والنصارى أيضًا يخالف بعضهم البعض بشأن القبلة فيهم وقعوا في خلاف الشرق والغرب الذي لن ينتهي فإن لم يتحد هؤلاء الذين يدعون باتباع قبلة واحدة على شيء فكيف لهم أن يتحدون معك والحال أنت تخالف اتباع قبلتهم.

وفي النهاية قال إنك إذا اتبعتهم بعد ما جاءك الوحي فستكون من الظالمين وهذا تهديد يوجه الخطاب فيه إلى النبي ظاهراً ولكن المراد اليهود والنصارى. وهنا أريد بالعلم

مجلة الهند

"العلم الحقيقي" الذي يحصل عن طريق الوحي والمراد من الأهواء بدع أهل الكتاب وقد أوضحنا معنى كلتا الكلمتين تحت تفسير الآية (120).

الَّذِينَ مَا تَيَّنَ لَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ وَكَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٢٠﴾

والمراد من "الذين آتيناهم الكتاب" طائفة الصالحين من أهل الكتاب، الذين ثبتوا على دينهم حسبما علموا وبقوا يتمنون من أعماق قلوبهم ظهور النبوءات كلها التي وردت في صحائفهم عنبعثة المهدية وقد بينا دلائل مفصلة على إرادتنا منهم صالح أهل الكتاب تحت تفسير الآية (121).

والعائد في "يعرفونه" هو القرآن الكريم وهذا بيانه الذي أدلّ به عنبعثة المهدية وقبلتها. هذه الآية جاءت في سورة الأنعام بنفس الكلمات "الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم" (سورة الأنعام: 20).

وفي المعرفة مثل الأبناء تشبيه كامن وهو أنه كما أن الأب الغائب عنه ولده يقلق ويضطرب لولده وحينما يحضره الولد بعد مدة طويلة فيعرفه عن ريح قميصه كذا الأمر مع صالح أهل الكتاب فهم يعرفون كل ما يظهر لهم من النبوءات كما فعل أبو يوسف مع ولده. ونفس العاطفة لظهور تلك النبوءات قد ذكرها القرآن في موضع آخر فقال "إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين" (سورة المائدة: 83).

الْحُقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٥﴾

"الحق" عندي خبر والمبدأ هنا محظوظ فإن فككنا الحذف لكان الكلام "هذا هو الحق" وأما "من ربك" فهو يتعلق بالخبر لا خبر ذاته وهذا من عادة العرب أنهم يحذفون المبدأ حينما يريدون التركيز على الخبر، وكذا الأمر في الآية (144) كما هو الآن، وأما الخطاب في "فلا تكونن" فهو ظاهراً يوجه إلى النبي ولكن العتاب موجه إلى المعارضين، اقرأ الآية (145).¹

¹ ولفهم أوجه الخطاب جيداً ليقرأ "فصل الخطاب" في مقدمة تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان وكذا يفيد القارئ تفسير سورة عبس.

مجلة الهند

وَلِكُلِّ وِجْهٍ هُوَ مُوَلِّيَّاً فَاسْتَبِقُوا أَحْمَرَتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾

ولو أن "كل" نكرة هنا ولكن المراد منه الطائفة الخاصة أو الرجال الخواص الذين قد مضى ذكرهم خلال الحديث فمثلاً "وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً" (سورة مريم: 49) وقال "إِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكَفْلَ كُلُّ مَنِ الصَّابِرِينَ" (سورة الأنبياء: 85).

فالمراد هنا من "لكل" طائفة اليهود والنصارى التي مضى ذكرها آنفًا فقال فيها إن كلاً منهم قد قررت جهة خاصة لقبيلتهم فالواحدة قررت المشرق والأخرى عينت المغرب فلا يجعلون القبلة إلا ما قرروها فلا تحولون عن مكانهم ولو أفرغتم كل جهودكم فلا تضلوا سبيلكم وراءهم بل تقدّموا على ما هداكم الله من السبيل وحاولوا أن يسبق بعضكم البعض في الخير.

فكأن ما قال سالقاً "ولئن أتيت الذين أتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك" قد أعيد هنا بأسلوب آخر والهدف هو أن كل مصانعة في أمر القبلة ممنوعة ومنذ اليوم ينبغي للمؤمنين أن يتبعوا عن طريقة هؤلاء المتعصبين تاركين إياهم وراء ظهورهم ومتقدمين على ما فتحه الله لهم من الصراط المستقيم.

"فاستبقو" من الاستباق وهو محاولة أحد لسباقه آخر فقال مثلاً "إنا ذهبنا نستبق" (سورة يوسف: 17) فما يقررون معلمًا للسباق يحاول كل من المشاركين أن يبلغه أولاً كذلك هناك هدف ومعلم قرره الله تعالى في العبودية والإنابة والفلاح والسعادة وقد أضاعه الأمم السابقة كما مضى بهم هاموا في وادٍ غير الوادي الذي كان هو المراد، ومرة أخرى أبان الله تعالى هذا المعلم للأمة الوسط ودعاهما إلى أن تحاول سباق الآخر إذا لم يرض الآخرون في هذا المجال.

وأما القول عن القبلة بأنها معلم وهدف للحصول على الفلاح والسعادة فهو ليس مجرد استعارة بل هو حقيقة ثابتة، ولفهم هذه الحقيقة جيداً حاولوا إحياء إعادة تذكر التاريخ العظيم الذي تم نقشه على كل حجرة من هذا البيت الذي تم تكريمه قبلة فهذا هو البيت الذي بناه إبراهيم خليل الله وإسماعيل ذبيح الله بأيديهما

مجلة الهند

المباركة، وهذا هو البيت الذي هو المركز الوحيد لتوحيد الرب في هذا العالم المليء بالكفر والشرك، وبجانبه المروءة التي شهدت السماء بجوارها أن أباً عجوزاً يذبح ولده الوحيد فيثبت إسلامه أمام ربه، هذا هو البيت الذي قد اختار الله صحراءه لنشرأة وتنمية الأمة المسلمة التي كانت توزع رحمة الله فيما بين العالم كلة، هذا هو البيت الذي قد بقي قبلة لكافة الأنبياء والرسل منذ إبراهيم عليه السلام، وطاف حوله واعتكف فيه وبه ركع وسجد عدد لا يحصى من الرجال والنساء الصالحات، وبضواحيه ميدان تشهد كل ذرة منه بسجدات تم أداوها للتوبة والاستغفار وتکفل بدموع من صبّوها خوفاً من الله وتضرعاً إليه، وبزاوية من هذا البيت حجر مقدس شبه بيدين الله، ومسحه أو قبله المآت من الأنبياء والرسل فعقدوا ميثاق الطاعة والوفاء مع الله، وبجواره جمرات هي ذكرى لذلة وصغر أعداء بيت الله وقد رمى عليها الأحجار المؤمنون وأحيوا فهم روح الجهاد ضد أعداء الدين وفوق ذلك أن خاتم نبى آخر رسول نشأ وترعرع في ظلال هذا البيت فبنوره استضاء العالم كلة.

وتقرير بيت يحمل هذا التاريخ العظيم قبلة يعني أن نقرره معلماً فنجد للحصول على الخزائن الروحية التي أودعت فيه منذ إبراهيم عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ وبعبارة أخرى نعتبره قوة حصانية تحصل بها الأمة كلها على الحياة والحرارة والضوء والقوة فمن لم يتضح له هذا الجانب المهم للقبلة فهو ربما يقعد حيران لم أعطي هذا البيت هذا القدر من الأهمية في الدين ولكنه قد اتضحت مما فضلناه فيما سبق أن الأهمية لا تكمن في هذا البيت المبني من الحجر أو الأجر بل تكمن في التقاليد والتاريخ العظيمة التي تتعلق بهذا البيت والتي هي ذريعة روحية وحيدة لهذا العالم، وبفضل هذه التقاليد يحتل هذا البيت من الأهمية في نظام الملة الاجتماعي ما يحتله القلب في النظام الجسدي فكما لا وجود للجسد بدون القلب وكذا لا تصور للملة بدون القبلة، وهنا نكتفي بهذا القدر من الإشارات الموجزة بالنسبة للقبلة وسنوضح جوانب أخرى لأهميتها بمواقع مناسبة.

أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعاً، إن الله على كل شيء قادر: لهذه الفكرة معنيان أحدهما أنه كلما تفعلونه من الخير موجهين هذه القبلة في أي بقعة من بقاع العالم

مجلة الهند

لا يضيع الله أجره فهو يجمعكم من كل مكان ويجزىكم ما قدّمتموه فهذا مثل معلم لاستباق الخير فالقرب منها أو البعد عنها لا يكون إلا محسوباً في علاقة القلب معها فلكل خيار أن يتعلّق بها في أي نحو من أنحاء العالم والله قادر على أن يجمع مثل هؤلاء من مكان من العالم.

والآخر أن تتركوا الناس على ما يفعلون ويتجهون نحوه فلا تخاصموهم بل استبقوا في الخيرات فسيأتي يوم يجمعكم الله فيه ويفصل فيه من سلك الطريق السوي ومن خالفها.

وَمِنْ حَيْثُ حَرَجْتَ فَوْلَ وَجْهَكَ شَظَرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامَ وَإِنَّهُ لِلَّهِ مِنْ رَبِّكَ وَمَا أَلَّهُ
يُعَذِّلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٣﴾

ومن خلال الأمر بتحويل القبلة في الآية (143) قد اتضح أنه على المرء أن يتوجه نحو القبلة حيثما يكون ولكن لم يأت أي توضيح بالنسبة للسفر وهل يجب هذا الأمر أم هناك شيء من التيسير؟ والبحث عن القبلة المعينة خلال السفر أمر صعب للغاية فيتخيل أن لا يجب تقييده في هذه الحالة ولكنه يتضح مما ذكر من أهمية القبلة أن لا ينقطع المرء عن هذه القوة الحصانية في حالة من الأحوال فإن يسر الأمر خلال السفر فيمكن أن يضل الناس من خلاله فيما ضل فيه اليهود والنصارى فقد تم التوكيد الصريح لهذه الأمة أن العناية بالقبلة في أثناء السفر مثل الاهتمام بها في أثناء الحضرة لكيلا تقع الأمة في شيء من التهاون في هدفها المراد ومعلمها الأصيل.

وبجانب هذا التوكيد نتهم بأن هذه القبلة هي التي قررها الله تعالى فلا تظنوا أن الله غافل عن أعمالكم. هذا التنبيه يقطع دابر كل غفلة واعية والحب في البحث عن التسميات، في البداية خاطب بصيغة الواحد وفي النهاية استخدم صيغة الجمع وهذه إشارة إلى أن الخطاب الموجه إلى النبي كوسيط وإنما المراد به الأمة كلها.

ونعلم هنا أنه بما أن تعين القبلة خلال السفر ربما يكون صعباً فلا يكلف الإسلام إلا ما تيسر للمرء من أسباب معرفة القبلة فلم يكلف الإسلام أتباعه ما لا يستطيعون فليصلّ المرء طبق ما يبيّن له من القبلة عن طريق الأسباب المتوفّرة له، ولكن هذه القيود لا تنفي تلك الرخص التي أعطتها الشريعة حين الضرورة والتي قد صرحت عنها في كتب الحديث والفقه.

مجلة الهند

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوْلَى وَجْهَكَ شَطَرَ الْمَسِيدِ الْحَرَامَ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوْلَوا وُجُوهَكُمْ
شَطَرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشُوهُمْ وَأَخْشُونِي
وَلَأَنِّي نَعْمَقِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهَدُونَ ﴿١٥٠﴾

وبما أن الأمرين قد ذكرنا آنفًا بالنسبة للسفر والحضر فتكرارهما توًا يملئ شيئاً، ومجيء هذا الشيء في القرآن، الذي هو كتاب معجز من ناحية الإيجاز والبلاغة، يخل بالنفس ولكن هذا الخلل لا يأتي إلا بقلة التدبر في القرآن فتكرار ذينك الأمرين لن يراد به تكرارهما البطة بل المراد منه الإشارة إلى حكم ومصالحهما الثلاث العظيمة التي وضعت فيما لهذه الأمة والتي سيأتي ذكرها فيما بعد. وهذه الحكم والمصالح تتعلق بكل الأمرين كما سيتضح وسيوقع جهل عنها أو غفلة الأمة في أخطاء لن يمكن لها أن تقيم عوجها، وعلى هذا فقد نبه القرآن كمدخل أذهانهم، قبل بيان هذه الحكم، على أن هذا الأمر المؤكد بالاتجاه نحو القبلة ليس شيئاً بل يطوي بين جنبيه حكمًا ومصالح فإن تهاونتم في الامتثال به ومن ثم زلت أقدامكم فيه فيتمكن أن تضلوا في سفركم هذا فاعتنوا بها عنابة شديدة واحفظوا الحكم القادمة جيداً. وبعد هذا التمهيد يبتدئ بيان تلك الحكم والمصالح كما يلي:

لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشُوهُمْ وَأَخْشُونِي
نَعْمَقِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهَدُونَ: إِنْ تَفَكَّرُوا يَتَضَعُ لَكُمْ أَنْ هُنَّاكُمْ ثَلَاثُ حُكْمٍ ذُكِرْتُ
لِهِنَّدِينَ الْأَمْرَيْنِ: (1) قَطْعُ الْحَجَّةِ، (2) إِتَّمَانُ النِّعْمَةِ، (3) الْهُدَى. وَالآنْ نَقُومُ بِشَرْحِ
هَذِهِ الْحُكْمِ الْثَلَاثِ بِإِيْجَازِ لِكِيْ تَتَضَعُ فَائِدَةُ تَكْرَارِ ذِيْنِكُمْ وَنَظَمُ الْكَلَامِ.

فَالْمَرَادُ مِنْ قَطْعِ الْحَجَّةِ أَنْ لَا يَبْقَى أَيْ مَجَالٌ لِأَهْلِ الْكِتَابِ لَاسِيمَا الْيَهُودَ لِلنَّقْدِ عَلَيْكُمْ
وَخَلْقِ الدُّعَايَةِ ضَدَّكُمْ، وَالْمَرَادُ مِنْ "النَّاسِ" هُنَّا، كَمَا يَشَهِّدُ بِهِ الْمَحَلُّ، هُوَ أَهْلُ الْكِتَابِ
فَقَدْ كَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَاسِيمَا الْيَهُودَ يَثِيرُونَ الْاعْتَرَاضَ عَلَى النَّبِيِّ وَأَتَّبَاعِهِ أَنْهُمْ إِذَا صَلَوُا
مَتَوَجَّهِينَ نَحْوَ قَبْلَتِنَا فَلَمْ يَفْرَقُونَ بَيْنَ طَرِيقَةِ صَلَاتِهِمْ وَطَرِيقَتِنَا لَهَا فَالْاِخْتِلَافُ فِي
الْأَشْيَاءِ الْأُخْرَى بَعْدِ الْاِتْحَادِ عَلَى أَصْلِ مَهْمَمِهِمْ يَعْتَبِرُونَهُ مُخْتَلِّاً مِنْ قَبْلِ النَّبِيِّ ﷺ، كَانَتْ
دُعَايَتِهِمْ هَذِهِ تَؤْثِرُ فِي السَّاذِجِينَ مِنَ النَّاسِ وَمَنْ ثُمَّ هِيَ عَرَقْلَتْ سَبِيلَ الْكَشْفِ عَنِ
الْوَاقِعِ بَأْنَ النَّبِيِّ بَعَثَ عَلَى مَلَةِ إِبْرَاهِيمَ لَا عَلَى الْيَهُودِيَّةِ أَوِ النَّصَارَى، وَالآنْ أَنَّ الْأَوَانَ

مجلة الهند

لقطع دابر هذه الدعاية ولهذا الهدف سدّت التغرات التي مضى ذكرها من قبل ولكنه هب أنَّه حينما لم تتخذ هذه الخطوات المتقدمة للحذر وترك المسلمين أحرازاً في أن يصلوا خارج حدود المسجد الحرام نحو جهة ما فبصرف النظر عن أن يقع المسلمين فيما وقع اليهود والنصارى من الضلال عن القبلة سهل لهم أن يعترضوا على المسلمين مباشرة أو غير مباشرة فما وضع من القيود المذكورة أعلاه قد سدّت تلك التغرات كلها ولو أنَّ الأشرار لم يكونوا يمتنعون بعد قطع الحجة هذا ولكنه لن يمكن أن يمسك أي حذر لسان كافة الناس فقد ذكر القرآن دواءً مثل هؤلاء المرضى "فلا تخشوهنْ وَاخْشُونِي".

والمراد من إتمام النعمة هي إتمام نعمة الدين التي بشّر بها موسى وعيسى عن هذه الأمة والتي وعدها الله تعالى مع إبراهيم حينما نجح في امتحان ذبح إسماعيل فقد وعد الله آنذاك أن سيبعث من بني ولده إسماعيل أمّة عظيمة تقسم نعمة الدين بين كافة أمم العالم ولذلك فقد بعث منهمنبياً خاتماً يسّى محمداً الذي قرّر له قبلة بيت الله الذي هو مصدر الخير والبركة للعالم كله، ومركزاً لتكامل الدين.

والمراد من الهدى هي الهداية إلى الصراط المستقيم الذي هو السبيل السوي للوصول إلى الله تعالى والذي قال فيه "قل إني هداني ربِّي إلى صراط مستقيم دينًا قيماً ملة إبراهيم حنيقاً" (سورة الأنعام: 161)، والمنارة التي تهدي إلى هذه الملة الإبراهيمية، كما ذكرنا فيما سبق، هي القبلة فوجب أن لا تغفل الأمة لهنّمها عن هذا المعلم للهدي.

كَمَا أَرْسَلْنَا فِيهِكُمْ رَسُولاً مِّنْكُمْ يَتَّلَوْ عَلَيْكُمْ عَائِتِنَا وَيُرَيِّكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُنُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٦١﴾

الكاف في "كما" للتتشبيه فيثور هنا سؤال: أي شيء شبه به؟ والرد على هذا هو أن "كما" بالعربية مثل "چنانچه" بالأردية والمعنى أننا قمنا بتحويل القبلة لإتمام النعمة والهداية إلى ملة إبراهيم كما أرسلنا رسولاً لهذه الأهداف طبق دعاء إبراهيم. وقد تناولنا هذه الآية بالشرح المفصل تحت الآية (129) فلا حاجة إلى إعادةه. وأما قوله في النهاية "وَيُعَلِّمُكُم مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ" فهذا منه خاصة علىبني إسماعيل أنكم كنتم أميين لا يعرفون شيئاً عن الدين فقد أرسل الله رسولاً لتعليمكم فتقدروه أكثر من غيركم.

مجلة الهند

فَإِذْ كُرُونَيْتَ أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرْوَا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ^(١٥)

وبعد تحويل القبلة برزت هذه الأمة كامة مميزة فقد عزلت اليهود عن منصب الإمامة وفوضت مسؤولية الشهادة على الناس إلى هذه الأمة إلى يوم القيمة وبهذه المناسبة المهمة ذكر لهم "فاذكروني أذركم واشكروا لي ولا تكفرون" فهذا التذكير مثل ميثاق عظيم بين الله وهذه الأمة وأما الهدف وراء ذكر الله فهو ذكر كافة المسؤوليات والواجبات والعمل عليها، التي يتم تفويضها إلى هذه الأمة. ومن يؤدّي هذه الواجبات والمسؤوليات خير أداء فقد وعد لهم الله بأن يذكرهم أي أنه يفي بما وعد لهم من الفلاح في هذه الدنيا وفي الآخرة، وأما الهدف وراء "واشكروا لي" فهو الأداء الحق لتلك النعم والأفضال التي أعطاها الله وسيعطيها لهم وأكبر هذه النعم هي الشريعة ذاتها التي تعطى هذه الأمة في صورتها الكاملة وأما الكلمة النهاية "ولا تكفرون" فهي تنبيه بأنكم إذا كفرتم فلا تفلتون مما عاناه اليهود بعدها لم يؤدوا حق شكرهم.

ونفس التذكير وجّه إلى بني إسرائيل ولكنهم لم يعتنوا به، يذكر القرآن تذكيرهم هكذا "اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدهم وإياي فارهبون" (سورة البقرة: 40).

يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَعِينُو بِالصَّابِرِ وَالصَّلَوةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ^(١٦)

والآن في هذه الآية وما يلحقها من الآيات الأربع يتم ذكر التدابير التي تفيد حين الأخطار والمشاكل التي ستظهر بعد هذا المنصب للإمامية أو يمكن ظهورها فما كانت اليهود يطرونه من العناد ضد المسلمين قد ظهر واضحًا ولكن اليهود قد كانوا يرجون من خلال هذه الخلافات والنزاعات لحظة عن اتفاق لأجل اشتراك القبلة بينهم ولكنه لما تحولت القبلة فقد رأوا بأعينهم أن المسلمين قد تميزوا عنهم كورثة ملة إبراهيم بكافة ميزاتهم، الأمر الذي قد أثار غضبهم خلاف المسلمين وكذا القرיש الذين قد اطمأنوا بعدهما أخرجوا المسلمين عن مكة وقد زعموا أن هذه الدعوة الجديدة ستموت في ديار الغربة، قد شعروا بأن المسلمين يتقدمون في المدينة بالرغم من آمالهم ويصيرون قوة وهم يدعون أنهم هم الورثة لمة إبراهيم وهم الذين يجدرون

مجلة الهند

بتولي شؤون الكعبة وعلى هذا فقد قرّروا هذا البيت قبلة لهم ومن هنا يمكن أن يحاولوا السيطرة عليه فقد نجّهم هذا الشعور ومن ثم بدأوا يتفكرون عن التدابير لهذا الخطر الطارئ، الأمر الذي سهل لهم خلق البواعث على الحرب بعد تحويل القبلة بشهرين فقط، الحرب التي تسمى بـ"غزوة بدر" في التاريخ الإسلامي. ورأينا في هذه الغزوة، كما ذكرناه في تفسير سورة الأنفال، أن هذه الحرب قد دارت رحاها بمؤامرة قام بها يهود المدينة وقريش مكة وكان الهدف وراءها تفتير عزيمة المسلمين الذين قد بذلوا مدعين بملة إبراهيم وقبلته كامة مستقلة.

ولو أن هذه الأوضاع كانت مخفية ولكنها لم تكن مستوراً على الله العلام الغيوب الذي يعرف ما خفي وما ظهر فاقتضت رحمته وحكمته أن ينبه المسلمين عمّا سيأتهم من الأخطار ويرشدتهم إلى ما يثبتهم ويشجّعهم ضد تلك الأخطار.

فالأمر الأول الذي جاء ذكره في هذه الآية هو أن يستعينوا بالصبر والصلوة ضد ما يأتيكم من الأخطار وقد قمنا بالبحث المفصل، في الآية (45) لهذه السورة، عن معنى الصبر والصلوة اللغوي وعلاقة أحدهما مع الآخر وعظمتهما وأهميتها في سبيل الجهاد لإقامة الدين وكذا أشرنا إلى بعض جوانبها في الفصل الثاني والثلاثين فلا حاجة إلى أي تفصيل هنا إلا أن هناك أموراً خاصة بهذا الموقع فتجب الإشارة إليها.

أولها أن الصلوة التي ذكرت الاستعانة بها في سبيل الصعود للمشاكل لم يرد بها الصلوات الخمس بل المراد بها هي صلاة التهجد والنوافل وذلك لأن هذه هي الصلوات التي تخلق في المؤمن الروح والحياة اللتين تغلبان على المشاكل التي تعرقل سبيل الحق وبمعونتها تولد العلاقة المتينة التي لا توثر في أشد وضع وأصعبه ويهما يحصل على درجة التقرب التي تكفل معية الله والتي وعدت للصابرين في هذه الآية وسيأتي توضيح هذه الحقيقة التام خلال تفسير السور المكية فلنكتف بهذا القدر من الإشارة.

وثانيها أن الصلوة هي أكبر مظاهر للذكر والشكراً فيما بين كافة العبادات فقد وضح في القرآن بمختلف الطرق أن الهدف الأصيل وراء الصلوة هو ذكر الله وشكراً فإن تفكروا عن هذه الجهة فيتضح لكم أن الصلوة هي خير وسيلة للوفاء بما أخذ سابقاً من الميثاق بأن "فاذكروني أذكريكم واشكروا لي".

مجلة الهند

وثلاثها أن هذه الصلوة هي المراد للحصول على العزيمة والاستقامة في سبيل الدعوة إلى الدين وإقامة الحق فتظهر بركتها الأصلية حينما يعني بها المرء وهو يجاهد في سبيل الله ضد الباطل فمن لا يجد في نفسه عزيمة على مواجهة الباطل فلا يفيده هذا السلاح شيئاً.

ورابعها أنه قال بعد الاستعانة بالصبر والصلوة "إن الله مع الصابرين" ولم يقل "إن الله مع المصليين والصابرين" والسبب وراء ذلك، كما يراه الإمام الفراهي، هو أن الحصول على التقرب إلى الله خلال أداء الصلوة واضح إلى حد لا يحتاج إلى إظهاره فالذى مست الحاجة إلى إبرازه هو أن الله مع من يثبت في سبيل الله ويستعين بالصلوة للحصول على الثبات.

وخامسها أن التقرب إلى الله الذي وعدَّ عنا للصابرين ليس بشيء هيئ بل يدلّ موقع الكلام على أن هناك العديد من البشري التي تطوفها هاتان الكلمتان فإذا كان الله الملك الحقيقي للكون كله وهو الذي يجري فيه أمره وهو مستقل بذاته وهو من وراء أحد فلن يغله أي من هذا الكون.

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنَّ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

وهذه إشارة إلى الشيء الآخر الذي يراد في الثبات في سبيل العزيمة والاستقامة أي فهم التصور الإسلامي الحق عن الحياة والموت فمن لا يؤمن بالآخرة فهو يرى أن الحياة ليست إلا ما يعيش فيه فمن مات أو قتل فهو انتهت سلسلة حياته وأما المؤمن فهو يرى أن هذه الحياة حياة موقته ستنتهي لأجل مسمى فالحياة الأخروية والتي هي الحياة الحقيقية هي تبتدئ بعدها تنتهي سلسلة هذه الحياة الموقته، وهذه الحياة سيتم الحصول عليها في البرزخ ثم في الآخرة، وأما الحياة بعد الموت فهي يتم الحصول عليها من قبل الكافر والمؤمن كلّهما ولكنّه بما أن حياة الكفار حياة ملؤها قلق وعذاب فلا تعابُ بها إلا أن المؤمنين يتمتعون من مسرات ما يحصلون عليها من الدرجات والمنازل في الآخرة لاسيما من استشهد فلن يمكن لنا أن نقدر مدى فرحمهم في البرزخ فهم يبدأون يتمتعون من جزاء ما أهريقتهم دماءهم لإعلاء كلمة الله فقد قال الله تعالى في موضع آخر "ولا تحسبنَ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون" (سورة آل عمران: 169).

مجلة الهند

وَأَنْبِلُوكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْحُوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٌ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّهَرَاتُ وَيَشَرُّ الصَّابِرِينَ ⑥

هذه إشارة مجملة إلى البلاءات التي سيواجهها المؤمنون في المستقبل، ولو أن هذه البلاءات سيعاني منها المسلمون لأجل معاشر الأعداء ومؤامرتهم ولكنها بما أنها تأتي تحت سنة الله تعالى التي قد قررها الله تعالى منذ الأزل للتمييز بين أهل الحق وأهل الباطل فقد عزها إليها وقال بالتوكيد وذلك لأن أهل الحق لا بد لهم من أن يمرروا بهذا الامتحان والبلاء طبق السنة الربانية، وبفضل هذه البلاءات تتطور مؤهلات العباد وتتركي وهكذا يتم التمييز بين الصحيح والغلط ولن يمكن لأي طائفة من طوائف المؤمنين أن تستحق نعمه الأخروية بدون أن تنجح في هذا البلاء.

فالشيء الأول الذي ذكره هنا هو الخوف، والمراد منه خوف غارة الأعداء وقد مضى فيما سبق أن القرיש جعلوا يبحثون عن الحيل لشن الغارة على المسلمين حينما برزوا كأمة مستقلة كما جعلت اليهود يؤمنون ومن ثم بدأت سلسلة لا تنتهي لحملتهم على المسلمين حتى جعلت الأمم الأجنبية ترغب فيها ولم تنته هذه السلسلة إلا حينما كسر المسلمون قوتهم بعزمتهم وهمتهم الفائقة.

ولقد قيد هذا الخوف بـ"بشيء" والمراد منه ليس إلا تشجيع المسلمين أي ولو أنهم يعانون من هذا الوضع السيئ ولكنه لا يتجاوز ما قد يكتفي لامتحان عزمتكم واستقامتكم فلا تفتر عزمتكم ولا تخلفو بل تصعدوا لها خيراً.

والمراد من "الجوع" المشاكل الاقتصادية التي قد يعاني منها المسلمون لأجل مخالفة القرיש واليهود المشتركة، ووضع الخوف والخطر، والقيود الغذائية من قبلهم، وقد كانت تجارة الدولة كلها وأسباب الاقتصاد والمعيشة بأجمعها بأيدي اليهود والقرיש أصلًا فالخوض في القتال ضدهم كمثل من لا يرضي من في أرضه هو أو كمن لا يداري من بداره هو. ولكن مرافقة الحق اقتضت أن يخوض المسلمون في هذا الخطر فقد خاضوا فيه كذلك ويشهد التاريخ بأنه لما ظهر هذا الخطر فقد كان في أشد صورة وأقبحها في بعض الأحيان ولكن لم يثبت لهنمية مقابل العزيمة والإيمان.

ومن ثم أشير إلى القلة في الأموال والأنفس أي بلاء المال والنفس وذلك لأن هذين الشيئين هما يقومان سببين مهمين في الحرب وهذا اللذان يضحي بهما فيها، وزد على هذا فقد الأمن والأمان، الأمر الذي يجرهما الصيانة التي تجب لنمؤهمما و Zukatema.

مجلة الهند

ولو أن ذكر الثمرات بعد الأموال يبدو زائداً وذلك لأنها تضم إلى الأموال ولكن في ذكرها يعني بها موقع الحديث فقد كانت أموال العرب إما الإبل أو الغنم والشياح التي كانت تستخدم لها كلمة "الأموال" أو الثمر لاسم النخل، وطبقاً لهذا الوضع الخاص للدولة استخدمت كلمة "الثمرات" بجانب الأموال.

وفي النهاية يبشر من ثبت على الحق ضد هذه البلاءات كلها ولم تضعف عزيمتهم ولا قل إيمانهم، ويبدو من صراحات غير هذا من مواقع القرآن أن هذه البشري كانت مشتملة على الفلاح في الدنيا والآخرة كلتيمما فقد قال الله تعالى:

"يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءامَنُوا هَلْ أَذْلَكُمْ عَلَى تَجَرَّةٍ تُنْجِيُّكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَعْفُرُ لَكُمْ ذُنُوبُكُمْ وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَخْرُجُ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ وَمَسَكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝ وَآخْرَى تُحْبَونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝" (سورة الصاف: 10-13)

الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝

هذه صفة الصابرين بأنهم لا يواجهون البلاءات بقلة الهمة وفتور العزيمة بل بمسرة وعزيمة وثبات فما نقل هنا من قولهم هو إظهار عقيدتهم التي بني عليها صرح الصبر والاستقامة. فمن أجزاء هذه العقيدة أن المرء يرجع إلى الله بعد موته فمن يؤمن بهاتين الحقيقتين إيماناً ثابتاً فلن تزل أي مصيبة كبرى قد미ه عن جادة الحق فإذا بعثنا الله في هذه الدنيا وحيينا ومتنا له ومن ثم رجعنا إليه بعد الموت فلنثبتنا عن كل شيء لمرضاته وليس شيء يثنينا عنه تعالى.

هذه هي الكلمة التي تعتبر درعاً للصابرين فهم يحتمون بها كل حملة عليهم من قبل المصيبة وما فيها من الوكالة إلى الله هي وكالة التضحيه وتقديم النفس وهذه تعني أن المؤمن كلما آن الأوان فهو يصعد للبحر والجبل مرتفعاً هذا الهاfاف فهو يهزم الأشياء كلها ولا شيء يقدر على هزيمته.

الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝

الصلوات جمع الصلوة التي تعني لغة "الإقبال إلى الشيء" وعن هذه الجهة استخدمت هذه الكلمة للصلوة بحيث إن العبد يقبل إلى ربه في الصلوة وكذا هذه الكلمة تستخدم للالتفات الذي يقوم به الله تجاه عباده وفي هذه الحالة هي تعني أفضال الله ونعمه فلا تختلف روح اللفظ إلا أنه إذا اختلفت النسبة اختلف نوع المعنى من التضييع إلى العناية وعلى هذا فقد ترجمناها بـ"عنایتیں" ولنا أمثلة عديدة على اختلاف النسبة في اللغة العربية فالعنابة والرحمة والهدایۃ التي يشیر إليها هنا هي تتعلق بالدين والدنيا، وبالدنيا والآخرة كلتيهما كما ذكرنا آنفًا فعن طريق الصبر والثبات يستحق العباد أفضال ربهم وعنایاتهم وبفضل تلك الأفضال والنعم يهتدون إلى الصراط المستقيم، التي هي تكفل بالفلاح في الدنيا والآخرة كلتيهما.

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَابِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ أُلْبَيْتَ أَوْ أَعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ
بِهِمَا وَمَنْ تَطَّوَّفَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلَيْهِ ﴿١﴾

هذه الآية تتعلق بسلسلة البيان الأصلية أي القبلة وقد جاء الحديث القادم، كما ذكرنا، في غضون البحث لمجرد التنبيه بأن تحويل القبلة ليس بشيء هيئ بل هو يسفر عن بلاءات ومشاكل للمسلمين، يجب للصعود لها أن يستعينوا بالصبر والصلوة. وبعد هذا الحديث الضمني تناول سلسلة البحث الأصلية مرة أخرى وذكر أن الصفا والمروءة من شعائر الله وأحكاماً وإرشادات متعلقة بهما وذلك لأن المهدود كما حاولوا أن يخفوا قبلة إبراهيم الحقيقة كما مضى فكذلك حاولوا إخفاء المروءة كمدح لإبراهيم، الأمر سيتم تفصيله تحت الآية القادمة.

الصفا والمروءة صخرتان بجوار بيت الله، يسعى الحجاج بينهما خلال الحج والعمرمة وقد أثبت الإمام الفراهي، في كتابه "الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح"، بتفصيل كامل أن المذبح الأصلي الذي ذبح إبراهيم إسماعيل هو المروءة^١ التي ذكرت في التوراة ولكن المهدود قد حرفوا هذه الكلمة فجعلوها من شيء إلى آخر مختلف تماماً لأجل قطع علاقة إبراهيم عن بيت الله.

^١ لنعلم أن المذبح الأصلي هو المروءة ولكن قد وسّع فيها حتى من لتسهيل السعي للأمة، ولتراجع رسالة الإمام الفراهي لمزيد التفاصيل عن هذه القضية.

مجلة الهند

الشعار جمُع الشعيرة التي تعني الشيء الذي يجعلك تشعر بشيء أو هو مظير وتعلم له ولها بالإنجليزية كلمة "Symbol" وفي الاصطلاح هي مظاهر الشريعة التي قرّرها الله أو رسوله كمعلم وأية لخلق الشعور بحقيقة معنوية والمراد منها في الأصل هي الحقائق التي تكمن فيها ولكنها بما أنها قرّرها الله ورسوله فإنّها تحتل درجة القدسية بالنسبة لتلك الحقائق فمثلاً أن الأضحية مظهر لحقيقة الإسلام الذي يعني أن يفوض العبد ذاته تماماً إلى ربه تعالى فلا يعبأ بأحب شيء وأعزه للتضحية به في سبيله وقد أظهر هذه الحقيقة إظهاراً تاماً لإبراهيم عليه السلام عن طريق التضحية بابنه الحبيب وهو حدث لا نظير له في صفحات التاريخ البشري وعلى هذا فقد قرّر الله أضحية البهائم كشعيرة في ذكرى ذلك الحدث العظيم لكي تحيي بها حقيقة الإسلام فيما بين الناس.

وكذا الحجر الأسود شعيرة فمنذ عهد إبراهيم يبقى هذا الحجر آية للتقليد أن العبد يقبله أو يمسه بيديه فيجدد ميثاق عبوديته وطاعته ولذا فقد اعتبر هذا الحجر يمين الله في بعض الأحاديث، الأمر الذي يشير إلى أن العبد كلما يمسه فهو يجدد عهده آخذاً بيد الله تعالى وكلما يقبله فكانه إظهار لعهد محبته ووفائه مع الله تعالى. وهكذا فالجمرات شعائر الله فقد قررت هذه المعالم لكي يرمي الحاج الحصى عليها فيظهرروا عزيمتهم على أنهم يلعنون على أعداء الله وأعداء الإسلام من ذرية إبليس كانوا أو منهم أنفسهم وهم مستعدون للجهاد ضدهم.

وكذا بيت الله شعيرة بل هو أكبر شعيرة فهو قبلة الأمة كلها ومركز التوحيد والصلة فبالطواف حوله وبتقريره قبلة لصلواتهم ومساجدهم كلها نظهر الواقع أننا عباد الله الواحد الذي قد بني هذا البيت لعبادته فنتوجه نحوه ونبعده ونطوف حول بيته. وهكذا الصفا والمروة من شعائر الله والسبب العام وراء كونهما من شعائر الله أن هاجر قد سمع فيما بين هاتين الصخرتين للبحث عن الماء لولدها إسماعيل عليه السلام ولكن أستاذى الإمام الفراهي يرى أن المذبح الأصلي هو المروة وفيها قد أظهر إبراهيم عبوديته لله وامتثاله بما أمره به فلذا قررت هذاتان الصخرتان من شعائر الله وصينتا كذلك لسعيه عليه السلام.

مجلة الهند

ولنعلم أصولاً ومبادئ عن تلك الشعائر: أولها أن هذه الشعائر مما قرره الله ورسوله فلا يسوغ لأحد أن يدخل شيئاً في شعائر الدين أو أن يخرج منها ما قد قرره الله من شعائر الدين فمثل هذه التصرفات الحرجة تمهد السبيل لتسلي البدع في الدين فالأقوام التي قررت شعائر الدين حسب أهواءها يشهد التاريخ على أنها قد فتحت الأبواب للشرك وعبادة الأوثان.

وثانية أن حدود تعظيم شعائر الله قد قررها الله تعالى ورسوله كما تم تقريرها من قبل الله ورسوله فما قرر من صورة لتعظيم شعيرة ما هي الصورة الوحيدة لتعظيمها، التي تكمن فيها فشيء من الانحراف عن تلك الصورة لا يحرم المرء حقيقة الشعيرة فحسب بل هو يفتح الباب للشرك والبدعة فهب أن الحجر الأسود شعيرة وقد قرر الرسول ﷺ كيف يقبله المرء خلال الطواف أو يمسحه بيده ثم يقبل يده أو طريق أخرى فإن لم يكتف أحد بما قرر الرسول من طرق تعظيمه بل يخوض في التعظيم إلى حد يركع له أو يقدّم النذور له أو يقدم الأزهار إليه أو عمل يشبه ما سلف فيهذه الطرق لا يبتعد عن الحقيقة التي تكمن فيها فحسب بل يسقط في الشرك والبدع.

وثالثها الهدف في هذه الشعائر هو تلك الحقائق التي تكمن فيها فكان هذه الشعائر مثل قالب لإبراز تلك الحقائق فال فعل الأشد ضرورة لحياة الملة أن تثبت هذه الحقائق حية وطرية في أذهان الأتباع فإذا فترت هذه العزيمة فسنفقد روح الدين ولا نجد إلا قالها ومن ثم يتترك الناس على القوالب فحسب، الأمر الذي يسفر عن بقاء الدين كمجموعة للتقاليد والعادات.

وأما قوله في الآية "إن الصفا والمروة من شعائر الله" فهو يستهدف أن تطير هاتان الشعيرتان عن دنسة الجاهلية وتحييان لأتباع الملة الإبراهيمية وذلك أن عرب الجاهلية قد نصبوا صنمين على هاتين الصخرتين كما يشهد به التاريخ وبدأوا يسعون ويطوفون حولهما، الأمر لم يخلط هاتين الشعيرتين بشعار إبراهيم فحسب بل قد بربطا كمظيرين من مظاهر الشرك وعبادة الأوثان فكما طهر القرآن، في الآيات السالفة، بيت الله عن كافة أنواع الدنسة الشركية وقدمه في أحسن صورة ما شاءها الله تعالى في عبد إبراهيم فكذلك بين تاريخ الصفا والمروة الأصلي بأهمها من شعائر الله منذ زمن

مجلة الهند

إبراهيم عليه السلام وسنة السعي والطواف حولهما ذكرى لسعي إبراهيم وطوفاته ولكنها كما نصب المشركون المآت من الأصنام في مركز التوحيد بيت الله فكذلك وسخوا هذه الشعائر بعبادة الأوثان والآن هذه هي مسؤوليتكم أن تدفعوا هذه الكومة للدناسة فتزيّروا هذه الشعائر مرة أخرى وخصصوا السعي والطواف لهما بالله وحده.

هذا في جانب وفي جانب آخر أنما أوقعه اليهود من ستار التحرير والكتمان، كما تشير إليه الآية القادمة، قد رفعه القرآن كذلك وقد ذكرنا فيما سبق أن قد جاء بصراحة في التوراة أن إبراهيم قد ذبح ولده الوحيد عند المروءة ولكن اليهود قد مسخوا هذه الكلمة ظانين أن يصرفوا علاقة إبراهيم عن مكة إلى البيت المقدس وهذا ما توجد في التوراة من النبوءات عن النبي الخاتم تحول من ذرية إسماعيل إلى ذرية إسحاق. وبذكر المروءة هنا قد أشار القرآن إلى هذا المعلم الذي قد حاولوا أن يمحوه حسداً وبغيًا.

وما أصدر من الأمر بالطواف حول هاتين الصخريتين تثبت صورتها وتتعين حدودها بسنة النبي ﷺ مثلما يفعل مع مناسك الحج الأخرى ولو أن القرآن قد استخدم كلمة "الطواف" ولكن المراد منه هو السعي الذي يتم بيدهما والسبب وراء اعتبار هذا السعي بالطواف هو أن صورته تشبه صورة الطواف الذي يقوم به الحجاج حول الكعبة المكرمة، وقد اشترط هذا السعي مع الحج والعمرمة، الأمر الذي يسفر عن أنه جزء من أجزاء الحج والعمرمة وليس بخارج عندهما، وبه يقطع دابر التقليد الشركية التي قد أضافها المشركون بالنسبة إلى سلسلة هذه الشعائر.

والكلمات التي استخدمت للأمر بهذا الطواف تتطلب توضيحاً ما فقال تعالى: فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما".

يبدو من هذا الأسلوب أن هذا السعي قد أجزى في الشريعة فإن لم يقم به أحد أو لم يستطع بالقيام به فلا بأس به ولكن لا يصح عندنا هذا الرأي فإن كان المراد منه ما أسلفنا ذكره لكن الأسلوب كما قالت عائشة رضي الله عنها "فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما" بدل "فلا جناح عليه أن يطوف بهما" والأمر الثاني أنه بعدما قال إن الصفا والمروءة من شعائر الله لا يناسب أن يقال أن يطوف بهما أحد أو لا يطوف بهما سواء فالشئ الذي يناسب القول الأول هو أن يوجب الطواف بهما، وأما السؤال: ما هي أهمية هذا الطواف؟ هل هذا

مجلة الهند

فرض أم واجب أم مستحب فيمكن أن يقع في هذا اختلاف ولكن لا مجال لأن نفهم منه
هذا الأمر التافه بعد هذا المدخل الرائع فنرى أن قد أمر بالسعي وهو واجب.
ولكن يمكن أن يعترض أحد على هذا الرأي بسؤاله (لو كان المعنى كما قلت فماذا يعني "فلا
جناح عليه"؟) فالرد على هذا السؤال هو أن إزالة الحرج هذه لا تتعلق بالسعي بل تتعلق بما
كان يحدث من السآمة في النفوس بحضور هذه الأوثان في موضع السعي حين نزول هذا
الأمر فالمعني هو أنه ولو توجد في الصفا والمروة أوثان تسامم النفوس ولكنها بما أنها مما قرره
الله من شعائر الحج فاسعوا بينهما خلال الحج وال عمرة فتسألون على نياتكم.
والمراد من التطوع في قوله تعالى "ومن طوع خيراً فإن الله شاكر عليم" هو أن يؤدّيه
أحد كتطوع بعد أداء فريضته لتيل مرضاه الله والتقرب إليه فالتطوع هنا لا يتعلق
بالسعي فحسب بل فقد اتضح فيما سبق أن السعي ليس بعبادة مستقلة بل هو من
ملحقات الحج وال عمرة فيجب أن يتعلق التطوع بالحج وال عمرة فالمعني أن تؤدي فريضة
الحج وال عمرة ظاناً أنها مما يجب عليك ثم تقوم بهما متطوعاً إذا استطعت ومن يفعل
ذلك يقبل الله هذا العمل منه وهو يحصيه له وسيجزى عليه جزاءً أوف يوماً ما.
كلمة "الشکر" مثل "الصلوة" و "التوبۃ" من الكلمات التي يتغير معناها بتغيير النسبة
إذا عزيت إلى العبد فهي تعني تقديم الشکر منه لله تعالى ولكنها إذا عزيت إلى الله فهي
تعني قبول هذا الشکر منه تعالى.

أَوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ الْلَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾

هذه إشارة إلى اليهود ولو أن المراد من "البيانات" و"الهدي" في هذه الآية تعاليم عامة حاول اليهود أن يخفوها ولكن المحل يدل على أن قد أريد بها معالم وآياتأوضحتها الله تعالى في التوراة لكي يفطن بها اليهود لنبي خاتم ولكتهم لم يستفيدوا منها بل حاولوا جيدتهم لإخفائهما وقد ذكرنا أمثلة لذلك فيما مضى من صفحات هذا الكتاب وهنا ننحيل إلى الفصل الثامن لكتاب "الرأي الصحيح فيمن هو الذي يحيي" للأستاذ الإمام، الذي قد بحث فيه عن تحريفات اليهود عن المروءة وأثبتت مفصلاً ما هي التدابير التي

مجلة الهند

قاموا بها لمحو مذبح إبراهيم في التوراة وكيف قاموا بتشويه وجه كلمة المروءة لكي يخلطوا الباطل بالحق بالنسبة للنباءات عن النبي الخاتم.

ولكن إخفاء حقيقة كبرى والحال أنها قد اتضحت في كتابهم وقد أخذ منهم الميثاق لتقديمه للناس كما جاء في سورة آل عمران "إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيقَاتَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ لَشَبَّيَنَهُ" (سورة آل عمران: 187)، إخفاءها كانت جريمة كبرى للمهود استحقوا عليها لعنة الله عليهم وسلبوا أمانة الكتاب الرباني التي فوضت إليهم وأعطيت لغيرهم من الناس.

وأما قوله في هذه اللعنة "يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون" فسيأتي شرحه فيما بعد.

ولنعلم أنه كما أن اصطفاء أمة لإماممة العالم نعمة كبرى من الله عز وجل فكذلك هذه اللعنة عذاب شديد من الله جل مجده فالقوم الذي ينزل عليه هذا العذاب يحرمون الهداية والإمامية فتضرب عليهم الذلة والمسكينة ولهم عذاب لازم في الآخرة وذلك لأنهم لا يضللون أنفسهم بكتمامهم الحق فحسب بل يضللون غيرهم عن الصراط السوي بمحو المعالم الهادية عن الطريق.

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيْنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَابُ الرَّحِيمُ ^(٦٦)

هذا بيان من سيصان عن تلك اللعنة وهؤلاء من تابوا عن جريمة إخفاء الحق، ولكن اشترط هذه التوبة بـ"أصلحوا" وهذا يعني أن التوبة لا تقبل ما لم يصلح المرء ما ارتكبه من الخطأ وكذا اشترط بـ"بيّنوا" وهذا توضيح لـ"أصلحوا" نظراً للم محل أي بيّنوا ما أخفوه من الحقائق والبيانات الموجودة في التوراة عن النبي الخاتم.

فيبدو من هذا أن خواص اليهود وعلمائهم على الأقل لم يكونوا جاهلين عن هذه التحريرات التي قد حدثت أو كانت تحدث تحت مؤامرة إخفاء الحق، ويستدل عليه بأن من قد دخل أو كان يدخل في الإسلام من علماء اليهود قد قاموا بكشف الغطاء عن مثل هذه التحريرات.

وصلة "على" في "أتبوا عليهم" تشير إلى أنها تضمن معنى الرحمة أي أقبل توبه مثل هؤلاء فأرحمهم وقد أوضح هذا الجانب الخفي من الكلمة فقرة "أنا التواب الرحيم".

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَا تُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسُ أَجْمَعِينَ ^(٦٧)

مجلة الهند

والمراد من "إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار" هم الذين أصرروا على ما فعلوا وماتوا وهم قد حرموا التوبة فالإصلاح فبدا من هذا أن إخفاء الحق جريمة ستبطل ما يقولون مما يتعلق بالدين وما يدعونه من الإيمان ومحبة الله تعالى، وسيستحقون لعنة الله وملائكته والناس أجمعين، وهنا ذكر لعنة الملائكة والناس أجمعين مع ذكر لعنة الله يوضح ما أجمل في الآية السالفة من "ويلعنهم اللاعنون" وكذا قيد "أجمعين" بـ"الناس" يوضح الأمر أنه لما ينكشف واقع الأمر يوم القيمة فلا يلعنهم الصالحون فحسب بل يلعنهم المجرمون الذين قد ضلّوا باتباع خطاهم.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخْفَفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾^{١٦٣}

أي لا يخفى العذاب الذي سيلقون فيه ولا تقطع سلسلته ولا يجدون فرصة للراحة لثانية ما.

كتاب الأخبار للجاحظ

1- امتياز علي العرشي

2- ترجمة من الأردية: د. أورنل زيب الأعظمي

كان الجاحظ أدبياً عراقياً شهيراً ومتكلماً متصلتاً للمعتزلة ومؤسسًا لفرقة خاصة تسمى بـ"الجاحظية". ولم يكن عالماً مكثراً للكتابة فحسب بل كان أدبياً حلو الحديث وبليغ الكلام فقال عنه المسعودي:

¹ محقق هندي شهر

² مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وأدابها، الجامعة الملكية الإسلامية، نيو دلهي

³ كتب أبو حيان التوحيدي (ت 404هـ/1013م) أولاً كتاباً مستقلاً عن الجاحظ بعنوان "تقرير الجاحظ" والآن لا يوجد ذلك الكتاب ولكن ذكر ياقوت الحموي مقتبساته في كتابه "معجم الأدباء". وفي العصر الحاضر كتب السيد خ- مردم بعنوان "الجاحظ" (حلب 1349هـ/1930م) وبنفس العنوان كتب السيد ت- كياني (دمشق)، وكتب شفيق الجري بعنوان "الجاحظ معلم العقل والأدب" (القاهرة 1351هـ/1932م)، وكتب حسن السندي بعنوان "أدب الجاحظ" (القاهرة 1350هـ/1931م) وكتب فؤاد أفرايم البستانى بعنوان "الجاحظ" وبنفس العنوان كتب حنا الفاخوري (القاهرة، 1953م) عن الجاحظ.

وقد كتب كتاب السيرة المؤخرون عن أحواله وعقائده ومصنفاته أو عن واحد منها وهي كما يلي: ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص 71 (طبع في مصر عام 1326هـ)، والمسعودي، مروج الذهب، 345-344هـ (مصر، 1283هـ) والتبيه والإشراف، ص 55 و 76 (لدين، 1894م)، وأبو منصور البغدادي، الفرق بين الفرق (مصر، 1328هـ) ومحتصر الفرق بين الفرق للرسعني، ص 117 (مصر، 1924م)، الشريف المرتضى، الأهمي، 1/138-142 (مصر، 1325هـ)، ابن حزم الظاهري، الفضل، ص 1954 (مصر، 1321هـ)، الخطيب، تاريخ بغداد، 12/212-222 (مصر، 1349هـ)، الشهريستاني، الملل والنحل، 1/52 (لondon، 1848هـ)، السمعاني، كتاب الأنساب، ص 118 (لدين، 1912م) و3/162 (حيدر آباد، 1963م)، ابن الأثيري، نزهة الآباء، ص 254 (مصر، 1294هـ). ياقوت الحموي، معجم الأدباء،

مجلة الهند

"لا يعلم أحدٌ من الرواة وأهل العلم أكثر كتبًا منه وقد كان أبو الحسن المدائني كثير الكتب، إلا أنَّ أباً الحسن المدائني كان يؤدي ما سمع. وكتب الجاحظ. تجلو صدأ الأذهان، وتكشف واضح البرهان، لأنَّ نظمها أحسن نظم، ووصفها أحسن وصف وكساها من كلامه أجزل لفظ. وكان إذا تخوف ملل القارئ وسامة السامع، خوج من جد إلى هزل ومن حكمة بلية إلى نادرة ظريفة".¹

اسمه ونسبه: هو أبو عثمان² عمرو بن بحر بن محبوب الكناني³ الملقب بالجاحظ والحدقي¹.

6/80-56 (مصر، 1913م) و16/11474 (مصر، 1357هـ)، ابن الأثير، الكامل، 77/7 (مصر، 1290هـ)، ابن العربي، محاضرة الأبرار (مصر، 1282هـ)، الققطني، مختصر طبقات الأطباء، ص 274 و32/2 (لأسپتسك، 1320هـ)، ابن أبي أصيبيعة، عيون الأنبياء، 1/316 و2/32 (مصر، 1299هـ)، ابن خلكان، وفيات الأنبياء، 1/553 (مصر، 1275هـ)، أبو الفداء، المختصر، 2/230 (كونيناغن، 1794م)، الذهبي، دول الإسلام، 1/109 (حيدر آباد، 1364هـ)، اليافعي، مرآة الجنان، 1/162 (حيدر آباد، 1338هـ)، ابن الكثير، البداية والنهاية، 19/11 (مصر، 1351هـ)،الأميري، حيوة الحيوان، 1/312 (مصر، 1330هـ)، المقريزي، الخطط والأثار، 2/348 (مصر، 1270هـ)، العسقلاني، لسان الميزان، 4/355 (حيدر آباد، 1331هـ)، السيوطى، بغية الوعاء، ص 265 (مصر، 1326هـ)، ابن العماد، الشنرات، 2/121 (مصر، 1350هـ)، الخوانساري، روضات الجنات، ص 503 (إيران، 1307هـ).

وما كتب عنه جزئياً من معاصرينا في كما يلي:

أمراء البيان، ص 411-487، أداب اللغة، ص 167، الفهرس التمهيدي، ص 550، مجلة لغة العرب، 9/26، البعثة المصرية، ص 40، الأعلام للزركلي، 5/239، معجم المؤلفين، 7/8 (دمشق، 1378هـ).

يرجى النظر إلى المراجع الغربية:

تممة فهرس المخطوطات العربية: 466 لريو، تاريخ الآداب العربية لبروكلمان، موسوعة الإسلام: 2/1785 (طبعة جديدة).

¹ المروج، 2/245.

² كنيته أبو عمران في الكامل لابن أثير وتاريخ أبي الفداء. إن لم تكن هي خطأ مطبعياً فينسب إلى ابن آخر.

³ يصرّ بعض كتاب السيرة على أنه كناني النسل، ولكن المؤرخين القدماء كالخطيب وغيره أوضحاوا أنَّ جده كان رقيقاً لأبي القلمنس عمرو بن قلع من بني كنانة. واعتبره السيد بيلاط (Pellat) حشى النسل لأجل سواد لون الجاحظ وجده.

مجلة الهند

ولد بالبصرة عام 160هـ/776م² حيث تعلم وتربي ومن خلال النقاش والدراسة بها توسيع ثقافته العلمية.

أما أساتذته في الأدب فهم أبو عبيد (ت209هـ/824م) وأبو زيد الأنصاري (ت215هـ/830م) وأبو الحسن الأخفش (ت215هـ/8360م) والأصمعي (ت216هـ/831م)، وأما الحديث فقد تعلمه على القاضي أبو يوسف (ت182هـ/798م) ويزيد بن هارون (ت206هـ/821م)، وأخذ علم الكلام من المعتنلي الشهير أبي إسحاق النظام (ت231هـ/845م) والذي كان مقيماً لفرقة "النظامية"، كما حصل على علم اللغة الفصحى من الأعراب في مرید البصرة.

واشتهر من بين تلاميذ الجاحظ نفسه المبرد النحوي (ت285هـ/899م) ويموت بن المزّرع (ت304هـ/916م) وأبو بكر ابن أبي داود السجستاني (ت316هـ/929م).

وبعدما أنهى دراساته جعل يتجر بالخبز والسمك فقد رأه الناس بائعاً الخبز والسمك في سيحان³. ولكنه ذاع صيته في الآفاق لأجل الكتابة فأعانه الحكام والولاة لاسيما الفتح بن خاقان وزير المتوكل على الله العباسى (ت247هـ/861م).

وكان إبراهيم الصولي (ت243هـ/857م) مسؤولاً كبيراً في ديوان الرسائل في عهد هارون الرشيد والمأمون. وقام الجاحظ مقامه في معظم الأحيان⁴. وذات مرة عيشه المأمون مسؤولاً كبيراً لهذا الديوان. ولكن سرعان ما استقال الجاحظ عن تلك المسؤولية وقد

¹ يرجى النظر إلى ابن أبي الحديد، 451هـ/2. ولقب بالجاحظ والحدق لجحوظ عينيه وبروز حدقتهما.

² نقل الحموي عن الجاحظ وهو يقول: إني أكبر من أبي نواس سنة وولدت في أول شهر المحرم عام 150هـ (767م) وولد هو في الأخير من نفس السنة. ولكن ذكر فيه العام 160هـ كما أعتقد. أولاً لأن الخطيب ذكر سنة مولد أبي نواس 146هـ ولم يذكر أي مؤرخ سنة بعد تلك السنة. وكتب جميع كتاب السيرة الآخرون أن عمر الجاحظ أكثر من 90 سنة وذكروا سنة الوفاة 250هـ و256هـ على الأقل و255هـ على الأكثر. فإذا اعتبر عمر الجاحظ 95 سنة وسنة وفاته 255هـ فيجب إقرار ولادته في عام 160هـ

³ معجم الحموي، 74/16

⁴ المصدر نفسه، 84/16

مجلة الهند

كان سهل بن هارون (ت 215هـ/830م) يقول: لو واظب الجاحظ على هذا المنصب لأفلت نجوم كافة الكتاب.¹

وعلى كل حال فقد بدأ الجاحظ يقضي رغد العيش بفضل المنحة الشهرية الصادرة من الخليفة، وجواز الحكام والولاة. فذات مرة سأله تلميذه ميمون بن هارون الكاتب الأخباري (ت 297هـ/910م): هل لك أي عقارات في البصرة؟ فردد عليه الجاحظ قائلاً²:

"إنما أنا، وجارية لي، جارية تخدمها، وخادم، وحمار. أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك، فأعطاني خمسة آلاف دينار. وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى أحمد بن أبي داؤد، فأعطاني خمسة آلاف دينار. وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي، فأعطاني خمسة آلاف دينار. فانصرفت إلى البصرة، ومعي ضياعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسريد".

وكذا أجاب على سائل آخر³:

"سألتني عن الجملة. فاسمعها مني واحداً واحداً. حالياً أن الوزير يتكلم برأيي وينفذ أمري. ويواتر الخليفة الصلات إلى. وأكل من لحم الطير أسمنه. وألبس من الثياب أليها. وأجلس على ألين الطبرى. وأتكيء على هذا الريش. ثم أسير على هذا حتى يأتي الله بالفرج".

فسأله الرجل عن الفرج فردد عليه الجاحظ:

"بل أحب أن تكون الخليفة لي، ويعمل محمد بن الملك بأمرى، ويختلف إلى. فهذا هو الفرج".

وأصيب الجاحظ بالفالج والنقرس في نهاية أيام حياته فأؤذى كثيراً ولحق به الضرر الشديد فذات مرة سأله المبرد عن حالته فقال:

"كيف يكون من نصفه مفلوج، لو نشر بالمناشير ما حسن به، ونصفه الآخر منقرض، لو طار الذباب بقربه لآلمه. والأفة في جميع هذا أني قد تجاوزت التسعين".

¹ المصدر نفسه، 78/16

² المصدر نفسه، 106/16

³ تاريخ بغداد للخطيب، 12/219 والجموي، 16/113

مجلة الهند

وبعدما عانى هذه الآفة لسنوات عدة وافته المنية بالبصرة في المحرم عام 255هـ/869م.¹

مكانته الأدبية والعلمية: ساءت سمعته كمحدث فقد ذكر الخطيب أنه لم يكن يصلّي، ويروي أبو الفرج الأصفهاني أن الناس سموه زنديقاً، ويقول الثعلب إنه كان من لا يوثق به كما أنه يعتبره كذلك، فقد اعترف أبو العيناء (ت 282هـ/890م) بأنه قد وضع حديث الفدك بمساعدة الجاحظ ثم عرضه على شيخ بغداد فقبله كلّ منهم إلا ابن شيبة ولكن صرّح ابن حزم بأن لا يوجد شيء من أكاذيب الجاحظ في كتبه إلا أنه لا يحذر في نقل أكاذيب الآخرين.²

كان الجاحظ معتزلياً وهو كان من تلاميذ النظام إلا أنه خالف أستاذه في العديد من المسائل وعلى هذا فهو يعتبر مؤسساً لفرقة جديدة تعزى إليه وتسمى "الجاحظية". أما ميزات تلك الفرقة فيصعب علينا تحديدها وبيانها وذلك لأن معظم كتبه الكلامية قد ذهب بها الدهر، وأما ما آلّفه المعرضون من كتب ورسائل فلن يمكن اليقين بها لأنّها تذكر أن الجاحظ كان يعتبر القرآن الكريم جسدًا وكان يؤمن بأنه يقدر على أن يتحول إلى صورة إنسان أو بحيرة. ومن البديهي أن رجلاً حكيماً كالجاحظ لن يرجي منه أن يتلفظ بهذا.³

ويتصدر المعترفين بفخامته الجاحظ الأدبية اسم أبي الحسن ثابت بن قرة الحراني (ت 288هـ/901م). وقد نقل الحموي عن كتاب "تقرير الجاحظ" لأبي حيان التوحيدي أن الحراني كان يقول: إنني أغبط بثلاثة أفراد من الأمة العربية فقط: أولهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وثانيهم حسن البصري رحمه الله تعالى وثالثهم الجاحظ والأخير يتصرف بما يلي.⁴

"خطيب المسلمين، وشيخ المتكلمين، ومذرء المتقدمين والمتاخرين."

¹ الخطيب، 12/219 ، والمروج، 2/344 ، وكتب مؤخر الذكر 256هـ أيضًا حسب بعض الكتب.

² لسان الميزان، 4/355

³ يرجى النظر إلى كتب أبي منصور البغدادي وابن حزم والشهرستاني والمقرizi بشأن عقائد الجاحظ

⁴ معجم الحموي، 16/97

مجلة الهند

إن تكلّم، حكى سجحان في البلاغة. وإن ناظر، ضارع النّظام في الجدال. وإن جدّ، خرج في مسک عامر بن قيس. وإن هزل، زاد على مزيد.

حبيب القلوب، ومزاج الأرواح، وشيخ الأدب، ولسان العرب.
كتبه رياض زاهرة. ورسائله أفنان مثمرة.

ما نازعه منازع إلا راشاه أنفًا. ولا تعرض له منقوص إلا قدّم له التواضع استبقاءً.
الخلفاء تعرفه. والأمراء تصافيه وتنادمه. والعلماء تأخذ عنه. والخاصة تسلّم له.
والعامة تحبّه.

جمع بين اللسان والقلم، وبين الفطنة والعلم، وبين الرأي والأدب، وبين النثر والنظم،
وبين الذكاء والفهم.

طال عمره. وفشت حكمته. وظهرت خلّته. ووطئ الرجال عقبه. وتهادوا أدبه. وافتخرموا
بالانتساب إليه. ونجحوا بالاقتداء به.
لقد أتي الحكمة وفصل الخطاب."

وهذا تعليق على الجاحظ من عالم لا يدين بالإسلام. وكان يقول أبو محمد الأندلسبي
إمام النحو واللغة والشعر والذي تلمذ لأبي سليمان المنطقى وأبى سعيد السيرافي¹:

"رضيت في الجنة بكتب الجاحظ عوضاً عن نعيمها".
وكتب ياقوت الحموي²:

"اتفق أهل صناعة الكلام على أن متكلمي العالم ثلاثة: الجاحظ، وعلي بن عبيدة وأبو
زيد البلخي. فمنهم من يزيد لفظه على معناه: وهو الجاحظ. ومنهم من يزيد معناه على
لفظه: وهو علي بن عبيدة. ومنهم من توافق لفظه ومعناه: وهو أبو زيد البلخي".

¹ أدب الجاحظ، ص 76

² المصدر نفسه، ص 67

مجلة الهند

أما فيما يتعلق باللفظ فالتعليق المذكور أعلاه على الجاحظ صحيح عند مائة بالمائة. فهو يكثر تكرار الألفاظ والتفصيل. ولكن الحموي ذاته نقل أن "أبا زيد" كان مشهوراً بلقب "جاحظ خراسان". وفوق ذلك أن أديباً وكاتباً كبيراً مثل أبي الفضل ابن العميد (ت 360هـ/970م) كان يسمى بـ"الجاحظ الثاني" فينقل قوله كما يلى:

"ثلاثة علوم، الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس.

أما الفقه فعلى أبي حنيفة، لأنه دون وخلي. جعل من يتكلم فيه بعده مشيراً إليه ومخبراً عنه.

وأما الكلام فعلى أى المُذيل.

وأاما البلاغة والفصاحة واللسان والمعاضة، فعله أبا عثمان الجاحظ.

ولا يخفى على أحدٍ ما لابن دريد (ت 321هـ/933م) من عظمة في مجال العلم والفن، فذات مرة ذكر له أحد زينة الدنيا فقال: "هذه الأشياء ترُق العيون فقط فأضف إليها الأشياء التي تريح النفوس". فقال الحضرمة: "اذكر أنت إن أمكن لك" فقال ابن دريد: "كتب الجاحظ، وأشعار المحدثين وطرائف أبي العيناء".

والقاضي الفاضل (ت 596هـ/1400م) الذي يلقب بـ"سيد كتاب العرب" يقول³:

"أما الجاحظ فما منا معاشر الكتاب إلا من دخل من كتبه الحارة، وشنّ علّمهها الغارة،
وخرج وعلى الكتف منها الكارة".

ونهى ذكره الحسن ببليتين من أستاذة النّظام، كثيما في تلميذه^٤:

حی لعم رو جوہ ر ثابت و حبّه لی عَرَض زائِل

١ معجم الحموي، 16/102

أدب الجاحظ، ص 76²

³ شرح لامية العجم الصفدي، 281/1.

٧٢ أدب الجاحظ، ص ٤

مجلة الهند

بـه جـهـاتـي السـتـ مشـغـولـةـ وـهـوـ إـلـىـ غـيرـيـ بـهـ مـائـلـ
مـؤـلـفـاتـهـ وـرـسـائـلهـ:

للحاجظ مؤلفات تفوق الحصر، وهي تزهو على 360 كتاباً. رأها سبط ابن الجوزي في مكتبة ضريح الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى!

وبحلول العام 1956م، قال السيد بيلاط (Pellat) مازه على 400 محياً إلى أمريكا، حتى يتوفر منها 30 في صورة تامة بينما لم تتم عددها خمسون.²

وفيما يلي نقدم فهرس مؤلفات الجاحظ وتصدرها التي ذكرها الجاحظ نفسه وتتلواها التي ذكرها المترجمون حسب الترتيب الزمني وينتهي هذا الفهرس على بروكلمان:

الحاظ: الحوان

ذكر الحافظ ما يلي من الكتب في مقدمة كتاب الحيوان:

١. إنكار بصيرة غنام المرتد سماه الحموي "كتاب عصام المريد" بينما ضبطه بروكلمان بـ"كتاب بصيرة غنام المرتد"³
 ٢. حكاية قول العثمانية والضراربة (ط)⁴

أعتقد أن الجاحظ أشار هنا إلى كتابين وهما "كتاب العثمانية" و"كتاب مسائل العثمانية" حسبما أشار إليه المسعودي (مروج الذهب، 2/158). وأما الحموي وابن أبي الحديد (شرح نهج البلاغة، 1/362 و2/136 و332) فذكرا "كتاب العثمانية" فقط. وكتب بروكلمان اسمين له، وهما "مقالات العثمانية" و"الرسالة العثمانية" بينما يذكره ريو (تمة الفهرس بالمتحف البريطاني 709).

^١ مقدمة كتاب التاج في أخلاق الملوك لأحمد زكي باشا، ص 37

² موسوعة الإسلام، 2/386 (طبعة جديدة).

³ قد أحرق غنام في عام 225هـ حسب قول الطبرى (3/1302 ، طبعة أوربا).

⁴ يراد "مطبوعة" بكلمة "ط"، جزئياً كان أو كلياً.

مجلة الهند

باسم "كتاب في مقالة العثمانية". والنسخة المطبوعة توافق رأي المسعودي وأشار إليه ابن قتيبة في "تأويل مختلف الحديث، ص 71".

3. حكاية مقالة من أين وجوب الإمامة

ذكره الجاحظ في البيان والتبيين (374/3) باسم "الإمامنة"، ويسميه الحموي بـ"كتاب وجوب الإمامة" وأما بروكلمان فهو يذكره بعنوان "كتاب الدلالة على أن الإمامة فرض".

4. كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن

ذكر الحموي اسمه "كتاب نظم القرآن" وأما حاجي خليفة فيسميه "نظم القرآن" فقط. وقد نقل عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز (ص 136) واحداً من مقتبسات الجاحظ ولعله مأخوذ من ذلك الكتاب.

5. كتاب الأخبار

كتب نشوان الحميري اسمه "كتاب الأخبار" في تفسير الحور العين (ص 80 ب). و"كتاب الأخبار المروية من رسول الله صلى الله عليه وسلم" (ص 86 ألف). وقد ذكر الحموي كتاباً آخر باسم "كتاب تصحيح الأخبار وكيف نصلحه" أيضاً. ويرى السنديسي أنهما و"كتاب تصحيح الأخبار" كتاب واحد لا غير.

6. كتاب أصحاب الإلهام

سمّاه الحموي "كتاب الرد على أصحاب الإلهام".

7. كتاب الأصنام

اقتبس منه الدميري في حيوة الحيوان (428/2)، طبعة 1330هـ بمصر) ما يلي: "رأيت أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ قال في كتاب له سماه بـ"كتاب الأصنام": وخلف كنانة بن خزيمة على زوجة أبيه بعد وفاته، وهي برة بنت أدبن طانجة جدّ كنانة بن خزيمة. ولم تلد الكنانة ولداً، ذكراً ولا أنثى. ولكن كانت ابنة أخيها برة بنت أدبن طانجة تحت كنانة بن خزيمة. فولدت له النضر بن كنانة. وإنما غلط كثيرون

مجلة الهند

من الناس لما سمعوا أن كنانة خلفه على زوجة أبيه لاتفاق اسمهما وتقابله نسيهما. وهذا الذي عليه مشائخنا وأهل العلم والنسب. ومعاذ الله أن يكون أصحاب نسب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نكاح مقت، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ما زلتُ أخرج من نكاح كنكاح الإسلام حتى خرجت من بين أبي وأمي ومن اعتقاد غير هذا فقد كفر وشك في هذا الخبر. والحمد لله الذي نزّهه عن كل وهم وطهّره تطهيرًا".

8. كتاب أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات

9. كتاب أصول الفتيا والأحكام

ذكره عبد القاهر الجرجاني في الفرق بين الفرق والرسعني في مختصره (ص 106 و 118) بعنوان "الفتيا" و"كتاب في الفتيا" بينما ضبطه الحموي بـ"كتاب الفتيا" وبروكمان بـ"رسالة الفتيا".

10. كتاب الأوفاق والرياضيات

11. كتاب الجوابات

الكتاب الذي ذكره الحموي باسم "كتاب جوابات كتاب المعرفة" هو نفس الكتاب كما يبدو لي. وقد ذكر ريو كتاباً باسم "كتاب المسائل والجوابات في المعرفة". أعتقد أنه نفس الكتاب.

12. كتاب الحجة في تثبيت النبوة (ط)

ذكره الجاحظ في الحيوان (50/6) باسم "كتاب النباتات" كما ذكره عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز (ص 208) باسم "كتاب النبوة". والكتاب الذي ذكره الحموي باسم "كتاب الحجر والنبوة" هو نفس الكتاب على ما أعتقد إلا أن السنديوي اعتبرهما كتابين أي "كتاب الحجة" و"كتاب الحجر". وقد ضبطه ريو في الفهرس (709) باسم "كتاب في حجج النبوة".

13. كتاب الحيوان (ط)

وقد ذكره الجاحظ في البيان والتبيين (1/28) وغيره من الكتب والرسائل.

14. كتاب في خلق القرآن

15. كتاب في الرد على الجهمية في الإدراك وقولهم في العجائب

مجلة الهند

16. كتاب في الرد على المشبهة (ط)

ولعل بروكلمان سماه بـ"رسالة في نفي التشبيه".

17. كتاب الرد على النصراني والمهدى (ط)

ذكره ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص 72)، وذكر الحموي كتابين مستقلين بـ"كتاب الرد على النصارى" وـ"كتاب الرد على المهدى". ويتبعه السندي وبروكلمان إلا أن بروكلمان اعتبر "كتاب الرد على النصراني والمهدى" عملاً مستقلاً بذاته. وأرى أن هناك كتابين للجاحظ في الرد على النصارى والمهدى، جمع ذكرهما هنا. فيوجد كتاب مستقل بذاته باسم "رد النصارى" في المتحف البريطاني.

18. كتاب الزرع والنخل

ذكره الجاحظ في البيان والتبين (1/93، 230، طبعة جديدة) أيضاً.

19. كتاب الصُّرَحَاءُ وَالْجَنَاءُ

ذكره الجاحظ في مقدمة "فخر السودان على البيضا".

20. كتاب العباسية (ط)

ذكر المسعودي نفس الكتاب باسم "كتاب إماما ولد العباس"¹، ويتبعه السندي وبروكلمان، وينذهب مذهب الحموي إلا أنه كتب "بني" في محل "ولد". وأما النسخة المطبوعة فعنوانها "رسالة في العباسية" وهي مختلفة عن هذه كلها.

21. كتاب العرب والعجم

وما ذكره الجاحظ في الحيوان (3/7) من كتاب باسم "تفضيل العجم على العرب"² والحموي باسم "كتاب التسوية بين العرب والعجم" هو نفس هذا الكتاب على ما أظن.

22. كتاب العرب والموالي

¹ مروج الذهب، 157/2

² الحيوان، طبعة عبد السلام محمد هارون

مجلة الهند

وأشار إلى هذا الكتاب ابن عبد ربه في العقد (3/367) باسم "كتاب الموالى والعرب" وفي 7/83 باسم "كتاب الموالى". وما ذكره بروكلمان من كتاب باسم "فضل الموالى على العرب" محيلاً إلى "الفرق بين الفرق" (ص 162)، هو نفس هذا الكتاب كما أعتقد.

23. كتاب الفرق بين اعتراض القمر وبين استبصار الحق

لم يذكر هذا الكتاب أحد سوى الجاحظ.

24. كتاب فرق ما بين الجن والإنس

25. كتاب الفرق ما بين الملائكة والجن

26. كتاب الفرق ما بين الحيل والمخاريق

27. كتاب فرق ما بين النبي والمتنبي

سمّاه الحموي "كتاب النبي والمتنبي".

28. كتاب فرق ما بين هاشم وعبد شمس (ط)

ذكر الحموي اسمه "كتاب الفخر ما بين هاشم وعبد شمس" وتبعه السنديوي

أيضاً. وسمّاه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة (1/239 و 2/246 و 294)

بـ"كتاب مفاخرة هاشم وعبد شمس" وفي (13/2) بـ"كتاب مفاخرات قريش"،

ونقل منها مقتبسات طويلة. سماه بروكلمان بـ"كتاب فضل هاشم على عبد

شمس" وهذا هو عنوان النسخة المطبوعة أيضاً.

ونقل الحصري اقتباساً طويلاً للجاحظ بعنوان "فصل لأبي عثمان عمرو بن بحر

الجاحظ في ذكر قريش وبني هاشم" في زهر الآداب {العقد الفريد، 1/53}

(المأمور).

29. كتاب فضل ما بين الرجال والنساء والفرق ما بين الذكر والأئمّة

ذكره الجاحظ في البيان والتبيين (1/77) باسم "فصل ما بين الذكر والأئمّة" وفي

(92/1) باسم "كتاب الرجل والمرأة".

30. كتاب القحطانية

أشار إلى هذا الكتاب ابن عبد ربه في العقد (6/231) باسم "فخر قحطان على

عدنان" ويسمّيه الحموي بـ"كتاب فخر القحطانية والعدنانية".

مجلة الهند

31. كتاب العدنانية في الرد على القحطانية ذكره الجاحظ في الحيوان (3/7) باسم "تفضيل عدنان على قحطان".
32. كتاب المسائل ذكره الجاحظ بنفس الاسم في كتاب البخلاء (1/26)، وذكر الحموي كتاباً آخر للجاحظ باسم "كتاب مسائل كتاب المعرفة". وأعتقد أن "كتاب المسائل في المعرفة" أصبح كذلك لأجل الخطأ الواقع في الكتابة.
33. كتاب المعاد والمعاش (ط) ضبط ريو اسمه في الفهرس (709) "كتاب في المعاد والمعاش" بينما ذكره بروكلمان باسم "رسالة المعاد والمعاش".
34. كتاب المعادن والقول في جواهر الأرض
35. كتاب في الوعد والوعيد (ط) ذكره الجاحظ في الحيوان (3/7) باسم "إيجاب الوعد والوعيد" بينما يذكره الحموي بـ"كتاب الوعد والوعيد". والكتاب الذي ذكره ريو باسم "رسالة في استيجاز الوعد" في الفهرس (710) وأما ما ذكره السنديوي وبروكلمان من كتاب باسم "رسالة في استنجاز الوعد والوعيد" هو نفس هذا الكتاب على ما أعتقد.
36. مفاحرة السودان والحرمان (ط) ذكره ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (71). وكتب المسعودي اسمه "فخر السودان ومناظرهم مع البيضان" في مروج الذهب (39/1). والكتاب الذي ذكره الحموي باسم "كتاب السودان والبيضان" والسنديوي باسم "رسالة في فخر السودان على البيضان" وبروكلمان باسم "فخر السودان على البيضان" هو نفس هذا الكتاب والحال أن بروكلمان يعتبره كتابين مستقلين.
37. المعارضة للزيدية ذكره ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (71). وذكر الحموي كتاباً باسم "كتاب حكاية قول أصناف الزيدية" وذهب مذهب السنديوي وبروكلمان. أعتقد أنه نفس هذا الكتاب ولكن السنديوي يعتبرهما كتابين مستقلين.

مجلة الهند

38. تفضيل الاعتزال على كل نحلة ذكر الحموي وتبعه بروكلمان كتابين باسم "كتاب الاعتزال وفضله" و"كتاب فضيلة المعتزلة" ولكن السنديوي يعتبرهما كتاباً واحداً.
39. موازنة ما بين حق الخُوّولة والغُمومية
40. الهاشميات ذكره الجاحظ في الطبعة الجديدة من كتاب الحيوان (ربّه عبد السلام محمد هارون).
41. كتاب حيل اللصوص كتب الجاحظ اسمه "كتاب في تصنيف حيل لصوص الماء وفي تفصيل حيل سرّاق الليل" في كتاب البخلاء (17/1). ويكتب البغدادي في الفرق بين الفرق (ص 162) والرسعني في مختصره (ص 118) اسمه "كتاب في حيل اللصوص" بينما ذكره بروكلمان باسم "حكاية عثمان الخياط في اللصوص ووصاياه".
42. كتاب غش الصناعات ذكره البغدادي والرسعني والحموي بنفس الاسم.
43. كتاب الملح والطُّرف لم يذكره سوى السنديوي.
44. كتاب احتجاجات البخلاء (ط) كتب جميع كتاب ترجمته أن اسمه "كتاب البخلاء" وتم طبعه بنفس الاسم.
45. القول في الفرق بين الصدق والكذب
46. الفرق بين الغيرة وإضاعة الحرمة وجاء في الحيوان (149/1) ما يلي من الكتاب:
47. كتاب الاسم والحكم ذكره بروكلمان بنفس الاسم. وتم ذكر الكتب الآتية في الحيوان (3/7):
48. تفضيل علي رضي الله عنه ذكره ابن قتيبة في تأويل مختلف الحديث (ص 71).

مجلة الهند

49. تصويب الحكمين (ط)

ضبط الحموي اسمه "كتاب تصويب علي في تحكيم الحكمين" وأما بروكلمان فقد ذكره باسم "رسالة إلى أبي حسان في أمر الحكمين وتصويب رأي أمير المؤمنين". واقتبس منه ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة (1/406 و 2/560).

50. تقديم الاستطاعة

سمّاه الحموي بـ"كتاب الاستطاعة وخلق الأفعال".

51. ثبّيت الأعراض

52. تفضيل البصرة على الكوفة، ومكة على المدينة، والشام على الجريزة

53. تفضيل عمرو على واصل

54. تفضيل مالك على أبي حنيفة

55. تفضيل امرئ القيس على النابغة، وعامر بن الطفيلي على عمرو بن معدىكرب،
وعباد بن الحسين على عبيد الله بن الحر

56. تفضيل ابن سريح على الغريص

57. تفضيل سيبويه على الكسائي

58. تفضيل الجعفري على العقيلي

59. تفضيل حلم الأحنف على حلم معاوية

60. تفضيل قتادة على الزهري

الجاحظ: البيان والتبيين

ذكر الجاحظ الكتب الآتية في كتاب "البيان والتبيين":

61. كتاب الأسماء والكنى والألقاب والأنباز

62. أبناء السراري والمهرات

63. كتاب الجوارح

لهم يذكرها أحد سواه.

64. كتاب الغرجان

ذكر الحموي اسمه "كتاب العرجان والبرصان" وزاده السيوطي بـ"والقرعان".

مجلة الهند

65. كتاب الإنسان

كتب عبد السلام محمد هارون في هامش تحقيقه (186/1) أن عنوانه "كتاب الإنسان من كتاب الحيوان" يوجد في جميع الكتب إلا في مخطوطة واحدة وهذا يعني أن الجاحظ قد جعل كتاب الإنسان جزءاً لكتاب الحيوان.

الجاحظ: استحقاق الإمامة

66. كتاب الرافضة

ذكره الجاحظ في "كتاب في استحقاق الإمامة" و"بيان مذاهب الشيعة" كما توجد نصوصه في تأويل مختلف الحديث (ص 71) لابن قتيبة. وأعتقد أنه هو الكتاب الذي ذكره الحموي باسم "كتاب ذكر ما بين الزيدية والرافضة" وبروكمان باسم "مقالة الزيدية والرافضة" بناءً على شهادة ريو.

67. بيان مذاهب الشيعة (ط)

لم يذكره الجاحظ ولكن ذكر فيه مؤلفه "كتاب الرافضة". فيثبت أنه من مؤلفات الجاحظ والذي أقرّه هو بنفسه.

68. كتاب في استحقاق الإمامة (ط)

لم يذكره الجاحظ أيضاً في أيٍ من كتبه ولكن أحال إلى "كتاب الرافضة" فيمكن أن يقال أنه من مؤلفاته.

69. البيان والتبيين (ط)

لم يذكره الجاحظ أيضاً ولكن أحال فيه إلى الكتب التي ذكرت في كتاب الحيوان فأعتبره من مؤلفات الجاحظ التي ذكرها هو بنفسه.

ابن قتيبة:

ذكر ابن قتيبة الدينوري (ت 276هـ) الكتاب الآتي في تأويل مختلف الحديث (ص 72):

70. حجج النصارى على المسلمين

أعتقد أنه نفس الكتاب الذي ذكره السنديوي باسم "كتاب النصراني واليهودي".

ابن عبد ربه:

ذكر ابن عبد ربه (ت 328هـ) الكتاب الآتي في العقد الفريد (2/236، طبعة جديدة):

71. كتاب الأدب

مجلة الهند

لعل الجموي والسندي سماه بـ"كتاب عناصر الآداب" كما سماه بروكلمان بـ"عناصر الآداب".

المسعودي: المروج

ذكر المسعودي (ت 346هـ) الكتب الآتية في مروج الذهب:

1. كتاب الطفيليين¹

نقل ابن عبد ربه حادثة أبي الفلوسكي من نفس الكتاب في العقد الفريد (343/3)، على ما أظن.

2. كتاب أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان²

اعتبره الجموي "كتاب إمام معاوية".

3. الهاشمية³

سماه المسعودي باسم آخر وهو "كتاب تفضيل صنعة الكلام". ويسميه الجموي بـ"كتاب صياغة الكلام" بينما يضبطه السندي باسم "كتاب صناعة الكلام" ويقول: لعله "تفضيل صناعة الكلام" ثم ذكر "كتاب فضيلة الكلام" نقلًا عن ابن النديم وقال: إنه "تفضيل صناعة الكلام" كما أعتقد.

وكتب القفطي في تاريخ الحكماء (274) بشأن زكريا الراري أنه أيضًا ألف كتاباً باسم "كتاب مناقضة الجاحظ في كتابه في فضيلة الكلام". وأشار نشوان الحميري إلى كتاب الجاحظ "صنعة الكلام" في تفسير الحور العين (68 ب) كما نقل الحصري قول الجاحظ عن صنعة الكلام في زهر الآداب {العقد الفريد، 167/3 (الهامش)}. وأعتقد أن هذه المقتبسات تتعلق بـ"الهاشمية".

7. كتاب الأنصار

سماه المسعودي نفسه بـ"كتاب الأخبار عن الأنصار وعجائبه في التنبيه والإشراف" (ص 55). ويكتب حاجي خليفة "كتاب الأنصار" فقط في كشف الظنون

¹ مروج الذهب، 2/345

² المصدر نفسه، 2/158

³ المصدر نفسه، 2/405

مجلة الهند

ويذكره السندي بننفس الاسم ويكتب "عجائب البلدان" باسم منفرد "كتاب البلدان".

وسُجّل بروكلمان اسمه "كتاب الأوطان والبلدان" بناءً على شهادة الدكتور ريو.

أبو منصور البغدادي:

ذكر أبو منصور البغدادي (ت 429هـ) في الفرق بين الفرق (ص 133، و 158، و 162، و 182) وذكر الرسعني في مختصره (ص 106، و 118) الكتب الآتية:

76. كتاب في القِحَاب

77. كتاب في الكلاب

78. كتاب في اللاطة

اعتبر بروكلمان هذه الكتب الثلاثة كتاباً واحداً. وأما السندي فقد ذكر الكتابين الأولين فقط.

79. كتاب في النواميس

حذف السندي وبروكلمان حرف الجر "في" من اسمه.

80. كتاب المعرف

81. كتاب المضاحك

82. حِيلَ المَكَدِّين

الحصرى:

ذكر أبو إسحاق الحصري (ت 453هـ) الكتب الآتية في ذيل زهر الآداب:

83. رسالة إلى المعتصم في الحض على تعليم أولاده ضرورة العلوم وأنواع الآداب (ط)

نقل الحصري هذه الرسالة كاملاً في ذيل زهر الآداب (ص 116-120).

84. رسالة الطول والعرض (ط)

ذكر الحصري في الذيل (ص 211)، وكتب له اسمين: "رسالة التوسيع والتدوير"

و"رسالة المفاكهات". أعتقد أنه "كتاب التربيع والتدوير" الذي ذكره الحموي وتم

طبعه باسم "التربيع والتدوير". وأصبح "التربيع" "التوسيع" لوهם الكاتب.

الجرجاني:

ذكر الإمام عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) الكتاب الآتي في دلائل الإعجاز:

مجلة الهند

85. كتاب في البلاغة

أعتقد أنه نفس الكتاب الذي ذكره ريو باسم "رسالة في البلاغة والإيجاز".

الميداني:

ذكر الميداني (ت1851هـ) الكتاب المذكور أدناه في مجمع الأمثال (49/2، طبعة أوربا)¹:

86. أطعمة العرب

الحموي:

أضاف الحموي (ت626هـ) الكتب الآتية في معجم الأدباء:

87. كتاب أبي القرآن

88. كتاب الإبل

89. كتاب أبي النجم وجوابه

ضبط السنديوي اسمه "رسالة إلى أبي النجم وجوابه".

90. كتاب إحالة القدرة على الظلم

91. كتاب أحدوثة العالم

92. كتاب الأخطر والمراتب والصناعات

93. كتاب أخلاق الشطار

94. كتاب أخلاق الملوك (ط)

هكذا في كشف الظنون، ولكن نشره أحمد زكي باشا بعنوان "كتاب التاج في

أخلاقي الملوك" بناءً على مخطوطة.

95. كتاب الإخوان

96. كتاب الاستبداد والمشاورة في الحرب

97. كتاب في الأسد والذئب

حذف السنديوي وبروكلمان حرف الجر "في".

98. كتاب افتخار الشتاء والصيف

99. كتاب الإمامة على مذهب الشيعة (ط)

¹ بروكلمان، تتمة 1/245 رقم 48

مجلة الهند

يرى السنديبي أن هذا الكتاب طبع باسم "بيان مذاهب الشيعة".

100. كتاب الأمثال
101. كتاب أمهات الأولاد
102. كتاب الإنس والسلوة
103. كتاب تحصين الأموال
104. كتاب التفاح
105. كتاب التفكير والاعتبار

سمّاه الدكتور ريو في تتمة فهرس المخطوطات العربية بالمتّحف البريطاني (464)

وتبعه بروكلمان "كتاب العبر والاعتبار" وأما السنديبي فيسميه بـ"كتاب الدلائل
والاعتبار".

106. كتاب التمثيل
107. كتاب جمهرة الملوك
108. كتاب الجواري (ط)

كتب بروكلمان اسمين آخرين له: "مفاخرة الجواري" و"مفاخرة الغلمان
والجواري".

109. كتاب الحاسد والمحسود (ط)

كتب الدكتور ريو نفس الاسم ولكن سجّل اسمه "رسالة في الحسد" في كشف
الظنون و"رسالة الحاسد والمحسود" على غلافه المطبوع.

110. كتاب حانوت عطار
111. كتاب الحزم والعزم
112. كتاب خصومة الحَوْل والعَوْر

كتب بروكلمان "القول" في محل "الحول" وهو وهم منه.

113. كتاب ذم الزنا
114. كتاب ذوي العاهات
115. كتاب الرد على من ألح في كتاب الله

مجلة الهند

116. كتاب الرد على من زعم أن الإنسان جزء لا يتجزأ
117. كتاب السلطان وأخلاق أهله
118. كتاب الشارب والمشروب (ط)
كتب السنديوي "رسالة" في محل "كتاب" وأما بروكلمان فترك كلها.
119. كتاب الصواليجة
120. كتاب العالم والجاهل
121. كتاب الفتیان
ذكر عنوانه "كتاب أخلاق الفتیان وفضائل أهل البطالة" في مقدمة "كتاب التاج في أخلاق الملوك".
122. كتاب فضل العلم
123. كتاب فضل الفرس
كتب السنديوي وبروكلمان اسمه "كتاب فضل الفرس على الهملاج". واعتبره الحموي كتاباً مستقلاً باسم "كتاب على الهملاج". وأعتقد أنه وهم من الكاتب الحموي. والصواب "كتاب فضل الفرس على الهملاج" والذي جعل كتابين من خلال التقسيم. والجدير بالذكر أن المصحح قدقرأ "الفُرس" بمعنى أهل فارس في محل "الفُرس" في طبعة جديدة من معجم الأدباء.
124. كتاب القواد (ط)
نقله الشهاب الخفاجي كاملاً في كتابه "طراز المجالس" (73-67) وسمّاه بـ"صناعات القواد". ويدركه بروكلمان باسم "رسالة في ذمم القواد" والعنوان في النسخة المطبوعة هو "رسالة في صناعات القواد".
125. كتاب الكبير المستحسن والمستقبع
126. كتاب المخاطبات في التوحيد
كتب ابن أبي الحديد اسمه "كتاب التوحيد" في شرح نهج البلاغة (2/465) ونقل منه نصاً واحداً بينما ترك بروكلمان كلمة "كتاب".
127. كتاب المزاح والجد (ط)

مجلة الهند

ضبط بروكلمان اسمه "رسالة في الجد والبزل" بناء على شهادة ريو.

128. كتاب مسائل القرآن

يذكره بروكلمان باسم "كتاب القرآن".

129. كتاب المعلمين (ط)

أضاف ريو حرف الجر "في" إلى فهرسه (709) وأما بروكلمان فذكره باسم "رسالة في المعلمين".

130. كتاب المغنيين

كتب ريو اسمه "كتاب في طبقات المغنيين" في فهرسه (709). ويدركه بروكلمان والسندوي بي باسم "رسالة في طبقات المغنيين".

131. كتاب المقيّنين والغناء والصنعة

التبس اسم الكتاب على السندوي فجعله "كتاب المغنيين" ولكن صرح المصحح للطبعة الجديدة من معجم الحموي أن هذا الكتاب لم يكتبه الجاحظ عن المغنيين بل كتب عن المقيّنين. والمقيّن هو اسم الفاعل لـ"تقين" ومعنى تعليم الجواري فـ"الأغنية".

132. كتاب في المكاتب

تبعه الحموي والسندوي ضابطين اسمه "كتاب آل إبراهيم بن المديري في المكاتب" ولكن حول بروكلمان من "آل" إلى "إلى" وأعتقد أن الصواب يرجع إليه.

133. كتاب الملوك والأمم السالفة والباقية

134. كتاب مناقب جند الخلافة وفضائل الأتراك (ط)

كتب السندوي وبروكلمان اسمه "رسالة إلى فتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة" بناء على شهادة ريو (709).

135. كتاب الناشي والمتلاثي

كتب بروكلمان اسمه "كتاب اللاشي والمتلاثي".

136. كتاب النزد والشطرنج

137. كتاب النساء (ط)

مجلة الهند

ما نقله ابن القيم الجوزية من أقوال الجاحظ في أخبار النساء (ص 20 و 113) هي مأخذة من هذا الكتاب حسبما أعتقد. وذكر السنديوي وبروكلمان كتاباً باسم "رسالة في العشق والنساء" على شهادة ريو ولعله نفس هذا الكتاب.

138. كتاب النعل

139. كتاب نقض الطب

ذكر ابن القفطي في أخبار الحكماء (ص 274 و 438) كتابين تم تأليفهما في الرد عليه.

140. كتاب نوادر الحسن

141. كتاب الوكلاء والموكلين (ط)

يضبطه ريو (709) باسم "كتاب في الوكلاء"، والسنديوي باسم "كتاب الوكلاء" وبروكلمان باسم "رسالة في الوكلاء".

142. كتاب الهدايا

ما ذكره الحصري في زهر الآداب (حاشية العقد، 1/189) من مقتبسات عن الجاحظ هو من هذا الكتاب على ما أظن.

143. رسالة في إثم السكر

144. رسالة في امتحان عقول الأولياء

145. رسالة في الأمل والمأمول

146. رسالة في الحلبة

حذف السنديوي وبروكلمان حرف الجر "في".

147. رسالة في الخراج

148. رسالة في ذم الكتاب (ط)

كتب السنديوي وبروكلمان اسمه "رسالة في ذم أخلاق الكتاب".

149. رسال في ذم النبيذ

150. رسالة في ذم الوراق

سمّاه السنديوي وبروكلمان بـ"رسالة في ذم الوراق".

مجلة الهند

رسالة في الرد على القولية 151

رسالة في العفو والصفح 152

ضبطة بروكلمان باسم "كتاب".

رسالة في فرط جهل يعقوب بن إسحاق الكندي 153

رسالة في فضل اتخاذ الكتب 154

رسالة في القضاة والولاة 155

رسالة في القلم 156

رسالة في كتمان السر (ط) 157

أضاف بروكلمان "وحفظ اللسان".

رسالة في الكوم 158

رسالة في الكيمياء 159

سمّاه الحموي "كتاب رسالة في كتاب الكيمياء" ولكن أعتقد أن الكاتب أضاف

كلمة "كتاب" وهماً. والصواب ما اخترته أنا والسندوي وبروكلمان.

رسالة في مدح الكتاب 160

رسالة في مدح النبيذ 161

رسالة في مدح الوراق 162

كتب السندوي "الوراق" في محل "الوراق".

رسالة في من يسمى من الشعراء عمراً 163

رسالة في موت أبي حرب الصفار البصري 164

رسالة في الميراث 165

بدأ بروكلمان اسمه بـ"كتاب".

رسالة اليتيمة 166

ابن العربي:

ذكر محيي الدين ابن العربي (ت638هـ) في مقدمة محاضرة الأبرار ما يلي من الكتاب:

كتاب المحسن والأضداد (ط) 167

مجلة الهند

نسب ابن العربي هذا الكتاب إلى الجاحظ وأقرّه حاجي خليفة في كشف الظنون والبغدادي في خزانة الأدب (10/1) وغيره من مؤلفات الجاحظ.

ابن أبي الحديد:

ذكر ابن أبي الحديد (ت656هـ) الكتاب الآتي في شرح نهج البلاغة (36/1) وغيره:
168. كتاب السفيانية

كتب أبو عبد الله البصري (شرح نهج، 1/539) وابن أبي الحديد نفسه (شرح نهج، 1/198، 239، 62) في ردّه باسم "نقش كتاب السفيانية" الذي توجد مقتبساته الطويلة في شرح نهج البلاغة.

أبو الفداء:

ذكر أبو الفداء (ت732هـ) الكتب الآتية في تاريخه:

169. كتاب الغلامان

170. كتاب في الفرق الإسلامية

لا يبعد أنه "بيان مذاهب الشيعة".

النويري:

نقل النويري (ت733هـ) مقتبس كتاب الجاحظ الآتي في نهاية الإرب (134/3):

171. زجر الطير

أخبر بروكلمان¹ بأن مخطوطة واحدة للجاحظ صينت باسم "باب العرافية والزجر والفراسة على مذهب الفرس" في ليدن. أعتقد أنه نفس هذا الكتاب.

الصفدي:

ذكر الصفدي (ت764هـ) الرسائل الآتية في شرح لامية العجم (241/2):

172. رسالة في مفاخرة المسك والرماد

وكذا نقل مقتبس الرسالة المذكورة أدناه في الشرح المذكور أعلاه (380/2):

173. رسالة في تفضيل النطق على الصمت (ط)

¹ تتمة تاريخ آداب العربية، 1/244 رقم 45.

مجلة الهند

توجد مخطوطة للكتاب في المتحف البريطاني.

ابن كمال باشا:

ذكر ابن كمال باشا (ت940هـ) الكتاب الآتي في مقدمة رجوع الشيخ إلى صبابا:

174. كتاب العرس والعرايس

ذكر نفس الاسم في كشف الطنوون ولكن ضبطه بروكلمان بـ"كتاب العرس
العروس" نقاًلا عن الكشف.

حاجي خليفة:

ذكر صاحب كشف الطنوون الكتب الآتية:

175. ديوان جاحظ

176. مائة كلمة لأمير المؤمنين علي كرم الله وجهه (ط)

ذكره بروكلمان باسم "مائة أمثال علي".

177. كتاب الطبائع

كتب السنديوي اسمه "كتاب أفعال الطبائع".

الخفاجي:

ذكر الشهاب الخفاجي (ت1069هـ) الكتب الآتية من مؤلفات الجاحظ في كتابه

طراز المجالس:

178. كتاب استطالة الفهم

يوجد مقتبسه في طراز (104).

179. رسالة في وصف العوام

نقل مقتبسه في طراز (175).

180. كتاب الحجاب (ط)

تم نقله كاملاً في طراز من (73) إلى (97). وأضاف بروكلمان "وذمة" إلى اسم هذا

التأليف الأخير. ويسميه السنديوي بـ"كتاب الحجاج" وهماً.

البغدادي:

ذكر عبد القادر البغدادي (ت1093هـ) الكتب الآتية للجاحظ في خزانة الأدب

(ص 101 و 477):

مجلة الهند

181. شرائع المرأة

182. كتاب الشعر والشعراء

الدكتور ريو:

ذكر الدكتور ريو الكتب الآتية للجاحظ في تتمة فهرس المخطوطات العربية

بالمتحف البريطاني (709):

183. كتاب الجوابات في الإمامة (ط)

184. كتاب في تفضيل البطن على الظهر (ط)

كتبه السنديوي "رسالة".

185. رسالة في المودة والخلطة

186. كتاب في النبل والتنبل وذم الكبر

187. طبقات المغنيين

السنديوي:

أضاف السنديوي الكتب الآتية إلى فهرس مصنفات الجاحظ:

188. رسالة في بني أمية (ط)

189. رسالة في القيان (ط)

طبع السنديوي هذه الرسالة.

190. الحنين إلى الأوطان

191. رسالة في مدح النجار وذم عمل السلطان (ط)

192. كتاب فخر عبد شمس ومخزوم

بروكلمان:

ذكر الدكتور بروكلمان الكتب الآتية للجاحظ في تاريخه:

193. رسالة في النابتة (ط)

194. رسالة في ذم العلوم ومدحها

195. رسالة في الفصل ما بين العداوة والحسد (ط)

196. رسالة في مدح الخطب والخط على جمعها

197. ذم اللواط

مجلة الهند

رسالة في الأخلاق المحمودة والأخلاق المذمومة 198

رسالة إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دواد الأيادي 199

رسالة في فنون شتى مستحسنة 200

سحر البيان 201

التبصر بالتجارة (ط) 202

القول في البغال ومنافعها (ط) 203

طبعت هذه الرسالة باسم "كتاب البغال".

كتاب الفرق في اللغة 204

كتاب أئمة العرب 205

كتاب المذاهب 206

لا يبعد أنه "بيان مذاهب الشيعة" أو "الفرق الإسلامية".

المختار من كلام الجاحظ 207

يبلغ عدد كتب الجاحظ إلى 207. ولا اعتبر أن أكثر كتبه مستقلة. وربما أخطأ

فيها. وبناءً على هذا فلا يبعد أن يزيد على هذا المجموع ولكن سيكون أقل بكثير مما

ذكره المؤرخون. ولعل الله يوفق أحداً فيقوم باكتشاف مجموعة أخرى من رسائله.

ولا يخلو من الإمتاع أن نذكر هنا أن الجاحظ قد ألف عدة كتب في البداية ثم

نشرها باسم المشاهير كابن المقفع فقد كتب المسعودي في "التنبيه والإشراف" 76:

"كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني الحسن النظم وينسبه إلى نفسه، فلا يرى

الأسماع تصغي إليه ولا الإرادات تيمم نحوه. ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة

وأقل فائدة، ثم ينحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من

المتقدمين ومن قد طارت أسماؤهم في المصنفين فيقبلون على كتبها ويسارعون إلى

نسخها لا لشيء إلا لنسبتها إلى المتقدمين".

فانتقمت القدرة منه حتى طبع الغشاشون فيما بعد كتبهم باسمه وقد كشف

القناع عما يأتي منها:

كتاب الإبل 208

وقال الحموي عنه "ليس من كلام الجاحظ ولا يقاربه".

مجلة الهند

209. كتاب الهدايا

رأه الحموي بأنه منحول.

210. كتاب التاج في أخلاق الملوك

طبع هذا الكتاب من مصر عام 1332هـ/1914م مع تصحيح أحمد زكي باشا.

ويؤكد المصحح أنه تأليف الجاحظ ولكن السنديوي يرى أن أسلوبه لن يكون
للجاحظ، بل هو إنتاج مؤلف من القرن الخامس الهجري.

إذ أن السبك يتعلق بالذوق والوجدان فقط فلا يكون حكم الذوق صحيحاً دائمًا
فلذا سأكون حذرًا في قبول حكمه إلى أن أظرف بشهادة مادية.

211. كتاب تنبيه الملوك والمكايد

ولا يقبله السنديوي أيضاً كمؤلف الجاحظ بناءً على أسلوب الكتاب.

212. كتاب الحنين إلى الأوطان

ولا يقبله السنديوي أيضًا بناءً على السبب المذكور أعلاه. وذكر الحموي في معجم
الأدباء (8/15) أنه من مؤلفات أبي حيان التوحيدي.

213. كتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والآثار

يقره السنديوي من مؤلفات الحارث بن أسد المحاسبي (ت243هـ/857م) وتوجد
مخطوطة له في المتحف البريطاني منسوبة في عام 1258هـ/1842م.

214. كتاب سلوة الحريف بمناظرة الربيع والخريف

أما مخطوطة الكتاب الذي تم طبعه منها في منسوبة في عام 441هـ فينبغي أن تكون هذه الشهادة القديمة لها قيمة فيما يبدو، ولكن السنديوي أثبت من خلال الشواهد الداخلية أنه ليس من مؤلفات الجاحظ، فقد نقلت فيه أشعار ابن المعتر (ت296هـ/909م) وهو كان ابن ثمانين سنوات حين وفاة الجاحظ.

215. كتاب المحسن والأضداد

اعترف به ابن العربي، كما مضى، واعتبره بعض المتقدمين من كتب الجاحظ، ولكن السنديوي يرى أنه لا يمكن أن يكون من صنع يديه لأنه نقل فيه أيضًا أشعار ابن المعتر. ومع ذلك ذكر فيه إساءة القرامطة إلى حجاج بيت الله وهي من حوادث عام 294هـ

كتاب الأخبار

قد ذكر "كتاب الأخبار" فيما بين مؤلفات الجاحظ المعترف بها. ولا وجدت حتى الآن أية نسخة من هذا الكتاب ولا ذكر أحدٌ من المتقدمين مقتبساته وعلى هذا فلم يتعين حتى الآن ما هو موضوعه.

ومن حسن المصادفة أني عثرت على مقتبسين طوليين من كتاب الأخبار حين قراءة مخطوطة كتاب "تفسير الحور العين" للقاضي أبي الحسن نشوان بن سعيد الحميري (ت 573هـ/1178م)، نقلهما نشوان استشهاداً على المباحث المختلفة. ويتعلق جزءاً منها بمقعدة كتاب الأخبار بينما يتصل الجزء الآخر بنفس الموضوع، ويتبين مما

أن موضوعه النقد العقلي على الأحاديث.

وقال الجاحظ في مقدمته إن التاريخ يدلّ على أن الأقوام التي حكمت على الأقوام المعاصرة في رقي ثقافتها وحضارتها، إنها أيضاً لا تتصف بنضوج الفكر والعقل في الأمور المذهبية وتكون متورطة في الأوهام والرسوم المروجة كعامة الناس. فكم من أعمال قام بها العرب والمندو وأهل الروم والإيرانيون في مختلف مجالات العلوم والآراء والأداب والصناعات ولكن يبدو جميعهم "فاحش الخطأ" و"قبح المقال" في شأن الدين.

فأولاً ذكر الجاحظ مآثر هذه الأقوام الأربع لإثبات دعواه ثم أحصى مناقصهم المذهبية.

وأيضاً قال مثل هذا في شأن المسلمين في المقتبس الثاني وذكر عدة أحاديث من الأحاديث المشهورة من عهده وأراد أن يثبت بها أن المسلمين قد اعترفوا بصحة وصدقية الأحاديث التي لا يقبلها العقل والتجربة بأي صورة من الصور بالرغم من رقيمهم في العلوم الدنيوية.

إذ أن الجاحظ قد قدّم أقوال أستاذه النظام في هذا البحث فأنا أفهم أن النظام هو الذي كتب هذا الكتاب. وقد أتى به أيضًا ابن قتيبة في كتابه الشهير "تأويل مختلف الحديث" إذ أنه خاطب النظام في محل الجاحظ راجاً على الاعتراضات العقلية على الأحاديث.

مجلة الهند

وبعد ابن قتيبة رد بالتفصيل المحدث الشهير أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الإصفهاني (ت 406هـ / 1015م) في كتابه "مشكل الحديث وبيانه" على الاعتراضات العقلية. ولكنه خاطب فرق الجهمية والمعزلة والخوارج والرافضة والجسمية بدلاً من يوجه الخطاب إلى رجل خاص.

كتاب الأخبار المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(1)

(80 ب) قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب الأخبار:

وبعد فإن الناس يختصون في الدين من فاحش الخطأ وقبح المقال بما لا يختصون به سواه من جمع العلوم والأراء والأداب والصناعات. ألا ترى أن الفلاح والصانع والنجار والمهندس والمصور والكاتب والحاسب (81 ألف) من كل أمة وملة لا تجد بينهم من التفاوت في الفهم والعقل والصناعة، ولا من فاحش الخطأ وإفراط النقص، مثل الذي تجد في أديانهم وفي عقولهم عند اختبار الأديان.

والدليل على ما وصفت لك أن الأمم التي عليها المعتمد في العقل والبيان والرأي والأدب والاختلاف في الصناعات من ولد سام خاصة أربع: العرب، والهنود، والروم، والفرس. ومقى نقلتهم من علم الدنيا إلى علم الدين، حسبت عقولهم مختبلة وفطرهم مسترقة.

كالعرب، فإنها مخصوصة بأمور: منها البيان ليس مثله بيان¹، ولللغة التي ليس مثلها في السعة لغة²: وقيافة الأثر مع قيافة البشر³. وليس في الأرض قوم غير العرب يرون المتباهين في الصور والمتفاوتين في الطول والقصر، والمختلفين في الألوان، فيعلمون أن هذا الأسود ابن لهذا الأبيض، وهذا الطويل ابن لهذا القصير، وهذا القبيح عمُّ هذا المليح.

¹ راجع: البيان والتبيين له

² راجع: المخصص لابن سيده، ولسان العرب للإفريقي، وفقه اللسان للكنتوري

³ راجع: مروج الذهب للمسعودي، 256/1

مجلة الهند

وللعربي الشعر الذي لم يشاركم فيه أحدٌ من العجم.¹

قال: وقد سمعت للعجم كلاماً حسناً وخطباً طوالاً يسمونها أشعاراً. فأما أن يكون لهم شعر على أعراض معلومة وأوزان معروفة- إذا نقص منها حرف أو زاد حرف أو تحرّك ساكن أو سكن متحرّك، كسره وغيره- فليس يوجد ذلك إلا للعرب خاصة دون غيرهم.

وليس في الأرض قوم أعنى بذم جيل القبيح ودقائقه وبحمد دقيق الحسن وجليله من العرب، حتى لو أجهدأفطن البرية وأعقل الخليقة أن يذكر معنى لم يذكروه، لما أصابه.

وللعرب، من صدق الحس وصواب الحدس² وجودة الظن وصحة الرأي ما لا يعرف لغيرهم.

ولهم العزم الذي لا يشهده عزم، والصبر الذي لا يشهده صبر، والجود والأنفة والحمية التي لا يدانهم أحدٌ فيها، ولا يتعلق بها (81 ب) رومي ولا هندي ولا فارسي، لأن هذه الأمور كلها بخلاف العرب شيئاً.

ثم لهم من بعد الهم والطلب بالطوائل ما ليس لغيرهم، مع المعرفة بمساقط النجوم والعلم بالأنواع وحسن المعرفة بما يكون منها للاهتداء.³

ولهم حظّ العربية مع الحفظ لأنسابهم ومحاسن أسلافهم ومساوي أكفائهم للتغاير بالقبيح والتفاخر بالحسن، ليجعلون ذلك عوناً لهم على إتيانهم الجميل واصطنان المعروف، ومجزرة لهم عن إتيان القبيح و فعل العار، ول يؤذبوا أولادهم بما أذبّهم به آباءهم.⁴

ثم الحفظ الذي لا يقدر أحدٌ على مثله، وإن دونه عنده، وخلده في كتبه.⁵

¹ راجع: العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القمياني

² بالأصل: الحسن وهو تصحيف ظاهر.

³ راجع: كتاب الأنواء لابن قتيبة

⁴ راجع: أنساب قريش لزبير بن بكار القرشي، وأنساب الأشراف للبلاذري، وكتاب الاشتقاد لابن دريد، وجمهرة النسب لابن حزم الظاهري

⁵ راجع: تذكرة الحفاظ للذهبي وغيرها من الكتب التي فيها تراجم العلماء والشعراء والأدباء

مجلة الهند

وخلصة لا تصاب إلا فيهم. وذلك أن العي والبيان في كل قوم مبثوث متفرق، ولست واجداً بالبادية عيّاً رأساً، على أنهما وإن تفاوتوا في البيان، فليس ذلك بمخرج أحسن إلى العي.

وفهم أيضاً خصلة لا تصاب إلا فيهم. وذلك أن سفلة كل جيل وعليه كل صنف إذا اشتد تشارحهم، فطالت ملحوظاتهم وكثرة مزاحهم والدعابة بينهم، وجدهم يخرجون إلى ذكر الحرمات وشتم الأمهات واللفظ السيء والسفه الفاحش. ولست بسامع من هذا وشهده حرقاً بالبادية، لا من صغيرهم ولا كبارهم ولا جاهلهم ولا عالمهم. وكيف يقولون ذلك، والحيان منهم يتغافل عن دون ذلك.

وليس في الأرض صبيان في عقول الرجال غير صبيانهم.

وكل شيء تقوله العرب، فهو سهل علمها وبطبيعة منها. وكل شيء تقوله العجم فهو تكلف واستكراه.

وللعرب البدائية في الرأي والقول خاصة.

ولهم الكني مع الأسماء خاصة- وهي من التعظيم- وقد زعم قوم من الفرس أن فهم الكني. واحتجوا بقول عدي بن زيد¹:

أين كسرى. كسرى الملوك أبو سا

سان²، أم أين قبله سابور وليس كذلك. إنما كناه عدي بن زيد على عادته حين أراد تعظيمه، إن صحت الكنية في هذا البيت. فأما أبو عمرو بن العلاء ويونس النحوي وأبو عبيدة فرورو (82 ألف) جميعاً أن عدياً قال³:

¹ لترجمة الشاعر راجع: سبط اللائي، ص 221 لأستاذ الميمي أدام الله فضله، والأغاني، 35/2، ومعجم المرزباني، ص 141، والشعر والشعراء لابن قتيبة، ص 34

² كما في الشعر والشعراء لابن قتيبة، ص 35، ومعجم المرزباني، ص 249، والعرب للجواليقي، ص 194 و282، واللسان، 81/8

³ كما في الأغاني، 24، والمروج، 129/1، والعرب للجواليقي، ص 30، والأمالي لابن الشجري، 91/1، وشعراء التصرينية، ص 465، وفي المروج والأمالي: "خير الملوك".

مجلة الهند

أين كسرى، كسرى الملوك أنو شر
وان، أم أين قبله سابور
فأخذوا الرواية. وقيل ذلك عنه من لا علم له. وليس في الأرض عجمي له كنية إلا أن
تكتنفه العرب.

وليس في الناس أشدّ عجباً بالخيل من العرب، ولا أصنع لها، ولا أكثر لها ارتباطاً، ولا
أشدّ لها إثارةً، ولا أهنجي لمن لا يتخذها، أو من اتخذها وأهانها وأهزلها، ولا أمدح من
اتخذها وأكرمتها ولم يهتم بها. ولذلك أضيفت الخيل إليهم بكل لسان، حتى قالوا جميعاً:
هذا فرس عربي. ولم يقولوا، هذا فرس هندي ولا رومي ولا فارسي. ف Hutchinson تحصين
الحرم، وصانوها صون الأعراض، ليتذلّلوا يوم الروع، وليدركوا علمها الثار.

وكانوا يؤثرونها على أنفسهم وأولادهم، ويصبرون على مئونتها في الجدب والائل،
ويغبقون¹ بالماء القراب، ويؤثرونها بالحلب، لأنها كانت حصونهم ومعاقليهم. وقالوا في
إشارتها أشعاراً كثيرة في الجاهلية والإسلام، ليقتدي الآخر منهم بالأول، ولبيق ذكر
ما شرّهم وقدّيم مفاحرهم.²

فمن أشعارهم في الجاهلية قول الأسعري³ الجعفي. واسمـه مرثـد بن حمرـان. وكنـيته أبو
حمرـان. سـمي الأسعـر بـيت قـالـه وـهـو:

فلا تدعني الأقوام⁴ من آل مـالـك
إذا أنا لـمـ أـسـعـرـ عـلـيـهـمـ وـأـثـقـبـ

¹ أي ليشربون

² راجع: كتاب الخيل لأبي عبيدة، وكتاب الخيل للأصمـي، والخيل وفرسانـها للخوري، والـخيلـ وـسباقـها لـزـهـاوـيـزـادـه

³ بالأصل بالشين المعجمة. والتصحيح من الاشتقاد لابن دريد، ص 243، وليراجع أبو عبيدة في
الـخيلـ، ص 10 وـ99ـ وـابنـ قـتـيبةـ فيـ المـعـانـيـ الـكـبـيرـ،ـ 35ـ،ـ وـالـأـمـدـيـ فيـ الـمـؤـلـفـ،ـ صـ 47ـ وـالـأـسـتـاذـ
المـيمـيـ فيـ سـمـطـ الـلـآلـيـ،ـ صـ 94ـ

⁴ في الاشتقاد والسمط:

فلا يدعني قـومـيـ لـسـعـدـ بـنـ مـالـكـ
لـئـنـ أـنـ لـمـ أـسـعـرـ عـلـيـهـمـ وـأـثـقـبـ
وـكـذـاـ فـيـ الـمـؤـلـفـ إـلـاـ أـنـ فـيـهـ:ـ إـذـاـ أـنـ إـلـخـ

مجلة الهند

وهذا قوله^١:

لكن قعیدة بيتنا مجففة باد جناجن صدرها ولها غنا

تُقَفَّى بعيشة أهلها وثابة أو جرشع عَبْل المحازم والشوى

وقال خالد بن جعفر بن كلاب^٢:

أريغوني إراغتكم، فإنني^٣ وحذفة كالثجا تحت الوريد

مقربة أسوئها بجزء^٤ وألحفهاردائى في الجليد

وأوصي الحالين ليؤثرها^٥ لهالبن الخلية والصعود

وقال الضبي^٦: (82 ب)

نولم الصريح، إذا شتوها على علاتها ونلي السماء

^١ راجع: السسط، وشمس العلوم للجميري، ص 286. وفي السسط: "يقول: نؤثر هذه الفرس الوثابة أو الجرشع على قعيدة بيتنا، فهي هزيلة باد جناجن صدرها على غناها. والجناجن عظام الصدر واحدتها جنجن". أقول: وتفقي: تؤثر، وجرشع: العظيم من الإبل والخيل، ويقال: العظيم الصدر المنتفخ الجنين.

² قال أبو عبيدة في الخيل، ص 10: "ومما قالت العرب في الجاهلية في اتخاذ الخيل وصيانتها وأثرها لما كانت لهم فيها من المكرمة والعز والجمال قول خالد بن جعفر بن كلاب يذكر فرسه، وكانت تدعى حذفة" وليراجع اللسان، 1/ 385.

³ في اللسان فمن يك سائلاً عني، فإني= وحذف إلى

⁴ وفي رواية أبي عبيدة في الخيل: "أسوئها بنفسي أو بجزء".

⁵ وفي تلك الرواية: "أمرت الراعيين ليكرمواها"، وفي اللسان، 17/ 624: "أمرت بها الرعاء ليكرموها". ويروى: "أمرت الراعيين ليكرمواها، وقال: الخلية من الإبل المطلقة من العقال، وفيه (243/ 4): "قال الليث: الصعود الناقة يموت حوارها، فترجع إلى فصيلها، فتدر عليه. ويقال: هو أطيب للبهما. وأنشد لخالد بن جعفر يصف فرساً: أمرت لها الرعاء إلغ. قال الأصمسي: ولا تكون صعوباً حتى تكون خادجاً. والخلية الناقة تعطف مع أخرى على ولد واحد، فتدزان عليه، فيتخلى أهل البيت بواحدة يحلبونها".

⁶ لعله شمعلة بن الأخضر كما في الخيل لأبي عبيدة، ص 42: والصريح للبن الحالص، والعلات الشتون والحالات المختلفة، والسمار للبن الكثير الماء الرقيق.

مجلة الهند

وقال عمرو بن مالك:

وسابع عقاب الدجن أجمله^١
دون العيال، له الإيثار واللطف
وقال خرز بن لوزان^٢، وقيل لعنترة^٣:
لا تذكرني مهري^٤ وما أطعمنه
كذب العتيق، وماء شن بارد
إنني أمرؤ^٦ إن يأخذوني^٧ عنوة
إنني لأخشى أن تقول خليلي^٩:
فليكون جلدك مثل جلد الأجرب
إن كنت سائلتي غبوقاً^٥، فاذهي
أقرن إلى شر الركاب وأجتب
هذا غار ساطع، فتلبس
إن يأخذوك تكحلي وتطيب^{١١}

^١ بالأصل: أجعله، والتصحيح من الخيل لأبي عبيدة، ص 3. والدجن الغيم المطبق المظلم

^٢ بالأصل: جرير بن لوزان. وال الصحيح من الاشتراق لابن دريد، ص 212، والأمالي لابن الشجري، 1/260، والمؤلف للأمدي، ص 102. ونسما أبو عبيدة والأصممي لخرز.

^٣ راجع: ديوانه، ص 33 (طبع مصر، 1329هـ) وص 12 (طبع بيروت، 1881م)، المعاني الكبير،

89/1، والسمط، ص 86

^٤ في ابن الشجري، 1/261: فرمي

^٥ بالأصل: عتوقاً. وال الصحيح من طبعة الديوان المصرية. والغبوق ما يشرب في العشي من اللبن. وقال ابن قتيبة في المعاني الكبير: يقول، عليك بالتمر والماء البارد. ووعي اللبن لفرسي. يقال: كذب عليكم الحج، معناه: الزموا الحج. فإن سألتني غبوقاً، فاذهي، أي أنت طالق. أقول: الشن القرية الخلق الصغيرة.

^٦ في الديوان وابن الشجري: "وأنا أمرؤ".

^٧ بالأصل: "تأخذوني" وال الصحيح من الديوان وغيره

^٨ بالأصل: سير. وفي طبعة الديوان ال بيروتية: شد

^٩ في الديوان وابن الشجري: إني أحذر أن تقول ظعيني.

^{١٠} في الديوان والمعاني: الرجال.

^{١١} في الديوان والمعاني وابن الشجري: تخضبي".

مجلة الهند

ويكون مركب القعود وحجه^١ وابن النعامة^٢ يوم ذلك مركبي

وقال لبيد بن ربيعة:^٣

معاقلنا التي نأوي إلها
بنات الأعوجية والسيوفُ

وقال مرار بن منقذ الحنظلي:^٤

أخلصته حولين أمسح وجهه
وأخوه المواطن من يصون ويتأدب^٥

جعلته دون العيال مقررا
حتى انجلت، وهو الدخيل المقرب

وقال طفيل بن عوف الغنوبي:^٦

إني، وإن قل مالي، لا يفارقني
مثل النعامة في أوصالها طول

أو ساهم الوجه، لم تقطع أباجله

تقربيه^٧ المرطى، والجورُ معتدل
كأنه سبد بالماء مغسول

وقال آخر:

بني عامر، إن الخيول وقاية
لأنفسكم، والموت وقت مؤجل

أهينوا لها ما تكرمون، وبashروا
صيانتها، والصون بالخيل أجمل

^١ بالأصل: جدحه، وفي الديوان والمعاني: "رحله" وقال ابن الشجري: الحج مرکب من مراكب النساء.

^٢ اسم فرس عنترة

^٣ والبيت لا يوجد في الديوان

^٤ راجع: المؤتلف للأمدي، ص 167، ومعجم المرزباني، ص 409، وسمط اللائي، ص 70 و832.

^٥ المواطن جمع مواطن، وهو مشهد من مشاهد الحرب، ويتأدب يجد ويتعجب ويستمر في العمل.

^٦ راجع: العقد الفريد، 124/1، وترجمته في السبط، ص 210، والشعراء لابن قتيبة، ص 104، المؤتلف للأمدي، ص 147 و184.

^٧ في العقد: تقربيها

مجلة الهند

مقى تكرموها، يكرم المرأةنفسه وكل امرأ من قومه حيث ينزل وقال آخر من تميم، وقد سأله بعض الملوك فرسأ يقال له (83 ألف) سكاب، فمنعه إياه:

أبيت اللعن، إن سكاب على^١
نفيس، لا يعارض ولا يباع
تجاع لها العيال، ولا تجاع
يضمّهما، إذا نسبا، الكراع
تحيدها^٣، إذا حرّ الق راع
ومنعكـ الشيء نستطيع
وبـي مـمن تهـضـمـي^٤ امـتنـاع
وـشـبـانـ إلىـ الـهـيجـ اـسـرـاع
إـنـ لـاقـواـ، فـأـيـدـيـهـمـ شـعـاعـ
ولـهمـ أـشـعـارـ كـثـيرـ غـيرـ هـذـهـ فيـ إـكـرـامـ الـخـيـلـ فيـ الـجـاهـلـيـةـ غـيرـ ماـ قـالـواـ فيـ الـإـسـلـامـ.

قال: وهم، مع ما حكيت لك من صحة العقل وكرم الطبيعة وحسن البيان وسعة المعرفة وجودة الرأي وشدة الأنفة، يعبدون الحجارة، ويحلفون بها، ويحاربون دون كسرها وتهجئها، وينسكون لها، ويدعونها آلهة، ويخاطبونها، ولا يستجيزون عيدها، وينكرون على من ينتقصها.

ثم مع ذلك ربما رموا بها، واتخذوا سوهاها.

^١ العلق: النفيس من كل شيء

^٢ الكراهة

^٣ أي نجعلها على حيده

^٤ أي كسرني وظلمني

مجلة الهند

ثم كانوا يرون أن الرجل منهم إذا مات، فلم يأخذ وليه بعده بعيره، فيحفر له حفرة، ثم يقيده على شفيرها، ويطرح بردعته على وجهه ورأسه، ثم لا يسقيه ولا يعلفه حتى يموت، أن ذلك الرجل الميت يزعمهم يجيء يوم القيمة حافياً راجلاً. وإذا فعل ذلك، أتى راكباً. وذلك البعير البلية؟ قال أبو زيد:²

كلبلايا رؤسها في الولايات مانحات السموم، حرس الخدود

يعني الناقة التي كانت تعكس على قبر صاحبها، ثم تطرح الولية على رأسها إلى أن تموت.

وقال الطِّرْمَاح: ³(83 ب)

منازل لا ترى الأنصاب فيها ولا حفري المباني للمنـون

أي أنها منازل أهل الإسلام دون أهل الجاهلية.

ويقولون: أيما رجل قتل، فلم يطلب وليه بدمه، خلق من دماغه طير يسمى هامة.⁴ فلا يزال يزقو على قبره وينعي إليه عجز وليه، حتى يبعث. قال الشاعر:

فَإِنْ تَكَ هَامَةٌ بِرَاهَةٍ تُزَقُّ وَ فَقْدٌ أَزْقِيَتْ بِالْمَرْوِينَ^٥ هَامَا

وقال جربة بن الأشيم الأنصاري^٦، وهو أحد شياطين بنى أسد وشعرائهم:

فَإِنْ زَقَاءَ الْهَامُ أَخْبَثَ خَابَثٌ^٧ لَا تَزْقُونَ لِي هَامَةً فَوْقَ مَرْقَبٍ

^١ راجع: ابن قتيبة في مختلف الحديث، ص 126، وابن أبي الحميد في شرح نهج البلاغة، 2، 454/2، والحمدري في شمس العلوم، ص 187

² لترجمته راجع: سمت اللالي، ص 118

³ لترجمته راجع: أول ديوانه، والأغاني، 148/10.

⁴ راجع: مروج الذهب، 1/251، وشرح نهج البا

للميري، 650/2

الشاد مراد ٥

⁶ لترجمته، احمد: المؤتلف للأمدي، ص

⁷ فابن أثر الحادى 454/2: ملا قمن

یہ اپنے ابیِ احمدیہ، ۱۹۷۲ء کے مرسوم سمراء حاصل ہے۔

مجلة الهند

وقال توبة بن الحمير العامري ثم الخفاجي:^١

فلو أن ليلى الأخيلية سلمت
عليّ، ودوني تربة وصفائح
إليها صدى من جانب القبر صائح^٢
لسلمت تسليم البشاشة، أو زقا
وكانوا يقولون:

أيماشريف قتل غدراً، فوطنته امرأة مقلات، عاش ولدها.^٣ قال بشر بن أبي حازم الأ Rossi:^٤
تظلّ مقالیت النساء يطأنه
يقلن: ألا يقلن على المرأة مائز
الكنایة في "يطأنه" منصرفة إلى محزوم بن ضباء الأ Rossi.^٥

وكانوا يقولون: إذا كان لرجل ألف بعير، فلم تقفا عين بعير منها، إن السواف يأتي على
إبله. فإن زادت على ألف، فقا عينيه جميماً. فذلك المفقا والمعى.^٦ قال الشاعر:

ففأّت لها عين الفحيل تفقداً
وفمين رعالء المسامع والجرن
وكانوا إذا أجدبوا بلادهم، فأرادوا الاستمطار، أخذوا بعيزاً أورق، فشدوا في ذنبه
العثر والسلع، وصعدوا في جبل، وأشعلوا في ذنبه النار، ودعوا وتضرعوا. فإن لم (84)
ألف) يفعلوا ذلك. لم يستجب الله منهم بزعمهم.^٧

^١ لترجمته راجع: سبط اللآل، ص 120

^٢ والأبيات توجد في المروج، 1/252، وابن أبي الحديد، 2/454، والسمط، ص 120، وحيوة
الحيوان للدميري، 2/101 باختلاف يسير

^٣ راجع: ابن أبي الحديد، 3/454

^٤ لترجمته راجع: السبط، ص 664 (حاشية 5)

^٥ في السبط، ص 853: مخزوم. وقال أستاذى الميئى أدام الله فضلـه: "الزيادات محزوم. ولا أعرفه
في الأسماء --- وسقاـه في النـقائض سـعد بن ضـباء. وهو الـراجـح".

^٦ راجع: ابن أبي الحديد، 3/454

^٧ راجع: ابن أبي الحديد، 3/454 (وفيـه البـقر، بـدل الـبعـير) وحيـوة الـحيـوان، 1/267

مجلة الهند

وكانوا إذا وقع العرّ¹ في الإبل، يأخذون بعيّراً سليماً لا عيب فيه، فيقطعون مشفره، ثم يكوهونه ليذهب العر عن سائر الإبل، وإلا فشا فيها.² قال النابغة:

لحملتني ذنب امرأ، وتركته كذى العر يكوى غيره وهو راتع
وكانوا يرون أن النهيش إذا علقوا عليه الحال سلم. وإن لم يعلقوا عليه، هلك.⁴

وكان الرجل منهم إذا غزا، عقد خيطاً في ساق شجرة. فإذا رجع ورأه منحلاً، فقد خانته قعидته بزعمهم. وإن وجده بحاله، فقد حفظت نفسها له. قال الراجز:

كثرة ماتوصي وتعقاد الرتم
هل ينفعك اليوم إذ همت بهم
والرتمة اسم الخيط بعينه.⁵

وكانوا يقولون: إذا أحب الرجل امرأ وأحبّته، فإن لم يشق عليها برقعها وتشق ردائها، فسد حهمما. وإن فعل ذلك، دام حهمما.⁶ قال عبد بنى الحسحاس:⁷

فكم قد شققنا من رداء منير ومن يرقع عن طفلة غير عانس
إذا شقّ برد، شق بالبرد مثله
هذا مع إيمانهم بغزو الجن وتلوّن الغيلان، وأن الجنّ هي التي طردت أهل وبار عن
ديارهم، وصارت الجنّ سكانها. فليس بها إلا الجن والوحش.⁸

¹ وهو قرح يخرج في مشافر الإبل

² راجع: ابن قتيبة في المعاني الكبير، 229/2، وابن أبي الحديد في شرح النهج، 454/2

³ في ابن قتيبة: حملت على ذنبه آه. وفي ابن أبي الحديد: كلفتني آه

⁴ راجع: ابن أبي الحديد، 453/2

⁵ راجع: ابن فقيه في المعاني، 1/268، وابن سيده في المخصص، 13/28، وابن أبي الحديد في النهج، 455/2، والإفريقي في اللسان، 15/116، والنويري في نهاية الأرب، 3/125.

⁶ راجع: ابن أبي الحديد في النهج، 2/456

⁷ واسمها سحيم بن وثيل الرياحي. راجع: مقدمة ديوانه لأستاذي الميمي، دام ظله، والبيان في الديوان، ص 16، والمخصص، 13/232.

⁸ راجع: ابن أبي الحديد، 2/457 و458، ومعجم الوزير البكري، ص 835، ومعجم الحموي، 8/392

مجلة الهند

ومع مذهبهم في الحامي والوصيلة والبحيرة والعائبة على أمور كثيرة لا يحتاج إلى ذكرها. وإنما أوردنا من ذلك أن يعرف الناس تفاوت ما بين حال العاقل في دنياه ودينه، فإذا صار إلى التصديق والتكتنيب والإيمان والكفر، صار إلى غير الذي كان.

ثم ملنا إلى الهند¹. فوجدناهم يقدّمون في الحساب والنجوم. ولهم الخط الهندي خاصة.

ويقدمون في الطب². ولهم (أسرار)³ الطب وعلاج فاحش الأدواء خاصة.

ولهم خرط التماشيل ونحت الصور مع التصوير بالأصباغ كزئي المحارب⁴ وأشباه (84 ب) ذلك.

ولهم الشطرنج⁵. وهي أشرف لعبة وأكثرها تدبّراً وفطنة. ولهم صنعة السيوف⁶.

ولهم الكنكلة⁷. وهو وبر واحد (يمد)⁸ على قرعة فيقوم مقام العود⁹ والصنج.

ولهم ضروب الرقص والخفة.

ولهم الثقافة¹⁰ خاصة.

ولهم السحر، والتدخين، والخطب الطوال.

¹ راجع: فخر السودان على البيضان له، ص 73 و80، وطبقات ابن سعد، ص 11، والمروج، 1/356 و2/40، وكتاب ما للهند للبيروني.

² راجع: المروج، 1/84 والبيروني

³ الزيادة من فخر السودان

⁴ في فخر السودان: ونحت الصور بالأصباغ تجد من المحارب.

⁵ راجع: البيروني، ص 146، والمروج، 1/38، ودائرة المعارف الإسلامية، 4/338 وضبط فيها بفتح الأول وهو غلط

⁶ في فخر السودان "ولهم السيوف القلعية، وهم ألعن الناس بها وأخذ قهم ضرباً بها".

⁷ في المروج، 2/356: "الكيكلة"

⁸ الزيادة من المروج، 2/356

⁹ في فخر السودان: مقام أوتار العود

¹⁰ في فخر السودان: الثقافة عند الثقاف خاصة".

مجلة الهند

ولهم الرأي^١، والنجدة، والصبر. وليس لأحد من الصبر مالهم.
ولهم الزيَّ الحسن، والأخلاق المحمودة، والسلوك، والخضاب.

وهم مع جميع ما ذكرنا أصحاب بددة^٢. ينحتونها بأيديهم، ويوجبون عبادتها على أنفسهم. وهم اجتلبوها، وأوجبوا طاعتها عليهم.

ثم يتکفّنون، ويتصندلون، ويحملون معهم الألطاف والهدايا. ويدخلون النيران، إذا اشتقوا إلى موتاهم، على أنهم بزعمهم يرجعون إلى أهلهم إذا قضوا أوطارهم من زيارة موتاهم. لا ينْهِي الآخر طولُ غيبة الأول.

مع هذه الحكمة الشريفة، والأخلاق السنوية، والمعرفة الحسنة يعرفون من أمر الدنيا ما لا يعرفه أحدٌ، ويجهلون من أمر الدين ما يجهله أحدٌ.

قال: ثم ملنا إلى الروم^٣. فوجدناهم أطباء وحكماء ومنجمين.
ولهم أصول اللحون، وصنعة القرسطون^٤، وكيان الكتب.

وهم الغایات في التصوير. يصور مصوّرهم الإنسان حتى لا يغادر شيئاً. ثم لا يرضى بذلك حتى يصوّره شاباً، وإن شاء كهلاً. وإن شاء شيخاً. ثم لا يرضى بذلك حتى يصوّره باكياً أو ضاحكاً. ثم لا يرضى بذلك حتى يجعله جميلاً ناعماً عتيقاً. ثم لا

^١ بالأصل: الزيَّ والتصحيح من فخر السودان

^٢ جمع بد، وهو معرب بوده لقب گوتمن، مؤسس مذهب خاص يوجد معظم متقلديه في الصين واليابان وغيرهما من البلاد الشرقية، ويدعون الشمنية. لبد راجع دائرة المعارف الإسلامية، 1283/1 (طبعة جديدة)، والبيروني، ص 84 وقال الحميري في تفسير الحور العين، ص 80 ألف: "البد بالضم بلغة الهند وجمعه بددة وهي أصنام ينحتونها بأيديهم ثم يعبدونها و يجعلون لها بيوتاً كمساجد المسلمين وفيها بنات رؤسائهم موهوبات لتلك البدهة على وجه الأقرب بها والنذور والكافرات".

^٣ راجع: طبقات ابن صاعد، ص 33، والمروج للمسعودي، 1/ 154.

^٤ القرسطون والقارسطون ميزان الدرهم، والكلمة معرية من اليونانية كما في أقرب الموارد، ص 984 وتركه الجواليفي في المغرب

مجلة الهند

يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت وضحك الخجل، وبين المتسم بالمستعبر، وبين ضحك المسرور وضحك الهازي وضحك المتهدد. فيركب صورة في صورة وصورة في صورة وصورة في صورة.

ثم لهم في البناء ما ليس لغيرهم. ومن الخرط والتجز والصناعة ما ليس لسوادهم.

ثم مع ذلك أصحاب كتاب (85 ألف) وملة.

ولهم بعده في الجمال، والحساب، والقضاء في النجوم، والحظ والنجدة والرأي والمكيدة ما لا ينكر ولا يجحد. وإنما قلت عقول الزنج وأشباه الزنج لتباعد عن هذه الحال.

ثم هم مع ذلك أجمع يرون أن الآلهة ثلاثة: بطن اثنان، وظهر واحد كما لا بد للمصباح من الدهن والفتيلة والوعاء. وكذلك جوهر الآلهة. فزعموا أن مخلوقاً استحال خالقاً، وأن عبداً تحول رباً، وأن حديثاً انقلب قدি�ماً. إلا أنه قد قتل وصلب بعد هذا، وقد، وجعل على رأسه أكليل الشوكة. ثم أحيا نفسه بعد موته. وإنما أمكن عبيده من أخذه وأسره، وسلطهم على قتله وصلبه، ليؤاسي أنبياءه بنفسه، ولি�تحبب إليهم بالتشبه بهم، ولأن يستصغروا جميع ما صنع بهم، ولئلا يعجبوا بأعمالهم، فيستكثروها لربهم، فكان عذراً لهم أعظم من جرمهم.

قال: فلو لا أن رأينا بأعيننا وسمينا باذاننا، لما صدقنا وقبلنا أن قوماً متكلمين وأطباء ومنجمين ودهاة وحساباً وكتبة وحذاق كل صنعة يقولون في إنسان رأوه يأكل ويشرب ويبول وينجو ويجوع ويعطش ويكتسي ويعرى ويزيد وينقص ويقتل بزعمهم ويصلب، أنه رب خالق وإله رازق، وقد يُمْيت الأحياء ويحيي الموتى، وإن شاء، خلق أضعاف الدنيا. ثم يفخرون بقتله وصلبه كما تفخر اليهود بقتله وصلبه.

ثم ملنا إلى فارس¹ فوجدنا هناك العقول التي لا يبلغها عقول، والأحلام التي لا تشهدها أحلام، والسياسة العجيبة، والملك الموبد، وترتيب الأمور والعلم وبالعواقب.

¹ راجع: ابن صاعد في الطبقات، ص 15، والمسعودي في المروج، 105/1، والشهرستاني في الملل، ص

مجلة الهند

ثم كانوا مع ذلك يغشون الأمهات¹، ويأكلون الميّة ويتوضّئون بالأبوال والماء لهم مباح²، ويعظمون النار وهم أظهروها، وإن شاؤوا أطفؤوها.

ويقولون: إن الله كان وحده، استوحش، ففكّر، فلما فكر، تولد من فكره أهرمن. وهو إبليس (85 ب). فلما مثل بين يديه، أراد قتله، فلما أراد قتله، امتنع، فصالحه إلى أجل معلوم، ووادعه إلى مدة مسماة على أن لا يمتنع عليه، إذا استوفى الأجل، وبلغ المدة.

ثم إن أهرمن نوى الغدر، وذلك شيمته فأنشأ يخلق أصناف الشر يستمدّ بها عليه.

فلما عرف ذلك منه، أنشأ يخلف أصناف الخير، ليضع بإزاء كل جند جنداً. وله بعد ذلك فضل قوته، وأنه يسمى القديم دونه.

ثم قالوا في قسمة العوالم الخمس عندهم وفي أسمائها وجوهها وهيئتها، وفي خلق مهنه ومهينه³ - وهو آدم وحواء - وفي بسوس المنتظر عندهم، ما لا يستطيع وصفه أحمق منقوص ولا عالم تام، ولو جهد كل جهده، واستفرغ كل قوته.

قال: ووجه آخر يستدل به على قلة عناية الناس بأكثرب الدين، وأن شأنهم تعظيم الرجال والاستسلام للمنشأ، والذهاب مع العصبية والهوى، والرضى بالسابق إلى القلوب، واستئصال التمثيل، وبغض التحصيل، ما نجد من اعتقاد أكثر البصريين وسوادهم لتقديم عثمان بن عفان، ومن اعتقاد أكثر الكوفيين وسوادهم لتقديم علي بن أبي طالب عليه السلام، ومن اعتقاد أكثر الشاميين لدن بي أمية وتعظيم عثمان رضي الله عنه، وحبّبني مروان، حتى غلط لذلك قومٌ، فزعموا أن ذلك من قبل الطالع. وقال آخرون: بل من عمل التربية كما نجد لأهل كل ماء وهواء وطينة نوعاً من الأخلاق والمنظر والزي والصناعة واللغة. وليس ذلك، أكرمك الله، إلا من قبل تقليد السلف وحبّ الرجال وما وقع في القلوب وهجنته الحمية، لأن تقليد الآباء هو الذي

¹ كذا بالأصل. ولعل هذا سهو من الناسخ، والصواب: البناء

² قال الحميري في تفسير الحور العين، (89 ب): كانت المجوس يغسلون وجوههم بأبوال البقر تخشعاً وتقرّاً إلى الله تعالى.

³ في الشهرستاني، ص 128: "ميشه ميشانه"

مجلة الهند

أرائهم، وحب الرجال هو الذي أعماهم وأصمّهم، والنشؤ على التقليد هو الذي أفلّ خواطرهم وأمات قلوبهم.

ولو كان من قبل الطالع والتربة لما حسن الأمر والنهي، ولما جاز الحمد والثواب واللائمة والعقاب، وما كان لإرسال الرسل معنًّا. ولو كان ذلك للطالع والبلدة، لجاز ذلك في المصيب (86 ألف) كما جاز في المخطئ، ولجاز في الناظر كما جاز في المقلد.

وإنما صير أكثر البصرة عثمانية لأنهم كانوا صنائع ثلاثة أمراء: أولهم عبد الله بن عامر¹, والثاني زياد², والثالث الحجاج بن يوسف³. وهؤلاء الغaiات في حب عثمان وبني أمية. فلم يقتصروا في الدعاء إلى تقادمه واستتماله الناس إليه بالترغيب والترهيب والسياسة والتدبر.

لصنانع ابن عامر فهم فزع إليهم طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم، حين قدموا إليهم يطلبون بدم عثمان. ولأن علياً عليه السلام حاربهم، وقتل أعلامهم، وفلح حدهم. ولذلك قال رجل من كبراء البصريين في علي رضي الله عنه: "كيف أحب رجلاً قتل من قومي من لدن كانت الشمس هبنا إلى أن صارت هبنا إحدى عشرة مائة".

ولو كان هذا من قبل البحث والنظر، لما صار أهل عثمان كلهم إباضية، وغيرهم مرجئة، ولما اختار أولاد النصارى كلهم النصرانية، وأولاد اليهود كلهم اليهودية، وأولاد المجوس كلهم المجوسية. وكيف يجوز أن يعتقد أولاد اليهود كلهم اليهودية بالنظر. وقد نجد الأَخْوَيْن يُنْظَرَانِ فِي الشَّيْءِ الْوَاحِدِ، فَيُخْتَلِفَانِ فِي النَّظَرِ. ولربما نظر الناظر، فَيُصِيرُ لَهُ فِي عَامِ قُولٍ. ولربما كان ذلك في كل شهر.

^١ أمير فاتح، ولـي البصرة في أيام عثمان وقتـل عثمان وهو على البصرة. وشهد وقـعة الجمل مع عائشة، ولم يحضر صفين، ولـاه معاوية البصرة ثلاثة سنـين ثم صرـفه عنها ومات بمـكة سنة 59هـ 679م). راجـع: الـزـركـلـيـ، 4/228.

² أمير من الدهاء القادة والولاة، ولاد على إمرة فارس، ولاد معاوية البصرة والكوفة وسائر العراق. فلم يزل في ولايته حتى توفي سنة 53هـ (673م)، راجع: الزركلي، 3/89.

³ قائد داهية سَفَاك. ولاد عبد الملك مكة والمدينة والطائف ثم أضاف إليها العراق فمات في سنة 175هـ (704م) وهو والييه. راجع: الزركلي، 2/198.

مجلة الهند

فصحّ أن دين الناس بالتقليد لا بالنظر، وليس التقليد إلى الحق بأسرع منه إلى الباطل.
ولا بد لنا من أن نضع أمامعيننا ما ذكره نشوان الحميري من الآراء عن حجية الحديث، قبل نقل المقتبسات الأخرى لكتاب الأخبار، لكي نتعرف على وجهات نظر الجاحظ وأشياعه فيسهل بها القراء الحكم عليها فيقول الحميري^١:

"اختلف الناس في الحجة بالخبر بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(1) فقالت الإمامية: لا تعقل الحجة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا الإمام المؤدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(2) وقالت الزيدية: لا ثبتت الحجة في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بشهادة أربعة رجال من أهل العدالة قياساً على شهود الزنا.

(3) وقالت الخوارج كلها إلا الفضيلية في الحجة في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادة عدلين لقول الله عزّ وجلّ: وأشهدوا ذوي عدل منكم".

(4) وقال النظام: لا تعقل الحجة عند الاختلاف من بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا من ثلاثة أوجه: من نص من تنزيل لا يعارض بالتأويل، أو من إجماع الأمة على نقل خبر واحد لا تناقض فيه، أو من حجة العقل وضرورته. وبقوله قال أكثر المعتزلة.

(5) وقال أبو الهندي: الحجة في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادة عشرين رجلاً من أهل العدالة، لقول الله تعالى "إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائين".

(6) وقال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد: لا تعقل الحجة إلا الإجماع، لأنّه قد يجوز وجود الخطأ والكذب على الرجلين والأربعة والعشرين. وإجماع الأمة على الخطأ والكذب غير ممكن لما في إجماع الأمة على الخطأ والكذب من بطلان الدين وعدم الإسلام.

(7) وحكى الجاحظ في كتاب الأخبار أن من الناس من يقول: إن الحجة في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادة سبعين رجلاً من أهل العدالة، لقوله تعالى "واختار موسى قومه سبعين رجلاً".

^١ تفسير الحور العين، 98 ب

مجلة الهند

(8) وقالت الحشوية^١: كل ثقة من العلماء يأتي بخبر مسند عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو حجة.

(9) وقالت الفضيلية من الخواج: لا تعقل الحجة في الخبر من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بتقليد أهل الثقة من العلماء الصالحين. وبه قالت عامة المرجئة.

وبعد أن تعرفنا على حجية الحديث لدى شتى الفرق لترى نقد الجاحظ عليها

(2)

(86 ألف) وروى الجاحظ في كتاب الأخبار المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: وكيف يجزي السامع صدق المخبر، إذا كان لا يضطرب خبره، ولم يكن معه علم يدل على صدق غيبه، ولا شاهد قياس يصدقه، وكون الكذب غير مستحيل منه مع كثرة العلل التي يكذب الناس لها ودقة حيلهم فيها.

ولو كان الصادق عند الناس لا يكذب، والأمين لا يخون، والثقة لا ينسى، والوفي لا يغدر، لطابت المعيشة ولسلموا من سوء العاقبة.

قال إبراهيم النظّام؛ وكيف (86 ب) نأمن كذب الصادق وخيانة الأمين، وقد نرى الفقيه يكذب في الأحاديث، ويدلّس في الإسناد، ويدعي لقاء من لم يبلغه، ومن غريب الخبر ما لم يسمعه. ثم لا يُرى أن يرجع في مرضه وقبل أن تغرّر نفسه، وقد أيقن بالموت، وأشفى على حفرته، بعد طول إصراره والتتمتع بالرياسة في حياته، وأكل أموال الناس به. ولو لا أن الفقهاء المحدثين والرواة الصالحة المرتضى يكذبون في الأخبار، ويغلطون في الآثار، لما تناقضت آثارهم، ولا تدافعت أخبارهم.

قال: ولو وجب علينا تصديق المحدث لظاهر عدالته، لوجب علينا تصديق مثله، وإن روى ضد روايته وخلاف خبره. فإذاً نحن قد وجب علينا تصدق المتناقض وتصحيح الفاسد، لأن الغلط في الأخبار والكذب في الآثار لم نجده خاصاً في بعض دون بعض.

^١ لعل المراد من الحشوية أصحاب الحديث كما صرّح به ابن قتيبة في تأويل مشكل الحديث

مجلة الهند

قال إبراهيم: وكيف لا يغلطون ولا يكذبون ولا يجهلون ولا يتناقضون؟ والذين رروا منهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا عدو ولا طيرة ولا هامة" فقال أعرابي: يا رسول الله، فما بال إبل يكون في الرمل كأنها الخطا، فلما أتى البعير الأجرب، فدخل فيها، ففيجر بها؟" فقال: " فمن أعدى الأول؟".

هم الذين رروا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "فر من المجنوم فرارك من الأسد"؛ وأتاه رجل ليبايعه بيعة الإسلام، فأرسل إليه من يبايعه، ولم يقربه مخافة إعذاته، وأن النبي صلى الله عليه وسلم حين توجه إلى بدر، أراد أن ينزل الصفراء، وهي بين جبلين، فسأل عن اسمها وعن الحيين النازلين بهما. فقيل له: ينزلها بنو النار وبنو حراق-بطنان من بني غفار- فتطير بهما، وتعداهم إلى غيرهما، واسم الجبلين الضيقان¹، وأنه قال: "الشئم في المرأة والدار والدابة"².

قال: والذين يرون عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "خير أمتي القرن الذي بعثت فيه".

هم الذين رروا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أمتى كمثل المطر، لا يُدرى أوله خير أم آخره"³.

قال: والذين رروا منهم أن الصعب بن جثامة قال: يا نبي الله، ذراري المشركين تطأهم خيلنا في (87 ألف) ظلم الليل عند الغارة. قال: "أتلوهم، فإنهم مع آبائهم، وأنه حين أغزى أسامة بن زيد إلى ناحية الشام، أمره أن يحرق المشركين بالنار وذرارتهم".

هم الذين رروا أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث سرية فقتلوا النساء والصبيان فأنكر ذلك النبي صلى الله عليه وسلم إنكاراً شديداً، فقالوا: "يا رسول الله، إنهم ذراري المشركين" فقال: "أو ليس خياركم ذراري المشركين؟"؛ وأن خالد بن الوليد لما قتل

¹ بالأصل: الضيقين والصحيح من معجم الكبرى، ص 458 و 625 ومعجم الحميري، 5/444.

² راجع: تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، ص 123 ومشكل الآثار للطحاوي، 1/339 و 2/109.

³ راجع: تأويل ابن قتيبة، ص 139

مجلة الهند

بالغميصاء الأطفال، رفع النبي صلّى الله عليه وسلم يديه حتى رأى المسلمين بياض إبطيه، وقال: "اللهم إني أبدأ إليك مما صنع خالد" ثم بعث علياً عليه السلام فوداهم¹.

قال: والذين رروا أن خديجة قالت للنبي صلّى الله عليه وسلم: "يا رسول الله، أرأيتك أطفال منك أين هم؟" قال: "هم في الجنة". قالت: "أ فرأيتك أطفال من غيرك أين هم؟" قال: "في النار". فأعادت عليه الكلام، فقال مثل ذلك. فلما أعادت عليه، قال: "إن سكت، وإن أسمعتك ضغائهما في النار؛ وأن ابن أبي معيط لما أمر النبي صلّى الله عليه وسلم بقتله، قال: "من للصبية؟ قال: "النار".

هم الذين رروا أن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: "المؤودة في الجنة، والشهيد في الجنة، وأن أولاد المشركين خدم أهل الجنة".

والذين رروا أن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: "إن الله جل ذكره أوحى إلى آنٍ خلقت عبادي كلهم حنفاء فأتهم الشياطين، فاجتالتهم عن دينهم"². وأنه قال: "كل مولود يولد على الفطرة، حتى يكون أبواه اللذين هرودانه أو ينصرانه، أو يمجسانه"³.

هم الذين رروا أن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: "اعملوا، فكل ميسّر لما خلق له. أما من كان أهل السعادة، فهو يعمل للسعادة، ومن كان من أهل الشقاء، فهو يعمل للشقاء؛ وأن الله عز وجل مسح ظهر آدم، فقبض قبضتين فأما الذين في قبضته اليمنى فقال: "إلى الجنة برحمتي" وقال للذين في اليسرى: "إلى النار - ولا أبالي"⁴; والسعيد من سعد في بطن أمه، والشقي من شقي في بطن أمه⁵; وإذا وقعت النطفة في الرحم؛ أوحى الله إلى ملك (87 ب) الأرحام: "أكتب" فيقول: "وما أكتب؟" فيقول: "أكتب شقياً أو سعيداً".

¹ المصدر نفسه، ص 334

² راجع: تأويل ابن قتيبة، ص 5 و 159

³ المصدر نفسه، ص 5 و 158 و مشكل الطحاوي، 2/162

⁴ راجع: تأويل ابن قتيبة، ص 5 و 158

⁵ المصدر نفسه، ص 5 و 33

مجلة الهند

والذين روا أن القديرة مجوس هذه الأمة وأنهم قد لعنوا على لسان سبعيننبيا.
هم الذين روا أن ميكائيل كان قدرًا حتى خصمه جبريل، وأن موسى كان قدرًا حتى
خصمه آدم، وأن أبي بكر كان قدرًا، حتى خصمه عمر¹.

قال: وتلوا علينا قول الله عز وجل "إبراهيم الذي وفق، ألا تزر وازرة وزر أخرى" ثم
روا "أن ولد الزنا شرّ الثلاثة"²، " وأن المعمول عليه يعذب بعویل أهله" ، " وأيما صبي
مات ولم يعُق عنده أبواه، محتبس عن الجنة حتى يَعْقَا عنه"³.

قال: وتلوا علينا "الله أعلم حيث يجعل رسالته" ، قوله "ولقد اخترناهم على
العالمين" ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما كفر بالله نبي قط" ثم روا أن النبي
صلى الله عليه وسلم كان على دين قومه أربعين سنة، وأنه قال: "ما ذبحت للعزى إلا
كبشًا واحدًا" ، وأنه زوج ابنته عتبة بن أبي لهب وأبا العاص بن الربيع⁴، وأنه قال قبل
الوحي لزيد بن عمرو بن نفیل: "يا زید، إنك فارقت دین قومک وشتمت آلهٗم" فقال
له زید: "يأيها الإنسان، إياك والردى، وإنك لا تخفي من الله خافياً".

والذين روا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يفضلني أحدٌ على يونس بن متى،
فقد كان يرفع له في اليوم الواحد مثل عمل جميع أهل الأرض"⁵.

هم الذين روا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أنا سيد ولد آدم، ولا فخر؛ وأن كل
نبي يقول في القيامة "نفسي نفسي" ، وأنا أقول: أمي، أمي؛ ومعي لواء الحمد. وهم
الذين روا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تفضلوا بعض الأنبياء على
بعض، فإنهم بنو علات، أمها لهم واحدة".

¹ راجع: تأویل ابن قتيبة، ص 298

² راجع: مشكل الطحاوي، 391/1

³ راجع: تأویل ابن قتيبة، ص 311

⁴ المصدر نفسه، ص 134

⁵ راجع: تأویل ابن قتيبة، ص 141 ومشكل الطحاوي، 446/1

مجلة الهند

والذين روا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن أرواح الشهداء تكون في حوصل طير خضر، تأوي بالليل إلى قناديل في الجنة؛ وأن الأرواح في الهوى جنود مجندة، تتشامّ كما تتشامّ الخيل، فما تعارف منها، ائتلاف وما (88 ألف) تنافر، اختلف"؛ و"أن النبي صلّى الله عليه وسلم وقف على قليب بدر، فقال: يا عتبة بن ربيعة، يا أبا جهل، يا أمية بن خلف، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً". فقيل له في ذلك فقال: "والذي نفسي بيده، إنهم ليسمعون كما تسمعون"؛ و"إن منكراً ونكيراً ليأتيان الرجل في قبره، فيسألانه: من ربك؟ وما دينك"؛ و"أن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: والذي نفسي بيده، إنهم ليسمعون حفق نعالكم".

هم الذين تلوا علينا "وما أنت بمسمع من في القبور"؛ و"أن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: "اللهم رب الأرواح "الفنية والأجسام البالية"؛ وأن عبد الله بن عباس سئل عن الأرواح أين تكون، إذا فارقت الأجسام، وأين تذهب الأجسام، إذا بليت، فقال: "أين يذهب السراج، إذا طفى، وأين يذهب البصر، إذا عمي، وأين يذهب لحم الصحيح، إذا مرض؟" فقال السائل: "لا أين" فقال: "كذلك الأرواح، إذا فارقت الأجسام"!¹.

قال: والذين روا أن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: "ليؤمّنكم خياركم، فإنهم وفديكم إلى الجنة"؛ وقال: "صلاتكم قربانكم، فلا تقدموا بين أيديكم إلا خياركم، ولا صلاة لإمام قوم وهم له كارهون".

هم الذين رروا "صَلَوَا خَلْفَ كُلِّ إِمَامٍ، بِرَّا كَانَ أَوْ فَاجِرًا"؛ و"لَا بدَّ مِنْ إِمَامٍ، بَرَّ أَوْ فَاجِرٍ".

والذين روا أن النبي صلّى الله عليه وسلم قال: "أذن لي أن أحدث عن ملك من الملائكة، رجاله في الأرض السفلية، وعاتقه تحت العرش. وما بين عاتقه إلى شحمة أذنه سبعمائة عام خفقان الطير المسرع"².

¹ راجع: تأويل ابن قتيبة، ص 186

² المصدر نفسه، ص 192

مجلة الهند

هم الذين روا أن الله عز وجل ينزل عشية عرفة، أو يوم النصف من شعبان، على جمل أورق؛ وأنه ينزل في قفص من الذهب¹.

والذين روا أن أربعة أملال التقوا - واحد من المشرق، وآخر من المغرب، وآخر من السماء، وآخر من الأرض السفلية - فقال كل واحد منهم للأخر: "أين تركت ربك؟" فقال: "من عند ربى جئت"².

هم الذين روا أن حملة العرش من فرق غضب الله تقل³ العرش على كواهيلهم؛ وأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل⁴؛ وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أتاني ربى في أحسن صورة. فوضع كنفه بين كتفي فوجدت برد أنا ملئ بين ثديي"⁵.

قال إبراهيم: ثم يحدث فقيههم بمثل هذه الأحاديث، ويخبر بمثل هذه الأخبار، ويشهد على الله بمثل هذه الشهادة، وهو غير محفل بذلك ولا منتج منه.

وإنما ذكر الجاحظ والنظام أن دين الناس بالتقليد، لا بالنظر والبحث والاستدلال. وقد ذم الله تعالى في كتابه المقلدين، فقال: "إنا وجدنا آبائنا على أمة وإننا على آثارهم مقتدون"، الأمة هبنا الدين.

¹ المصدر نفسه، ص 8 و 91 و 255 و مشكل الحديث لابن فورك، 58/1

² راجع: مشكل ابن فورك، 49/1

³ كذا بالأصل وفي مشكل ابن فورك، 125/1 "يُثْقَل"

⁴ راجع: تأويل ابن قتيبة، ص 9 و 463، ومشكل ابن فورك، 76/1

⁵ راجع: تأويل ابن قتيبة، ص 9 و 463، ومشكل ابن فورك، 17/1

الدولة الإسلامية

البروفيسور ألطاف أحمد الأعظمي¹

ترجمة من الأردية: د. هيفاء شاكري²

(2)

الباب الثاني: القانون الإسلامي (الشريعة)

معنى الشريعة ومفهومها: الشريعة (شرع) من 'شرع' ومعناها بيان الطريق أو تحديده. يقول تعالى: "أَمْ لَهُمْ شُرَكَأُوا شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الْتِينِ مَا لَمْ يَأْذِنْ بِهِ اللَّهُ" (سورة الشورى: 21).

ويقول في موضع آخر من نفس السورة: "وَسَرَعَ لَكُم مِّنَ الْتِينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكُم" (سورة الشورى: 13).

ومعنى الشريعة: الطريقة والطريق. يقول تعالى: "ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا" (سورة الجاثية: 18).

وفي موضع آخر: "إِلَكُلٍ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا" (سورة المائدة: 48).

وتتعلق هذه الطريقة أو القاعدة بالعبادة الخالصة لله سبحانه وتعالى، وهو الدين اصطلاحاً، وبذلك يصبح الدين والشريعة لازماً بعضهما للبعض، فالدين أصل والشريعة فرعه، وما منح الله من الدين لكل الأقوام كان واحداً، وهو عبادة الله

¹ كاتب إسلامي كبير من محافظة أعظم كره

² أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية وأدابها، الجامعة المليلية الإسلامية، نيودلهي

مجلة الهند

الخالصة (سورة الأعراف: 59)، لكن الشريعة وهي طريقة العمل، اختلفت حسب الفروق الموجودة في مدنية ونفسية وعادات كل قوم. (سورة المائدة: 48).

إن الاختلاف في طريقة العبودية لا يهم، لأن الهدف لا خلاف فيه، بمعنى أن هدف كل شريعة ومقصودها هو عبادة الله الخالصة، ولكن للأسف قد تجاهلت الفرق المتدنية من كل قوم هذا الهدف واعتبرت طريقة العبادة هي الدين والشريعة، وضيق وجهة النظر هذا نتجت عنه الخلافات المذهبية غير المرغوب فيها والمستمرة إلى الآن، ولا يمكن الفصل فيها في المستقبل أيضاً. والهدف من اختلاف الشرائع عند الله هو اختبار الذي ينظر إلى ظاهر الشريعة فقط ومن يركز على باطنها إضافة إلى الظاهر، وذلك هدف الشريعة. قال:

"إِلَّا جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنَ لَّيَلُوِّكُمْ فِي مَا ءَانَكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ" (سورة المائدة: 48)

ومن الجدير باللحظة أن القانون جزءان: أساسي (Fundamental) وهو غير قابل للتغيير، والثاني ضمئي ويسمى في القانون الحديث بـ "By-laws"، والذي يتغير حسب الأحوال واحتياجات كل عصر.

وفي الشريعة الإسلامية يعتبر القرآن أساسياً والسنّة فرعاً أي القسم الضمئي، فال الأول لا يمكن تغييره والثاني قابل للتغيير بشرط أن تقتضي الأحوال ذلك، ولكن يجب أن يكون هذا التغيير تحت إشراف جماعة تملك إدراكاً وبصيرة قانونية في الشريعة بشكل الإجماع، وإن كانت هناك دولة إسلامية قائمة فالحكومة ومجلس الشورى فيها هي المفوضة لهذا التغيير، وليس فرد أو جماعة مهما تمكنا من العلم والفقه.

ولم يأخذ كثير من العلماء وأهل العلم بعين الاعتبار الفرق المذكور بين القانون الأساسي (القرآن) والقانون الضمئي (السنّة أو الفقه)، فهم يعتبرون أن القوانين الضمئية أيضاً غير قابلة للتغيير، وقد اتبعهم السواد الأعظم من المسلمين وتركزت هذه الفكرة في أذهانهم. وهذا سُمّ قاتل في حق هذه الأمة، وستتحدث عن ذلك بالتفصيل في الصفحات القادمة.

خصائص الشريعة الإسلامية: لا يوجد في العالم اليوم كتاب حفظ بلفظه كما أنزل، لم تتغير اللغة فقط بل حذف فيها وأضيف بدعوى التشريح، ومن الصعب معرفة الجزء الرباني من الجزء الإنساني المذكور فيه بشأن تعاليم الدين والشريعة. وبعض الكتب لا تشمل على الشريعة أساساً، إنما توجد فيها تعاليم أخلاقية، ولا نجد فيها إرشادات عن القضايا الاجتماعية للحياة. وكما ذكر في القرآن (سورة المائدة: 47) فإن عيسى عليه السلام قد منح الشريعة ولكن لا نجد ذكر هذه الشريعة في أي من الأناجيل الأربع، ويقال أن بالقد أخرجها بسبب إلهامه.

وفي هذه الخلفية التاريخية من الأهمية بمكان أن القرآن هو الكتاب السماوي الوحيد الذي حفظ متنه بشكل كامل. (سورة الحجر: 9) وهو جامع الدين والشريعة. وكان من الضروري أن يحفظ لأنه الشريعة الربانية الأخيرة بشكلها الكامل. فلا نبي ولا رسول بعده ولا شريعة أخرى بعدها.

وإذا أمعنا النظر في هذه الشريعة الربانية فسنجد مميزات عديدة لها بشكل واضح. ومن أهم هذه المميزات أنها شريعة سهلة، وقد كلف فيها أهل الإيمان بأحكام حسب قدراتهم، ولم تثقل أكتافهم بحمل أثقال لا يقدرون علمها. يقول: "وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا" (سورة البقرة: 285-286).

هناك أمثلة كثيرة في القرآن على سهولة الشريعة الإسلامية، مثلًا صوم رمضان فريضة على كل مؤمن، لكن المسافر والمريض مسموح لهم بالإفطار، ويصومان قضاء بعد انقطاع العذر. وقال بعد ذكر هذه الرخصة: "يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلَتُكُمْلُوا الْعِدَّةَ وَلَتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَنَتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ" (سورة البقرة: 185)

وفي الرضاعة بين أن المطلقة إذا أرضعت الطفل تكون نفقتها على الوالد، قال في توضيح ذلك: "لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا" (سورة البقرة: 233).

مجلة الهند

الميزة الثانية للشريعة الإسلامية أنها شريعة معتدلة ومتوازنة، لا إفراط فيها ولا تفريط، وقد أخذت فيها الاحتياجات المادية والروحية للإنسان بعين الاعتبار كما أوضح في الآية التالية:

"يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ
ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ
فَضْلِ اللَّهِ وَإِذْ كُرِهُوا اللَّهُ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦﴾" (سورة الجمعة: 9-10).

ففي هذه الآية يدعو إلى كل من كسب العيش وذكر الله، وتزداد أهمية هذه الدعوة عندما ننظر إلى المذاهب الأخرى التي تفضل ترك السعي للمعاش. انظروا إلى هذه الآية في هذه الخلفية: "قُلْ مَنْ حَرَمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالظَّيْبَتِ مِنَ الرِّزْقِ"
(سورة الأعراف: 32)

وكثير من الأديان تدعوا إلى كبح جماح النفس، وأكبر زاهد وعبد الله لديهم هو الشخص الذي يتخل عن لذائذ الدنيا الجائزة حتى اللباس والطعام، ومن أهم الأمثلة على ذلك الرهبان عند المسيحيين والنساك عند الهندوس وتاركوا الدنيا عند البوذيين، أما في الشريعة الإسلامية فإنها لم تدع فقط إلى اللباس الجيد والطيبات من الرزق وإنما تحبذ ذلك كما هو واضح من الآية السابقة.

وقد قام بنفي الرهبانية عندما استخدم كلمة الزينة للباس وكلمة الطيب للطعام.
ويقول في موضع عن الإنفاق: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنْقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبُسْطِ
فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا" (سورة الإسراء: 29)

في هذه الآية يراد بالغل البخل وبالبسط التبذير، وهما صفتان للإنفاق بعيدتان كل البعد عن الاعتدال، ولذلك اعتبرت الشريعة الإسلامية البخل والتبذير كليهما من الأفعال غير المحمودة.

إن الأحكام المتعلقة بالمعاملات في الشريعة الإسلامية مبنية على مبادئ الاعتدال والوسطية، ولكن لا مجال هنا لبيان تفصيل ذلك.

مجلة الهند

الميزة الثالثة المهمة للشريعة الإسلامية هي مطابقتها للعقل والطبيعة البشرية، ولا يوجد فيها حكم يخالف العقل أو لم تؤخذ فيه الطبيعة البشرية بعين الاعتبار، ونذكر هنا بعض الأمثلة:

إن عاطفة حب المال قوية جدًا في الطبيعة الإنسانية، "وَإِنَّهُ لِحِبٌ أَلْحَى لَشَدِيدٌ" (السورة العاديات: 8). وعندما طلب من المؤمنين أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله جاء السؤال عند مقدار الإنفاق، (يسألونك ماذا ينفقون) فقيل للوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وأبناء السبيل (سورة البقرة: 215) وعندما طرح السؤال نفسه مرة أخرى قال: أنفقوا ما فضل عن حاجاتكم (البقرة: 219)، فإن كانت الإجابة على السؤال السابق بأن أنفقوا المال كله كان هذا خلاف الطبيعة البشرية، وبعد الأمر الحكيم بالإنفاق بالمال الزائد عن حاجة المرء قال: "كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَلْأَيَتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ" (سورة البقرة: 219-220)

عرف من ذلك أن الشريعة الإسلامية تراعي مطالب الدنيا والآخرة.

إن صفة الانتقام في الطبيعة البشرية ليست صفة موجودة فحسب، بل هي موجودة بشدة، فسمح للمظلوم أن ينتقم من الظالم مراعاة للطبيعة البشرية ولكنه لم يتمكن تعالىم العفو والسامح، قال: "وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبُغْيَ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجَزَرُوا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُوهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِّنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَرَرَ وَغَرَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ" (سورة الشورى: 39-43)

إن أكبر ميزة للشريعة الإسلامية هي إقامة العدل والقسط، ويظهر ذلك من أمر المؤمنين بإقامة العدل مراجعاً وتكراراً، ولا يراعي في ذلك القريب أو البعيد. قال: "وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى" (سورة الأنعام: 152)

وانظروا إلى سمو هذه الشريعة التي تأمر بالعدل حتى مع العدو، قال: "وَلَا يَجِدُ مَنْكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى" (سورة المائدة: 8)

مجلة الهند

والحقيقة أن الشريعة الإسلامية هي شريعة لا مثيل لها، ولا يمكن لأي شريعة أخرى أن تناظرها لأنها محرفة، ولا يقابلها أي قانون من الزمن القديم أو الجديد الذي وضعه أصحاب العقول من البشر.

العناصر الأساسية للشريعة الإسلامية: هناك عنصران أساسيان للشريعة الإسلامية، الأول الكتاب الذي يتعلق بالقوانين العامة، والثاني الحكمة يعني الأحكام الأخلاقية. ويشتمل الجزء الأول يعني الكتاب على ثلاثة أمور: التوحيد والعبادات والمعاملات. والمعاملات لها ثلاثة أقسام: 1. القضايا العائلية مثل النكاح والطلاق والإرث وما يتعلق بها من الأحكام، 2. المعاملات الاجتماعية مثل البيع والشراء وغيرها أي الأحكام المتعلقة بالأمور المالية، 3. الحدود والتعزيرات أي العقوبات على الجرائم المختلفة.

ونقدم فيما يلي الأجزاء الثلاثة للعنصر الأول "الكتاب" بشكل موجز، ثم نوضح العنصر الثاني "الحكمة" بمعنى الأحكام الأخلاقية.¹

التوحيد: للتوحيد مكانة مركبة في الشريعة بل الأصح أن الأجزاء الأخرى للشريعة هي شرح وتفصيل للتوحيد، ولأن علماءنا وفقهاءنا يعتبرون الدين والشريعة منفصلين، فعندما يفصلون الشريعة يبدؤون بالعبادات بدلاً من التوحيد.

لكني أرى أنه مثلاً يحمل التوحيد مكانة أساسية في العقائد، فكذلك يعتبر أساساً للأجزاء الأخرى من الشريعة أي العبادات والمعاملات. ولذلك نرى أن سورة البقرة التي تشتمل على جزء كبير من أساسيات وأصول الشريعة الإسلامية، يذكر فيها التوحيد قبل العبادات والمعاملات. يقول تعالى: "وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهٌ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ" ﴿٢٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ الْأَيَلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَحَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَأَيَّتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُجْبِيَنَّهُمْ كَهْبٌ اللَّهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا

¹ الكتاب والحكمة مصطلحان شرعاً مهماً للقرآن. وقد أخطأ كثير من علمائنا في تعريف مفهومهما. أنظر كتاب المؤلف: إسلامي شرعت ايك اجمالي تعارف، (الشريعة الإسلامية: تعريف وجيز)، ص 20-26

مجلة الهند

أَشَدُّ حُبًا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْفُوْرَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعَذَابِ ١٦٣ إِذْ تَبَرَّا الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ١٦٤
وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَتَبَرَّأُوا مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّأُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَنَا
حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَرِيجِينَ مِنَ النَّارِ ١٦٤ (سورة البقرة: 163-167)

فأول ما يذكر في الآية السابقة هي الحقيقة الكونية أنه لا إله إلا الله، ولا يحكم الكون
كله إلا هذا الإله الرحمن الرحيم، وهو مركز القدرة الذي يعمل كل شيء تحت
تصرفه ولا يمكن لأي كائن أن ينحرف عن حكمه وقانونه قيد أدنى.

وذكر بعد هذه الحقيقة الكونية أمر كبير من فساد العقيدة لدى اليهود وهو الشرك
يعني تعظيم الأولياء، (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا إلى آخر الآية)
وتعظيم الأولياء هذا هو العقيدة بأنهم ينفعون الناس أو يضرونهم، فقد دحض هذه
الفكرة وبين أن التصرف والقوة بيد الله وحده، وما عدا ذلك عاجز كله ولا يملك
التصريف. (أَنَّ الْفُوْرَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا). إن من لا يدرك هذه الحقيقة في هذه الدنيا سوف
يشاهدها في الآخرة بعينيه.¹

¹ قد ذكر كثير من العلماء والمسرفيين معاني غير هذا. (انظر تفسير بيان القرآن لأنشرف علي التهانوي) وكتب شبير أحمد عثمانى في حاشية موضح القرآن (شيخ الهند) عند تفسير هذه الآيات:
"أى في ذلك الوقت يتبرأ الذين اتبعوا (رجال الدين) من الذين اتبعوا ولا علاقة لهم مع الأصنام،
ويصبحون أعداء لبعضهم البعض بعد أن يروا العذاب".

والسبب الأساسي لهذا التفسير الخاطئ هو أن صاحب التفسير أهمل السياق الذي يوضح أن المخاطب
في الآية هم أهل الكتاب أي اليهود الذين كانوا يتبعون أولياءهم وليس عبدة الأصنام. وقد ذكر قبل هذه
الآيات علماء اليهود الذين كانوا يخفون الحقيقة عن الصفا والمروة. (سورة البقرة: 158-162)
أما بعض المفسرين فلم يربطوا هذه الآيات بعبدة الأصنام، ولكنهم أيضًا لم يفهموا أن الخطاب
فيها لليهود وتم فيها إبطال شركهم. فقد ذكر هؤلاء المفسرين رجال الدين عامة والذين يضللون
الناس، فمثلاً يكتب المودودي: "قد ذكر هنا خاصة مصير رجال الدين والقواد ومتبوعهم الجمالة
حتى يتتجنب المسلمين الأخطاء التي ارتكبها الساقون وضلوا، ويميزوا بين المرشددين ولا يتبعوا
المضللين. (تفہیم القرآن، 1/132، حاشية رقم: 165)

مجلة الهند

وليس معنى التوحيد فقط أنه لا إله إلا هو، وهو القوام الحقيقى، بل هو الحاكم والشارع الوحيد المطلق (سورة البقرة: 168-182). ولذلك فله الحق وحده بأن يضع القوانين لعيشه، ولا يمنع هذا الحق أبداً لأى عالم أو فقيه ولا لأمير أو قائد للدولة الإسلامية.¹

العبادات: هي الجزء الثاني المهم من الشريعة الإسلامية، وقد ذكرت العبادات بشكل موجز في سورة البقرة بعد العقائد، وإذا نظرنا إلى تسلسل الآيات فسنرى أن ذكر العبادات بعد الطعام الحلال والحرام والقصاص والوصية يحمل أهمية كبيرة، إن الهدف من العبادات وكما هو واضح من آيات كثيرة هو التقوى، التقوى تعنى تزكية الباطن والطاعة الكاملة لله وحده، وإذا خلا القلب من التقوى فالعمل على تنفيذ أحكام الله بشكل كامل أمر صعب.

ومن المعلوم أن هناك أربع عبادات فرضت في الإسلام وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج. وقد فرضت الصلاة والزكاة على كل مسلم عاقل وبالغ في كل الأحوال، أما العبادتان الباقيتان ففيهما شرط، فإذا رزق الصحة وجب الصيام، وإذا استطاع السبيل إلى الحج وجب الحج وإلا فلا، ومن هنا تتضح أهمية الصلاة والزكاة.

ومن وجهة نظر التعليم والتربية تحمل صلاة الجمعة وخطيبها أهمية كبيرة في الشريعة الإسلامية. فيجب أن يكون الخطيب والإمام من تم تعينه من قبل الحكومة، ولا يحق ذلك لعالم آخر، وكذلك الأمر في العيددين، أما الصلاة اليومية فيتحقق لأى مسلم أهل للإمامية أن يؤم، ولا حرج في ذلك. ويجب أن نلاحظ أن الصلوات الأخرى غير الفرائض (السنن مثلاً) فتدخل في باب التطوع، الصلاة التي يصلها الشخص بإرادته غير الفرائض، فمن يصلى من المسلمين هذه الصلوات الزائدة يثاب عليها، ولكن لا يعاقب من لا يصلها. (ينظر للتفصيل كتاب المؤلف: إسلامي عبادات، إيك مطالعة. "قراءة في العبادات الإسلامية")

¹ يحق لأمير الدولة الإسلامية ومجلس شورتها أن تقوم فقط باستخراج الأحكام الجزئية من الأحكام الكلية في القرآن الكريم

مجلة الهند

هناك تهاون شديد من قبل كثير من المسلمين في أمر الزكاة، وقلة من أثرياء المسلمين يؤتون الزكاة، ومن يؤتها لا تصل أموال زكاتهم إلى مستحقها من الفقراء والمساكين، والمسؤولية في ذلك تقع على عاتق العلماء والفقهاء وأرباب النظم في المدارس الدينية، وقد تحدثنا عن ذلك بالتفصيل في الباب القادم تحت عنوان "واجبات أمير الدولة".

وأمر الصيام شيء أيضًا، فما يتم في شهر الصوم من اهتمامات تتعلق بالأكل والشرب تفسد الهدف الحقيقي من الصوم وهو كسر شهوات النفس والامتثال بأوامر الله، ولا يحبذ طريقة الإفطار الجماعي لأن المدعوين إليه يكونون من الأثرياء بدل الصائمين الفقراء، وكذلك طريقة التراوحة غير صحيحة، فلا يرتل فيها القرآن وذلك سوء أدب في حق القرآن، وهناك الكثير من الحفظة ممن يقرأ القرآن في التراوحة مقابل المال وهذا بيع للقرآن لا غير.

وأمر الحج لا يقل سوءاً، فقد أوضح القرآن جيداً أن من أراد الحج فعليه أن يأخذ زاده معه، وخير الزاد التقوى ويجب الاهتمام بذلك (سورة البقرة: 197) ولكن في أيامنا هذه يعتبر الزاد المادي كافياً، ولذلك أصبحت عبادة عظيمة مثل الحج بدون فائدة وسياحة دينية فقط.

ما ذكر سابقاً من المساوى والفساد في تنفيذ العبادات الأربع يجب إصلاحه، فهدف الشريعة هو تزكية الباطن عن طريق هذه العبادات، وجعل الشخص العابد إنساناً صالحاً حتى يظفر في الدنيا والآخرة.

المعاملات: قد ذكرنا من قبل أن المعاملات لها ثلاثة أقسام: القضايا العائلية (النكاح والطلاق وغيرهما)، المعاملات الاجتماعية (البيع والشراء)، والحدود والعقوبات. وقد جاء في سورة البقرة في ذكر العبادات بطريقة اللفت¹ بيان لكثير من الأمور المتعلقة بالحياة العائلية، فقد ذكرت أحكام مهمة ومبادئ أساسية في النكاح والطلاق، والخلع

¹ هذا من أساليب القرآن البينية المعروفة، حيث يتجه الكلام إلى أشياء مفيدة ومهمة حسب السياق.

مجلة الهند

والرضاعة وعده المطلقة، وطريقة أداء المهر عند الطلاق بعد النكاح مباشرة، ونفقة المتوفى عنها زوجها والمطلقة (المتاع)، وغيرها من الأحكام.¹

وتنفيذ هذه الأحكام المتعلقة بالقضايا العائلية كما هي، تكون مسؤولية الحكومة، وما أحدها العلماء والفقهاء من خلافات في هذا المجال غير ضروري ومخالف لإرادة الله. مثلاً جعل التطليقات الثلاثة في مجلس واحد طلاقاً بائناً، والطلاق بدون شهود وغيرها من الأمور. يجب أن تمنع كل هذه الطرق غير الشرعية للطلاق وتطبيق الطريقة التي يبيّنا القرآن والسنة. وكذلك يجب محظوظة الطريقة السيئة في استخدام "الحالة". (ينظر للتفصيل كتيب المؤلف: اسلام كا قانون طلاق. "قانون الطلاق في الإسلام").

قد أوجب القرآن نفقة المطلقة حتى بعد انقضاء العدة، وقد ظلمت النساء في هذه القضية منذ مدة طويلة، فيجب تحديد مدة معينة مناسبة للنفقة بعد انقضاء العدة، وكذلك تحديد المقدار المناسب لها حسب الظروف المادية لكل من الرجل والمرأة. ويجب ملاحظة أن لا يكون هناك إجحاف لحق أي منهما. فإن لم تتزوج المرأة خلال الفترة المحددة فلا نفقة على الرجل بعد ذلك، فإن كانت المرأة غير قادرة على كفالة نفسها تكون نفقتها على الحكومة الإسلامية.

قد ذكر في نهاية سورة البقرة المعاملات الاجتماعية يعني البيع والشراء بالتفصيل، وقد وجّه المسلمون في هذا الصدد بتوجيهين: الأول أن تدون المعاملات المالية كالقرض في صورة الوثائق،² والثاني يتعلق بتحريم الربا، إن نظام الربا الذي كان رائجاً في العهد النبوي كان نظاماً استغلالياً مجنحاً، وكان الفقراء بسببه يتعرضون لمشاكل مالية كبيرة.³ وهذا هو السبب أن لهجة تحريم الربا في القرآن قاسية جدًا.⁴

¹ ذكرت أحكام أخرى خاصة بالقوانين العائلية في سورة آل عمران والنساء والأحزاب والتوبه والطلاق.

² قد نسي المسلمون هذا الإرشاد تماماً.

³ قد وسع العلماء دائرة حرمة الربا كثيراً ولم يأخذوا بعين الاعتبار أن قضية حرمة الربا تتعلق بالدولة الإسلامية، ويختلف الحال في الدولة غير الإسلامية (انظر للتفصيل كتاب المؤلف: "إسلامي عبادات" (العبادات الإسلامية) باب الزكاة).

⁴ ذكرت الأحكام الأخرى للحياة الاجتماعية في سورة آل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأنفال، والأحزاب، والنور وسور أخرى.

مجلة الهند

يرغب الإسلام أن لا يتولد في ذهن أصحابه مشاعر حب المال وجمعه، لذلك أرشدهم إلى كفالة إخوانهم بدل الزيادة في الأموال إن كانوا يملكون مالاً زائداً عن حاجتهم. وقد تحدثنا عن هذه القضية بالتفصيل في الباب الخامس من الكتاب.

الحدود (العقوبات في القرآن): هناك خلافات كبيرة بين العلماء والفقهاء في فهم هذا القسم الثالث من المعاملات، كما سيأتي في السطور التالية.

إن العقوبات المذكورة للجرائم المختلفة في القرآن تسمى "الحدود"، وما عدا ذلك من العقوبات تسمى بـ"التعزيرات"، والمعلوم أن العقوبات لبعض الجرائم المذكورة في القرآن قاسية جداً، مثلًا قطع يد السارق، وجلد الزاني والزنانية والرجم في الحالات الاستثنائية، ولذلك يعارضها بعض المسلمين المتحررين وال المتعلمين ويعتبرونها عقوبات وحشية.

إن علماء المسلمين وفقهاءهم هم المسؤولون عن سوء فهم غير المسلمين للعقوبات الإسلامية، وخطأ كبير في هذا الشأن هو أنهم أهملوا الرخص في تنفيذ القوانين الشرعية التي يجب مراعاتها لتناسب الظروف في عصر معين. إن أي شخص يعرف القانون يدرك أن القوانين خاصة للأحوال الاجتماعية والثقافية، بمعنى أنه مثلاً تكون الأحوال الاجتماعية والحضارية، تكون القوانين، وهذا هو السبب أن قوانين العهد البدائي والتي تسمى بالقوانين الانتقالية تكون لينة بعض الشيء مقارنة مع قوانين الفترة النهائية من العهد.

فإن كان المجتمع في صورته البدائية من ضعف في الناحية الأخلاقية والإيمانية، وتأتي جماعة من الناس المتخمسين وتقوم بتنفيذ أحكام الشريعة التي تناسب مجتمعاً مسلماً قوياً من الناحية الأخلاقية والدينية، يكون هذا عدم علم منها ويكون كذلك مضرًا بالإسلام وبالمجتمع المسلم على حد سواء.

هل نفذت الشريعة الإسلامية في مجتمع العهد النبوي والذي كان أقوى بكثير من الناحية الإيمانية والأخلاقية من المجتمع الحالي دفعة واحدة؟ الواضح أن الجواب هو لا ، تروي السيدة عائشة رضي الله عنها:

مجلة الهند

"إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصل، فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا تاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشريروا الخمر، لقالوا لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنيوا، لقالوا لا ندع الزنا أبداً"¹

تأملوا! عندما طبقت الشريعة الإسلامية في هذا المجتمع المثالي بالتدرج، فكيف يمكن تطبيقها وخاصة الحدود في مجتمع مسلم أقل درجة بل دينية، وإن تم تطبيقها بالإجبار فلا بد وأن يكون لذلك رد فعل، كما حدث من مسؤولي حركة الجهاد في أفغانستان.²

والخطأ الثاني لعلمائنا هو أنهم لم يهتموا كثيراً برخصة التوبة والرجوع إلى الله في عملية إصلاح الأحوال، والسبب في ذلك تغاضفهم عن الطبيعة الإنسانية، ومن لا يدرك أن الإنسان يملك بجانب العقل المشاعر والرغبات، وأن هذه الرغبات قوية جدًا، ولا يستبعد ارتكاب الأثم بسبب غلبة هذه المشاعر والرغبات، وحدثت جرائم السرقة والزنا في العهد النبوى وعهد الخلافة الراشدة لدليل واضح على ذلك، وقد أعطيت لرخصة التوبة والإصلاح أهمية كبيرة بسبب هذا الضعف الخلقي للإنسان، "وَخُلِقَ الْإِنْسَنُ ضَعِيفًا" (سورة النساء: 28).

قال بعد ذكر عقوبة السرقة: "فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (سورة المائدة: 39)

وقال في الزنا: "فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَابًا رَّحِيمًا" (سورة النساء: 16)

ليس هذا فقط، بل إذا تاب من حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً، إذا تاب قبل أن يعقل فهو يستحق العفو. قال: "إِنَّمَا جَرَأُوا أَذْنِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصْلَبُوا أَوْ تُقْطَعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ

¹ البخاري، باب تأليف القرآن.

² انظر كتاب المؤلف: "جاده ومنزل" (الزاد والمنزل) المقالة: فشل حركة جهاد السيد أحمد الشهيد.

مجلة الهند

يُنفَوْ مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ أَهْمَّ خِزْنِي وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَأْبُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤﴾ (سورة المائدة: 33-34)

قبل إصدار الحكم في أي قضية، من الضروري معرفة نوعية الجريمة وأحوال المجرم وحالته النفسية، هناك فرق كبير بين من يسرق بسبب الحالة المادية الضعيفة ومن يجعلها مهنة يمارسها، فلا يعاقب الاثنان بعقوبة واحدة، وقد ميزت بينهما شريعة الله.

يروى أن عباد بن شرحبيل قال: أصابتنا سنة فأتيت المدينة فدخلت حائطاً من حيطانها فأخذت سبلاً ففركته وأكلت منه وحملت في ثوبي فجاء صاحب الحائط فضربني وأخذ ثوبى فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما علمته إذ كان جاهلاً ولا أطعمته إذ كان ساغباً أو جائعاً فرد علي التوب وأمر لي بنصف وسق أو وسق.¹

وحدث مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب أن رقيقاً لحاطب سرقوا ناقة لرجل من مزينة فانتحروها فرفع ذلك إلى عمر بن الخطاب فأمر عمر كثير بن الصلت أن يقطع أيديهم ثم قال عمر أراك تجيعهم ثم قال عمر والله لأغرننك غرماً يشق عليك ثم قال للمزني كم ثمن ناقتك فقال المزني قد كنت والله أمنعها من أربع مائة درهم فقال عمر أعطه ثمان مائة درهم.²

وكذلك هناك فرق كبير بين ارتكاب الرجل والمرأة لجريمة الزنا بعد غلبة المشاعر وارتكاب الزنا قصداً والزنا بالإجبار مع المرأة وجعل الزنا عادة أو مهنة، ومن العدل التلطف في الحالة الأولى المذكورة والعقوبة الشديدة في الحالة الأخيرة. والروايات تؤيد هذا الرأي.

"عن أبي أمامة بن سهل عن سعيد بن سعد بن عبادة قال: (كان بين أبياتنا روigel ضعيف مخدج فلم يرع الحي إلا وهو على أمة من إمامهم يخبت بها فذكر

¹ أبو داؤود، رقم الحديث: 2252

² موطأ الإمام مالك، رقم الحديث: 330

مجلة الهند

ذلك سعد بن عبادة لرسول الله عليه وآله وسلم وكان ذلك الرجل مسلماً فقال: اضربوه حدّه قالوا: يا رسول الله إنه أضعف مما تحسب لو ضربناه مائة قتلناه فقال: خذوا له عثكلاً فيه مائة شمراخ ثم اضربوه به ضربة واحدة قال ففعلوا^١.

ويروى أن عمر رضي الله عنه أتي بأمرأة جهدها العطش فمرت على راع فاستسقته، فأبى أن يسقيها إلا أن تمكّنها من نفسها ففعلت، فشاور الناس في رجمها، فقال علي رضي الله عنه: هذه مضطّرة، أرى أن تخلي سبيلها، فخلّى عمر رضي الله عنه سبيلها^٢.

(عن عبد الرزاق، عن معمر، عن هشام بن عروة، عن أبيه، أن رفقة، من أهل اليمين نزلوا الحرة ، ومعهم امرأة قد أصابت فاحشة، فارتحلوا وتركوها، فأخبر عمر خبرها فسألها، فقالت: كنت امرأة مسكينة لا يعطف علي أحد بشيء، فما وجدت إلا نفسي قال: فأرسل إلى رفقتها، فردوهم، وسألهم عن حاجتها، فصدقواها فجلدها مائة، وأعطواها، وكساحتها، وأمرهم أن يحملوها معهم^٣.

رأينا أن المرأة كانت تمارس الزنا لكن نظراً لظروفها المادية خفت عقوبتها^٤. ليس هذا فقط، بل إن الإسلام يدعو إلى التغاضي عن أخطاء الأشخاص الذين لم يتخدواها عادة، حتى ينجوا من العقاب ويتوبيوا إلى الله، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "تعافوا الحدود في ما بينكم، فما بلغني من حد فقد وجب"^٥.

وحدث آخر: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ادرءوا الحُدوَّة عن المسلمين ما استطعتم، فإنْ كانَ لِه مخرج، فخلُّوا سبيله. فإنَّ الإمامَ أَن يخطئ في العفو، خيرٌ مِنْ أَن يخطئ في العقوبة". رواه الترمذى مرفوعاً وموقوفاً^٦.

^١ أبو داؤود والنسائي عن أبي أمامة

^٢ البهقي، السنن الكبرى، رقم الحديث: 16827

^٣ مع العلم أن هذه المرأة تعرّرت يتيمة

^٤ انظر للتفصيل، مصنف عبد الرزاق، رقم الحديث: 13649، 13650

⁵ النسائي، رقم الحديث: 4703

⁶ الترمذى، وكذلك انظر كتاب الخراج، الإمام أبو يوسف، ص 182

مجلة الهند

لكن هناك عقوبات شديدة جداً للمجرمين الذين تعودوا الإجرام، وهم لا يستحقون أي تلطف أو لين، وقد استخدم القرآن لفظ "فساد في الأرض" للجرائم الكبيرة، ويراد بها كل الجرائم التي تفسد على المجتمع أمنه وأمانه، وتتعرض أعراض الناس وأموالهم إلى الخطر بسببها، مثلا التمرد المسلح ضد الدولة الإسلامية، السرقة والقرصنة بطريقة منظمة، العداوة سواء كانت لاختلاف العقيدة أو المذهب أو الأثنانية، قتل الأبرياء بغير حق وتدمير أموالهم وأملاكهم، التطفييف في الكيل على مستوى كبير، والتخزين، والخطف، والدعارة، والزنا بالإجبار وغيرها من الجرائم. والعقوبات التي حدثت لمرتكبي هذه الجرائم الشنيعة هي التالية:

"إِنَّمَا جَرَأُوا الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُفَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقْطَعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلْفٍ أَوْ يُنَفَّوْ مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِرْصٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (سورة المائدة: 33)

فعلمينا أن العقوبات الشديدة في الإسلام هي للمجرمين الذين تعودوا هذه الجرائم وليس للمخطئين، وإنزال العقوبة على المجرم المتدرس ليس ظلماً، إنما هو عدل، ولا ينكر أي شخص محبت للعدل هذه العقوبات ويسمّيها عقوبات وحشية. وتتضح هذه الحقيقة من السطور القادمة التي تحدثنا فيها عن بعض العقوبات القرآنية لبعض الجرائم الكبيرة.

السرقة: يقول تعالى في سورة المائدة: "وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطِعُوْا أَيْدِيهِمَا جَرَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَلًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ أَعْزِيزٌ حَكِيمٌ" ﴿٣٨﴾ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَشْوُبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ" (سورة المائدة: 38-39)

لكن ليس معنى ذلك أن تقطع يد كل سارق وسارقة، يصدر الحكم في القضية بعد النظر إلى كمية المال المسروق وقيمتها وظروف السارق وغيرها من الأمور، والسؤال هنا، ما هو مقدار المال الذي تقطع اليده عند سرقته؟ قد اختلف العلماء والفقهاء في ذلك، واختلفت كذلك الروايات في هذا الباب، يرى بعض الفقهاء وهناك رواية تؤيد هذا الرأي أنه لا تقطع اليده في المال المسروق الذي لم يبلغ النصاب، بل يجب

مجلة الهند

التعزير،¹ أي يعاقب السارق بعقوبة أخرى حسب نوعية السرقة.² وفي حالة توبته يحق للقاضي أن يغفو عنه، ولا يعاقب السارق على سرقته إن كان مضطراً، كما هو واضح مما حدث في عهد عمر رضي الله عنه وقد ذكر آنفًا.

قد عبر القرآن عن السرقة بالفساد في الأرض: "قَالُوا تَالَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَرِقِينَ ﴿٧٣﴾". (سورة يوسف: 73)

ويتبين المزيد من سورة المائدة التي ذكرت فيها العقوبة المتعلقة بقطع اليد، فقد ذكر في الآية 33 من هذه السورة بعد بيان العقوبة الشديدة لمن حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً وأمر المسلمين بالتقوى والتقرب إلى الله، ذكر أن تقطع يد السارق والسارقة (الآية 38)، ويتبين من سياق الكلام أن هذه العقوبة خاصة بالسارقين الذين اتخذوا السرقة مهنتهم وعادتهم، أي أنهم دخلوا في دائرة الفساد في الأرض.

الزنا: إن سورة النساء هي أول سورة ذكر فيها الزنا، قال تعالى: "وَالَّتِي يَأْتِيَنَّ الْفَحْشَةَ مِنْ نِسَاءِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهُدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَوْفَّلُهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالذَّانِ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ فَادُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾". (سورة النساء: 15-16)

تعلق العقوبة في الآية الأولى فقط بالنساء الزانيات، وهي أن يسكن في البيوت بعد شهادة أربعة شهود حتى يأتين الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً آخر. والعقوبة الثانية تتعلق بالرجل والمرأة كليهما، فقال: آذوهما.

والسؤال هنا بالنسبة للعقوبة الأولى هو لماذا قصرها على المرأة الزانية؟ وما رد به المفسرون على هذا السؤال غير مقنع بل غير قابل للذكر، وحاول بعض العلماء حل هذه المشكلة بالقول بأنها خاصة بالنساء اللاتي اتخاذن من الزنا مهنة، ولكن المشكلة أنه لا توجد في الآية قرينة تؤيد هذا القول. إن كلمة "فاحشة" موجودة، ولكن يراد بها

¹ انظر أصحاب السنن، عن عبد الله بن عمرو بن العاص

² هذه عقوبة عشرة أسواط "لا يجلد فوق عشرة أسواط إلا في حد من حدود الله" (البخاري، ومسلم، والترمذني)

مجلة الهند

الزنا، كما قال في سورة أخرى: "وَلَا تَقْرُبُوا الْزِنَى إِنَّهُ كَانَ فَحْشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا".

(سورة الإسراء: 32)

وإذا اعتبرنا النساء المذكورات في الآية بأنهن من صاحبات مهنة الزنا، فيصبح ما ذكر فيما بعد في الآية بدون معنى، أي "ويجعل الله لهن سبيلاً". والسبيل الذي يبينه بعد هذا الوعد ذكره في الآية التالية (آذوهما)، ففي ناحية هذه العقوبة الشديدة بأن يقيدن في البيوت حتى يأتي علمن الموت، ومن ناحية أخرى العقوبة الخفيفة وغير الواضحة (آذوهما)، شيء غير مفهوم، فليس هناك أي مطابقة في العقوبتين.

لذلك علينا أن نعترف أن العقوبتين للنساء الزانيات غير صاحبات مهنة الزنا، وأما السؤال لماذا ذكرت العقوبة للمرأة الزانية دون الرجل، فالجواب على ذلك أن المرأة تلعب دوراً بارزاً في عملية الزنا بالتراضي، وهي الدافع الحقيقي وراء هذا الإثم الشنيع، وكثير من حوادث الزنا تؤيد هذا، وإلبراز هذا الجانب الواضح لعملية الزنا، اتخاذ هذا الأسلوب في البيان، حتى يكون تنبيهاً للنساء الزانيات من جهة، ومن جهة أخرى ينتبه إلى هذا الإثم المسؤولون في الحكومة فيقوموا باتخاذ الإجراءات اللازمة لإيقافه.

السؤال الثاني هو أن عقوبة (آذوهما) هي عقوبة دائمة أم مؤقتة والتي نسخت بالعقوبة المذكورة في سورة النور (آلية الثانية) وهي جلد مئة جلد؟ الاعتقاد العام أن العقوبة الأولى قد نسخت، لكن رأي أنها لم تنسخ. ولا شك أن العقوبة نسخت للمجتمع المدني في ذلك العهد حينما نزلت عقوبة مئة جلد في سورة النور، ولكن المجتمع المسلم في العهد الحديث والذي يعتبر بعيداً جداً عن المجتمع المدني في العهد النبوى من الناحية الإيمانية والعملية، تبقى فيه عقوبة (آذوهما) حتى يبلغ هذا المجتمع نفس مستوى المجتمع المدني من الناحية الإيمانية والأخلاقية أو يصل إلى مستوى قريب منه.

وذكرت العقوبة الثالثة والدائمة للزنا في سورة النور، قال تعالى: "الرَّاهِيَّةُ وَالرَّاهِيَّةُ فَاجْلِدُوْا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةً جَلْدًا وَلَا تَأْخُذُوكُمْ بِهِمَا رَأْفَةً فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُوْنَ بِاللَّهِ وَاللَّيْلَ وَاللَّيْلَ وَلَيَشَهَدَ عَدَائِهِمَا طَائِفَةً مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ". (سورة النور: 2)

مجلة الهند

وفقاً لهذه الآية يجلد الرجل والمرأة المركبين للزنا مئة جلدة، ولم يذكر في الآية كونهما محسنين أو غير محسنين، ولذلك يقول بعض العلماء أن هذه العقوبة للزاني والزنانية سواء كانا محسنين أو لا، ولكن ترى جماعة كبيرة من العلماء والفقهاء أن العقوبة تتعلق بالرجل الزاني والمرأة الزانية إن كانوا غير محسنين، أما عقوبة الزاني والزنانية المحسنين فهي الرجم حسبما جاء في السنة والرأيان فهمما نظر.

في رأي أن العقوبة المذكورة في الآية هي للرجل الزاني والمرأة الزانية المحسنين، والدليل على ذلك سبب نزول سورة النور، فمن المعروف أن حادثة الإفك تتعلق بالسيدة عائشة رضي الله عنها وكانت محسنة، والدليل الثاني الأكبر هو الآيات من 6-9 من نفس السورة والتي ذكر فيها اللعان (القذف)، يقول تعالى: "وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَرْوَاحَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءٌ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَدَهُ أَحَدُهُمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْصَّادِقِينَ ⑤ وَالْخَمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ⑥ وَيَدْرُرُ أَعْنَاهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشَهَّدَ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ⑦ وَالْخَمِسَةُ أَنَّ عَصَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الْصَّادِقِينَ ⑧ (سورة النور: 6-9).

وقد اختلف العلماء والفقهاء في تعين معنى "العذاب" في هذه الآية.¹ والحقيقة أن هذا خلاف مخترع، فالآلف واللام في العذاب للعهد، وبالتالي تأكيد يراد به العقاب المذكور في الآية رقم 2 أي مئة جلدة وهو حد الزنا، يقول ابن القيم:

¹ يراد بذلك الرجم عند مالك والشافعي (بداية المجتهد، 2/120)، يقولان إن الحديث قد أوضح مفهوم "الزنانية والزاني.." بأن المراد بذلك الزاني والزنانية غير المحسنين، وعقوبة الزاني والزنانية المحسنين هي الرجم حسب السنة، (الرسالة، ص 66-67)، ولكن هذا غير صحيح وقد أثبتنا ذلك بالأدلة القاطعة.

ويراد بـ"العذاب" القيد عند أبي حنيفة والعلماء الآخرين للمذهب الحنفي. (أحكام القرآن، أبو بكر الجصاص، 3/296)، ورأيهم أن المرأة إذا تجنبت اللعان تقييد، حتى تقوم باللعان أو تعترف بهمة زوجها، لكن هذا الرأي لا يوافق سياق الكلام، فلم يذكر القيد قبل ذلك، وهذا الرأي خاطئ لأن المرأة إن لم تقم باللعان ثبتت عليها التهمة فلا حاجة لحبسها.

مجلة الهند

"والعذاب المدفوع عنها بلعانها هو المذكور في قوله تعالى: "وليشهد عذابهما طائفه من المؤمنين"، وهذا عذاب الحد قطعاً فذكره مضافاً ومعرفاً بلام العهد. فلا يجوز أن ينصرف إلى عقوبة لم تذكر في اللفظ ولا دل علىها بوجه ما من حبس أو غيره".¹

والدليل الثالث في هذا الأمر الآية 25 من سورة النساء والتي جاء فيها: وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طُولًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ فَإِنَّمَا مَلَكُثُ أَيْمَنَكُمْ مِنْ فَتَيَّاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِنْ كَحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَإِذْنُهُنَّ أُجُورُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرُ مُسْلِمَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَحْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَنَ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَحْشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَيَّرَ الْعَنَتِ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا وَخَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ". (سورة النساء: 25)

والسؤال هو ما هي عقوبة المحسنة الزانية؟ يقول الفقهاء أن عقوبتها الرجم، ولكن كيف يمكن معاقبة المحسنة الزانية الأمة؟ فليس هناك نصف للرجم، فلا مفر من أن نسلم بأن عقوبة المحسنة الزانية هي نفسها مئة جلدة المذكورة في سورة النور. وتجلد المحسنة الزانية الأمة خمسين جلدة وهو نصف العقوبة.

وسؤال آخر هو إن كانت العقوبة المذكورة في سورة النور تتعلق بالرجل والمرأة الزانيين المحسنين، فما هي عقوبة الزانيين غير المحسنين؟ يقول فريق من العلماء كما ذكر آنفًا أن حد الزنا المذكور في سورة النور هو للمرأة والرجل الزانيين المحسنين وغير المحسنين، ولكننا ذكرنا بالدليل القاطع أن هذا الحد للزانية والزاني المحسنين فقط. ومعاقبة الزانية والزاني المحسنين وغير المحسنين بعقوبة واحد لا يتفق مع العقل والعدل.

وما وصلت إليه بعد التحقيق في هذا الشأن هو أن عقوبة الزانية والزاني غير المحسنين هو الإيذاء، (فآذوهما)، والتي ذكرت في سورة النساء الآية 16. والدليل على ذلك الآية 25 من سورة النساء حيث ذكر أن عقوبة الزانية الأمة المحسنة هي نصف عقوبة "المحسنات"، ولكن لم يذكر عقوبة الزانية الأمة غير المحسنة. وهذا السكوت

¹ زاد المعاد، 4/191، انظر أيضًا التفسير الكبير، 146/23

مجلة الهند

يدل على أن العقوبة المذكورة في الآية 16 من سورة النساء باقية للزانية والزاني غير المحسنين ولم تنسخ بأي نص من القرآن الكريم.¹

هذه العقوبة (الإيداء) قد تختلف باختلاف الأحوال، وصورة من صور العقاب أن يقيدا مع الأعمال الشاقة لمدة معينة، فإن تابا وأصلحا يمكن تخفيف مدة العقوبة، ويروجان بعد إطلاق سراحهما بشرط رضا الأهل.

عقوبة الرجم: أشد عقوبة للزنا هي الرجم، أي رجم المرأة الزانية والرجل الزاني، ويصر بعض العلماء والفقهاء وكما ذكر سابقاً أن مستحقي عقوبة الرجم هم المحسنون من الرجال الزناة والنساء الزانيات دون استثناء، ولكن ترد هذه الفكرة بسبب آيات من القرآن الكريم وبعض حوادث الزنا كذلك.

يعترف أغلب العلماء والفقهاء بأن السنة لا تستطيع أن تنسخ حكمها من القرآن الكريم² أو تضييف إليه شيئاً، وفي الحقيقة تعتبر السنة شرحاً وبياناً للمجمل من الأحكام المذكورة في القرآن الكريم، ولذلك ثلاثة صور: 1. البيان العملي للأحكام المجملة المذكورة في القرآن الكريم مثل الطريقة العملية للصلوة والزكاة وغيرهما من الأعمال.

2. تفصيل حكم مجمل مذكور في القرآن الكريم، مثلاً لم يذكر القرآن تحريم الحيوانات المفترسة، لكن ذكر تحريم الدم بالصراحة في الآية رقم 3 من سورة المائدة، وقد حرمت السنة الحيوانات المفترسة في ضوء هذه الآية.

3. إصدار الحكم على أساس نص صريح لقضية لم يذكر حكمها بوضوح في القرآن الكريم.

¹ يحتاج إلى تدبر أكثر في هذه القضية

² يقول فضل بن زياد: "سمعتtttttتtt Ahmad bin Hanbal يقول: لا تنسخ السنة شيئاً من القرآن، قال: لا ينسخ القرآن إلا القرآن" (جامع بيان العلم، ابن عبد البر، 234/2).

³ تضييف السنة على القرآن فقط في حالة عدم وجود حكم صريح عما قضية ما، يقول الإمام الشاطبي: "إن السنة إما بيان لكتاب أو زيادة على ذلك... وإن لم يكن بياناً فلا يعتبر إلا بعد أن لا يوجد في الكتاب" (الموافقات، 4/6).

مجلة الهند

وعقوبة الرجم تتعلق بهذه الصورة الثالثة، فالرجم تعزير وليس بحد، وكذلك هو تعزير استثنائي، أي لا يعاقب به إلا في بعض الظروف الخاصة، فقد أمر القرآن في سورة النور بأن يعاقب الزنا بجلد مئة جلد، ولكنه لم يذكر العقوبة التي يعاقب بها الشخص الذي يرتكب الزنا أكثر من مرة أو يتخذه مهنة، أو يغتصب امرأة، عندما حدثت مثل هذه الحوادث في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، اجتهد واختار عقوبة الرجم في ضوء الآيتين 60-61 من سورة الأحزاب والتي نزلت متصلة مع سورة النور.¹

إذا أمعنا النظر في كلمات الآية 61 في سورة الأحزاب: "وقتلوا تقليلاً"، يتضح لنا أن المراد بذلك عقوبة الرجم، وكان يستحقها إضافة إلى مشجعي الشر، الأشخاص الذين تجاوزوا الحد في الشهوة، (وفي قلوبهم مرض)، وقد ذكر كلمة (ملعونين) في نفس الآية، مما يوضح سوء أخلاقهم أكثر وأكثر.

ومن المهم ذكر قضية الزنا الخاصة بมาตรฐาน الإسلامي، وقد عوقب بالرجم لأنه كان قد تجاوز الحد في هذا الأمر، وقد جاء عنه في رواية: "ينب كنبيب التيس".²

وقد عوقب ماعز بالرجم كذلك لأنه جامع المرأة غصباً دون إرادتها، يعني الزنا غصباً، وهذا هو السبب أنه عوقب بالرجم وخلي سبيل المرأة دون أي عقوبة.³ فلا يوجد ذكر لعقوبتها في أي رواية.

ولأن الزنا غصباً يتعلق بالفساد في الأرض، فيمكن معاقبة مرتكبه بعقوبات أخرى غير الرجم حسب الظروف، فمثلاً يمكن قتلهم، أو إعدامهم، وفي حالة استثنائية إن كان الزاني غير ممحض يمكن جلد مئة جلد ثم نفيه عن الوطن لمدة طويلة، وقد

¹ يمكن أن يكون مصدر عقوبة الرجم الآية 33 من سورة المائدة، والتي ذكرت فيها عقوبات شديدة للذين يفسدون في الأرض، مع العلم أن سورة النور وسورة الأحزاب نزلتا في أواخر العام الخامس الهجري، ونزلت سورة المائدة في أواخر العام السادس الهجري

² مسلم، كتاب الحدود، باب حد الزنا

³ الطبقات الكبرى، ابن سعد، 229/3

مجلة الهند

ذكرت بعض الروايات أن الشخص غير المحسن إذا كرر فعل الزنا فيعاقب بجلد مئة جلدة مع النفي عن الوطن، (مائة جلدة ثم تغريب عام).^١

يتضح من هذا أن عقوبة الرجم خاصة بالمتmersين المتخددين من الزنا مهنة، والذين ينفصون على المجتمع على المجتمع أنه وسلمته بأفعالهم الشهوانية، ويشكلون خطراً مستمراً على سمعة وكرامة العفيفات من النساء، وقد جعلت عقوبة الرجم لاستئصال هذا الخطر حتى يتظاهر المجتمع من وجود مثل هذه العناصر. ومن صاحب الحق والعدل يمكنه أن يصف هذه العقوبة بالعقوبة الوحشية؟!

القذف: وقد ذكر القذف في سورة النور بعد الزنا مباشرة. قال تعالى: "وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَأُجْلِدُو هُنْ ثَمَنِيَنَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَدَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَسِيقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَاصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شَهَدَاءٌ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمَنِ الْصَّادِقَيْنَ ﴿٦﴾ وَالْخَمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِيْنَ ﴿٧﴾ وَيَدْرُؤُ عَنْهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشَهَّدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمَنِ الْكَاذِبِيْنَ ﴿٨﴾ وَالْخَمِسَةُ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الْصَّادِقَيْنَ ﴿٩﴾" (سورة النور: 4-9).

ذكرت في هذه الآية صورتان للقذف: الصورة الأولى أن يتم شخص امرأة محصنة عفيفة بالزنا، فعليه أن يأتي بأربعة شهادة في إثبات ذلك، فإن لم يستطع، بجلد ثمانين جلدة بسبب هذه التهمة، ولا تقبل له شهادة إلا إذا تاب وأصلاح.

وقد اشترط أربعة شهادة في القذف مثل الزنا حتى تصان سمعة العفيفات، وإن أخطأ امرأة بسبب غلبة المشاعر عليها فالإصلاح لها وللمجتمع أن لا يهتك سترها، ولا يشهر بها، فمن الممكن أن تتوب إلى الله وتستغفر له وتصالح من أمرها.

والصورة الثانية للقذف أن يتم شخص زوجته بالزنا، ولكنه لا يملك من الشهود إلا نفسه، وفي هذه الحالة يكون الحكم بالحلف واللعنة، وذلك ما يسمى باللعان في

^١ مسلم والترمذني وأبو داؤود (كتاب الحدود)

مجلة الهند

اصطلاح الفقه، وقد ذكرت طريقته في الآية بأن يحلف الرجل بالله أربع مرات بأن ما اتهم به زوجته صحيح، ويقول في المرة الخامسة أنه يستحق لعنة الله إن كان من الكاذبين. فإن كانت المرأة أيضاً راضية باللعن بنفس الطريقة، فلا يعاقبها بأي عقوبة، ويترك أمرهما لله، وهو سبحانه يقرر من كان صادقاً يوم القيمة، ولكن إن لم ترض المرأة باللعن فتثبت التهمة وتعاقب بنفس عقوبة الزنا التي حددت في الآيات السابقة وهي جلد مئة جلد.

ومع أن الآية ذكرت فقط اتهام الرجل للمرأة بالزنا، ولكن من الواضح أن المرأة لو اتهمت زوجها بالزنا فيصدر الحكم بنفس الطريقة أي اللعن.

وقد ذكرت في القرآن عقوبة الجرائم كالمحاربة أي التمرد المسلح ضد الحكومة الإسلامية، والفساد في الأرض مثل قطع الطريق، وقتل النفس بغير حق، لذلك تعد من ضمن الحدود كذلك. فعقوبة الجريمتين أوّلاً هي أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم أو ينفوا من الأرض. (سورة المائدة: 33-34). ويمكن العاقبة بأي عقوبة حسب الظروف. أما عقوبة قتل النفس بغير حق فهي القصاص. (سورة البقرة: 178-179)

التعزيزات: كما ذكر سابقاً فإن العقوبات التي لم تذكر في القرآن الكريم ويقررها الحاكم أو القاضي تعتبر تعزيزاً وليس من الحدود.

وقد ذكر الفقهاء أن العقوبة التعزيزية عشرة أسواط: "لا يجلد فوق عشرة أسواط إلا حد من حدود الله".¹

لكن من الأفضل تحديد ذلك حسب الظروف، والروايات تؤيد هذا. أن النبي - صلى الله عليه وسلم - أتى برجل شرب الخمر فضربه بجریدتين نحوًا من أربعين،² و أما شارب آخر فالرواية إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أتى برجل قد شرب الخمر، فقال: "اضربوه"، فمنا الضارب بيده، والضارب بثوبه، والضارب بنعله، ثم قال:

¹ البخاري ومسلم والترمذى، رواه هانئ بن دينار

² البخاري، ومسلم، رواه أنس

مجلة الهند

"بَكَتُوهُ" ، فَأَقْبَلُوا عَلَيْهِ يَقُولُونَ: مَا أَتَقِيتَ اللَّهُ؟ مَا خَشِيتَ اللَّهُ؟ وَمَا اسْتَحْيِيَتْ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؟ فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: أَخْرَاكَ اللَّهُ، قَالَ: "لَا تَقُولُوا هَذَا! لَا تَعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ، وَلَكُنْ قُولُوا: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ".¹

وَأَفْرَأَيْتَ أَبُوكَرَ الصَّدِيقَ هَذِهِ الْعَقُوبَةَ فِي عَهْدِهِ، لَكِنْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابَ أَضَافَ عَلَى هَذِهِ الْعَقُوبَةِ بِسَبِيلِ ظَرُوفِ عَصْرِهِ وَجَعَلَهَا ثَمَانِينَ جَلْدًا، أَمَّا عُثْمَانَ فَجَعَلَهَا أَرْبَعينَ جَلْدًا.²

الأحكام الأخلاقية (الحكمة): الجزء الثاني للشريعة الإسلامية (الحكمة) يتعلق كما ذكر بالأحكام الأخلاقية، ولا يذكر هذا الجزء عموماً عند ذكر الشريعة الإسلامية، مع أن له دوراً كبيراً في بناء سيرة الشخص. إن القوانين العامة والتي تسمى "كتاب" فصل عنها في الصفحات السابقة، وهي تتعلق بالأعمال الخارجية، والهدف منها تحديد دواعي النفس السلبية داخل حدود معينة، ومعاقبة من يخالف هذه الحدود حتى لا يتجاوزوا الحد مرة أخرى. لكن الحكمة تتعلق بتزكية الباطن.

وقد ذكرت الأحكام الأخلاقية التي يشتمل عليها هذا الجزء الثاني من الشريعة الإسلامية في سورة الأسراء (39-23) وسورة لقمان (12-19) وسورة الحجرات (11-12) وفي سور أخرى. وقد تحدثنا عن هذه الأحكام الأخلاقية والتعليمات بالتفصيل في الباب السابع من هذا الكتاب، لذلك نذكر هنا بعض الأمور باختصار.

أول ما ذكر من الأحكام الأخلاقية في القرآن الكريم هو شكر الله سبحانه وتعالى، بمعنى طاعته وعبادته دون أدنى جزء من الشرك، فالشرك أكبر كفران لنعم الله تعالى، أما الحكم الثاني مع طاعة الله هو الإحسان إلى الوالدين، وهو يتعلق أيضاً بالشكر، والحكم الثالث هو مساعدة الفقراء والمساكين في المجتمع والعناية بهم، وقد أكد على عدم الإسراف وكذلك تجنب البخل وحذر من جعل المال شيئاً دون فائدة بجمعه، إنما يجب إنفاقه في إعانة الفقراء.

¹ أبو داؤود، رواه أبو هريرة

² مسلم، وأبو داؤود، رواه حصين بن منذر

و كذلك أمر بعدم أكل أموال اليتامي، والتطفييف، ونقض العهود لأن ذلك يؤدي إلى تفكك المجتمع وفساده، فالناس يفقدون الثقة ببعضهم وهو شيء يأتي بنتائج وخيمة.

وقد اعتبر التواضع أفضل الأخلاق، أما الغرور والتكبر سواء كان في السلوك والكلام أو أي شيء آخر فهو أسوأ الأخلاق، وقد أمر بتجنبه، وكذلك السخرية والطعن وبيان العيوب وسوء الظن والغيبة كلها عدت من الخصال السيئة، لأنها تؤدي إلى التفرقة وتتوتر العلاقات بين الناس.

ولذلك أول ما ذكر من التعاليم الأخلاقية في سورة الحجرات هي كون المؤمنين كلهم إخوة فيما بينهم، وإن حدث بينهم خلاف فالإصلاح بينهم هو واجب ديني أخلاقي لكل مؤمن.

مصادر الشريعة: تم التسليم بشكل عام وصادق العلماء والفقهاء من أغلب مكاتب الفكر على أن مصادر الشريعة الإسلامية أربعة: القرآن والسنة والإجماع والقياس.

وقد أوضح الأحناف هذه المصادر الأربع بأنه إذا عرض أمر فيجب البحث عنه أولاً في القرآن الكريم، فإن وجد حل الأمر قضي بذلك، فإن لم يوجد في كتاب الله بحث عنه في السنة ويقضي بذلك، فإن لم يوجد في السنة ما يرشد إلى الحل، ينظر إلى سبب مشترك بين هذا الأمر وقضية مشابهة حكم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا ما يسمى بالقياس. فإن لم يوجد السبب فيعمل بالإجماع.¹

لكن رأي يختلف عن هذا، في الحقيقة هناك مصدر أساسى ومستقل واحد فقط للشريعة الإسلامية وقوانينها وهو القرآن الكريم، والذي ذكرت فيه جميع الأحكام المتعلقة بالحياة الفردية والجماعية بشكل إجمالي، بل في بعض الموارد ذكر التفاصيل أيضاً، أما المصادر الأخرى فهي فروع لهذا الأصل، وقبل الحديث عن هذه القضية علينا أن نفهم نوعية العلاقة بين أحكام القرآن الإجمالية والتفصيلية.

¹ يأخذ الإمام الشافعي (المتوفى 204هـ/820م) أيضاً بالقياس والإجماع، ولكن القياس عنده في الدرجة الرابعة، ورأيه أن في حالة عدم وجود الحكم في الكتاب والسنة ي العمل بالإجماع السلف، فإن لم يوجد أخذ بالقياس. انظر: كتاب الأم

مجلة الهند

كما ذكر سابقاً هناك نوعان أساسيان للأحكام القرآنية. قسم يتعلق بالتوحيد والعبادات، وقسم يتعلق بالمعاملات، والمعاملات ثلاثة أقسام:

1. القضايا العائلية مثل النكاح والطلاق وغيرهما

2. التعاملات الاجتماعية مثل البيع والشراء وغيرهما

3. الحدود والتعزيرات

إن الأحكام في القرآن الكريم والتي تتعلق بالتوحيد مفصلة وغير قابلة للتغيير. والسبب في ذلك أنها تتعلق بالحقائق الكونية غير القابلة للتغيير.

لكن أمر العبادات مختلف عن ذلك، فنجد لها أحكاماً إجمالية وتفصيلية كذلك، مثلاً الزكاة، فقد حدد فيما تصرف الزكاة ولكنه لم يذكر النصاب، والسبب واضح، لأن النصاب يتعلق بالظروف المادية للشخص، والظروف قابلة للتغيير، وكذلك المعاملات، ذكرت فيها أحكاماً إجمالية عموماً حتى يتم تشكيل الأحكام التفصيلية حسب الظروف ومتغيرات العصر. كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عهده حسب الظروف الاجتماعية والمعيشية وتقاليد العرب المفيدة. ويجب ملاحظة أن الأحكام التعبدية غير قابلة للتغيير أيضاً مثل أحكام التوحيد.

وبعد أن أوضحنا نوعية العلاقة بين الأحكام الإجمالية والتفصيلية في القرآن ننظر إلى المصادر الثلاثة المزعومة للشريعة الإسلامية، فالسنة ليست مصدراً لقوانين الشرع لأنها ليست شيئاً مستقلاً عن القرآن بل هي مستنبطة منه.

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن.¹ وقد ذكر السيوطي في مقدمة كتابه الشهير "الإتقان في علوم القرآن" بعد أن نقل قول الشافعي: قلت: ويفيد هذا قوله صلى الله عليه وسلم: إني لا أحل إلا ما أحل الله ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه أخرجه بهذا اللفظ الشافعي في الأئم.²

¹ مقدمة في أصول التفسير، الإمام ابن تيمية، ص 9، انظر أيضاً مقدمة تفسير ابن كثير، ص 2

² انظر للتفصيل الإتقان في علوم القرآن، 65... (النوع)

مجلة الهند

ف بذلك يعتبر القرآن الأصل والسنّة فرع منه، وفي كلمات أخرى السنّة شرح وتفصيل للأحكام المجملة في القرآن الكريم (الأصول والكليات). يذكر الشاطبي (ت 790هـ) في كتابه "الموافقات":

"السنّة راجعة في معناها إلى الكتاب فهي تفصيل مجمله وبيان مشكله وبسط مختصره وذلك لأنها بيان له وهو الذي دلّ عليه قوله تعالى "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم" فلا تجد في السنّة أمراً إلا والقرآن قد دلّ على معناه دلالة إجمالية أو تفصيلية وأيضاً فكل ما دلّ على أن القرآن هو كلية الشريعة وينبئ لها فهو دليل على ذلك لأن الله قال "إِنَّكَ لَعَلَىٰ خَلْقٍ عَظِيمٍ" وفسّرت عائشة ذلك بأن خلقه القرآن واقتصرت في خلقه على ذلك فدلّ على أن قوله و فعله وإقراره راجع إلى القرآن لأن الخلق محصور".¹

وكذلك يذكر في نفس الكتاب في توضيح مفهوم كون السنّة مقدمة على القرآن: "أن قضاء السنّة على الكتاب ليس بمعنى تقديمها عليه وإطراح الكتاب بل أن ذلك المعيّر في السنّة هو المراد في الكتاب فكان السنّة بمثابة التفسير والشرح لمعاني أحكام الكتاب ودلّ على ذلك قوله لتبين للناس ما نزل إليهم".²

والمثال على علاقة الكتاب والسنّة المذكورة هو عقوبة "قطع اليد"، فمن المعروف أن عقوبة السرقة ذكرت في القرآن بشكل إجمالي أي أن تقطع يد السارق والسارقة، لكنه لم يوضح معنى "اليد" والموضع التي تقطع منه اليد، وأيضاً لم يذكر مقدار المال الذي بسرقه تجب هذه العقوبة وغير ذلك من الأمور، وقد أوضحت السنّة كل ذلك، يذكر الشاطبي مسيراً إلى هذه العقوبة:

"فإذا حصل بيان قوله تعالى والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما بان القطع من الكوع وأن المسروق نصاب فأكثر من حزمه فذلك هو المعنى المراد من الآية لا أن نقول إن

¹ المowaqqat، المجلد: 4، (المسألة الثالثة)

² المصدر نفسه، 7/4

مجلة الهند

السنة أثبتت هذه الأحكام دون الكتاب كما إذا بين لنا مالك أو غيره من المفسرين معنى آية أو حديث فعملنا بمقتضاه فلا يصح لنا أن نقول إننا عملنا بقول المفسر الفلاي دون أن نقول عملنا بقول الله أو قول رسوله عليه الصلاة والسلام وهكذا سائر ما بينته السنة من كتاب الله تعالى فمعنى كون السنة قاضية على الكتاب أنها مبينة له فلا يوقف مع إجماله احتماله وقد بينت المقصود منه لا أنها مقدمة عليه.^١

والسبب الثاني في عدم كون السنة مصدرًا مستقلًا للقانون هو أن ما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم من الأحكام التفصيلية في ضوء الأحكام الإجمالية للقرآن قابلة للتغيير حسب ظروف وأحوال العصر، فقبل كل ذلك يجب النظر إلى أي درجة أخذ صلى الله عليه وسلم الأحوال المحلية وعادات ونفسيات العرب بعين الاعتبار،^٢ يذكر شاه ولی الله الدهلوی:

"إن كنت تُريدُ النّظر في معانِي شَرِيعَةِ رَسُولِ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَتتحققُ أولاً حَالُ الْأُمَمِينَ الَّذِينَ بعثَ فِيهِمُ التِّيْهَيَّةَ هِيَ مَادَّةُ تَشْرِيعِهِ، وَتَائِبَاً كَيْفِيَّةً إِصْلَاحِهِ لَهَا بِالْمَقَاصِدِ الْمُذْكُورَةِ فِي بَابِ التَّشْرِيعِ وَالْتَّيسِيرِ وَأَحْكَامِ الْمُلَّا".^٣

ويذكر كذلك:

"باب أسباب نزول الشرائع الخاصة" فتجيء نبوة أخرى لإقامة ما اعوج منها: وصلاح ما فسد منها بعد اختلاط روايتها فيها، فتفتش عن الأحكام المشهورة عندهم، فـما كان صحيحاً موافقاً لقواعد السياسة المثلية لا تغيره، بل تدعوه إلى تغييره، وتحث عليه، وما كان سقيناً قد دخله التحريف، فإنها تغيره، بقدر الحاجة.^٤

فعلمونا أنه لا قانون يعتبر دائمًا إذا وضع أساسه على عادات وأعراف شعب معين، لأنها معرضة للتغيير مع مرور الوقت، وكذلك تختلف العادات والأعراف من شعب إلى آخر.

^١ المصدر نفسه، 8/4.

^٢ تستثنى الأحكام المتعلقة بالعبادات من ذلك، وهي غير قابلة للتغيير

^٣ حجۃ اللہ البالغۃ، المجلد: 1، باب: ما کان علیہ حال أهل الجahلیyah

^٤ المصدر نفسه، باب: أسباب نزول الشرائع الخاصة

و عمل الخلفاء كذلك يدل على أن السنة ليست مصدراً مستقلاً للشريعة، فمثلاً كان يسمح للنساء بالعبادة في المساجد، ولكن عمر بن الخطاب منعهن في عهده. وأيضاً كان يسمح بنكاح المرأة من أهل الكتاب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، لكن الخليفة الثاني ألغى هذا السماح كذلك. أيضاً كانت ثلاث تطليقات تعتبر تطليقة واحدة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنها كانت تطبق كطلاق بائن في العهد الفاروقي. وكانت العادة في العهد النبوي والعمد الصديقي أن تقسم الأراضي المفتوحة بين المجاهدين، لكن هذا لم يطبق في العهد الفاروقي.

ومثل السنة، لا يعتبر القياس كذلك مصدراً مستقلاً للقوانين، والسبب في ذلك أن أي حكم قياسي لا يعترف به إلا إذا أجمع عليه، ولا حجة للحكم القياسي الذي يستنجه فرد أو عدد من الأفراد، ثم إن الأحكام القياسية زمانية، تتغير مع الزمن، أو تتغير صورتها التطبيقية.

المصدر الرابع للشريعة هو الإجماع، أي أن يتفق عدد كبير من العلماء والفقهاء في عهد معين على حكم ما،¹ وهذه الأحكام نافعة ويعتمد عليها أكثر مقارنة مع الاجتهاد الفردي بدون شك، لكنها كذلك لا تعتبر مصدراً مستقلاً للشريعة، لأن أي إجماع لا يستند عليه إلا إذا وافق نصوص الكتاب والسنة. وهذا الشرط بذاته ينفي كونه مصدراً مستقلاً للشريعة، وأيضاً يعتبر الإجماع زمانياً مثل القياس، أي أن الحكم الإجماعي يتغير بتغير الأحوال والظروف،² ولكن هذا التغيير لا يكون إلا بإجماع آخر، ولا يمكن لاجتہاد فردی أن ینسخ إجماعاً.

¹ لا يراد بالإجماع عند الفقهاء أن يقرر أصحاب العلم والفقه حكماً شرعاً بالاتفاق في إجتماع كبير، ولم يحدث ذلك في الزمن الماضي ولم يكن ذلك ممكناً في تلك الفترة، بل يراد بذلك عدم وجود خلاف بين الأسلاف في قضية ما، وقد سمع بعض علماء الأصول مثل الأمدي هذا الإجماع بالإجماع السكوتى، وكتب أيضاً أنها حجة ظنية ويمكن مخالفته. (الأحكام، 1، 260، 261، 254)

² يظن كثير من العلماء والفقهاء أن الإجماع داثي، وهذا خطأ، فإن أي إجماع يظهر حسب الظروف الراهنة، الواضح أن التغيير واجب في الإجماع عند تغير الظروف، فإن أنكر ذلك شخص فهذا يعني أنه ينكر التغيير في أحوال وظروف الزمن، وهذا ينفي فهمه وعقله.

مجلة الهند

وصح مما سبق أن المصدر المستقل للقانون هو القرآن فقط، والمصادر الباقيه أي السنة والقياس والاجتهد هي فروع.

نوعية العلاقة بين مصادر الشريعة الأساسية والفرعية: يرجع إلى المصدر الأساسي أي القرآن في الحكم في أي قضية، كما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم: "إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحُقْقَىٰ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ إِمَّا أَرَدْنَاكَ اللَّهُ" (سورة النساء: 105)

وفي موضع آخر: "وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ إِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَنَزَّلْ أَهْوَاءُهُمْ" (سورة المائدة: 49)

وهذه الآيات ترد قول من يقول بأن تبحث في السنة عن حل لقضية إن لم نجده في القرآن، وقد أمر فيها أن يحكم "بما أنزل الله"، ومعنى ذلك أن القرآن يحتوي على حل كامل لكل القضايا، ولكن من الضروري التدبر والتفكير العميق في نصوصه، وبعد التدبر والتفكير الجماعي وليس الفردي وحين يجد الحكم الكلي، ينظر بالترتيب هل يوجد تفصيل لهذا الحكم الكلي في السنة¹ والقياس والإجماع، فإن وجد ولم يخالف روح النص القرآني، وليس هناك ضرورة لتغيير صورته التطبيقية رغم تغير الظروف، عمل به.

وإن ثبت بعد التدبر والتفكير أن الحكم الجزئي المستخرج لا يطابق النص القرآني أو أن صورته التطبيقية قد تغيرت بسبب تغير الظروف وجوب الاجتهد، أي تحديد حكم جزئي عملي جديد بطريقة إجماعية.

هذه هي الطريقة الصحيحة لحل المعاملات والقضايا في ضوء النصوص القرآنية، وليس الطريقة التي يذكرها كثير من العلماء وقد ذكرناها سابقاً.

ولأن العلماء يذكرون في تأييد فكرتهم المزعومة بعض الروايات ويقولون إن الصحابة والخلفاء الراشدين كانوا يقومون بالحكم في القضايا بهذه الطريقة، من الضروري أن نلقي نظرة على هذه الدعوى، وتذكر الرواية التالية لسن الدارمي كثيراً في هذا المجال:

"حدثنا ميمون بن مهران قال كان أبو بكر إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله فإن وجد فيه ما يقضي بيهم قضى به وإن لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الأمر سنة قضى به فإن أعياه خرج فسأل المسلمين فقال أتاني

¹ مع العلم أن هناك بعض الأحكام الجزئية أيضاً مذكورة في القرآن الكريم، ولا يجوز النظر إلى غيرها.

مجلة الهند

كذا وكذا فهل علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى في ذلك بقضاء فربما اجتمع إليه النفر كلهم يذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قضاء فيقول أبو بكر الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ على نبينا فإن أعياد أن يجد فيه سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رءوس الناس وخيارهم فاستشارهم فإن أجمع رأيهم على أمر قضى به".

ووقع الغلط في فهم معنى "إن لم يكن في كتاب الله"، فقد فهم من ذلك أن الخلفاء كانوا يتوجهون إلى السنة إذا لم يجدوا حكمًا لقضية ما في القرآن، إن استنتاج هذا المفهوم لهذه العبارة هو تصغير من شأن القرآن، إنما يعني ذلك أن الخليفة حينما لم يكن يجد حكمًا تفصيليًّا لقضية ما في القرآن، كان يتوجه إلى السنة ليبحث عن الحل، فإن لم يجد، يتوجه إلى مشورة أهل الرأي ويقترح الحل.

كانت هذه طريقة رائعة لحل القضايا، هل يطبق علماؤنا وفقهاونا هذه الطريقة؟ لا، أبداً. إنهم لا يتوجهون لحل القضايا إلى القرآن أو السنة، إنما يطّلعون على "الشامي" و"المهديّة" (إن كانوا من الأحناف)، وكان الشامي والمهديّة يوجد فيما أحکام لكل القضايا وهي قابلة للتطبيق في كل زمان، ولا حاجة للرجوع إلى القرآن والسنة وأهل العلم والتقوى. وكذلك الحال في علماء السلفية، فهم يبحثون حلاً لكل قضية في روايات الحديث ويعتقدون أن الحديث ذكرت فيه كل الأحكام، وهي دائمة وغير قابلة للتغيير. فاعتبروا يا أولى الأ بصار.

إقامة الشريعة (تنفيذ الشريعة): قد ترسخ في أذهان المسلمين ويشمل ذلك عدد كبير من أصحاب العلم وللأسف تصور محدود لإقامة الشريعة الإسلامية، أي تنفيذ القوانين العائلية والحدود والتعزيرات، فنرى أنه كلما ارتفعت الأصوات مطالبة بإقامة الشريعة الإسلامية نوقشت بشكل عام قضية إقامة المحاكم الشرعية وتعيين القضاة فيها. فإذا تم ذلك فكأن الشريعة قد نفذت. وقد ظهر ذلك واضحًا في الماضي حين قام الطالبان بتنفيذ الشريعة الإسلامية في أفغانستان. وفي الوقت الحاضر أقيمت المحاكم الشرعية وتم تعيين القضاة فيها، في المناطق القبلية

مجلة الهند

في باكستان بعد أن أقرت الحكومة تنفيذ الشريعة المحمدية، وتم التسليم بأن الشريعة المحمدية قد أقيمت.

هذا تصور ناقص للشريعة الإلهية والذي أدى إلى التنقيص من مكانتها. إننا عرفنا الشريعة الإسلامية في الصفحات السابقة وتم التوضيح أن الشريعة تشتمل على الكتاب والحكمة، والتوحيد هو جوهرها ولها. لذلك علينا أن نقدم هذا الجوهر واللب عند إقامة الشريعة في كل الأحوال، إضافة إلى ذلك علينا أن نتبع الترتيب المذكور في القرآن عند إقامة الشريعة والذي ذكر تفصيله أثناء توضيح الجزء الأول من الشريعة الإسلامية "الكتاب".

ونكتبه مرة أخرى بالاختصار للاستحضار. قبل كل شيء يجب ترسيخ المعنى الصحيح للتوحيد في الأذهان، وإقامة أساسين من أساس التوحيد وهي الصلاة والزكاة والتي تعتبر المنابع الرئيسية للحسنـة ولها دور كبير في تشكيل مجتمع صالح، إقامتـهما على المعايير المطلوبة. أي أن يبرز إلى حيز الوجود مجتمع يتمـيز بطاعة وعبادة الله وحده وحسن معاملة عبـدـه، وبعبارة أخرى يكون النموذج العملي لـ"إنما المؤمنون إخوة". لا فرق فيه على أساس الأصل واللون، ولا يوجد فيه فقير أو جائع، ويكون الجميع ميسوري الأحوال رغم التفاوت في المستوى المعيشي، تكون فيه الأبواب مفتوحة لكل مؤمن لكسب المعاش والتطور دون إدنـى تـفـريقـ، إضافة إلى ذلك لا يظهر في المجتمع شرك جـليـ ولا خـفيـ، ويكون المسلمين كلـهمـ مـتفـقـينـ على عبادة الله وحده وعلى تدبيره للأمور، كما قال: "رَبُّ الْمَسْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَتَخِذْهُ وَكِيلًا" (سورة المزمـلـ: 9)

وبعد إقامة التوحيد ومقتضياته الأساسية يجب ترتيب الحياة العائلية حسب الشريعة الإلهية كما ذكر في سورة البقرة والسور الأخرى. ولكن لا يكتفى بتنفيذ الأحكام والقوانين العائلية. إنما ينـظـرـ إلى إصلاح النفس لأفراد المجتمع، فإن لم تمـ تـرـكيـةـ النـفـسـ منـ الصـعـبـ إـطـاعـةـ شـرـيعـةـ اللهـ بـقـلـبـ صـادـقـ،ـ إـضـافـةـ إـلـىـ الصـلاـةـ والـزـكـاةـ والتيـ تـعـتـبرـ منـ الوـسـائـلـ الرـئـيـسـيـةـ لـتـرـكيـةـ النـفـسـ وـتـطـهـيرـهاـ،ـ يـجـبـ التـذـكـيرـ بـكـثـرـةـ بـتـعـالـيمـ الـقـرـآنـ الـأـخـلـاقـيـةـ وـكـذـلـكـ إـشـاعـتـهاـ وـنـشـرـهاـ.

مجلة الهند

وتنفذ الحدود والتعزيرات بعد تجاوز هاتين المرحلتين وبالتالي، وتنفذ قوانين خفيفة في المرحلة العبورية، وكلما تطور المجتمع من الناحية الإيمانية والأخلاقية، أخذت القوانين الدائمة محل القوانين العبورية. لكن من الضروري أن لا يهمل جانب العفو والمداراة أثناء تنفيذ القوانين سواء كانت في المرحلة العبورية أو النهائية. أما الظالموн والطغاة فيعاملون معاملة قاسية حتى لا يختل الأمن والطمأنينة في المجتمع.

إزالة لسوء فهم: إن إقامة الشريعة يعني إقامة الشريعة المذكورة في كتاب الله، وليس الشريعة القائمة على المسالك المختلفة، يعني الفقه الحنفي والفقه الشافعى وغيرهما. ومن يتحدث اليوم عن إقامة الشريعة الإسلامية يكون في ذهنه مسلك معين من الشريعة، مثلاً إن كان من متبعي المسلك الحنفي فيكون المعنى تنفيذ المسلك الحنفي، لأنهم وللأسف ولقلة فهمهم يعتبرون أن الفقه الحنفي هو الشريعة الإسلامية بعينها. وقد تعرض لسوء الفهم هذا ليس فقط عامة المسلمين وإنما كثير من أهل العلم أيضاً. لذا نلاحظ عبارة المودودي التالية:

"إذا تم القرار على جعل الشريعة الإسلامية دستوراً للدولة (والذي لا يمكن لأي مسلم إنكاره) فيجب أن تتنفيذ الشريعة التي يستسلم بها غالبية المسلمين، كدستور وقانون، والظاهر أن الأكثريَّة من المسلمين في البلاد من الأحناف.... فمن اللازم أن يكون قانون البلاد مبني على التعبير الحنفي للشريعة".¹

وكانهم اعترفوا بأن الفقه الحنفي هو الاسم الثاني للقرآن والسنة، أليس هذا وليد الذهن المقيد بالسلوك، كان عليه أن يقول إن دستور وقانون البلاد يجب أن يكون حسب ما يوجد في كتاب الله. وتكون الشريعة المعتبرة هي الثابتة من نصوص القرآن وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، سواء كانت موافقة لأي مسلك أو مخالفة له.

¹ اسلام كا نظریہ سیاسی، (النظرية السياسية للإسلام)، لأبی الأعلى المودودی، ص 25

مجلة الهند

وأعتقد أن السيد المودودي يعرف أن الفقه إن كان حنفياً أو غيره يشتمل على الأحكام الجزئية، وهي تتغير بتغيير الأحوال.¹ وكذلك فهو لا يجهل الحقيقة التاريخية أن الفقه الحنفي والمسالك الفقهية الأخرى دونت قبل ألف عام وبشكل إنفرادي. وقد تغيرت قضايا الزمن كثيراً في هذه الفترة الطويلة، وفي ضوء هذه الحقائق التاريخية لا يمكن للفقه الحنفي أو أي فقه آخر أن يكون قانوناً لدولة مسلمة. والشريعة التي تكون موافقة لنصوص القرآن والسنة وكذلك موافقة لمتطلبات العصر الحديث هي التي تكون معتبرة وقابلة للعمل والتطبيق.

ولكي يتم هذا العمل الشاق، نحتاج إلى إجتهاد مطلق ومجتهدين أحياء، إن الظروف قد تغيرت كثيراً في العهد الحاضر، ولا يكفينا اليوم الاجتهاد الجزئي (الاجتهاد في الفتوى) أو اجتهادات المجتهدين المتوفين.

وقد تحدثنا عن ذلك في الباب القادم.

¹ يقول القرضاوي: "إن أصحاب أبي حنيفة خالفوه في أكثر من ثلث المذهب لاختلاف عصرهم عن عصره، وقالوا: لو رأى صاحبنا ما رأينا لقال بمثل ما قلنا، أو أكثر. وللإمام أحمد تروى عنه في المسألة الواحدة روایات قد تبلغ سبعاً أو أكثر، وما ذلك إلا لاختلاف الأحوال والملابسات وتغير الظروف والأوضاع في غالب الأحيان."

حديث الولي بين مؤيديه ومعارضيه، دراسة حديثية موضوعية

د. ماجد محمد عبده الدلالي^١

ملخص

كثر الاختلاف حول الولاية في هذه الأيام خصوصاً أنّ البعض استغل هذا الحديث ليثبت أموراً لم يأت بها الشارع وألزم الناس بها، وبالمقابل كان الاتجاه الآخر أكثر تشدداً في هذا الأمر حيث أنكروا الأمر جملة وتفصيلاً؛ حتى أدى بهم الأمر إلى إنكار الحديث الوارد في هذه المسألة، والانتقاص من مكانة وأحاديث الصحيحين، لذلك أردت أن أجلي هذه المسألة، مبيناً التعريفات والمقدمات لحديث الولي ومن ثم أناقش الحديث سندًا ومتناً مستعيناً بالأدلة وأقوال الأئمة في هذه المسألة.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام للأتمن على سيد الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه الغر الميامين، ومن تعهم بياحسان إلى يوم الدين. وبعد:

أَلَا إِنَّ أُولَئِكَ اللَّهُ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَخْرُجُونَ ۝ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝
لَهُمُ الْبُشِّرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلٌ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ ۝ [يونس: 64-62]

^١ أستاذ مساعد، عمادة السنة التحضيرية، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة الدمام، المملكة العربية السعودية، الدمام

مجلة الهند

وعن أبي الدّرداء قال: أتاه رجلٌ فقال ما تقولُ في قولِ الله (لَهُمُ الْبُشْرِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) قال لقد سألت عن شيء ما سمعت أحدها سأله بعد رجلٌ سأله عنهُ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال «بُشِّرَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا الرُّؤْيَا الصَّالِحةُ يرَاهَا الْمُسْلِمُ أَوْ تُرَى لَهُ وَبُشِّرَاهُمْ فِي الْآخِرَةِ الْجَنَّةُ».¹

وقد ذكر الله تعالى أن هناك أولياء للرحمن وأولياء للشيطان، وأمرنا أن نكون من أولياء الرحمن، وقد ذكرت الولاية في القرآن والسنة، وورد فيها حديث صحيح مشهور أورده البخاري في صحيحه فعن أبي هريرة قال قال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَيْ لِي وَلِيًّا فَقُدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ... الْحَدِيثُ».²

هذا وقد قام العلماء بشرح هذا الحديث، وهم كل شراح البخاري، وقام العلامة ابن رجب الحنبلي بشرحه في "جامع العلوم والحكم"، وشرحه شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته القيمة "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان"³، وأفرده الإمام الشوكاني بكتاب ضخم سماه "القطر الجلي شرح حديث الولي".⁴

وقد رأيت أن أقوم بجمع خلاصة هذه الشروح والتوفيق بينها، وإضافة ما يلزم إضافته لها، أو التعقيب على بعضها، لاسيما وقد أصبح الاختلافُ كبيراً بين المسلمين حول كثير من صفات الأولياء.

وقد قمت بجمع مفردات مواد هذا الموضوع من مصادرها الأساسية، وقد حكمت على الأحاديث بالصحة والضعف حسب قواعد الجرح والتعديل الموضوعة في هذا الفن. وقد قسمته إلى بابين وعدة مباحث:

¹ مسنون أحمد، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف، مصر، council.org، www.islamic، حدث: 28291، وهو صحيح لغيرة.

² صحيح البخاري، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف، مصر، council.org، www.islamic، حدث: 6502.

³ وقد حققه الشيخ علي الشحود ونشره على النت في صيد الفوائد ومشكاة وملتقى أهل الحديث.

⁴ وقد أخذت به رسالة دكتوراه من الأزهر قسم الفلسفة ونشر بكتاب ضخم.

مجلة الهند

الباب الأول: مباحث هامة حول الموضوع

المبحث الأول: معنى الولاية لغة واصطلاحاً.

المبحث الثاني: المبحث الثاني: الأنبياء والأولياء.

المبحث الثالث: عصمة الأولياء.

المبحث الرابع: هل ما كان معجزة لبنيٍّ كان كراماً لوليٍّ.

المبحث الخامس: التفاضل بين الأنبياء والأولياء.

الباب الثاني: حديث الولي

المبحث الأول: نص الحديث وشواهده

المبحث الثاني: حول صحة الحديث وما قيل فيه والجواب عنه وعن أحاديث الصحيحين

المبحث الثالث: الجواب عن الإشكالات السبعة في هذا الحديث

المبحث الرابع: مفهوم الولاية في القرآن الكريم

المبحث الخامس: معاداة أولياء الله تعالى مؤذنة بالحرب من الله

الباب الأول: مباحث هامة حول الموضوع

المبحث الأول: معنى الولاية لغة واصطلاحاً:

1. في اللغة "ولي" في أسماء الله تعالى: الوليُّ هو الناصرُ وقيل: المُتَوَلِّ لِأُمورِ العالمِ والخلائق القائمُ بها ومن أسمائه عز وجل: الولي وهو مالكُ الأشياء جميعها المُتَصَرِّفُ فيها.

قال ابن الأثير: وكان الولاية تشعر بالتدبر والقدرة والفعل وما لم يجتمع ذلك فيها لم ينطلق عليه اسم الولي....

وقال ابن السكيت: الولاية بالكسر السلطان والولاية والولاية النُّصرة. يقال: هم علىٰ ولاية أي مجتمعون في الْحُصْرَة... وقال الزجاج: يقراً ولايتهم وولايتم بفتح الواو وكسرها فمن فتح جعلها من النصرة والنسب قال: والولاية التي بمنزلة الإمارة

مجلة الهند

مكسورة ليفصل بين المعنين وقد يجوز كسر الولاية لأن في تولي بعض القوم بعضًا جنساً من الصناعة والعمل وكل ما كان من جنس الصناعة نحو القصارة والخياطة فهي مكسورة. قال: **والولاية على الإيمان واجبة** {المؤمنون بعضهم أولياء بعض} ولِيُ بين الولاية ووالٍ بين الولاية...

والولي: الصديق والنصير. قال ابن الأعرابي: **الولي التابع المحب** وقال أبو العباس في قوله: "من كنت مولاه فعليه مولاه أي من أحبني وتولاني فليتوله".

والمولاة: ضد المعاادة والولي: ضد العدو ويقال منه تولاد. قوله عز وجل: {فتكون للشيطان ولِيَا}. قال ثعلب: كل من عبد شيئاً من دون الله فقد اتخذه ولِيَا. قوله عز وجل: {الله ولِيُّ الذين آمنوا} قال أبو إسحاق: الله ولهم في حجاجهم وهدايتهم وإقامة البرهان لهم لأنهم يزيدونهم هداية كما قال عز وجل: {والذين اهتدوا زادهم هُدًى} وولهم أيضاً في نصرهم على عدوهم وإظهار دينهم على دين مُخالفهم وقيل: ولهم أي يتولى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم. **والولاء: الملاك.** والمُؤْلَى: الملاك والعبد والأئمَّة بالباء. وفيه مُؤْلَوِيَّة إذا كان شبيهاً بالموالي. وهو يتمولى علينا أي يتشبه بالموالي وما كنت بمُؤْلَى وقد تموليت والاسم الولاء. **الملوك:** الصاحب والقريب كابن العم وشقيقه. وقال ابن الأعرابي: المولى الجار والحليف والشريك وابن الأخ. **والولي:** المؤلِّى. **وتولاه:** اتخاذه ولِيَا وإنَّه لبَيْنَ الولاية والولوية والتولى والولاء والولاية والولاية. **والولي:** القُرْبُ والدُّنُوُّ ...¹"

2. الولاية اصطلاحاً: ولاية الله تعالى. مفهوم ولاية الله تعالى: ذكر ابن القيم أن ولاية الله تعالى نوعان: عامة، وخاصة.² فأما الولاية العامة فهي ولاية كل مؤمن، فمن كان مؤمناً، الله تقىءاً، كان الله له ولِيَا. وفيه من الولاية بقدر إيمانه وتقواه.³

¹ لسان العرب، 405/15، والنهاية في غريب الحديث والأثر، 510/5، وtag العروس من جواهر القاموس، 8657/1.

² الموسوعة الفقهية الكويتية، 45/175.

³ بدائع الفوائد، 3/106، وانظر حاشية المداوي على فتح المعين ص 269، وشرح العقيدة الطحاوية، ص 103.

يدل على هذا قوله تعالى: {إِنَّ أُولَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} (سورة آل عمران: 68)، وقوله سبحانه: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (سورة البقرة: 257).

وفي هذا النوع من الولاية قال ابن تيمية: "فالظالم لنفسه من أهل الإيمان معه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه، كما معه من ضد ذلك بقدر فجوره، إذ الشخص الواحد تجتمع فيه الحسنات المقتضية للثواب والسيئات المقتضية للعقاب، حتى يمكن أن يثاب ويعاقب، وهذا قول جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأئمة الإسلام وأهل السنة".¹

وأما الولاية الخاصة: فهي القيام لله بجميع حقوقه، وإيثاره على كل ما سواه في جميع الأحوال، حتى تصير مراضي الله ومحاباه هي همه ومتعلق خواطره، يصبح ويسمى وهذه مرضاه ربه وإن سخط الخلق".²

وفي هذا النوع من الولاية يقول الشوكاني: "الولي في اللغة: القريب. والمراد بأولياء الله: خلص المؤمنين، لأنهم قربوا من الله سبحانه بطاعته واجتناب معصيته".³

وقد تنوّعت تعريفات العلماء لهذه الولاية، فقال الغنيمي الميداني: "الأولياء جمع ولی، بوزن فعل (بمعنى مفعول لقتيل بمعنى مقتول)، أو بمعنى فاعل كعلیم بمعنى عالم. قال ابن عبد السلام: وكونه بمعنى فاعل أرجح، لأن الإنسان لا يمدح إلا على فعل نفسه، وقد مدحهم الله تعالى. فعل الأولى يكون الولي من تولى الله عز وجل رعايته وحفظه، فلا يكله إلى نفسه، كما قال سبحانه: {إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّ الصَّالِحِينَ} (سورة الأعراف: 196).

¹ مختصر الفتاوى المصرية، ص 588، والتحفة العراقية في أعمال القلوب، ص 15 وما بعدها ومجموع فتاوى ابن تيمية، موقع الإسلام، www.alislam.com، http://www.alislam.com، 345/2.

² بدائع الفوائد، 107/3.

³ فتح القدير الجامع بين في الرواية والدرایة من علم التفسير، 436/2.

مجلة الهند

وعلى الثاني يكون الولي من تولى عبادة الله وطاعته، فهو يأتي بها على التوالي، آناء الليل وأطراف النهار. ويجنب إلى هذا ما عرفه به السعد في "شرح العقائد" حيث قال: هو العارف بالله حسب ما يمكن، المواطل على الطاعات، المجنوب للمعاصي، المعرض عن الانبهام باللذات والشهوات".¹

وكذا تعريف الميتي لالأولياء بأنهم: القائمون بحقوق الله وحقوق عباده، بجمعهم بين العلم والعمل، وسلامتهم من المهوتات والرلل.² ولا يخفى أن سلامتهم من المهوتات والرلل لا تعني العصمة، إذ لا عصمة إلا لبني، ولكن كما قال ابن عابدين على معنى أن الله يحفظ الولي من تماديه في الرلل والخطأ إن وقع فيما، بأن لهم التوبة فيثوب مهما، وإلا فهما لا يقدحان في ولاته.³

المبحث الثاني: الأنبياء والأولياء:

1. الفرق بين الولي والنبي: ذكر العلماء أن هناك فرقاً بين الولي والنبي في:⁴

أ- العصمة: فالأنبياء مخصوصون وجواباً، وليس الأولياء كذلك، فيجوز عليهم ما يحوز على سائر عباد الله المؤمنين من اقتراف الذنوب. قال الشوكاني: "لكنهم قد صاروا إلى رتبة رفيعة ومنزلة عالية، فقل أن يقع منهم ما يخالف الصواب وينافي الحق، وإذا وقع ذلك فلا يخرجهم عن كونهم أولياء لله".⁵

¹ شرح العقيدة الطحاوية، ص103، وانظر لوامع الأنوار الهيئة، 2/392، والمحل على جمع الجواجم وحاشية العطار عليه، 2/481، وتعريفات الجرجاني، ص132، وكشاف اصطلاحات الفنون، 2/528، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري، 11/342، وبستان العارفين، موقع الوراق، http://www.alwarraq.com ، ص 171، ومجموعة رسائل ابن عابدين، 2/277، وحاشية المدابغى على فتح المعين، ص 269.

² الفتاوی الحدیثة لابن حجر ، ص 301.

³ مجموعة رسائل ابن عابدين، 2/277.

⁴ مجموع فتاوى ابن تيمية، 11/208، و221، و223، ولوامع الأنوار الهيئة وسواطع الأسرار الأثرية، 2/301، وقطر الولي، ص 248، وشرح العقيدة الطحاوية، ص 139، وكشاف اصطلاحات الفنون، .1529/2

⁵ القطر الجلي شرح حديث الولي، ص 248.

مجلة الهند

وقال التّووئيُّ: "وَأَمَّا أَنْ يَكُونُ الْوَلِيُّ مَحْفُوظًا، فَلَا يُصْرُّ عَلَى الدُّنُوبِ، وَإِنْ حَصَلَتْ مِنْهُ هَفْوَاتٌ فِي أَوْقَاتٍ أَوْ زَلَّاتٍ، فَلَا يَمْتَنِعُ ذَلِكَ فِي حَقِّهِمْ".¹

ب - الإيمانُ بـ وُجُوبِ الاتّباعِ: الأنبياءُ صلواتُ اللهِ عَلَيْهِمْ يَجْبُ لَهُمُ الْإِيمَانُ بـ جَمِيعِ مَا يُخْبِرُونَ بـه عن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَجْبُ طَاعَتُهُمْ فِيمَا يَأْمُرُونَ بـه، بـ خَالِفِ الْأُولَاءِ فَإِنَّهُمْ لَا تَجْبُ طَاعَتُهُمْ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُونَ وَلَا إِيمَانُ بـ جَمِيعِ مَا يُخْبِرُونَ بـه. قال ابنُ تِيمِيَّةَ: "بـلْ يُعْرِضُ أَمْرُهُمْ وَخَبْرُهُمْ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ، فَمَا وَافَقَ الْكِتَابَ وَالسُّنْنَةَ وَجَبَ قَبُولُهُ، وَمَا خَالَفَ الْكِتَابَ وَالسُّنْنَةَ كَانَ مَرْدُودًا". ثُمَّ قَالَ: ذَلِكَ أَنَّ أُولَاءِ اللهِ يَجْبُ عَلَيْهِمْ الاعْتِصَامُ بـ الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ مَغْصُومٌ يُسْوَغُ لَهُ أَوْ لِغَيْرِهِ اتّبَاعُ مَا يَقْعُدُ فِي قَلْبِهِ مِنْ غَيْرِ اعْتِبارِ بـ الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ".²

ج - الْوَحْيُ: الأنبياءُ مُكَرَّمُونَ بـ تَلَقِّي الْوَحْيِ وَمُشَاهَدَةِ الْمَلَكِ، وَلَيْسَ الْأُولَاءُ كَذَلِكَ. فَالْأُولَاءُ لَا يَسْعُهُ إِلَّا اتّبَاعُ النَّبِيِّ، حَتَّى إِنَّ الْوَلِيَّ لَوْ ادْعَى النُّبُوَّةَ صَارَ عَدُوًّا لِلهِ، لَا وَلِيًّا لَهُ، وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى مَدْعِيِّ عِلْمِ الْغَيْبِ.

د - وُجُوبُ تَبْلِيغِ الْوَحْيِ: الأنبياءُ مَأْمُورُونَ بـ تَبْلِيغِ الْحُكْمَ وَسَائِرِ مَا يُوحَى إِلَيْهِمْ بـه مِنَ اللهِ وَإِرْشَادِ الْأَنَامِ لِدِينِهِ، وَلَيْسَ الْأُولَاءُ كَذَلِكَ، لَأَنَّهُمْ لَا يَتَلَقَّونَ ذَلِكَ مُبَاشِرَةً بـ وَاسْطَةِ الْوَحْيِ، وَإِنَّمَا يَتَبَعُونَ الْأَنْبِيَاءَ.

هـ- الْأَمْنُ مِنْ سُوءِ الْخَاتِمةِ: فـالأنبياءُ مَأْمُونُونَ عَنْ خَوْفِ سُوءِ الْخَاتِمةِ، أَمَّا الْوَلِيُّ فَلَا يَعْلَمُ هُوَ وَلَا غَيْرُهُ مَادَمَ حَيًّا هُلْ سَيُخْتَمُ لَهُ بـ الْمُوْافَاهَ عَلَى الإِيمَانِ، أَمْ أَنَّهُ سَيُلْقَى اللهُ غَيْرُ ذَلِكَ.

وـ خَتْمُ النُّبُوَّةِ: فـالنُّبُوَّةُ مَخْتُومَةٌ مِنْ حِيثُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَخْبَارِ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بـ نَبْيِنَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِذْ لَا نَبِيَ بَعْدُهُ، أَمَّا الْوَلَايَةُ فَهِيَ دَائِمَةٌ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

¹ بستان العارفين، ص 173.

² مجموع فتاوى ابن تيمية، 209، 208/11.

ز- حُكْمُ السَّبِّ: أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ سَبَّ نَبِيًّا فَقْدَ كَفَرَ، وَمَنْ سَبَّ أَحَدًا مِنَ الْأُولَيَاءِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءٍ فَإِنَّهُ لَا يَكُفُرُ، إِلَّا إِذَا كَانَ سَبُّهُ مُخَالَفًا لِأَصْبَلٍ مِنْ أَصْبُولِ الْإِيمَانِ، مَثُلَ أَنْ يَتَّخِذَ ذَلِكَ السَّبِّ دِيَنًا، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ لَيْسَ بِدِينٍ.¹

ح. اتَّفَقَ سَلْفُ الْأَمْمَةِ وَخَلْفُهَا مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ مِنَ الْأُولَيَاءِ الَّذِينَ لَيْسُوا بِأَنْبِيَاءٍ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَفْضِيلُ أَحَدٍ مِنَ الْأُولَيَاءِ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ. قَالَ الْفَشِيرِيُّ: "رُتبَةُ الْأُولَيَاءِ لَا تَبْلُغُ رُتبَةَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِلْإِجْمَاعِ الْمُنْعَقَدِ عَلَى ذَلِكِ".²

أَمَّا مَا نُقلَ عَنْ بَعْضِ الْكَرَامَيَّةِ وَغَلَّةِ الْمُتَصَوِّفَةِ مِنْ جُوازِ كُونِ الْوَلِيِّ أَفْضَلَ مِنَ النَّبِيِّ فَهُوَ باطِلٌ. قَالَ الْغُنَيْمِيُّ الْمَيْدَانِيُّ: "هُوَ كُفُّرٌ وَضَلَالٌ".³

وَأَمَّا أَفْضَلُ الْأُولَيَاءِ وَالْأَنْبِيَاءِ، فَقَدْ قَالَ ابْنُ تِيمِيَّةَ: "أَفْضَلُ أُولَيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى هُمْ أَنْبِيَاؤُهُ، وَأَفْضَلُ أَنْبِيَائِهِ هُمُ الْمُرْسَلُونَ، وَأَفْضَلُ الرُّسُلِ هُمُ أُولُو الْعِزَمِ: نُوحٌ وَإِبْرَاهِيمُ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَأَفْضَلُ الرُّسُلِ: نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ".⁴

2. كراماتُ الْأُولَيَاءِ: الْكَرَامَاتُ جَمْعُ كَرَامَةٍ، وَهِيَ فِي الْلُّغَةِ: الشَّرْفُ. مِنَ الْكَرَمِ: الَّذِي يَعْنِي شَرْفَ السَّيِّءِ فِي نَفْسِهِ أَوْ فِي خُلُقِهِ مِنَ الْأَخْلَاقِ. أَوِ الْكَرَامُ: الَّذِي هُوَ إِيصالٌ نُفُعٌ إِلَى الْإِنْسَانِ، لَا يَلْحِقُهُ فِيهِ غُضَاظَةٌ، أَوْ أَنْ يَجْعَلَ مَا يُوَصِّلُ إِلَيْهِ شَيْئًا كَرِيمًا، أَيْ شَرِيفًا.⁵

أَمَّا فِي الاصْطِلَاحِ الشَّرْعِيِّ، فَقَدْ عَرَفَ ابْنُ عَابِدِينَ الْكَرَامَةَ بِأَنَّهَا: طَهُورُ أُمْرٍ خَارِقٍ لِلْعَادَةِ، عَلَى يَدِ عَبْدٍ ظَاهِرِ الصَّلَاحِ، مُلْتَزِمٌ لِتَابِعَةِ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، مُفْتَرِنًا بِصَحِيحِ الْإِعْتِقَادِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ غَيْرِ مُقَارِنٍ لِدَعْوى النُّبُوَّةِ.⁶

¹ مختصر الفتاوى المصرية، ص 560، ومغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المهاجر، 4/135.

² بستان العارفين، ص 169.

³ شرح العقيدة الطحاوية، ص 139.

⁴ مجموع فتاوى ابن تيمية، 161/11، وانظر القطر الجلي شرح حديث الولي، ص 238.

⁵ معجم مقاييس اللغة، 172/5، ومفردات الراغب، ص 707.

⁶ مجموعة رسائل ابن عابدين، 2/278.

امتازت الكرامة بعدم الاقتران بدعوى النبوة عن المعجزة، وبكونها على يد ظاهر الصلاح وهو الولي عما يسمونه معونة وهي الخارق الظاهر على أيدي عوام المؤمنين، تخلصاً لهم من المحن والمكاره، وبمقارنته صحيح الاعتقاد والعمل الصالح عن الاستدراج، وبمتابعة نبي قبله عن خوارق مدعى النبوة المؤكدة لكتبه المعروفة بالإهانة كبسق مسيلمة في بئر عذبة الماء ليزداد ماؤها حلاوة، فصار ملحًا أجاجًا.¹

- وقد ذهب أهل السنة والجماعة من الفقهاء والأصوليين والمحاذين وغيرهم - خلافاً للمعتزلة ومن وافقهم - إلى أن ظهور الكرامة على الأولياء جائز عقلاً، لأنها من جملة الممكنات، وأنها واقعة نقلًا مفيداً لليقين من جهة مجيء القرآن بها، ووقوع التواتر عليها قرآنًا بعد قرن وجياً بعد جيل. وبعد ثبوت الواقع لا حاجة إلى إثبات الجواز.²

3. الفرق بين الكرامة والمعجزة: **المُعْجَزَةُ اسْمٌ فَاعِلٌ مَأْخُوذَةٌ مِنَ الْعَجْزِ الْمُقَابِلِ** للقدرة، لما فيها من إعجاز الخصم عند التحدي، والهاء للمبالغة.

وهي في الشرع: ما خرق العادة من قول أو فعل، إذا وافق دعوى الرسالة وقارنها وطابقها، على جهة التحدي ابتداءً، بحيث لا يقدر أحد علمها ولا على مثلها ولا على ما يقاربها.³

وتسمية دلائل النبوة وأعلامها "معجزاتٍ" إنما هو اصطلاح النّظار، إذ لم يرد هذا اللفظُ في الكتاب ولا في السنة، والذي فيه لفظُ الآية والبينة والبرهان.⁴

¹ المحلى على جمع الجواب مع حاشية العطار، 481/2، وشرح العقيدة الطحاوية، ص 139، وكشاف اصطلاحات الفنون، 975/2، ولوامع الأنوار الهيئة، 392/2، ومجموعة رسائل ابن عابدين، 278/2، وتعريفات الجرجاني، ص 115.

² القطر الجلي شرح حديث الولي، للشوكاني، ص 257 وما بعدها، وبستان العارفين، ص 141، 155، والمعتمد، ص 161، والفتاوی الحدیثیة لابن حجر ، ص 301، وشرح الطحاوية للغنیمی، ص 139، ولوامع الأنوار الهيئة، 239/4، والمحلى على جمع الجواب وحاشية العطار عليه، 2481/2.

³ التوقيف على مهامات التعريف، ص 665، والتعريفات للجرياني، ص 115، وكشاف اصطلاحات الفنون، 975/2، ولوامع الأنوار الهيئة، 290/2.

⁴ الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، 47/4.

مجلة الهند

أما وجوه التفرقة بين الكرامة والمعجزة في:

أولاً: أن المعجزة تقترب بالتحدي، وهو طلب المعارضه والمقابلة يقال تحديت فلاناً: إذا باريته في فعل وناظرته للغلبة أما الكرامة فلا تقترب بذلك. ولا شك أن كل ما وقع منه صلى الله عليه وسلم بعد النبوة من المعجزات كنطق الحصى وحنين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم مقررون بالتحدي...¹.

ثانياً: أن الأنبياء مأموروون بإظهار معجزاتهم، لحاجة الناس إلى معرفة صدقهم واتباعهم، ولا يعرف النبي إلا بمعجزٍ. أما الكرامة فلا يجب على الولي إظهارها، بل يسْتُرْ كراماته ويسْرُّها ويجهّد على إخفاء أمره.²

ثالثاً: أن دلالة المعجزة على النبوة قطعية، وأن النبي يعلم أنه نبي، بينما دلالة الكرامة على الولاية ظنية، ولا يعلم مظاهرها أو من ظهرت على يديه أنه ولی، ولا غيره يعلم ذلك، لاحتمال أن يكون ممکوراً به.³

ويترفع على ذلك أن المعجزة تدل على عصمة صاحبها وعلى وجوب اتباعه، أما الكرامة فلا تدل على عصمة من ظهرت عليه، ولا على وجوب اتباعه في كل ما يقول، ولا على ولايته، لجواز سلماً أو أن تكون استدراجاً له.⁴

رابعاً: أن الكرامة لا يجُوز بلوغها مبلغ المعجزة في جنسها وعظمها، كإحياء الموتى وإنفلاق البحر وقلب العصا حيّة وخروج الماء من بين الأصابع، وبذلك قال بعض الحنفيَّة وبعض الشافعيَّة.⁵

¹ الفتاوى الحديثية لابن حجر، ص 308.

² لوامع الأنوار الهيبة، 2/396، وبستان العارفين، ص 161، و 165.

³ الفتاوى الحديثية، ص 305، وبستان العارفين، ص 161.

⁴ مختصر الفتاوى المصرية، ص 600، ولوامع الأنوار الهيبة، 2/393.

⁵ انظر قطر الولي، ص 258، ورد المحتر، 3/308، ومجموعة رسائل ابن عابدين، 2/279، وبستان العارفين، ص 156، وص 162، والفتاوی الحديثية، ص 301-302، والمحلی على جمع الجوامع وحاشية العطار، 2/481، ولوامع الأنوار الهيبة، 2/396.

مجلة الهند

4. الفرق بين الكرامات وخوارق الشيطان: ذكر العلماء أن الخارق غير المقربن بتحدي النبوة إذا ظهر على يد عبد صالح، وهو القائم بحقوق الله تعالى وحقوق خلقه فهو الكراهة. أما إذا ظهر على يد ظاهر الفسق مطابقاً لدعوه فهو "الاستدراج" وقد يسمى "سحراً وشعوذة" وإن ظهر على يد مدعى النبوة من أهل الصالل فهو "الإهانة"، كنطق الجمام بأنّه مفترٌ كذابٌ ونحو ذلك، لأنّ خارق العادة في هذه الحالة لا يكون مُوافقاً للدعوى، بل مُثبّتاً لكتابها.¹

وأساس ذلك أنَّ كرامات الأولياء لا يُكُونُ سببها إِلا الإيمان والتقوى، أما خوارق أعداء الله فسببها الكفر والفسق والعصيان.²

وفي ذلك يقول ابن تيمية: "إن خوارق العادات لا تدل على عصمة صاحبها، ولا على وجوب أتباعه في كل ما يقول، لأن بعضها منها قد يصدر عن الكفار والشياطين بمُؤاخاتهم للشياطين، كما ثبت في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدجال أنه يقول للسماء: أمطري فتمطر، وللأرض: أنبتي فتنبت، وأنه يقتل واحداً ثم يحييه، وأنه يخرج خلفه كنوز الذهب والفضة".

ولهذا اتفق أئمة الدين على أن الرجل لو طار في الهواء ومشى على الماء، لم تثبت له ولایة، بل ولا إسلام حتى ينظر وقوفه عند الأمر والنبي الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم.³

المبحث الثالث: عصمة الأولياء:

أجمع المسلمون أن العصمة لا تكون إلا للأئمّة عليهم السلام، وأما من دونهم كأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فليسوا بمعصومين إجماعاً فضلاً عن دونهم، قال شيخ

¹ بستان العارفين، ص157، ولوامع الأنوار، 290/2، وشرح العقيدة الطحاوية للميداني، ص139، والفتاوی الحدیثیة، ص 304، وكشاف اصطلاحات الفنون، 975/2.

² مجموع فتاوى ابن تيمية، 302/11.

³ مختصر الفتاوى المصرية، ص600، ومجموع فتاوى ابن تيمية، 2/488، ومجموع فتاوى ابن تيمية، 6/108، والفتاوی الكبرى، 1/206.

مجلة الهند

الإسلام ابن تيمية: "والأولياء وإن كان فهم محدثون كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال النبي صلّى الله عليه وسلم: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يكملون من غير أن يكُونوا أنبياء، فإن يكن من أمتي أحدهم فعمراً». ¹

فهذا الحديث يدل على أن أول المحدثين من هذه الأمة عمر؛ وأبو بكر أفضل منه إذ هو الصديق فالمحدث - وإن كان لهم ويحدث من جهة الله تعالى - فعليه أن يعرض ذلك على الكتاب والسنة، فإنه ليس بمعصوم كما قال أبو الحسن الشاذلي: "قد ضمنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة ولم تضمن لنا العصمة في الكشوف والإلهام". ولهذا كان عمر بن الخطاب وقاً عند كتاب الله، وكان أبو بكر الصديق يبين له أشياء تختلف ما يقع له كما بين له يوم الحديبية ويوم موت النبي صلّى الله عليه وسلم ويوم قتال مانعي الزكاة وغير ذلك، وكان عمر بن الخطاب يشاور الصحابة؛ فتارة يرجع إليهم وتارة يرجعون إليه، وربما قال القول: فترد عليه امرأة من المسلمين قوله وتبيّن له الحق فيرجع إليها ويدع قوله، كما قدر الصداق وربما يرى رأياً فيذكر له حديث عن النبي صلّى الله عليه وسلم فيعمل به ويدع رأيه، وكان يأخذ بعض السنة عمن هو دونه في قضايا متعددة، وكان يقول القول فيقال له: أصبت فيقول والله ما يدرى عمر أصاب الحق أم أخطأه؟

فإذا كان هذا إمام المحدثين فكل ذي قلب يحدّثه قلبه عن ربه إلى يوم القيمة هو دون عمر، فليس بهم معصوم بل الخطأ يجوز عليهم كلهم، وإن كان طائفه تدعى أن الولي محفوظ، وهو نظير ما يثبت للأنبياء من العصمة والحكيم الترمذى قد أشار إلى هذا - فهذا باطل مخالف للسنة والإجماع.

ولهذا اتفق المسلمون على أن كل أحد من الناس: يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلّى الله عليه وسلم² وإن كانوا متفاضلين في الهدى والنور والإصابة؛ ولهذا كان الصديق

¹ مجموع الفتاوى، 2/226، والحديث في صحيح البخاري، حديث: 3689 ،

² انظر الأحكام للأمدي، 10/1، والأحكام لابن حزم، 857/6، وص 883، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، 4/52، وكتب وليد بن راشد السعیدان، 32/2، و72، و73 ومن أصول الفقه على منهج أهل الحديث، المكتبة الرقمية، 1/175، والخلاف بين العلماء، المكتبة الرقمية، 1/32، وشرح رسالة رفع الملام عن الأئمة الأعلام، 1/2.

أفضل من المحدث، لأن الصديق يأخذ من مشكاة النبوة فلا يأخذ إلا شيئاً معصوماً محفوظاً. وأما المحدث فيقع له صواب وخطأ، والكتاب والسنة تميز صوابه من خطئه؛ وبهذا صار جميع الأولياء مفتقرين إلى الكتاب والسنة لا بد لهم أن يزنوا جميع أمرهم بآثار الرسول، فما وافق آثار الرسول فهو الحق وما خالف ذلك فهو باطل، وإن كانوا مجتهدين فيه، والله تعالى يثيمهم على اجتهادهم ويغفر لهم خطأهم. ومعلوم أن السابقين الأولين أعظم اهتمامات واتباعاً للآثار النبوية فهم أعظم إيماناً وتقوياً¹.

وقال أيضاً: "وليس من شرط ولـه أن يكون مغضوماً لا يغلط ولا يخطئ؛ بل يجُوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجُوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله به ومما نهى الله عنه ويجُوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى، وتكون من الشيطان لبسها عليه لنقص درجته، ولا يعرف أنها من الشيطان²، وإن لم يخرُج بذلك عن ولادة الله تعالى؛ فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز بهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما أستُكْرُهُوا عليه³، قال تعالى: {لا يكُلُّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أَكْتَسَبَتْ رِبَّنَا لَا تُؤَاخِذُنَا إِنْ نَسِيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا رِبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتُهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رِبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مُوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [البقرة: 285-286]، وقد ثبت في الصحيحين أن الله سبحانه استجاب لهذا الدعاء⁴ وقال: قد فعلت، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس قال لما نزلت هذه الآية (ولن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) قال: دخل قلوهُمْ منها شيء لم يدخل قلوهُمْ من شيء فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا». قال فألقى الله الإيمان في قلوهُمْ فأنزل الله تعالى: (لا يكُلُّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا

¹ انظر مجموع الفتاوى، 15/403.

² انظر المرجع السابق، 35/114.

³ انظر المرجع السابق، 35/114.

⁴ صحيح مسلم، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف، مصر، council.org,www.islamic.org، حدث: 344 ، وأخرجه البخاري، حدث: 4545، مختصرابن عمر.

مجلة الهند

وُسْعَهَا لِنَا مَا كَسَبْتُ وَعَلَيْهَا مَا أَكْتَسَبْتُ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَلْنَا) قال قد فعلت (ربنا ولا تحمل علينا إصرًا كما حملته على الذين من قبلنا) - قال قد فعلت (واغفر لنا وارحمنا أنت مؤلانا) قال قد فعلت.¹

وقد مات النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أكمَلَ اللَّهُ لَنَا الدِّينَ وَأَتَمَ عَلَيْنَا النَّعْمَةَ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَّتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينَكُمْ} (المائدة: 3). وبموته صلى الله عليه وسلم انقطع عن الدنيا² وعن اتصاله بالخلق، فمن ادعى أن له صلة به صلى الله عليه وسلم أو أنه يجالسه أو يأخذ عنه العلم أو يتلقى منه الأوامر فقد افترى إثماً مبيناً وكذب على الله عز وجل وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم.

المبحث الرابع: هل ما كان معجزة لنبيٍّ كان كرامَةً لوليٍّ؟³

قال بعض أهل العلم: "إن كل معجزة وجدت لنبي يجوز أن تقع كرامة لولي. وهذا القول لا يصح بهذا الإطلاق، وإنما يتعمَّن تقديره، فيستثنى ما وقع به التحدِّي لبعض الأنبياء، فإنَّ الأولياء لا يصلون إلى مثله، قال ابن حجر: "المشهور عن أهل السنة إثبات الكرامات مطلقاً، لكن استثنى بعض المحققين منهم كأبي القاسم القشيري ما وقع به التحدِّي لبعض الأنبياء فقال، ولا يصلون إلى مثل إيجاد ولد من

¹ صحيح مسلم، حديث: 345.

² قلت: ليس انقطاعاً تماماً، بل أعمالنا تعرض عليه صلى الله عليه وسلم وهناك حديث يدل على ذلك فعن عبد الله، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً سَيَاحِينَ يُبَلِّغُونِي عَنْ أَمْتَي السَّلَامِ" قال: وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: حَيَايَتِي خَيْرٌ لَكُمْ تُحَدِّثُونَ وَنُحَدِّثُ لَكُمْ، وَوَفَاتِي خَيْرٌ لَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيَّ أَعْمَالُكُمْ، فَمَا رَأَيْتُ مِنْ خَيْرٍ حَمِدْتُ اللَّهَ عَلَيْهِ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْ شَرٍّ اسْتَغْفَرْتُ اللَّهَ لَكُمْ". أخرجه البزار في مسنده، 458/2، برقم: 1925، والإتحاف: 9/176، والمطالب، موقع جامع الحديث، <http://www.alsunnah.com> ، 93/11، حديث: 3853، وإتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة ، 30/7، برقم: 6412، وهو حديث حسن.

³ انظر فتاوى الشبكة الإسلامية معدلة، 7/2082، رقم الفتوى: 49724 مقوله "ما صح لبني صاحب لولي" تاريخ الفتوى: 21 ربيع الثاني 1425هـ.

مجلة الهند

غير أب ونحو ذلك، وهذا أعدل المذاهب في ذلك، فإن إجابة الدعوة في الحال وتكتير الطعام والماء والمكاشفة بما يغيب عن العين والإخبار بما سيأتي ونحو ذلك قد كثر جداً حتى صار وقوع ذلك من ينسب إلى الصلاح كالعادة، فانحصر الخارج الآن فيما قاله القشيري، وتعين تقييد قول من أطلق أن كل معجزة وجدت لبني يجوز أن تقع كرامة لولي.¹

وقال ابن حجر المكي: "وقول المعتزلة إحياء الميت، أمر خارق للعادة فلا يجوز إظهاره إلا معجزة لنبي ردة أهل السنة بأنه يجوز بأنه خرقها كرامة لولي ولغير ذلك، وإنكار ذلك مكابرة للحسن وليس ذلك ببعيدٍ من عقولهم الفاسدة الضالة".²

وفي فتاوى الرملبي: "سئل عمن قال من كرامات الولي أن يقول للشيء كن فيكون فتهى عن ذلك فقال: من أنكر ذلك فعقيدته فاسدة فهل ما ادعاه صحيح أو باطل؟ (فأجاب) بأن ما قاله صحيح إذ الكرامة الأمر الخارق للعادة يظهره الله تعالى على يد ولية وقد قال الأئمة ما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي لا فارق بينهما إلا التحدى فمرجع الكرامة إلى قدرة الله تعالى نعم إن أراد استقلال الولي بذلك فهو كافر".³

وقال البراك: "معجزات الأنبياء وهي الآيات والبيانات والبراهين على صدقهم، وكرامات الأولياء كلها من خوارق العادات، وكل الخوارق يرجع إلى نوع القدرة والتأثير، أو العلم، أو الغنى. فالخوارق تتتنوع بحسب هذه المعاني، فمعجزات الأنبياء منها ما يكون علمياً، ومنها ما يكون من قبيل القدرة، ومنها ما يكون من قبيل الغنى، وهكذا كرامات الأولياء.

وقول القائل: (ما صح أن يكون معجزة لنبي صح أن يكون خارقاً لولي)، معناه: أن ما كان معجزة للنبي إن حصل مثله لولي فهو كرامة، وليس المقصود أن كل معجزة من معجزات الأنبياء يكون مثلها للأولياء، لكن إن حصل لولي من الخوارق ما يشبه بعض معجزات النبي فهو في حقه كرامة، وما كان كرامة لولي فإنه معجزة للنبي الذي يتبعه

¹ فتح الباري، 11/420.

² الزواجر عن اقتراف الكبائر، 3/177.

³ فتاوى الرملبي، 6/180.

مجلة الهند

هذا الولي... وقد ذكر شيخ الإسلام بن تيمية أن خوارق الأنبياء لا يقدر على مثيلها أحد من البشر، فلا بد أن تتميز خوارق الأنبياء على كرامات الأولياء^١.

وقال ابن عثميين: "ولهذا كان من القواعد المقررة عند العلماء: أن كل كرامة لولي فري آية للنبي الذي اتبעה؛ لأن هذه الكرامة تشهد بصدق ما كان عليه الولي، وهذا الولي تابع لرسول سابق، فيكون في ذلك آية على أن هذا الشرع الذي عليه هذا الولي حق، وهذه تكون آية للنبي، فالقاعدة الآن: أن كل كرامة لولي فري آية للنبي الذي اتبעה...".^٢

وقال ابن أطفيش: "اختلفوا في كرامات الأولياء فنفتها المعتزلة وأثبتما الجمهور، والحججة على المعتزلة قول الله تعالى: {كُلُّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَا الْمُحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرِيْمُ أَتَى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مَنْ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ} (سورة آل عمران: 37) فافهم ذلك ردًا عليهم، والكرامة: ظهور أمر خارق للعادة غير مقارن لدعوى النبوة على يد من عرفت دياته واشتهرت ولادته في اتباع نبيه في جميع ما جاء به، وإنما هي استدراج أو سحر أو إدلال كما وقع لمسيلمة الكذاب - لعن الله - أنه جاءه أعرور يدعو له، فدعا فعميت الصحيفة أيضًا، وتسمى إهانة، وقد يظهر الخارق على يد عاص تخلصًا له من فتنة، وتسمى معونة... وقيل: منع وقوع التي من جنس معجزة النبي لئلا يتبس الأمر، ورددهما الفخر بأن المرضي وقوعها مع الانتفاء من النبوة، واشترط القشيري وجماعة أن لا تنتهي إلى إحياء ميت ولا وجود ولد من غير أب، ورد بذلك وبقولهم ما جاز أن يكون معجزة لبني جاز أن يكون كرامة لولي لأنه لا يدعي النبوة، والكرامة من الجائز تظهر بأيدي أتباع الأنبياء إكراماً للأنبياء كما وقع لمريم، وكولادة عيسى بلا أب، وكما وقع لأصحاب الكهف، وزير سليمان في عرش بلقيس...".^٣

^١ فتاوى واستشارات الإسلام اليوم، 4/162، بين كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء، المجيب عبد الرحمن بن ناصر البراك.

^٢ لقاءات الباب المفتوح، 3/184، تفسير قوله تعالى: كذبت ثمود بالنذر...،

^٣ شرح النيل وشفاء العليل، فقه إباضي، 34/206.

المبحث الخامس: التفاضل بين الأنبياء والأولياء:

اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائرون أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضليّة من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء¹، وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم "أربع مراتب" فقال تعالى: {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين آتكم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا} (سورة النساء: 69).

وفي الحديث: "ما طلعت الشمس ولا غربت على أحدٍ بعد النبيين والمُرسَلين أفضليّة من أبي بكرٍ²، وأفضل الأمم أمّة محمّد صلّى الله عليه وسلم. قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أَخْرَجْتُ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمُعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} (آل عمران: 110)، وقال النبي صلّى الله عليه وسلم في الحديث الذي في المسند: «أَنْتُمْ تُوْفَّوْنَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»³.

وأفضل أمة محمّد صلّى الله عليه وسلم القرن الأول⁴. وقد ثبت عن النبي صلّى الله عليه وسلم من غير وجّهٍ أنه قال: «خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلْوَنُهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلْوَنُهُمْ»، وهذا ثابت في الصحيحين من غير وجّهٍ. وفي الصحيحين أيضًا عنه صلّى الله عليه وسلم أنه قال: «لَا تُسْبِّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدَهُمْ وَلَا نصِيفَةٌ»⁵.

¹ وفي مجموع الفتاوى، 18/370: "إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ أَفْضَلُ مِنَ الْأُولَيَاءِ وَخِيَارُ الْأُولَيَاءِ أَتَبْعُثُهُمْ لِلْأَنْبِيَاءِ كَمَا كَانَ أَبُو بَكْرٍ أَفْضَلُ مَنْ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ". وانظر الرسالة القشيرية، 159/1.

² حلية الأولياء، 325/3، وفضائل الصحابة، ص 135 و 137 و 662، حسن لغيره، وانظر مجموع الفتاوى، 444/11.

³ مسند أحمد، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف، مصر، council.org, www.islamic.org، صحيح، حدیث: 20550.

⁴ انظر بتوسيع الموسوعة الفقهية الكويتية، 33/153.

⁵ صحيح البخاري، 3673 ، صحيح مسلم، 6651 ..

والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار أفضّل من سائر الصحابة، قال تعالى: {والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسانٍ رضي الله عنهم ورضوا عنهم وأعد لهم جناتٍ تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم} (التوبه: 100)، والسابقون الأوّلون الذين أنفقو من قبل الفتح وقاتلوا، والمراد بالفتح صلح الحديبية، فإنّه كان أول فتح مكة وفيه أنزل الله تعالى: {إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمتُه عليك ويهديك صراطًا مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً} [الفتح/1-4]، فقالوا يا رسول الله أوفتح هو قال: نعم.

وأفضل السابقين الأوّلين "الخلفاء الأربعة" وأفضّلهم أبو بكر ثم عمر وهذا هو المعروف عن الصحابة والتّابعين لهم بإحسان وأئمّة الأمة وجماهيرها وقد دلت على ذلك دلائل بسطناها في " منهاج أهل السنة النبوية في نقض كلام أهل الشيعة والقدريّة".

وبالجملة اتفقت طوائف السنة والشّيعة على أنّ أفضل هذه الأمة بعد نبيها واحدٌ من الخلفاء، ولا يُكُونُ من بعده الصحابة أفضّل من الصحابة، وأفضل أولياء الله تعالى أعظمهم معرفةً بما جاء به الرسُول صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاتَّبَاعُهُ، كالصحابيّة الذين هُم أكملُ الأمة في معرفة دينه واتّباعه¹، وأبو بكر الصديق أكمل معرفةً بما جاء به وعملاً به، فهو أفضّل أولياء الله إذ كانت أمّة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أفضّل الأمم وأفضّلها أصحابُ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأفضّلهم أبو بكر.

¹ والصحابة أكمل الأمة في ذلك بدلالة الكتاب والستة والإجماع، والاعتبار لهذا لا تجد أحداً من أعيان الأمة إلا وهو معترف بفضل الصحابة عليه، وعلى أمثاله، وتتجدد من ينماز في ذلك كالرافضة من أجهل الناس، ولهذا لا يوجد في أئمّة الفقه الذين يرجع إليهم رافضي، ولا في أئمّة الحديث ولا في أئمّة الزهد والعبادة، ولا في أئمّة الجيوش المؤيدة المنصورة رافضي، ولا في الملوك الذين نصروا الإسلام وأقاموا وجاهدوا عدوه من هو رافضي، ولا في الوزراء الذين لهم سيرة محمودة من هو رافضي. مختصر منهاج السنة النبوية، 41/1، ومختصر منهاج السنة النبوية، 103/1.

مجلة الهند

الباب الثاني: حديث الولي وإشكالاته

المبحث الأول: نص الحديث وشواهده:

- عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله قال من عادى لي ولئلا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحبه إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى التوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنث سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها، وإن سأله لاعطينه، ولئن استعاذه لأعذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددت عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مسأته» رواه البخاري¹.
- وعن عائشة قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله عز وجل من أذل لي ولئلا فقد استحل محاريقي وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء الفرائض وما يزال العبد يتقرب إلى التوافل حتى أحبه إن سألهي أعطيته وإن دعاني أجبته ما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددت عن وفاته لأنه يكره الموت وأكره مسأته». أخرجه أحمد²
- وعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إن الله عز وجل، يقول: "ما يزال عبدي يتقرب إلى التوافل حتى أحبه، فأكون أنا سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، وقلبه الذي يعقل به،

¹ صحيح البخاري، حديث: 6502، وشرح السنة للبغوي، 4/121، وفق ، 3/346 و 10/219 حدث: 21508، والإتحاف، 10/403 والسلسلة الصحيحة، حديث: 1640، والسنة للبغوي، 5/19، وفتح الباري، 11/340، حديث: 341، وتلخيص، 3/117، وصحيف الجامع، حديث: 1782، والإحسان: حديث: 347، وابن ماجه حديث: 3989.

² مسند أحمد، حديث: 26947، والمujam الأوسط للطبراني، حديث: 11408، والزهد الكبير للبيهقي، حديث: 707، وهو صحيح لغيره.

مجلة الهند

فإذا دعا أجبته، وإذا سألي أعطيته، وإذا استنصرني نصرته، وأحب ما تعبد لي عبدي به التَّصْحُّ لِي". أخرجه الطبراني^١

4. وعن الحسن قال: يقول الله ما تقرب إلى عبدي بمثل ما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنواقل حتى أحبه فأكون عينيه اللتين يبصر بهما وأذنيه اللتين يسمع بهما ويديه اللتين يبطش بهما ورجليه اللتين يمشي بهما فإذا دعاني أجبته وإذا سألي أعطيته وإن استغفرني غفرت له^٢

5. وعن حسان بن عطية، قال: من عادى أولياء الله فقد آذن الله بالمحاربة، ومن حالت شفاعته دون حِدْنٍ من حدود الله فقد حاد الله في أمره، ومن أuan على خصومة لا علم له بها كان في سخط الله حتى يتزع، ومن قفا مؤمناً بما لا علم له به وقفه الله في رذفة الخبال حتى يحيى منها بالخرج، ومن خاصم لضعيف حتى يثبت له حفه، ثبت الله قدميه يوم تزل الأقدام، وقال الله: ما ترددت في شيء أريده، تردادي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساعته ولا بد له منه" أخرجه ابن أبي شيبة^٣.

6. وعن طاوس اليماني، قال: «إنى لأجد في بعض الكتب الذي أنزل الله تعالى: لن ينجو مني عبد إلا بأداء ما افترضت عليه، وما اقترب إلى عبدي بأفضل من النصيحة، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنواقل حتى أحبه، فإذا فعل ذلك، كنت قلبه الذي يعقل به، وبصره الذي يبصر به، إن سألي أعطيته، وإن دعاني أجبته، وإن استنصر بي نصرته». أخرجه أبو داود في الزهد^٤

^١ المعجم الكبير للطبراني، 230/7، حديث: 7739، و7/250، و7800، حديث: 7800، والإتحاف، 8/102، وص 477، و9/440 والكاملاً لابن عدى، 5/1939، والسلسلة الصحيحة، حديث: 1640، والزهد الكبير، للبيهقي، حديث: 710، وهو حسن لغيره.

^٢ مصنف عبد الرزاق، حديث: 20302، صحيح مرسلاً.

^٣ مصنف ابن أبي شيبة، 13/13، حديث: 36630، والزهد والرقائق، حديث: 1022، صحيح مرسلاً.

^٤ الزهد لأبي داود، حديث: 5، وفيه راو لم أعرفه.

مجلة الهند

7. وعن ابن عباسٍ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يُقول الله عز وجل: من عادى لي ولِيًا فقد ناصبني بالمحاربة، وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله كترددي عن موت المؤمن يكره الموت وأكره مساعته، وربما سألهي ولبي المؤمن الغنى، فأصرفه من الغنى إلى الفقر، ولو صرفته إلى الغنى لكان شرًا له، وربما سألهي ولبي المؤمن الفقر، فأصرفه إلى الغنى، ولو صرفته إلى الفقر لكان شرًا له. إن الله عز وجل قال: وعزتي وجلاي وعلوّي وبهائني وجمالي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبدٌ هواي على هوئ نفسه إلا أثبتَ أجله عند بصره، وضمنت السماء والأرض رزقه، وكُنْتَ له من وراء تجارة كل تاجرٍ. أخرجه الطبراني.¹

8. وعن أنس، عن محمد صلى الله عليه وسلم، عن جبريل، عليه السلام، عن الله، تبارك وتعالى قال: «يقول الله تبارك وتعالى: من أهان لي ولِيًا فقد بارزني بالمحاربة، وما رددت في شيءٍ أنا فاعله ما رددت في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساعته، ولا بد له منه» مسنن الشهاب²

9. وعن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، عن جبريل عليه السلام، عن ربِّه تعالى وتقدس قال: "يُقول الله تعالى: من أهان لي ولِيًا فقد بارزني بالمحاربة، وإنَّ أسرع شيءٍ إلى نُصْرَةِ أوليائي إنِّي لأغضُّ بهم كما يغضُّ الليثُ الحربُ، وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن قبض رُوح عبدي المؤمن وهو يكره الموت وأكره مساعته ولا بد له منه، وما تعبد لي عبدي المؤمن بمثل الرُّزْهد في الدُّنيا، ولا تقرب عبدي المؤمن بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالتَّوافل حتَّى أحبهُ، فإذا أحببتهُ كُنْتَ له سمعًا وبصراً ويدًا وموئلاً، إن سألهي أعطيتهُ، وإن دعاني استجيبُ لهُ، وإن من عبادي المؤمنين لمن يسألني الباب من العبادة فأكُفُّهُ عنهُ، ولو أعطيتهُ إياهُ لداخله العجبُ وأفسدهُ ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحُ لهُ إلا الغنى ولو أفقرتهُ لأفسدهُ ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين لمن لا يصلحُ لهُ إلا الفقرُ، ولو أغنيتهُ

¹ المعجم الكبير، 10/291، حديث: 12551، وفيه ضعف.

² مسنن الشهاب القضاوي، حديث: 1334، وهو صحيح لغيره.

مجلة الهند

لأفسد ذلك، وإنَّ من عبادي المؤمنين مَنْ لَا يُصلحُ إِلا الصَّحَّةُ وَلَا أَسْقِمْتُهُ لِأَفْسَدَهُ
ذلك وإنَّ مَنْ عبادي المؤمنين مَنْ لَا يُصْلِحُ لَهُ إِلا السُّقْمُ وَلَا أَصْحِحْتُهُ لِأَفْسَدَهُ ذلك،
إِنِّي أَدِبْرُ عبادي بعلمي بقلوهم، إِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ" أخرجه أبو نعيم في الحلية.¹

10. وعن ميمونة زوج النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ آذَى لِي وَلِيَا فَقَدْ اسْتَحْقَقَ مُحَارَبَتِي، وَمَا تَقْرَبَ إِلَيَّ عَبْدٌ بِمَثْلِ أَدَاءِ فَرَائِضِي، وَإِنَّهُ لَيَتَقْرَبُ إِلَيَّ بِالْتَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبَهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتَ رَجُلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَيَدِهِ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطَقُ بِهِ، وَقَلْبَهُ الَّذِي يَعْقُلُ بِهِ، إِنْ سَأَلْتَنِي أَعْطَيْتُهُ وَإِنْ دَعَنِي أَجْبَتُهُ، وَمَا تَرَدَّتْ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعْلَمُ كَتَرَدَدِي عَنْ مَوْتِهِ، وَذَاكَ أَنَّهُ يَكْرَهُهُ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاعِتَهُ». أخرجه أبو يعلى.²

11. وعن عبدة بن أبي لبابة، حديث زُرْبُنْ حُبِيشَ، سمعتُ حذيفة يقول: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَيَّ: يَا أَخَا الْمَرْسَلِينَ، وَيَا أَخَا الْمَنْذِرِينَ أَنْذَرْتُ قَوْمًا أَنْ لَا يَدْخُلُوا بَيْتًا مِنْ بَيْوَتِي وَلَأَحْدُ عَنْهُمْ مُظْلَمَةً، فَإِنِّي أَعْلَمُهُ مَا دَامَ قَائِمًا بَيْنِ يَدِيِّي يُصْلَى حَتَّى يَرُدَّ تَلْكَ الظُّلْمَةَ إِلَى أَهْلِهَا، فَأَكُونُ سَمِعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَأَكُونُ بَصَرَهُ الَّذِي يَبْصِرُ بِهِ، وَيَكُونُ مِنْ أُولَائِي وَأَصْفَيَائِي، وَيَكُونُ جَارِيًّا مَعَ النَّبِيِّنَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهِداءِ فِي الْجَنَّةِ" أخرجه أبو نعيم في الحلية.³

¹ الإتحاف، 102/8، حديث: 477 ، والطبراني في الصغير، 8، ومجمع الزوائد، 2، 248/2، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الأولياء، ص.9، حديث: 1، والحكيم، 232/2، وأبو نعيم في الحلية، 8/318، وابن عساكر، 95/7، وموسوعة السنة النبوية، للشيخ علي الشحود، 16/8 ، حديث: 22852 ، وهو حسن لغيرة.

² مسند أبي يعلى، حديث: 6930 ، وسنه واه

³ أخرجه أبو نعيم في الحلية، 116/6، وحلية الأولياء 9/3، وقال: غريب من حديث الأوزاعي، عن عبدة. ورواه علي بن معبد، عن إسحاق بن أبي يحيى العكي، عن الأوزاعي مثله. وابن عساكر، 65/44 ، وهو حديث حسن غريب.

مجلة الهند

المبحث الثاني: حول صحة الحديث وما قيل فيه والجواب عنه وعن أحاديث الصحيحين:

1. رأي الشيخ الألباني في حديث الولي: قال الشيخ ناصر الدين الألباني: "كنت برهة من الزمن متوقعاً في صحة هذا الحديث، ثم تبعت طرقه، فتبين لي أنه صحيح بمجموعها، وقد صحّحه جمع".¹

قلت: كان ينبغي عليه عدم التسريع في تضليل هذا الحديث الصحيح، لأنّه في صحيح الإمام البخاري وكفى.

وقال في صحيحه مبيناً ذلك: "قلت: وهذا إسناد ضعيف، وهو من الأسانيد القليلة التي انتقدتها العلماء على البخاري²، فقال الذبي في ترجمة خالد بن مخلد هذا وهو القطواني بعد أن ذكر اختلاف العلماء في توثيقه وتضعيفه وساق له أحاديث تفرد بها هذا منها: "فهذا حديث غريب جداً، ولو لا هيبة "الجامع الصحيح" لعدته في منكريات خالد بن مخلد، وذلك لغراوة لفظه، ولأنّه مما ينفرد به شريك، وليس بالحافظ، ولم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد. ولا أخرجه من عدا البخاري، لأنّه في مسند أحمد وقد اختلف في عطاء، فقيل: هو ابن أبي رياح، والصحيح أنه عطاء بن يسار".³

قال الحافظ ابن حجر في بيان أمر هذا الحديث: "قلت: ليس هو في مسند أحمد جزم وإطلاق أنه لم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد مردود ومع ذلك فشريكشيخ شيخ خالد

¹ في هامش صحيح الجامع، حديث: 1782.

² قلت: انتقاد السنّد لا يعني بالضرورة انتقاد المتن، فكم من سند انتقاد، والمتن صحيح.

³ السلسلة الصحيحة، 2/384، وانظر ميزان الاعتدال، 1/641، ترجمة: 2463، وهامش صحيح ابن حبان، 2/58، وفي سير أعلام النبلاء، 19/198، وروى البخاري حديث: مَنْ عَادَى لِي وَلِيَا، فَقُدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، عَنْ أَبْنَى كَرَمَةً، عَنْ خَالِدٍ. وَهُوَ غَرِيبٌ جَدًا، لَمْ يَرُوهُ سُوَى أَبْنَى كَرَمَةً، عَنْهُ. وفيها أيضاً، 16/7:، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِنَّ اللَّهَ قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيَا فَقُدْ بَارَزَنِي بِالْحَرْبِ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ غَرِيبًا جَدًا، مَدَارِهُ عَلَى أَبْنَى كَرَمَةً، قَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْهُ، وَيُرَوِي شَيْئًا مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الْوَاحِدِ، عَنْ مَوْلَةَ عُرْوَةَ، عَنْ عَائِشَةَ.

مجلة الهند

فيه مقال أيضاً وهو راوي حديث المراج الذي زاد فيه ونقص وقدم وأخر وتفرد فيه
بأشياء لم يتابع عليها كما يأتي القول فيه مستوعباً في مكانه، ولكن للحديث طرق أخرى
يدل مجموعها على أن له أصلاً منها عن عائشة أخرجه أحمد في "الزهد" وابن أبي الدنيا
وأبو نعيم في "الحلية" والبيهقي في "الزهد" من طريق عبد الواحد بن ميمون عن عروة
عنها وذكر ابن حبان وابن عدي أنه تفرد به وقد قال البخاري إنه منكر الحديث، لكن
آخرجه الطبراني من طريق يعقوب بن مجاهد عن عروة وقال لم يروه عن عروة إلا
يعقوب وعبد الواحد ومنها عن أبي أمامة أخرجه الطبراني والبيهقي في "الزهد" بسند
ضعيف ومنها عن علي عند الإسماعيلي في مسنده علي وعن ابن عباس أخرجه الطبراني
وسندهما ضعيف وعن أنس أخرجه أبو يعلى والبزار والطبراني وفي سنته ضعف أيضاً
وعن حذيفة أخرجه الطبراني مختصراً وسنته حسن غريب وعن معاذ بن جبل أخرجه
ابن ماجه وأبو نعيم في "الحلية" مختصراً وسنته ضعيف أيضاً، وعن وهب بن منه
مقطوعاً أخرجه أحمد في "الزهد" وأبو نعيم في "الحلية" وفيه تعقب على ابن حبان
حيث قال بعد إخراج حديث أبي هريرة: لا يعرف لهذا الحديث إلا طريقان، يعني غير
حديث الباب وهذا هشام الكناني عن أنس وعبد الواحد بن ميمون عن عروة عن
عائشة وكلاهما لا يصح وسأذكر ما في روایاتهم من فائدة زائدة.¹

ثم قال الشيخ ناصر معيقباً على كلام ابن حجر: "هذا كله كلام الحافظ. وقد أطال النفس فيه، وحق له ذلك، فإن حديثاً يخرجه الإمام البخاري في "المسند الصحيح" ليس من السهل الطعن في صحته لمجرد ضعف في إسناده، لاحتمال أن يكون له شواهد تأخذ بعضده وتقويه... فهل هذا الحديث كذلك؟ لقد ساق الحافظ هذه الشواهد الثمان، وجزم بأنه يدل مجموعها على أن له أصلاً. ولما كان من شروط الشواهد أن لا يشتد ضعفها وإلا لم يتقو الحديث بها كما قرره العلماء في "علم مصطلح الحديث"، وكان من الواجب أيضاً أن تكون شهادتها كاملة، وإلا كانت

^١ فتح الباري، 342/18.

مجلة الهند

قاصرة، لذلك كله كان لا بد لي من إمعان النظر في هذه الشواهد أو ما أمكن منها من الناحيتين اللتين أشرت إليهما: قوة الشهادة وكمالها أو العكس، وتحرير القول في ذلك، فأقول: ثم ذكر أكثر طرق الحديث ...¹

ثم قال: وخلاصة القول: إن أكثر هذه الشواهد لا تصلح لتقوية الحديث بها، إما لشدة ضعف إسناده، وإما لاختصارها، اللهم إلا حديث عائشة، وحديث أنس بطريقه، فإنهما إذا ضمما إلى إسناد حديث أبي هريرة اعتضد الحديث بمجموعها وارتقي إلى درجة الصحيح إن شاء الله تعالى، وقد صحّحه من سبق ذكره من العلماء.²

قلت: كان الشيخ ناصر يسلك مسلك المتشددين في الجرح والتعديل، كما فاته بعض الطريق التي لم يجدها كحديث البزار وغيره مما ذكرته من قبل. وأما قول الإمام الذهبي في الميزان والسير: فهو مردود على الذهبي رحمه الله، فليس هذا الحديث غريباً كما زعم!

وخلال بن مخلد إذا كان له مناكير لا يعني أن يكون هذا الحديث منها أصلاً، لأن الإمام البخاري روى له مالم ينكر عليه، وقد ذكر ابن عدي في ترجمته ما أنكر عليه، ولم يذكر هذا الحديث وقال: "قد اعتبرت حديثه ما روی عنه من الكوفيين محمد بن عثمان بن كرامنة، ومن الغرباء أحمد بن سعيد الداري وعندي من حدثهما صدر صالح، ولم أجده في كتابه أنكر مما ذكرته، فلعله توهما منه أو حملًا على الحفظ وهو عندي إن شاء الله لا بأمن به".³

وقد حدث عن خالد كبار أهل العلم منهم البخاري ومسلم وابن أبي شيبة وأبو داود في مسند مالك والترمذى والنمسائى وابن ماجه.⁴

¹ الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، 2/ 384، حديث: 1640. بتصرف.

² المرجع السابق، 2/ 385، حديث: 1640. بتصرف.

³ الكامل في ضعفاء الرجال، عبدالله بن عدي بن عبد الله، تحقيق: يحيى مختار غزاوي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة، 1988م، 3/ 36. بتصرف.

⁴ راجع التهذيب، 3/ 116، ترجمة: 118.

مجلة الهند

فهو ثقة له أفراد، وقد اعتمد حديث الولي وقواه شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه القيم "الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان"، بل وسائر كتبه وفتواه^١. وذكره في الفتاوى الكبرى واحتج به في مواضع عديدة^٢، وفي الصارم المسلول^٣ وأفردته العلامة الشوكاني بكتاب ضخم تخريجاً وشرحًا في كتابه النفيسي "القطر الجلي" شرح حديث الولي^٤. بل هو مما تلقته الأمة بالقبول، واحتج به جميع الأئمة دون نكير، فيكون إجماعاً على صحته.^٥

٢. الشك في أحاديث الصحيحين:^٦ إن التعامل مع الصحيحين الذي ورد طرف منه في السؤال يجب التفريق فيه بين من له دراية بعلم الحديث وأهليته، وبين عامة الناس، بل ربما يقال حتى من طلبة العلم الذين ليس لديهم الأهلية في علم الحديث. فاما المشتغلون بعلم الحديث فهؤلاء لهم أن يناقشوا قبول أي حديث حتى وإن كان في الصحيحين، ولكن ليس ببدع من القول، وإنما على ضوء القواعد الحديثية

^١ انظر: مجموع الفتاوى: 225/2، 340، و2/341، 371، و2/390، 463، و3/416، 415، و5/511، 483، و6/442، 443، و7/143، 305، و10/305، 682. وغيرها من الموضع.

^٢ انظرها الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، 1/207، 179، و3/396، 397، و10/381.

^٣ انظر الصارم المسلول على شاتم الرسول، 1/172، و1/388.

^٤ وهو مطبوع ومحقق وأخذت به رسالة دكتوراه من الأزهر.

^٥ انظر على سبيل المثال: الفتاوى الفقهية الكبرى، 9/158، والحاوى للفتاوى للسيوطى، 2/34، القول الجلي في حديث الولي ولقاءات الباب المفتوح، 12/59، ولقاءات الباب المفتوح، 19/66، ومجموع فتاوى ومقالات ابن باز، 8/252، 220، و10/149 وفتاوي الإسلام سؤال وجواب، 1908/1، سؤال رقم: 21170، و1973/1، سؤال رقم: 21371 ، و1974/1، سؤال رقم: 2723. وغيرها من الموضع الكثيرة. وفتاوي اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، 2/63 والدرر السننية في الأجوبة النجدية، الرقمية، 2/186 والموسوعة الفقهية الكويتية، 32/153 و33/104، و39/232، و41/101.

^٦ انظر: فتاوى واستشارات الإسلام اليوم، 1/488، الشك في أحاديث الصحيحين، المجيب د. فهد بن عبد الرحمن اليحيى

مجلة الهند

المعروفة، ومن خلال كلام من تقدم من أهل العلم، وقد أشار الحافظ ابن حجر - رحمة الله- إلى ذلك في "مقدمة فتح الباري" وذكر أمثلة من الأحاديث المنتقدة على الصحيح، والإجابة عنها.

ومن أوائل من انتقد بعض أحاديث الصحيحين الإمام الدارقطني في "الإلزامات والتبغ".

ومع هذا الذى ذكرت فإننى أنبه إلى أمور:

أ- أن طالب العلم لا ينبغي له الت怱ل في هذا الباب والاستقلال بالحكم، فإن للصحيحين من المنزلة وتلقى الأمة لهما بالقبول ما ليس لغيرهما، ولذا فإنك تجد من علماء الحديث من لم يسلم بهذه الانتقادات كلها سوى مواضع يسيرة منها كابن الصلاح، والنووي، وابن حجر وأخرين.

بـ- أن الانتقاد الوارد على الصحيحين إنما هو في أحاديث معدودة نسبتها ضئيلة إلى جانب مجموع ما فيهما، ومع ذلك فكثير منها قد أجيبي عنه كما تقدم.

جـ- أن ما يمكن انتقاده على الصحيحين يكاد أن يكون قد فرغ منه، فقد مضى على تأليف الصحيحين أكثر من ألف عام، وما من حديث قد يتطرق إليه الانتقاد إلا ذكر خلال هذه المدة، وستجد في المقابل من يجيب عن الانتقاد سواء كان ذلك من جهة السند أو المتن.

د- وهو أمر مهم- أن الغالب في الانتقادات الواردة كانتقدات الدارقطني -رحمه الله- إنما هو من جهة السنّد الذي ساقه صاحب الصحيح، مع أن من الحديث ثابت من طرق أخرى، وكثير منها يسلم به المنتقد كالدارقطني. فإذاً لا يلزم من توجيهه الانتقاد إلى حديث ما في أحد الصحّيحين عدم ثبوته من وجه آخر.

- هـ- أن النظر العقلي المحس ورد الروايات الصحيحة بدعوى مخالفتها للعقل - فحسب- ليس من منهج أهل السنة، فإنهم وإن كانوا قد يناقشون المتن منفرداً عن السند- بيد أنهم لا يطلقون العنان للعقل المجرد كي يردد ما شاء من صحيح المنقول، وإنما ترد المناقشة عندهم في المتن - حين يقتضي الحال ذلك- على ضوء النصوص الأخرى والقواعد الحديثية والأصولية والفقيرية.

مجلة الهند

ولئن كان هذا في شأن أهل العلم، فهو في حق العامة أولى، إذ ليس لهم أن يردوا الأحاديث بدعوى عدم موافقتها للعقل، وأي عقل هذا الذي يتحاكم إليه؟ فإن عقول الناس وفهمهم مختلفة متفاوتة! هذا ما يتعلق بالمتخصصين في هذا العلم.

أما غيرهم -لا سيما عامة الناس- فلا يجوز لهم الخوض في قضية القبول والرفض لما في الصحيحين، بل عليهم أن يأخذوا بالأصل، وهو: قبول ما في الصحيحين، لتلقي الأمة لهما بالقبول والتسليم بصحة ما فيهما في الجملة. والله تعالى -أعلم.

3. هل في البخاري أحاديث ضعفها الألباني رحمة الله؟ قال الشيخ الألباني رحمة الله: "نعم... لقد ضعف الشيخ الألباني أحاديث قليلة جدًا في صحيح البخاري، ولكن لا يلزم من تضييف الشيخ لها أن تكون ضعيفة بالفعل، بل قد تكون صحيحة كما ذهب إلى ذلك البخاري من قبل، وقد تكون ضعيفة فعلاً. فتضييف الشيخ الألباني -عليه رحمة الله- اجتهاد منه، قابل للقبول والرد.

لكن العلماء قد نصّوا أن أحاديث الصحيحين "صحيح البخاري وصحيح مسلم" كلها مقبولة، إلا أحاديث يسيرة انتقدتها بعض النقاد الكبار، الذين بلغوا رتبة الاجتهد المطلق في علم الحديث. وأن ما سوى تلك الأحاديث اليسيرة، فهي متلقة بالقبول عند الأمة جميعها.

وبناء على ذلك: فإن الحديث الذي يضعفه الشيخ الألباني في صحيح البخاري له حالتان: الأولى: أن يكون ذلك الحديث الذي ضعفه الألباني قد سبقه إلى تضييفه إمام مجتهد متقدم، فهذا قد يكون حكم الشيخ الألباني فيه صواباً، وقد يكون خطأ، وأن الصواب مع البخاري.

الثانية: أن يكون الحديث الذي ضعفه الألباني لم يسبق إلى تضييفه، فهذا ما لا يقبل من الشيخ -رحمه الله-؛ لأنه عارض اتفاق الأمة على قبول ذلك الحديث (كما سبق). والله أعلم.¹

¹ انظر فتاوى واستشارات الإسلام اليوم، 484/1، هل في البخاري أحاديث ضعيفة المجيب د. الشريف حاتم بن عارف العوني عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى، وفتاوى الشبكة الإسلامية معدلة، رقم الفتوى: 43428 المراد ليس الطعن في بعض أحاديث البخاري بل أمور أخطر بكثير.

مجلة الهند

قلت: هذا هو الصواب.

المبحث الثالث: الإشكالات السبعة في هذا الحديث والإجابة عنها:¹

بالإضافة إلى الإشكال السابق وهو التشكيك في صحة حديث الولي، وقد ثبت بالدليل أنه ليس ضعيفاً، بل هو حديث صحيح لا إشكال فيه، وردت بعض الإشكالات الأخرى في فهم هذا الحديث أوردها بإيجاز وأناقتها.

1. أن يقال كيف يعادي الإنسان الأولياء، والأولياء قد تركوا الدنيا وانفروا عن الخلق، فإن جهل عليهم جاهل حلموا، والعداوة إنما تكون عن خصومة؟

2. قوله: "فقد آذنته بالحرب" وكيف يتصور الحرب بين الخالق والمخلوق والمحارب مناظر؟ وهذا المخلوق في أسر قبضة الخالق.

3. قوله: "وما تقرب إلى عبدي بشيء أحبه إلى مما افترضت عليه"، والعادة قد جرت بأن التقرب يكون بما لا يجب؛ كالهدايا إلى الملوك دون أداء الخراج، فإن مؤدي اللازم لا يكاد يحمد وإنما يشكر من فعل ما لا يجب.

4. أن يقال: إذا كانت الفرائض أفضل القراءات فكيف أثمرت النوافل المحبة ولم تثمرها الفرائض؟ 5. قوله: "فإذا أحببته كنْت سمعة الذي يسمع به، وبصره الذي يُبصر به، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها" فما صورة هذا؟.

6. قوله: "وإن سأله لاعطينه، ولئن استعاذه لاعيذنه" وكم قد رأينا من عابِ وصالِ يدعوه ويبالغ ولا يرى إجابة؟.

7. قوله: "وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددت عن نفس المؤمن" والتتردد إنما يقع إذا أشكلت المصلحة في العواقب وذلك ينشأ عن ضعف التدبير، والحق عزوجل منزه عن ذلك؟.

والجواب المختصر على هذه الإشكالات.

¹ كشف المشكل من حديث الصحيحين، 1007/1.

مجلة الهند

أما الإشكال الأول، فإن معاادة الأولياء يقع من أربعة أوجه:

أ. أن يعادهم الإنسان عصبيةً لغيرهم، كما يعادي الراضي أبو بكرٍ وعمر.

ب. مخالفةً لمذهبهم، كما يعادي أهل البدع أحمد بن حنبل.

ج. واحتقاراً لهم، فيكون الفعل لهم فعل الأعداء، كما كان بعض الجهال يحصب أويساً القرني.

د. وأنه قد يكون بين الولي وبين الناس معاملاتٌ وخصوماتٌ، وليس كلُّ الأولياء ينفردون في الزوايا فربَّ ولِيٍ في السوق.

وأما الإشكال الثاني فإن الإنسان إنما خوطب بما يعقل، ونهاية العداوة الحرب، ومحاربة الله عزّ وجلّ للإنسان أنْ يهلكه، وتقدير الكلام فقد تعرض لإهلاكي إياه.

وأما الإشكال الثالث: فإن في أداء الواجبات احتراماً للأمر وتعظيمًا للأمر، وبذلك الانقياد تظهر عظمة الربوبية، ويبين ذلُّ العبودية.

وأما الرابع، فإنه لما أدى المؤمن جميع الواجبات ثم زاد بالتنفل وقعت المحنة لقصد التقرب، لأنَّ مؤدي الفرض ربما فعله خوفاً من العقاب، والمتقرب بالنفل لا يفعله إلا إيثاراً للخدمة والقرب، فيتمنُّ له ذلك مقصوده.

وأما الخامس فإن قوله: "فإذا أحبتُه كُنْتُ سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطشُ بها ورجله التي يمشي بها" مثل وله أربعة أوجه:

1. كنتُ كسمعه وبصره في إثارة أمري، فهو يحب طاعتي، ويؤثر خدمتي، كما يحب هذه الجوارح.

2. أنَّ كليته مشغولة، فلا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضيني ولا يبصر إلا عن أمري.

3. أنَّ المعنى أنِّي أحصلُ له مقاصدهُ كما يناله بسمعه وبصره.

4. كنتُ له في العون والنصرة كبصره ويده اللذين يعاونانه على عدوه.

وأما السادس: فإنه ما سئلَ ولِيٌ قطُّ إلا وأجيب، إلا أنه قد تؤخر الإجابة لصلاحة، وقد يسألُ ما يظنُ فيه مصلحةً، ولا يكونُ فيه مصلحةً، فيعوضُ سواه.

مجلة الهند

وأمام السالِيْعِ: فجوابُه منْ وجهين:

1. أَنْ يكون الترددُ للملائكة الذين يقْبضُون الأرواح، فأضافهُ الحقُّ عَزٌّ وجلٌّ إلى نفسه لأنَّ ترددُهم عن أمره كما قال تعالى: {وَمَا نَنْتَزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رِبُّكَ نَسِيًّا} (مريم: 64)، وترددُ الملائكة إنما يكونُ لإظهارِ كرامة الآدميِّ كما ترددَ ملكُ الموت إلى آدم وإبراهيم وموسى ونبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فأمَّا أَنْ يكون الترددُ لله فمحالٌ في حقِّه، وهذا مذهبُ الخطابيِّ، فإنَّ اعتراض على هذا، فقيل: متى أمرَ الملكُ بقبضِ الرُّوحِ لم يجزُ له الترددُ، فكيف يترددُ؟

فالجوابُ منْ وجهين:

أحدُهُما: أَنْ يكون إنما ترددُ فيما لم يجزُ له فيه على وقتٍ، كما روى "أنَّه لما بعث ملكَ الموت إلى الخليل قيل له تلطُّف بعدي".¹

والثاني: أَنْ يكون ترددُ رقةٍ ولطفٍ بالمؤمن، لا أنه يؤخرُ القبض، فإنه إذا نظر إلى قدر المؤمن من احترامه فلم تتبسطْ يدهُ لقبض روحه، وإذا ذكر أمر الإله لم يكنْ له بدُّ في امثاله.

2. أَنَّه خطابٌ لنا بما نعقلُ وقد تنازلَ الربُّ عَزٌّ وجلٌّ عن حقيقته كما قال: "إِنَّ أَنَّا يُمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَهَ".²

فكما أَنَّ أحدَنا يتَرددُ في ضرب ولده فيأمره التأديبُ بضربيه وتمنُّهُ المحبَّةُ، فإذا أخْبر بالتردد فهُمْنا قوة محبته له بخلاف عبده، فإنه لا يتَرددُ في ضربه، فأريد تفهميُّنا تحقيق المحبَّة للولي بذكر التردد، ومن الجائز أَنْ يكون تركيبُ الولي يحتملُ خمسين

¹ لم أجده

² عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَا عَنْدَهُ عَبْدِيَّ بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرْتَنِي، فَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكْرِتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرْتَنِي فِي مَلَأِ ذَكْرِتُهُ فِي مَلَأٍ حَيْرٍ مِّنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ تَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ ذَرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذَرَاعًا تَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي بِمَشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَهَ». انظر صحيح البخاري، حديث: 7405

مجلة الهند

سنةً، فيدعوا عند المرض فيعافي ويقوى تركيبه فيعيشُ عشرين أخرى، فتغيّر التركيب والمكتوب من الأجل كالتردد، وذلك ثمرةُ الحبّة."

المبحث الرابع: مفهوم الولاية في القرآن الكريم:

قال تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خالدون} [البقرة: 257]

أي: "اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَهُ، فَيُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ الْكُفْرِ وَالشَّكِّ وَالرَّيْبِ إِلَى نُورِ الْحَقِّ الْوَاضِعِ. وَالْمُؤْمِنُ لَا وَلِيَ لَهُ، وَلَا سُلْطَانٌ لِأَحَدٍ عَلَى اعْتِقَادِهِ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى. أَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَوْلَهُمُ الشَّيْطَانُ، يُزَيِّنُ لَهُمْ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الضَّلَالَةِ وَالْجَهَالَةِ، وَيُخْرِجُهُمْ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ وَنُورِهِ، إِلَى الْكُفْرِ وَالظُّلُمَاتِ، وَيُؤْدِي بِهِمْ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ لِيَبْقَوْهُ فِيهَا خالِدِينَ أَبَدًا. وَالنُّورُ هُوَ الْحَقُّ، وَالْحَقُّ وَاحِدٌ، أَمَّا الظُّلُمَاتُ وَهِيَ الْكُفْرُ فَهِيَ أَجْنَاسٌ".¹

وقال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتُولَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حُرْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} [المائدة: 56-55]

وقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أُولَئِيَّاءِ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَا عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيِّدُهُمْ هُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [التوبه: 71]

يُحِثُّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُوَالَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْدِيُونَ زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ، وَيُسَاعِدُونَ الْمُحْتَاجِينَ مِنَ الْمُسْكِنِينَ، وَهُمْ دَائِمُوْنَ الرُّكُوعِ لِلَّهِ.

¹ أيسير التفاسير، أسعد حومد، موقع التفاسير، http://www.altafsir.com ، 264/1

مجلة الهند

(نزلت هذه الآية في عبادة بن الصامت حين برأ من موالاة المُهود، ورضي بموالاة الله ورسوله). وكل من رضي بموالاة الله ورسوله والمؤمنين هو مُفلح في الدنيا والآخرة، وهو منصور في الدنيا والآخرة، لأنّه يَكُونُ في حزب الله، وحزب الله هُم الغالبون، ولا يُغلب من يتوالهُم الله.¹

وقال تعالى: {ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مُؤْلِي النَّاسِ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مُؤْلِي لَهُمْ} (سورة محمد: 11) لقد دمر الله على الكافرين، ونجى المؤمنين وأظهرهم على الكافرين، لأن الله مؤلي الذين آمنوا وصدقوا رسوله وأطاعوه، وهو ناصرهم وحافظهم، ولأن الكافرين لا ناصر لهم فيدفع عنهم العقوبة والعذاب.²

وقال تعالى: {النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُمْ وَأَوْلُو الْأَرْزَاقِ بِعِظَمِهِمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أُولَيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} (سورة الأحزاب: 6)

جعل الله الرسول صلى الله عليه وسلم أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وولايته مقدمةً على ولائهم على أنفسهم، لأنّه عليه السلام لا يأمرهم إلا بما فيه خيرهم وصلاحهم، أما النفس فأمامرة بالسوء، وقد تجاهل بعض المصالح. وجعل أزواج النبي في مقام الأمهات للمؤمنين في الحرمة والاحترام. وكان التوارث في بدء الإسلام بالحلف والمؤاخاة بين المسلمين، فكان المتأخيان يتوارثان (وإن كانوا مختلفين نسبياً) دون سائر الأقرباء، فابتطل الله تعالى هذا التعامل في هذه الآية، ورد الميراث إلى أقرباء النسب، فجعل أولى الأرحام بحق القرابة، أولى بالميراث من المؤمنين بحق الدين، والمهاجرين بحق الهجرة. واستثنى الله تعالى من هذا الحكم الوصيّة (المعروف)، التي يريد أحدهم أن يوصي بها إلى أحد المهاجرين والمؤمنين (أوليائكم) فإنه في هذه الحال يستحقها دون ذوي الحقوق في الميراث من أقرباء النسب.³

¹ أيسر التفاسير، 1/726، والتفسير الميسر، 2/229، وتفسير السعدي، 1/236.

² المرجع السابق، 1/4435، والتفسير الميسر، 9/171، وتفسير السعدي، 1/785.

³ أيسر التفاسير، 1/3420، وتفسير السعدي، 1/659.

مجلة الهند

ثُمَّ قال تعالى: إِنْ جَعَلْ ذُوِيَ الْأَرْجَامَ بِعُضُّهُمْ أُولَى بِبَعْضٍ فِي الْمِيرَاثِ هُوَ حُكْمٌ قَدْرُهُ اللَّهُ تَعَالَى، وَأَثْبَتَهُ فِي كِتَابِهِ الَّذِي لَا يُبَدِّلُ وَلَا يُغَيِّرُ.

وقال تعالى: {أَلَا إِنَّ أُولَيَاءَ اللَّهِ لَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَقْبَلُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلٌ لِكَلْمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [يونس: 62-63]

يُخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ أُولَيَاءَهُ، وَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّقُوا وَأَخْلَصُوا الْعِبَادَةَ لِهِ وَحْدَهُ، وَالْتَّوْكِلُ عَلَيْهِ، لَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ مَمَّا يَسْتَقْبَلُونَهُ مِنْ أَهْوَالِ الْآخِرَةِ، وَلَا يَحْزُنُونَ عَلَى مَا خَلَقُوهُ وَرَاءَهُمْ فِي الدُّنْيَا.

ويَقُولُ تَعَالَى مُعَرِّفًا (أُولَيَاءَ اللَّهِ): بِأَنَّهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَكَانُوا يَتَقْبَلُونَ اللَّهَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ، وَيُرَاقِبُونَهُ فِي سُرَّهُمْ وَعَلَانِيَتِهِمْ، فَلَا يَقُومُونَ إِلَّا بِمَا يُرِضِي اللَّهَ رَبِّهِمْ.¹

وقال تعالى: {إِنَّ وَلِيَ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّ الصَّالِحِينَ} [الأعراف: 196]. إِنَّ اللَّهَ حَسْبِي، وَهُوَ مُتَوَلِّ أُمْرِي وَنَاصِري فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهُوَ يَتَوَلَّ نَصْرَ كُلِّ صَالِحٍ مِنْ عِبَادِهِ، وَهُوَ الَّذِي نَزَّلَ الْقُرْآنَ بِالْحَقِّ عَلَيَّ (الكتاب).

المبحث الخامس: معاداة أولياء الله تعالى مؤذنة بالحرب من الله:

قوله عز وجل: "مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنَهُ بِالْحَرْبِ" يعني: فقد أعلمته بأني محارب له، حيث كان محاربًا لي بمعاداة أوليائي²، ولهذا جاء في حديث عائشة: "فَقَدْ اسْتَحْلَلَ مَحَارِبِي" وفي حديث أبي أمامة وغيره: "فَقَدْ بَارَزَنِي بِالْمَحَارِبَةِ"، وعن معاذ بن جبل، سمع النبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يقول: «إِنَّ يَسِيرَ الرَّيَاءَ شُرُكٌ وَإِنَّ مَنْ عَادَ لِلَّهِ وَلِيًّا فَقَدْ

¹ المرجع السابق، 1428/1، وتفسیر السعدي، 368/1.

² انظر فتح الباري، 416/11.

مجلة الهند

بارز الله بالمحاربة إن الله يحب الأبرار الآتقياء الأخفياء الذين إذا غابوا لم يُفتقدوا وإن حضروا لم يُدعوا ولم يُعرفوا قلوبهم مصابيح الهدى يخرجون من كُلّ غباء مظلمة¹.

¹ أخرجه ابن ماجة، في سننه، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف، مصر، council.org,www.islamic، برقم: 3989 والطبراني في "المعجم الكبير" 321/20، والحاكم في المستدرك، 328/4 ، وحلية الأولياء، 15/1، 15، 248، والإتحاف، 144/3 ومشكل الآثار، 2/317 وشعب الإيمان، حديث: 6812 وله 4/1 328/4 و328/2 و45 و68/1 و3/444 و4/444 و154/2 و252، والإتحاف، 8/2 و148، والشهاب، 2/195 ، والزهد للبيهقي حديث: 236/8 و264 ، وصفة، 500 وكر، 225/6 ، والخمول برقم: 8 وصححه الحاكم ووافقه الذهبي والمنذري لكنه فيه إشكال فقد ورد من طريق الليث بن سعد عن عياش بن القتباني عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر به وهذا إسناد صحيح.

ومن طريق نافع بن يزيد عن عباس بن عياش عن عيسى بن عبد الرحمن عن زيد بن أسلم عن أبيه به ومن طريق ابن لميعة عن عيسى عن زيد بن أسلم به وعيسى بن عبد الرحمن هذا الزرقى متوفى التقريب ترجمة: 5306 من السابعة.

والليث بن سعد أحفظ من نافع بن يزيد ومن ابن لميعة فلم يذكر فيه عبد الرحمن، وإنما يرويه عياش بن عباس عن زيد بن أسلم به

وقد روى عياش عن سالم أبو النضر وبكير الأشج وأبي عبد الرحمن الجبلى، وعيسى بن هلال وكليب بن صبيح وأبي الحصين الحميري وأبي الخير مرثد اليزنى وجماعة وهو ثقة ولم يوصف بتديليس ومات سنة 133هـ انظر: التهذيب، 197، 198/8 وسالم مدنى وبكير الأشج مدنى نزل بمصر، وزيد بن أسلم مات سنة 136هـ أي بعده فهو معاصر له. وأقدم شيخ لعياش: المبitem شفى أبو الحصين الحجرى المصرى ثقة من الثانية.

وأنا لا أستبعد أن يكون قد سمع من أبي زيد وهو أسلم وكل مشايخه ثقات، فلا يمكن أن يترك حديث زيد بن أسلم مباشرةً ويسمعه بواسطة ذلك النكرة! فالحديث صحيح

وهناك ماحوظة أخرى وهي أن عيسى بن عبد الرحمن روى عن زيد بن أسلم، مات زيد سنة 136هـ وعن عيسى بن أبي موسى وعن الزهرى ومات الزهرى سنة 124هـ والذين رروا عنه ابن لميعة ومات 169هـ ومن بن عيسى بن سبرة فإن كان صاحب مالك فقد مات سنة 198هـ وأبو داود الطیالسی المتوفى 204هـ ومحمد بن شعیب بن شابور المتوفى 200هـ فكيف يروى عنه عياش وعياش مات سنة 133هـ؟ وال الصحيح أن الذي روی عنه هو ابنه وليس هو فقد قال الحافظ في التهذيب، 8/218هـ وروى عنه: عبد الله ابن عيسى القتباني وهو عبد الله بن عياش بن عباس القتباني روی عن أبيه ويزيد بن أبي حبيب وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج وعبد الله بن أبي جعفر والزهرى وأبي عشانة المعافرى وغيرهم. ومات سنة 170هـ انظر: التهذيب، 351/5.

مجلة الهند

وقال الشيخ ابن عثيمين: "المعاداة هي المباعدة وهي ضد المولاة والولي بيته الله عز وجل في قوله: {أَلَا إِنَّ أُولَاءِ اللَّهُ لَا خُوفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزُنُونَ} *الذِّينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَقْرُبُونَ} [يوسوس: 62-63]، هؤلاء هم أولياء الله {الذِّينَ آمَنُوا} أي: حفظوا الإيمان في قلوبهم بكل ما يجب الإيمان به {وَكَانُوا يَتَقْرُبُونَ} أي حفظوا العمل الصالح بجوار حبهم فاتقوا جميع المحارم من ترك الواجبات أو فعل المحرمات فهم جمعوا بين صلاح الباطن بالإيمان وصلاح الظاهر بالتقى هؤلاء هم أولياء الله، وليس ولاية الله سبحانه وتعالى تأتي بالدعوى كما يفعله بعض الدجالين الذين يموهون على العامة بأنهم أولياء الله وهم أعداء الله. فالذي يعادى أولياء الله يقول الله عز وجل: فقد آذنته بالحرب يعني أعلنت عليه الحرب، فالذي يعادى أولياء الله محارب لله عز وجل، ومن حارب الله فهو مهزوم مخنوط لا تقوم له قائمة.¹"

فأولياء الله تجب مواطئهم، وتحرم معاداتهم، كما أن أعداءه تجب معاداتهم، وتحرم مواطئهم، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَخَذُوا عُدُوِّي وَعَدُوِّكُمْ أُولَاءِ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُلْوَدَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرْجَتُمْ جَهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءِ مَرْضَاتِي تُسْرُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمُلْوَدَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفِيَتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعُلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلُ} {سورة المتحنة: 1}،² وقال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقْمِدُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الرِّزْكَةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} *ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حرب الله هم الغالبون {[المائدة: 55-57]}، ووصف أحباءه الذين يحبهم ويحبونه بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنِ دِينِهِ فَسُوفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذْلَلٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

¹ شرح رياض الصالحين لابن عثيمين، موقع جامع الحديث النبوى، 415/1 <http://www.sonnhononline.com>

² هذه الآية نزلت في حاصلب بن أبي بلتعة، وكان حاصلب من أهل بدر، حاجز من مكة... أيسر التفاسير لأسعد حومد، 1/5029.

مجلة الهند

أعزٌ على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لأنهم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم {سورة المائدة: 54}.¹

وروى الإمام أحمد في كتاب "الرهد" بإسناده عن وهب بن منبه، قال: إن الله تعالى قال لموسى -عليه السلام- حين كلامه: أعلم أن من أهان لي ولينا، أو أخافه، فقد بارزني بالمحاربة، وباداني، وعرض نفسه ودعاني إليها، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي، أفيظن الذي يحاربني أن يقوم لي؟ أو يظن الذي يعاذني أن يعجزني؟ أم يظن الذي يبارزني أن يسبقني أو يفوتني؟ وكيف وأنا الثائر لهم في الدنيا والآخرة، فلا أكل نصرتهم إلى غيري.²

واعلم أن جميع المعاصي محاربة لله عز وجل، قال الحسن: ابن آدم هل لك بمحاربة الله من طاقة؟ فإن من عصى الله، فقد حاربه.³

لكن كلما كان الذنب أقبح كانت المحاربة لله أشد، ولهذا سمي الله تعالى أكلة الربا، وقطع الطريق محاربين لله تعالى ورسوله؛ لعظيم ظلمهم لعباده، وسعهم بالفساد في بلاده، وكذلك معاداة أوليائه، فإنه تعالى يتولى نصرة أوليائه، ويُحِّمِّلُهُمْ وَيُؤْتِيُهُمْ، فمن عادهم، فقد عاد الله وحاربه، عن عبد الله بن مغفل قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الله الله في أصحابي الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي فمن

¹ كتاب حديث أبي الفضل الزهري، دراسة وتحقيق: د. حسن بن محمد بن علي شبلالة البلوط، مكتبة أضواء السلف، بالرياض، سنة 1418هـ، موقع جامع الحديث، <http://www.alsunnah.com>، حديث: 598 مطولاً.

² المسند، أحمد بن حنبل، حديث: 342 عن وهب بن منبه، به، وهو جزء من حديث طويل، وإسناده حسن إلى وهب

³ كتاب حديث أبي الفضل الزهري، موقع جامع الحديث، <http://www.alsunnah.com>، حديث: 598 مطولاً

مجلة الهند

أحَبُّهُمْ فِي بُحْرَى أَحَبُّهُمْ وَمِنْ أَبْغَضُهُمْ فِي بُحْرَى أَبْغَضُهُمْ وَمِنْ آذَانِي وَمِنْ آذَانِي
فَقُدْ آذَى اللَّهُ وَمِنْ آذَى اللَّهِ فَيُوشِكُ أَنْ يَاخُذُهُ» خَرْجَهُ التَّرمذِيُّ^١.

"وَقُدْ أَسْتُشْكِلُ وُقُوَّةُ الْمُحَارِبَةِ وَهِيَ مُفَاعِلَةٌ مِنَ الْجَانِبَيْنِ مَعَ أَنَّ الْمُخْلُوقَ فِي أَسْرِ
الْخَالِقِ، وَالْجَوابُ أَنَّهُ مِنَ الْمُخَاطِبَةِ بِمَا يُفْهِمُ، فَإِنَّ الْحَرْبَ تَنْشَأُ عَنِ الْعِدَاوَةِ وَالْعِدَاوَةُ
تَنْشَأُ عَنِ الْمُخَالَفَةِ وَغَایَةُ الْحَرْبِ الْهَلاَكُ وَاللَّهُ لَا يَعْلَمُ بِغَالِبٍ، فَكَانَ الْمُعْنَى فَقُدْ تَعْرَضُ
لِإِهْلَاكِ إِيَّاهُ. فَأَطْلَقَ الْحَرْبَ وَأَرَادَ لِزَمْهُ أَيْ أَعْمَلُ بِهِ مَا يَعْمَلُ الْعُدُوُّ الْمُحَارِبُ.

قال الفاكهاني: "في هذا تهديد شديد، لأنّ من حاربه الله أهلكه، وهو من المجاز البليغ،
لأنّ من كره من أحب الله خالف الله ومن خالف الله عانده ومن عانده أهلكه، وإذا
ثبت هذا في جانب المعاداة ثبت في جانب المولاة، فمن ولـا أولياء الله أكرمه الله".
وقال الطوسي: "ما كان ولـا الله من توـلـا الله بالطاعة والتقوى توـلـا الله بالحفظ
والنصرة، وقد أجرى الله العادة بأن عدو العدو صديق العدو صديق العدو، فعدو
ولي الله عدو الله فمن عاده كان كمن حاربه ومن حاربه فكانـاـ حارب الله".²

"قال صاحب الإفحاص: في هذا الحديث من الفقه أن الله سبحانه وتعالى قدّم الإعذار
إلى كل من عادى ولـاـ، أنه قد آذنه بأنه محاربه بنفس المعاداة، وولي الله تعالى هو
الذي يتبع ما شرعه الله تعالى فليحذر الإنسان من إيذاء قلوب أولياء الله عز وجل
ومعنى المعاداة أن يتـخذـ عـدوـاـ.

¹ انظر سنن الترمذـيـ، حـديثـ 4236 وأـحمدـ، 87/ـ4ـ، وأـبـوـ دـاـوـدـ، 54/ـ5ـ وـ55ـ وـ57ـ وـ74ـ. وـشـعـبـ
الـإـيمـانـ، حـديثـ 1511ـ والـحـلـيـةـ، 287/ـ8ـ وـالـسـنـةـ، 14/ـ70ـ وـابـنـ عـدـيـ، 1485/ـ4ـ، وـالـخـطـيـبـ، 123/ـ9ـ
وـابـنـ حـبـانـ، حـديثـ 2284ـ وـالـفـضـائـلـ لـأـحـمـدـ، حـديثـ 1ـ وـ2ـ وـ3ـ وـ4ـ وـالـرـوـيـانـيـ، حـديثـ 882ـ
وـالـبـخـارـيـ فـيـ التـارـيخـ، 131/ـ5ـ، وـجـامـعـ الـأـصـولـ، 553/ـ8ـ، وـهـوـ حـديثـ حـسـنـ.

وـفـيـ سـنـدـ عـبـدـ اللـهـ بـنـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ يـعـلـىـ الطـائـفـيـ قـالـ: خـ فـيـ نـظـرـ وـقـالـ اـبـنـ معـنـ: صـوـيـلـ وـفـيـ
روـاـيـةـ ضـعـيفـ وـفـيـ روـاـيـةـ لـيـسـ بـهـ بـأـسـ يـكـتـبـ حـدـيـثـ وـقـالـ نـ: لـيـسـ بـالـقـوـيـ اـهـابـ عـدـيـ، 4/ـ167ـ وـ168ـ وـ2218ـ
وـوـقـهـ اـبـنـ حـيـانـ وـابـنـ الـمـدـيـنـيـ وـالـعـجـلـيـ اـنـظـرـ التـهـذـيبـ، 5/ـ298ـ، وـالـجـامـعـ، حـديثـ

² فـتـحـ الـبـارـيـ، 18/ـ342ـ، وـشـرـحـ الـأـرـبـعـينـ النـوـوـيـةـ، لـعـطـيـةـ سـالـمـ، 4/ـ80ـ.

مجلة الهند

ولا أرى المعنى إلا من عاداه لأجل ولادة الله، وأما إذا كانت الأحوال تقتضي نزاعاً بين وليين لله محاكمه أو خصومة راجعة إلى استخراج حق غامض، فإن ذلك لا يدخل في هذا الحديث، فإنه قد جرى أبي بكر وعمر رضي الله عنهم خصومة، وبين العباس وعلى رضي الله عنهم وبين كثير من الصحابة وكلهم كانوا أولياء الله عز وجل.¹

ومن هنا يقول العلماء: (من عادي لي ولئا)، ليس منه المطالبة بحق شرعي، ولنأت إلى سر الحديث وإلى البلاغة التي تُشم ولا تُلمس في هذا اللفظ النبوى الكريم، (من عادي لي ولئا)، ولم يقل: من عادي ولئا لي، بل (من عادي لي ولئا)، فهل تجدون فيها فرقاً أم لا؟ الذوق البلاغي هنا: بتقديم (لي) على (ولئا)، فإن تقديم الجار وال مجرور هنا، وإضافته إلى المولى سبحانه يُشعر بأن المحاربة تكون ملنا عادي الولي لكونه ولئا لله، أما لو قال: (من عادي ولئا لي)، فقد يكون هذا الولي عنده ما يوجب المعاداة، لكن (من عادي لي)، يعني: من أجيلى وبسيبي وباسمي، فمن عاداه وهو ينتهي إلى فقد آذنته بالحرب، والحديث في بلاغته يُشعر بأن العداوة المنبي عنها والمحذر منها هي أن يعاديه لكونه ولئا لله، ومن الذي يعادى ولئا لله لولايته لله؟ نعلم جميعاً أن ولادة الله لا تحصل بالمعصية والفسق والخروج على كتاب الله وسنة رسوله، ولا بمخالفة الإجماع وشق عصا المسلمين، فهذا الحديث - كما يتفق العلماء - يعتبر فاصلاً بين الحق والباطل.²

1. من صفات أولياء الرحمن:³ من شهد له محمد صلى الله عليه وسلم بأنه من أولياء الله فهو من أولياء الرحمن، ومن شهد له بأنه من أعداء الله فهو من أولياء الشيطان.

وقد بين سبحانه وتعالى في كتابه وسنته رسوله صلى الله عليه وسلم أن الله أولياء من الناس وللشيطان أولياء، ففرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فقال تعالى: {ألا إن

¹ شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، 1/34، وبنحوه في فيض القدير، شرح الجامع الصغير حيث: 1752

² الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، 1/34.

³ المرجع السابق، ص 138.

مجلة الهند

أولياء الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون* الذين آمنوا وكانوا يتقون* لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبدل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم { [يونس: 62-65].

2. صفات أولياء الشيطان:¹ وذكر الله تعالى "أولياء الشيطان": { فإذا قرأت القرآن فاستعد بالله من الشيطان الرجيم * إنَّه لَيْسَ لِهِ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّنَّهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ } [النحل: 98-101] ، وقال تعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الْطَّاغِيَّةِ فَقَاتَلُوا أَوْلَيَاءَ الشَّيْطَانَ إِنَّ كِيدَ الشَّيْطَانَ كَانَ ضَعِيفًا } [النساء: 76] ، وقال تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفْتَخَذُونَهُ وَذُرِّتْهُ أَوْلَيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عُدُوٌّ بِنُسْ لِلظَّالِمِينَ بِدَلَّا } (سورة الكهف: 50) ، وقال تعالى: { وَمَنْ يَتَّخِذَ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَقُدْ خَسِرَ حُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعْدُهُمْ وَيُنْتَهِمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَئِكَ مَا وَاهَمُ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا } [النساء: 119-121] . وقال تعالى: { الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُؤُهُمْ فَزَادُهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلِ لِمَ يَمْسِسُهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ * إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلَيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ } [آل عمران: 173-175]

3. الموالاة والمعاداة قائمان على الحب والبغض:² لا شك أن الولاء والبراء مبنيان على قاعدة: الحب والبغض، فينبغي للداعية أن يوضح للناس ويحضهم على الموالاة والمعاداة وتكون على ثلاثة أوجه:

أ- من يحب محبة كاملة: وهذه المحبة للمؤمنين المتقيين: من الأنبياء والمرسلين وعباد الله المحسنين القائمين بجميع ما أمر الله به، المبعدين عن جميع ما نهى الله عنه.

¹ المرجع السابق، ص 143، 139.

² انظر فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري، 3/ 33.

مجلة الهند

ب- من يحب من وجهه ويكره من وجهه؛ لأنّه قد يجتمع في المؤمن ولالية من وجهه وعداؤه من وجه آخر وهذا هو المسلم الذي خلط عملاً صالحًا وأخر سيئاً فيحبّ ويتوالى على قدر ما معه من الخير، ويبغض وينعادي على قدر ما معه من الشر.

ج - من يبغض من كل وجه: وهو من كفر بالله عزّ وجلّ، فيجب بغضه بالقلب كاملاً لازماً لا نقص فيه، أما بالبدن والأعمال فعلى حسب القدرة ومتى كانت إرادة القلب وكراحته كاملة لا نقص فيها، وفعل العبد معها بحسب قدرته فإنه يعطى ثواب الفعل الكامل إن شاء الله تعالى.

الخاتمة:

- 1 - بيان فضل أولياء الله، وشدة خطر معاداتهم، أنّ ولالية الله عزّ وجلّ تحصل بأداء الفرائض و فعل التوافل.
- 2 - إثبات صفة المحبة لله عزّ وجلّ، وأنّ أداء الفرائض هو أحبُ الأعمال إلى الله تعالى، وذلك لما فيها من إظهار عظمة الربوبية، وذلة العبودية.
- 3 - أنّ فعل التوافل بعد أداء الفرائض يجلب محبة الله عزّ وجلّ، أنّ محبة الله عزّ وجلّ تجلب للعبد إجابة دعائه وإعادته مما يخافُ.
- 4 - أنّ ثواب الله عزّ وجلّ للعبد يكون بإجابة مطلوبه والسلامة من مرهوبة.
- 5 - أن الله سبحانه وتعالى قدّم الإعذار إلى كلّ من عادى ولّياً أنه قد آذنه بأنه محاربه بنفس المعاداة.
- 6 - أن أولياء الله تعالى هم الذين يتقرّبون إليه بما يقرّبهم منه من الإيمان والأعمال الصالحة، فظهر بذلك بطلان دعوى أن هناك طريقاً إلى ولالية غير التقرب إلى الله تعالى بطاعاته التي شرعها.
- 7 - أنّ العبد ولو بلغ أعلى الدرجات - لا ينقطع عن الطلب من ربّه لما في ذلك من الخصوص له، وإظهار العبودية له وأنه يجب علينا أن نحبّ لله، ونبغض لله، ونواли في الله، ونعايده في الله

مجلة الهند

- 8 - أولياء الله تعالى ليسوا بمعصومين، فقد يقعون في المعصية.
- 9 - أنّ الأنبياء أفضلُ الأولياء، وأفضلهم أولو العزم من الرسل، وأفضلهم سيدُنا محمدُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.
- 10 - أولياء الله تعالى موجودون في كل زمان ومكان، ولا يوجد شيء يميزهم عن غيرهم سوى طاعتهم لله تعالى واتباعهم لمنهجه.
- 11 - ليس بشرط أن تجري على أيديهم كرامات، فخوارق العادات قد تكون كرامة من الله تعالى لعبد من عباده الصالحين، وقد تكون استدراجاً والعياذ بالله.
- 12 - لا يجوز الطعن بأحاديث الصحيحين، لأنها بلغت القنطرة، وهي أصح الأحاديث على الإطلاق.
- 13 - لا يجوز التسرع بالحكم على الأحاديث، أو ردّها لا سيما إذا كانت مما تلقته الأمة بالقبول. بل يجب اتباع الطريق الذي سار عليه أهل العلم في هذا من الاحتياط التام.
- 14 - أحاديث البخاري أصحُّ الأحاديث في السنة النبوية.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. ابن تيمية: مختصر الفتاوى المصرية، مطبعة أنصار السنة المحمدية،
3. ابن حجر الهيثمي: الفتاوى الحديثية، الطبعة الثانية، مصطفى الحلبي،
تفاصيل الطبع لا توجد
4. ابن حجر: فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ
5. ابن شرف النووي: بستان العارفين، موقع الوراق،
<http://www.alwarraq.com>.
6. ابن عثيمين: شرح رياض الصالحين، موقع جامع الحديث النبوى،
<http://www.sonnhonline.com>
7. ابن ماجه: سنن ابن ماجة، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف، مصر،
www.islamiccouncil.org
8. أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري: النهاية في غريب الحديث والأثر
(تحقيق: طاهر أحمد الزاوي و محمود محمد الطناحي)، المكتبة العلمية،
بيروت، 1979م.
9. أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي: كشف المشكل من حديث الصحيحين
(تحقيق: علي حسين البابا)، دار الوطن، الرياض، 1997م
10. أحمد بن حنبل: مسنن أحمد، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف،
مصر،
www.islamiccouncil.org
11. أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح
(تحقيق: د. علي حسن ناصر، د. عبد العزيز إبراهيم العسكر، د. حمدان محمد)
دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى، 1414هـ.

مجلة الهند

12. أحمد بن عبد الجليم بن تيمية الحراني: الصارم المسلح على شاتم الرسول (تحقيق: محمد عبد الله عمر الحلواني، محمد كبير أحمد شودري) دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، 1417هـ.
13. الإمام مسلم: صحيح مسلم، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف، مصر، www.islamiccouncil.org
14. البخاري: صحيح البخاري، موسوعة الحديث الشريف، وزارة الأوقاف، مصر، www.islamiccouncil.org
15. كتاب حديث أبي الفضل الزهرى (دراسة وتحقيق: د. حسن بن محمد بن علي شبلة البلوط) مكتبة أضواء السلف، الرياض، 1418هـ موقع جامع الحديث، <http://www.alsunnah.com>
16. كتاب حديث أبي الفضل الزهرى (دراسة وتحقيق: د. حسن بن محمد بن علي شبلة البلوط) مكتبة أضواء السلف، الرياض، 1418هـ، موقع جامع الحديث، <http://www.alsunnah.com>
17. مجموع فتاوى ابن تيمية، موقع الإسلام، <http://www.alislam.com>
18. محمد بن أبي بكر أيوب الزرعى، ابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد (تحقيق: هشام عبد العزيز عطا، عادل عبد الحميد العدوى، أشرف أحمد الحج)، الطبيعة الأولى، 1996م، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة.
19. محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي: لسان العرب، دار صادر، بيروت، سنة الطبع لم تذكر
20. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، 1427-1404هـ

التراث الإسلامي في تصنيف العلوم، القلقشندی نموذجًا

د. محمد فوزي مصري رحيل¹

ترك المسلمون في عصور هضتهم ميراثاً ضخماً في كل ميادين العلوم والفنون بلا استثناء، ومن ثم قلما نجد علمًا من علوم عصرنا ليس له أصل عربي مسلم، وفي ظل انشغالنا بمشاكل عصرنا المتقلب نسينا أو تناسينا ذلك، ومن ثم نظرنا لأنفسنا نظرة فيها كثير من الحط من الذات المفضي للجلد، ومن هنا تأتي وظيفة المؤرخ للكشف عن ماض مجيد كنا فيه قادة وسادة، وهو ما يضع بين الأجيال الحالية القدوة والمثل لإمكانية النهوض من جديد والانطلاق نحو المستقبل بكل ثقة.

ومن بين الميادين التي أبدع المسلمين فيها، ميدان تصنيف العلوم² الذي جاء معبرًا عن الانفجار المعرفي في ظل ازدهار الحضارة الإسلامية في القرن الثالث الهجري؛ وهو ما حدا بالمتخصصين للنظر في تصنيف هذه العلوم والمعارف؛ تيسيرًا على أهل كل تخصص حتى يمكنهم التعرف على ما أنجز في تخصصهم، وهو ما يوفر لهم قاعدة معلومات للتعلم والإبداع. ومن هنا تراكم عبر الزمن ميراث طويل من تصنيف العلوم، تنوع وتفرع حسب ظروف كل عصر، وهو ما نبحث عنه في هذا الدراسة مع إلقاء أضواء كافية على أحد التصانيف التي لم تزل الحظ الكافي من البحث والدرس وهو تصنيف القلقشندی.

وأنوه في البداية إلى أنني قسمت هذا البحث إلى نقاط رئيسة كالتالي:

- التصنيف ومدلولاته اللغوية والاصطلاحية.

¹ باحث أكاديمي من مصر

² علم تصنيف العلوم هو المقابل العربي لعلم المكتبات الحديث

مجلة الهند

- أسباب نشوء علم التصنيف عند المسلمين.
- تصنيف العلوم قبل الحضارة الإسلامية.
- أبرز تصانيف العلوم عند المسلمين قبل القلقشendi.
- دراسة تفصيلية لتصنيف القلقشendi.

التصنيف - مدلولاته اللغوية والاصطلاحية

المعنى اللغوي:

يعرف ابن منظور¹ التصنيف بأنه "تمييز الأشياء بعضها عن بعض، وصنف الشيء ميّز بعضه عن بعض، وتصنيف الشيء جعله أصنافاً". ويتفق معه الجوهرى² حيث عرّف التصنيف بأنه "جعل الشيء أصنافاً وتمييز بعضها عن بعض".

المعنى الاصطلاحي:

عُرف طاش كبرى زاده³ علم التصنيف كالتالي: "هو علم باحث عن التدرج من أعم الموضوعات التي أحصاها ليحصل بذلك موضوع العلوم المندرجة تحت ذلك الأعم".

يرى نديم مرعشلي أن مصطلح التصنيف classification يقصد به تقسيم الأشياء أو المعاني وترتيبها في نظام خاص وعلى أساس معين بحيث تبدو صلة بعضها ببعض، ومنها تصنيف الكائنات وتصنيف العلوم. والتصنيف الحقيقي ما قام على أساس من المميزات الذاتية والثابتة، والتحكمي ما بني على أمور اعتبارية وظاهرة.

أما عالم المكتبات Sayers فيرى أن التصنيف - بشكل عام - هو العملية الذهنية والتي من خلالها يتم ترتيب الأشياء وفقاً لدرجة التشابه ودرجة الاختلاف فيما بينها. ومن هنا نفهم أن التصنيف هو تقسيم المعرفة إلى أبواب وفصوص وأجناس وأنواع وذلك

¹ لسان العرب، ص 198

² الصحاح، 1388/4

³ مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ص 265

مجلة الهند

لبيان العلاقة التي تربط بين العلوم، مبيناً موضع كل علم من الآخر كلبنة في بناء المعرفة ككل¹.

ونخلص من هذه التعريفات إلى أن تصنيف العلوم اصطلاحاً هو عملية عقلية تسعى إلى جمع المتشابهات في موضوع واحد، وفصلها عن باقي الأنواع لتسهيل الاستفادة منها بالانتقال من العلوم الكلية إلى العلوم الجزئية المندرجة تحتها.

أسباب نشوء تصنيف العلوم عند المسلمين

شهد العصر العباسي الأول (132-232هـ) الانتقال من الشفاهية إلى الكتابية والقيد في الدفاتر والتسجيل في الكتب، وقد تمت هذه العملية الواسعة بإشراف الدولة، ابتداءً من عهد أبي جعفر المنصور، والتي صفت الحياة الفكرية والاجتماعية العربية الإسلامية بطابعها لفترة من الزمن امتدت نحو قرن من الزمان عرف بعصر تدوين العلوم². وإلى جانب تدوين العلوم الإسلامية شهدت هذه الفترة حركة واسعة للترجمة من لغات عديدة إلى اللغة العربية، شملت أعداداً كبيرةً لمختلف الكتب التي كانت تتناول علوماً أجنبية، ويمكن اعتبار عهدي المنصور والمأمون أوج ما وصلت إليه تلك الحركة، وهو ما أدى لكثرة العلوم التي تم تداولها في معاهد العلم الإسلامية سواء ما دون أو ما ترجم ، ومن هنا ظهرت الحاجة لتصنيف هذه العلوم تيسيراً على الطلاب والباحثين، ومن ثم نشأ علم جديد نما وتطور عبر الزمن، وهو علم تصنيف العلوم وتبويبها والتعریف بأهم ما ألف فيها وهو ما يقابل علم البيلوجرافيا الحديث³. ومن هنا يمكن اتخاذ ظهور علم تصنيف الكتب عند المسلمين مؤشراً على ما بلغته الحضارة الإسلامية من نضج مؤذناً بقطف الثمار⁴.

¹ منهج ابن النديم في تصنيف العلوم، ص 6

² تدوين العلوم في العصر العباسي، رسالة ماجستير، أداب عين شمس، 2004م.

³ منهج ابن النديم في تصنيف العلوم

⁴ مقدمة إحصاء العلوم للفارابي، ص 5

تصنيف العلوم قبل الحضارة الإسلامية

يعدّ أفلاطون الفيلسوف اليوناني أقدم عالم وصلت إلينا جهوده في تصنيف العلوم، حيث قسم العلوم إلى مجموعتين: علوم تنتهي لعالم المحسوس أو الطبيعيات وهي: اثنا عشر علمًا منها الطب والنبات وغيرها. وعلوم تنتهي لعالم المعمول وت تكون من العلوم الرياضية والعلوم المرتبطة بالإلهيات. أما أرسطو ت 323 ق م فقد قسم العلوم في ثلاث مجموعات كبرى: إنتاجي - يقصد به العلوم الشعرية والأدبية - وعملي - يهتم بتدبير أفعال الإنسان - ونظري. يشمل النظري: الهندسة - الفلك - الموسيقى - الحساب - الميتافيزيقا - الطبيعيات. العلوم العملية: تشمل علوم الأخلاق والاقتصاد والسياسة. والعلوم الإنتاجية : الشعر والبلاغة والجدل.¹

كما كانت هناك جهود رومانية لتصنيف العلوم وأبرزها تصنيف ماركوس فاروس (ت 279 ق م) وأقسام العلوم عنده تشمل النحو وعلوم اللغة، الدياليكتيك متضمناً المنطق والفلسفة وفروعهما والبلاغة ومعها الخطابة والشعر ثم الهندسة والحساب وعلم الفلك والموسيقى والطب والعمارة. وأيضاً أديمانتوس أوريجانس ت 253 م وهو نصراني مصرى سكندرى لهوتى صنف المعارف كالتالى: الإنجيل وشروحه والهندسة والفيزياء والفالك والفلسفة والأخلاق والملحوقات الروحانية.².

تراث المسلمين في التصنيف

- تقسيم الكندي (ت 252هـ):

لعل الكندي أول مصنّفي العلوم العرب الذين وصل إلينا إنتاجهم. هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، ولد بالكوفة وتوفي في بغداد، ولقب بفيلسوف العرب³. وقد جاء تصنيفه في رسالة سماها "كتاب ماهية العلم وأقسامه". وفيها

¹ تصنيف العلوم عند العرب، ص 16

² تصنيف والعلوم لفوزي الخطيب، ص 41-42

³ المصدر نفسه، ص 90

مجلة الهند

قسم العلم إلى إلهي وإنساني، وقد تأثر إلى حد كبير بأرساطو في تصنيفه حيث قال: "إن علوم الفلسفة ثلاثة فأولها: العلم الرياضي في التعليم وهو أوسطها في الطبع، والثاني: علم الطبيعيات وهو أسفلها في الطبع، والثالث: علم الريوبية وهو أعلىها في الطبع".¹ ويرى الدكتور يوسف العش² أن مكتبة الكندي الخاصة كانت مقسمة على النحو التالي: "علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والشعر والنحو والتصريف وعلوم الأوائل، وقد اقتصرت، كما هو واضح، على العلوم العامة: العلوم الدينية، الآداب، وعلوم الفلسفة". إذن أثر الفلسفة اليونانية واضح جلي في تصنيف الكندي.

- الفارابي (339هـ):

هو أبو نصر محمد بن طرخان، تبحر في الفلسفة، واللغة، والموسيقى، وكانت له معرفة حسنة بالطب. تأثر بأفلاطين، وتبني نظرية الواحد والكثرة. وقد ظهر تصنيف الفارابي للعلوم في كتابه "إحصاء العلوم". وفي مقدمة الكتاب يوضح سبب تأليفه قائلاً: "قصدنا في الكتاب أن نحصي العلوم المشهورة علمًا، ونعرف مجمل ما يشتمل عليه كل واحد منها، وإجزاء ما له أجزاء منها". والغرض من ذلك تبصرة من يريد أن يتعلم علمًا من هذه العلوم فيجد هذا العلم وموضوعاته. والثانية إكسابه القدرة على المقارنة بين هذه العلوم ليعلم أيها أفضل وأنفع بجانب إكسابه القدرة على اختبار مدى إحاطة مدعى العلوم بها وتضليلهم منها.³ وقد صنف الفارابي العلوم كالتالي:

- 1- علم اللسان وشمل علوم: قوانين الألفاظ مركبة وقوانين الألفاظ ومفردة وقوانين، تصحيف الكتابة والأشعار.
- 2- علم المنطق

¹ مقدمة سلجوقي زاده، ص 14-16

² دور الكتب العربية العامة وشبها العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، ص 347

³ إحصاء العلوم، ص 8

مجلة الهند

3- علم التعاليم وتشمل علوم العدد والهندسة والمناظر والنجوم والموسيقى والأثقال والحيل.

4- العلم الطبيعي والعلم الإلهي

5- العلم المدنى وعلم الفقه وعلم الكلام¹

- إخوان الصفا:

إخوان الصفا هم جماعة ذات طابع سياسي ديني وميل إسماعيلي ظهرت في منتصف القرن الرابع الهجري، وألّفوا مجموعة من الرسائل عرفت برسائل إخوان الصفا وخلان الوفا وعددتها 52 رسالة.² وقسمت هذه الرسائل في أربعة أقسام:

القسم الأول: الرسائل الرياضية وتضم أربع عشرة رسالة.

القسم الثاني: الرسائل الجسمانية أو الطبيعية، وتضم سبع عشرة رسالة.

القسم الثالث: الرسائل النفسانية العقلية، وتضم عشر رسائل

القسم الرابع: الرسائل الناموسية الإلهية، وتضم إحدى عشرة رسالة³

تأثرت هذه الرسائل بأفكار فيثاغورس في القسم الرياضي والقسم النفسي العقلي وبأرسطو في القسم الطبيعي، وفي القسم الرابع حاولوا التوفيق بين الدين والفلسفة⁴.

- الخوارزمي (ت 380هـ):

وهو عبد الله محمد بن أحمد بو يوسف كان أدبياً وباحثاً، نسب لمدينة بلخ والتحق بنيسابور حيث بلاط نوح الثاني السامانيين وفي رحابه ألف كتاب مفاتيح العلوم وأهداه لأبي الحسن العتبى وزير نوح. قسم الخوارزمي كتابه قسمين

القسم الأول لعلوم العرب: الفقه والكلام والنحو والكتاب والشعر والأخبار.

¹ الفارابي، إحصاء العلوم، بيروت، 1996م.

² خير الله سعيد، النظام الداخلي لجامعة إخوان الصفا، داركتعان، دمشق، 2000م

³ رسائل إخوان الصفا، طبعة الهند، بدون تاريخ

⁴ تصنيف العلوم عند العرب، ص 99

مجلة الهند

والقسم الثاني لعلوم العجم: الفلسفة والمنطق وعلم العدد والهندسة والنجوم والموسيقى والحيل والكيمياء، وبالرغم من تصنيف العلوم للخوارزمي قد وضع نسقاً للعلوم إلا أنه لم يقصد به تصنيف العلوم لأن غرض الخوارزمي من كتابه أن يكون "جامعاً لمفاتيح العلوم وأوائل الصناعات متضمناً ما بين كل طبقة من العلماء من الموضوعات".¹ ويمتاز تصنيف الخوارزمي بأنه ابتعد في تصنيفه عن الفلسفه وتحرر من قيد الفلسفه الإغريقية، ومن الأفكار المجردة الميتافيزيقية.²

- النديم (ت 385هـ):

هو أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب الوراق المشهور بالنديم، والغريب أن كثيراً من المؤلفين المحدثين يلقبونه بابن نديم بينما كان هو النديم نفسه، رتب النديم كتابه الببلوجرافى ترتيباً تصنيفياً تحت رءوس الموضوعات عامة ثم عمد إلى تفريعها. وفي مقدمة كتابه يقول: "هذا فهرست كتب جميع الأمم من العرب والعجم، الموجود منها بلغة العرب وقلماها في أصناف العلوم وأخبار مصنفها وطبقات مؤلفها وأنساقهم وتاريخ مواليدتهم ومبلغ أعمارهم وأوقات وفاتهم وأماكن بلدانهم ومناقبهم ومثالهم منذ ابتداء اختراع كل علم إلى عصرنا هذا وهو سنة سبع وسبعين وثلاثمائة" ويمتاز تصنيف ابن النديم بأنه يقوم على المسند الأدبي بينما تصانيف الفلسفه قامت على السند النظري. وقد صنف العلوم في عشرة أقسام كما هي:

الأول: لغات الأمم والكتابة، وأسماء كتب الشرائع ولغة القرآن.

الثاني: النحويون اللغويون.

الثالث: الأخبار والسير والأنساب

الرابع: الشعر والشعراء.

الخامس: علم الكلام والمتكلمين

ال السادس: الفقه والفقهاء والمحدثين.

¹ مفاتيح العلوم، ص 13

² تصنيف العلوم، ص 100

مجلة الهند

السابع: الفلسفة والعلوم القديمة

الثامن: الأسمار والخرافات والسحر والشعبنة.

التاسع: المذاهب والاعتقادات غير الإسلامية

العاشر: أخبار الكيميائيين والصناعيين من الفلاسفة القدماء والمحدثين.¹

وهذه الفروع العشرة تتضمن 43 علمًا، ويعود كتاب ابن النديم أقدم بيلوجرافيا

تمثل الإنتاج الفكري العربي حتى منتصف القرن الرابع الهجري.²

- ابن سينا (428هـ):

هو أبو الحسين بن عبد الله الملقب بالشيخ الرئيس، بسبب رئاسته للأطباء، تعلم الأدب وعلوم القرآن والفقه والمنطق والهندسة في سن مبكرة، ومارس الطب وترجم كتاب إقليدس في الهندسة واستغل بالفلك وله بحوث في الحركة والطاقة والفراغ والضوء والحرارة، وسعى للتوفيق بين الدين والفلسفة. اهتم ابن سينا بتصنيف العلوم في بعض كتبه غير أنه لم يلتزم بتصنيف واحد، ففي كتاب عيون الحكم، تبين تصنیف أرسطو المميز بين العلوم النظرية والعملية، ولما تقدم به العمر ظهر له تصنیف جديد في كتاب منطق المشرقين، حيث صنف العلوم بين علوم لا يصح أن تجري أحکامها الدهر كله وعلوم متساوية النسب إلى جميع أجزاء الزمان، وهناك تصنیف ثالث اقترب من تقسيم الفارابي ظهر في "أقسام العلوم العقلية" حيث جعلها ثلاثة درجات: درجة أعلى وهي العلم الإلهي، درجة وسطى وهي العلم الرياضي، وعلومًا أدنى وهي العلم الطبيعي.³

- الغزالى (ت 505هـ):

هو أبو حامد محمد الغزالى الطوسي اشتهر بأنه حكيم متكلم فقيه أصولي صوفي مشارك في العديد من العلوم⁴، يظهر تقسيم الغزالى للعلوم في كتابيه، "مقاصد الفلسفة" و"تهافت الفلسفه"، ويلخص تصنیفه كالتالي:

¹ النديم، الفهرست، تحقيق رضا تجدد، طهران، 1971 م

² تصنیف العلوم، ص 103-104

³ تصنیف العلوم، ص 105-107

⁴ الأعلام، ص 21-23

مجلة الهند

- الرياضيات: أصلها الهندسة والحساب والبیئه، والفروع علم المناظر وعلم جر الأثقال والأکر المتحركة.
- والطبيعيات: تتعلق بعالم السماوات، وكواکبها والأرض، وما بها من ماء وهواء ونار والأجسام المركبة كالحيوان والنبات والمعادن.
- والإلهيات موضوعها الوجود المطلق
- المنطقیات مهمتها النظر في الأدلة والمقاييس وشروط مقدمات البرهان وكيفية ترتيبها.¹

- النويري (ت 733 هـ²):

هو شهاب الدين بن عبد الوهاب النويري، كان فقيهًا شافعياً، متبحراً في عدد من العلوم والفنون، ألف النويري كتاب "نهاية الأرب في فنون الأدب" وهو موسوعة شاملة لكل العلوم المعروفة في عصره تدرج فيها من الموضوع الواسع إلى الموضوع الخاص الضيق. وقد قسمها في خمسة فنون عامة وكل قسم ينقسم في خمسة أقسام وكل قسم يجزأ إلى أبواب بينما كل باب مقسم إلى فصول ويتحرر في الفصول والأبواب من التقسيم الخماسي:

القسم الأول: في السماء والآثار العلوية، والأرض والاقسام السفلية وهو خمسة أقسام

القسم الثاني: في الإنسان وأصله وما يتعلق به وهو خمسة أقسام.

القسم الثالث: في الحيوان: خمسة أقسام

القسم الرابع: في النبات: خمسة أقسام

القسم الخامس: في التاريخ وهو خمسة أقسام.³

وربما تأثر النويري في تقسيمه هذا بطريقة إخوان الصفا الرباعية⁴

¹ مقدمة سلجوقي زاده، ص 32، وتصنيف العلوم عند العرب (لفوزي)، ص 110

² عنه انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، 1/7-11

³ نهاية الأرب، 1/16

⁴ تصنیف العلوم عند العرب (لفوزي الخوري)، ص 117

مجلة الهند

- ابن الأكفاني (749هـ):

هو شمس الدين بن ساعد الأكفاني السنجاري، تبحر في عدد من العلوم وقال عنه تلميذه الصلاح الصفدي: "فاضل جمع أشتات العلوم وبرع في علوم الحكمة خصوصاً الرياضي فإنه إمام الهيئة والحساب والهندسة .. كان يحل إقلاليس بلا كلفة"^١. وأشار ابن الأكفاني في "إرشاد القاصد إلى أسرى المقاصد في أنواع العلوم" إلى أن العلم ضربان: مقصود لذاته وهو العلوم الحكمية التي تساعد على استكمال النفس الناطقة في قوانينها النظرية والعملية بحسب الطاقة الإنسانية. والنوع الثاني غير مقصود لذاته حيث أنه آلة لغيره مثل المنطق وعلم الأدب. كما أوضح أن علوم الحكمة النظرية ثلاثة مراتب: أعلى وهو العلم الإلهي، وأوسط وهو العلم الرياضي، وأدنى وهو العلم الطبيعي. وعلوم الحكمة العملية هي السياسة والأخلاق وتدبیر المنزل. ثم صنف العلوم سبعة أصناف: أولها علم الأدب ويتفرع في خمسة عشر علمًا. ثانها علم النومايس (العلوم الشرعية) ويشمل ثمانية علوم. ثالثها العلم الطبيعي ويضم أحد عشر علمًا. رابعها علم الهندسة ويشمل عشرة علوم. خامسها الهيئة وتتفرع في خمسة علوم. سادسها علوم العدد وهي ستة علوم. ثم علم الموسيقى وعلم السياسة وعلم الأخلاق وعلم تدبیر المنزل^٢.

- ابن خلدون (808هـ):

هو الإمام المؤرخ والفقير المالي عبد الرحمن بن محمد الإشبيلي المشهور بابن خلدون، ظهر تصنيف ابن خلدون في الفصل السادس من مقدمته الشهيرة وقد صنف العلوم صنفين:

صنف طبيعي يهتدى إليه الإنسان بفكره وهو الفلسفة
وصنف نceği يأخذه الإنسان عن وضعه وهي العلوم الشرعية ولا مجال فيها
للعقل إلا في إلحاد الفروع بالأصول.

^١ إرشاد القاصد، ص 35

^٢ المصدر نفسه، ص 226-91

مجلة الهند

ويرى أن العلوم أصناف ثلاثة:

علوم شرعية وتشمل: القرآن، والحديث وعلومه والفقه وأصول الفقه وعلم الكلام والتصوف وتعبير الرؤيا.

علوم عقلية هي: علوم العدد والهندسة والهيئة والمنطق والطبيعيات والطب والفلاحة.

الإلهيات وتشمل: السحر والظلام وأسرار الحروف والطب الروحاني وعلم الكيمياء وأباطيل الفلسفة وفساد منتحلها¹.

ويرى أحد الباحثين: أن هذه التقييمات مأخوذة عن تصانيف الفارابي وابن سينا والغزالى وليس فيها إلا إعادة الصياغة².

دراسة تفصيلية لتصنيف القلقشندى (ت 821هـ)

- القلقشندى وعصره:

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عبد الله القلقشندى الشافعى، ولد في قلقشندة جنوب طوخ بالقليوبية سنة 756هـ/1355م لأسرة عربية تنحدر من فزارة. تتلمذ القلقشندى على أعلام عصره كابن الشيخة وابن الملقن وبرع في العربية والأدب وشارك في الفقه والفرائض والأنساب والتاريخ. عمل في عدة وظائف منها: التوقيع في ديوان الانشاء بغير مرتب وال المباشرة في ديوان الأحباس كما خدم نائب الإسكندرية الصالح ابن عرام مدة وناب في الحكم عن قاضي القضاة الشافعى الجلال البلقيني وتوفي في القاهرة ليلة السبت عاشر جمادى الآخرة سنة 821هـ/1418م على نحو خمسة وستين عاماً قال عنه المقريزى: "كان مكشأراً مهدراً"³.

¹ ابن خلدون، المقدمة

² تصنیف العلوم (الفوزي خليل)، ص 116

³ المقريزى (أحمد بن علي المقريزى، ت 845هـ/1442م)، درر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة (تحقيق: د. محمود الجليلي)، 1/312-313؛ ابن تغري بردي (يوسف جمال الدين أبو المحاسن ت 874هـ/1470م)، المنهل الصافى والمستوى بعد الوافى (تحقيق: الدكتور محمد محمد أمين)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984م، 1/351-352؛ محمد كمال عز الدين، القلقشندى مؤرخاً، بيروت، 1990م، ص 24-26

مجلة الهند

مؤلفات القلقشندى:

ترك القلقشندى عدداً من الكتب منها:

- 1- حلية الفضل وزينة الكرم في المفاخرة بين السيف والقلم.
- 2- «صبح الأعشى في كتابة الإنشاء» وهو هذا الكتاب.
- 3- «ضوء الصبح المسفر وجنى الدوح المثمر» ، مختصر كتاب «صبح الأعشى».
- 4- «الغيبوث الهوامع، في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع» في علم الفقه على مذهب الإمام الشافعى.
- 5- «نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب
- 6- «قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان
- 7- «ماثر الإنابة في معالم الخلافة
- 8- كنه المراد في شرح بانت سعاد.¹

- أصوات على كتاب صبح الأعشى:

أراد القلقشندى من تأليف كتابه أن يوصل «كاتب الإنشاء» إلى غاياته القصوى في امتلاك مواد الكتابة ومستلزمات وظيفته الديوانية الخطيرة. فالأشعى: من ساء بصره بالليل والنهار؛ والمعنى ينظر إلى الانصباب والصبوة؛ فكأن القلقشندى يعتبر كتابه صبحاً ينصب منه النور في الأعشى سبيله. والحقيقة أن القلقشندى قد تبنى رأى ابن الأكفانى في أن طرق نقل العلم اثنان "معلم راشد وكان أهم الوسائل حتى عصر ابن الأكفانى حتى أن العلماء لم يكونوا يعترفون بمن أخذ العلم من الكتب بلا معلم. والطريق الثاني الكتاب فقد رأى ابن الأكفانى أن الكتاب كمصدر مباشر للمعرفة صار في عصره من أهم وسائل الحصول على المعرفة ونقل الخبرة ومن ثم أضاف في المقدمة الثانية لكتابه أنسى المقاصد في الكتب وأنواعها وطرق الأخذ منها². ومن هنا تبى القلقشندى هذا

¹ القلقشندى مؤرخاً، ص 29-30

² إرشاد القاصد، ص 98-102

مجلة الهند

الاتجاه فقام بتأليف كتابه *الصبح الموسعي* ليكون أهم وسيلة للحصول على المعرفة فيما يتعلق بالعمل في ديوان الإنشاء.¹

مصادر صبح الأعشى ومنهج القلقشندي:

اعتمد القلقشندي في جمع مادة موسوعته وتأليفها على ثلاثة أنواع من المصادر وهي كما يلي:

أولها محفوظات ديوان الإنشاء من الوثائق والمراسلات السلطانية والدبلوماسية، والثاني أمهات الكتب والمصنفات في مختلف ميادين العلم والأدب التي طرق أبوابها في كتابه.

وأما الكتب والمصنفات التراثية التي أخذ منها والتي ذكرها في متن كتابه، فلا يمكننا الإحاطة بها جميئاً في هذا المقام لكثرتها وتنوع مجالاتها، نذكر منها كتابي «التعريف بالمصطلح الشريف» و«عرف التعريف» لابن فضل الله العمري و«التحقيق» لابن ناظر الجيش.

كما كان هنالك المشاهدة العينية والمعايشة للأحداث؛ وقد قدم لنا من مشاهداته ومعاييرته للأحداث مادة هامة ضمنها كتابه في أماكن مبعثرة وفي خاطرات وأراء لها أهميتها الكبرى.

وإذا نظرنا إلى كتاب «صبح الأعشى» نظرة مدققة فاحصة، فسوف نجد أن مؤلفه يتبع منهاجاً علمياً واضحاً يقوم على وحدة الفكرة من ناحية، وعلى أسلوب التفريع داخل إطار محدد مرسوم، من ناحية أخرى. وهو في أثناء ذلك ناقل أمين، لا ينسب آراء غيره لنفسه، وهو ذو رأي سديد وفكرة صائبة دونما ادعاء. ولاستقراء منهجه هذا سوف نتفحص بعضًا من موضوعاته التي عالجها في كتابه.

رتّب القلقشندي مؤلفه الضخم على مقدمة وعشرين مقالات:

¹ صبح الأعشى، 1/8-9

مجلة الهند

المقدمة: تناول فيها المسائل التمهيدية، كفضل الكتابة، وصفات الكتاب وأدابهم، وتاريخ الإنشاء، وتطور فنه عبر العصور، وفضل النثر على النظم، والتعريف بديوان الإنشاء وقوانينه،

المقالة الأولى: يتناول فيها دراسات الكاتب اللغوية والأدبية لكي يستطيع إتقان عمله في ديوان الإنشاء من وضع الكتب والرسائل وما شابه، كذلك معلومات مهمة عن أنواع الأوراق والأحبار، ونبذة عن الخط العربي.

المقالة الثانية: وهي فصل جغرافي عن المسالك والممالك وتنظيمها منذ ظهور الإسلام في ديار الإسلام، وفيه تفصيل خاص لشؤون الديار المصرية وما يتبعها.

المقالة الثالثة: وهي تفصيل وافي لترتيب المكاتبات وأنواع الرسائل وأنواع المراسيم وأقلام الترجمة.

المقالة الرابعة: وهي أهم مقالات الكتاب، وفيمها فهرسة مطولة للملوك والسلطانين والأمراء والعلماء والمتصوفة والقضاة وأمراء الجيوش، وذكر لألقابهم وشروحها، واستعرض للعديد من رسائل ديوان الإنشاء المملوكي.

المقالة الخامسة: تتناول مسألة الولايات وتنظيمها وطبقاتها من الخلافة والسلطنة والإمارة وأنواع البيعات.

المقالة السادسة: يتحدث فيها عن الوصاية الدينية والمسامحات وتصاريح الخدمة السلطانية والمقابلات.

المقالة السابعة: عن الإقطاعات وأنواعها وأصولها ونشأتها.

المقالة الثامنة: عن الأيمان وأنواعها منذ الجاهلية، ثم الدولة الإسلامية.

المقالة التاسعة: يتحدث عن عهود الأمان وعقدها لأهل الكفر وما يتعلق منها بأهل الذمة، والهند وأنواعها.

مجلة الهند

المقالة العاشرة: يعرض نماذج من الرسائل الملكية في المديح والفخر والصيد وغيرها من أمور الملوك، ثم يتحدث عن تاريخ البريد في مصر والشام، وعن الحمام الزاجل واستخداماته وأبراجه ومطاراته.

هذا عرض موجز لصبح الأعشى الذي يشهد مؤلفه برفيع المكانة بين طبقات المؤرخين والأدباء المسلمين في كل العصور.

أسباب تصنيف العلوم عند القلقشندي:

كان لدى القلقشندي وهو يؤلف كتابه خطة واضحة وهي تزويد كتاب الانشاء بكل ما يحتاج إليه من علوم ومهارات ومعارف تمكّنه من تنفيذ المهمة المنوطة به. وعليه فقد خصّص المقالة الأولى من كتابه لما يحتاج إليه كاتب الانشاء من مواد. ومن أهم هذه المواد معرفة خزائن الكتب وتصنيفها، وعن ذلك يقول "إذا عرف الكاتب هذه العلوم والفنون وما صنف فيها من الكتب، أمكنه التصرف فيها في كتابه بذكر علم نبيل مساواته أو التفضيل عليه، وذكر كتاب مصنف في ذلك حيث تدعو الحاجة إلى ذكره".¹

أي أن غرض القلقشندي من وضع هذا التصنيف هو تشقيق الكاتب المتصرّد للإنشاء بحيث يمكنه بسهولة معرفة أي نوع من الكتب يلجأ إليه ليقتبس منه ما يعينه على الرد بشكل ملائم والاستشهاد بأمثلة من مختلف المصنفات حسب الغرض باختلاف أنواع الرسائل التي كانت تصدر عن ديوان الانشاء.

مصادر القلقشندي في تصنيف العلوم:

لم يمكن القلقشندي أول من وضع تصنيفاً للعلوم ومن ثم كان من الطبيعي أن يتأثر بمن سبقه من مصنفي العلوم المسلمين، ومن سبقهم من علماء وفلاسفة اليونان مثل أرسطو طاليس الذي يبدو أنه كان على دراية واسعة بمؤلفاته وأنه قد طالع

¹ المصدر نفسه، 478/1

مجلة الهند

بعضها^١. وقد ذكر ابن الأكفاني صراحة عند ذكر علم الطلاسم^٢. والحقيقة أن تأثره بابن الأكفاني ظاهر للعيان وأية ذلك اتباعه طريقة تصنيف الكتب إلى بسيط ومتوسط وبسيط، وهذه الطريقة هي من إبداعات ابن الأكفاني التي لم يسبقها إليها أحدٌ من مصنفي العلوم المسلمين^٣ كما أشار لاسم ابن ساعد مرتين صراحة قائلاً: "قال في إرشاد القاصد"^٤ ولم يذكره باسمه لذكره مؤلفه وهذا يشير أن ابن الأكفاني كان مشهوراً في زمان القلقشندى بدرجة لا حاجة إلى التعريف به.

وبالرغم من أن ابن خلدون كان أقرب للقلقشندى في الزمن إلا أن تأثره به محدود وربما معذوم لكنه طبق قاعدة اقتراحها ابن خلدون ولم يطبقها وهي تقديم علوم اللغة على علوم الشريعة بحكم أن علوم اللغة هي أداة نقل علوم الشريعة وسلامة نقل العلوم الشرعية يتربى على إتقان العلوم اللغوية. ومن هنا جعل القلقشندى الأصل الأول هو علم الأدب تلاه بالأصل الثاني وهو العلوم الشرعية. بخلاف ابن خلدون الذي مال إلى وضع العلوم الشرعية أولاً لسموّها في الرتبة. وربما يرجع الأمر لاختلاف الصناعة، فابن خلدون كان فقيهاً ومن ثم صدر تصنيف العلوم بالعلوم الشرعية، وابن ساعد الأكفاني كان كاتباً ومن ثم صدر العلوم بالأدب المعني للكاتب في حرفته.

تصنيف القلقشندى:

قسم القلقشندى العلوم التي يحتاجها الكاتب بديوان الإنشاء لسبعة أصول تتفرع إلى أربعة وخمسين علمًا:

الأصل الأول: علم الأدب

ويشتمل على عشرة علوم هي: اللغة والتصريف والنحو والمعاني والبيان والبديع والعرض والقوافي وقوانين الخط وقوانين القراءة.

^١ المصدر نفسه، 476/1

^٢ المصدر نفسه، 475/1

^٣ إرشاد القاصد (المقدمة)، ص 10

^٤ المصدر نفسه، 468/1

مجلة الهند

الأصل الثاني: العلوم الشرعية

ويشتمل على تسعه علوم: التواميس والقراءات والتفسير وعلم روایة الحديث وعلم أصول الدين وعلم أصول الفقه وعلم الجدل وعلم الفقه.

الأصل الثالث: العلم الطبيعي

ويشتمل على اثني عشر علمًا: الطب والبيطرة والبزرة والفراسة وتعبير الرؤيا وعلم أحكام النجوم والسحر والطسمات والسيمياء والكيمياء والفلاحة وضرب الرمل.

الأصل الرابع: علم الهندسة

ويشتمل على عشرة علوم: عقود الأبنية والمناظر والمرايا وأراکز الأنقال والمساحة وعلم أنبات المياه وعلم جرّ الأنقال والبنكمات وعلم الآلات الحربية وعلم الآلات الروحية.

الأصل الخامس: علم الهيئة

ويشتمل على خمسة علوم: علم الزيجات وعلم المواقف وكيفية الأرصاد وعلم تسطيح الكرة وعلم الآلات الظلية.

الأصل السادس: علم العدد

ويشتمل على خمسة علوم: الحساب المفتوح والخت والميل والجبر والمقابلة وحساب الخطأين وحساب الدور والوصايا.

الأصل السابع: العلوم العملية

ويشتمل على ثلاثة علوم: السياسة والأخلاق وعلم تدبير المنزل.

منهج القلقشندي:

قسم العلوم بين سبعة أصول، وزع بين هذه الأصول 54 علمًا، ومع كل علم أوصى بعدد من النماذج تكون خير معين لكاتب الإنشاء حال مراجعتها عند الحاجة إليها،

وكان يصنف هذه المراجع المعاونة لكل علم درجات ثلاث: المختصر والمتوسط والمبسوط أي المطول وهو بذلك متأثر بطريقة ابن الأكفاني في إرشاد القاصد¹، غير أنه ابتعد كثيراً عن التفلسف في تصنيفه، فابن ساعد حين بدأ تصنيفه كتب مقدمة حول شرف العلم والتعليم والتعلم وشروعهما، كما تحدث في حصر العلم وتميز العلوم بين نظرية وعملية² كما اهتم عند ذكر كل علم بتعريف هذا العلم³، ومن هنا امتاز تصنيف القلقشندي بأنه دلف مباشرة للموضوع بلا مقدمات ولا تعريفات؛ وربما اعتمد ذلك لأن كاتب الإنشاء متعلم بطبيعة، وهذه التعريفات بدائية بالنسبة له، وبالتالي اللجوء إليها ربما كان يبدو من قبيل الحشو فابتعد القلقشندي عن كل ذلك.

وقد استعراض القلقشندي عن مقدمات ابن الأكفاني الفلسفية بمقدمة تاريخية حول أشهر المكتبات في تاريخ الإسلام رتبها زمنياً وجغرافياً وحجمياً، وهي: خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد، وخزانة الخلفاء الفاطميين في مصر، وخزانة خلفاء بني أمية بالأندلس⁴. أي أنه استعراض عن التعريفات بأوعية الكتب وهي الخزائن أو المكتبات، كما أشار إلى عدم وجود خزانة كبيرة في مصر في عصره بسبب كثرة المدارس وتوزع الكتب بينها، وهو ما يشي بلا مركزية العلم في مكان واحد. ومن هنا يوجه القلقشندي كتاب الإنشاء بشكل غير مباشر للتوجيه لمكتبات المدارس للبحث عن الكتب التي يحتاجونها في عملهم حال عدم امتلاكهم إياها.

وبهذا يكون القلقشندي خير مرشد لكتاب الإنشاء حال جمعهم للمعلومات عند كتابة رسائلهم فلو احتاج الكاتب لأمر ما في علم من العلوم بشكل سريع غير مبسotط أسرع إلى المختصرات فحصل منها على النموذج المطلوب، وإذا أراد شرحاً غير مفصل توجه إلى المتوسط من الكتب وإن أراد التفاصيل والشرح المطولة لسبب من الأسباب توجه لأحد الموسوعات الكبيرة الكثيرة الشرح والتحليل. كل ذلك كان ضرورة

¹ المصدر نفسه، ص 111 وما بعدها

² المصدر نفسه، ص 108-93

³ المصدر نفسه، 109

⁴ صبح الأعشى، 467-466/1

مجلة الهند

من الضرورات، وذلك لأن ديوان الإنشاء كما يقرر القلقشندى: "جزء عظيم من أنس الملك، وعماد الدولة، وعلى صاحب ديوان الإنشاء مداره، وإليه روحه تدبره، واختيار رجاله"^١. وكان القلقشندى يطبق نفس غرض الفارابي حين صنف رسالة تصنيف العلوم حين قال في مقدمته: "قصدنا في الكتاب أن نحصي العلوم المشهورة علمًا علماً، ونعرف مجمل ما يشتمل عليه كل واحد منها وإجزاء ما له أجزاء منها"^٢ غير أن القلقشندى أضاف إلى ذلك أهم ما أله في كل فرع من هذه الفروع.

وبناء على المهمة الجسيمة التي كان يقوم بها ديوان الإنشاء (أنس الملك) والتي توزع مهامه اليوم بين عدد من الوزارات هي الخارجية والإعلام وأجهزة المخابرات، كان لا بد لكاتب الإنشاء أن يكون ذا ثقافة واسعة في مختلف المجالات ومن هنا كان الدليل هو تحصيل العلم من خلال أصوله وأصنافه التي أوضحها صاحب "صبح الأعشى".

وحول سبب تصنيف العلوم لسبعة أصول فيمكن فهم سبب ذلك بمراجعة تعريف العلم عند الجلدي الذي قال: "كل علم حقيق فلا بد له من موضوع، ومبادئ وسائل وغاية. فالموضوع هو الشيء الذي يبحث في ذلك العلم عن أحواله التي تعرضت له، إما لذاته، أو لما يشتمل عليه، أو لما يساويه. ومتى كان الموضوع كلياً فالعلم الناظر فيه أصلي. ومتى كان جزئياً فالعلم الناظر فيه فرع كالطلب بالنسبة إلى العلم الطبيعي، فإن موضوع الطبع بدن الإنسان من جهة ما يُصح ويُمرض، وهو مندرج تحت موضوع العلم الطبيعي لأنه ينظر في الأجسام مطلقاً ولو احتمالها"^٣ وعلى هذا فقد قسم القلقشندى العلوم لسبعة أصول متأثر بالجلدي في تطبيقه لرأيه في تعريف العلم وبابن ساعد الأكفاني فيما صنف من العلوم.

وبالرغم من تشابه نماذج الكتب التي ذكرها القلقشندى مع نماذج ابن ساعد وهذا طبيعي لكن لم ينقلها حرفيًا بل كان ينتقى من نماذج ابن ساعد ويضيف نماذج

^١ المصدر نفسه، 35/1

^٢ تصنيف العلوم، ص 8

^٣ إرشاد القاصد، ص 108

مجلة الهند

أخرى مما يعلم من الكتب في العلم المذكور. ومن أمثلة ذلك "علم اللغة" فالقلقشندی يقول: "من الكتب المختصرة فيه المنتخب، والمجرد لکراع، وأدب الكاتب لابن قتيبة، وفقه اللغة للثعالبی، والفصیح لثعلب، وكفاية المתחفظ لابن الأجدابی، والألفیة لابن إصبع. ومن المتوسطة فيه المجمل لابن فارس، وديوان الأدب للفارابی، وإصلاح المنطق لابن السکیت. ومن المبسوطة الجامع للأزهري والعباب الزاخر للصاغانی"، والصحاح للجوهري. قال في إرشاد القاصد: ولا أفع ولا أجمع من المحکم لابن سیده".

ولو نظرنا لنفس العلم عند ابن ساعد نجده يقول: "ومن الكتب المختصرة فيه المنتخب والمجرد لکراع ومختصر كتاب العین. ومن المتوسطات المجمل لابن فارس وديوان الأدب للفارابی ومن المبسوطات الجامع للأزهري والعباب الزاخر للصاغانی والمشهور عند الجمهور الصحاح للجوهري وعليه نکت کثیرة لابن بري وعليه تکملة وحواشی للغانی ويجمع بینهما وبين الصحاح في مجمع البحرين ولا أفع ولا أجمع من المحکم لابن سیده"¹.

ومن المثل يتضح أنه في المختصر من الكتب طابقه في كتاب المنتخب والمجرد لکراع وأضاف کتاباً خمسة أخرى. وفي المتوسط طابقه في كتابين وأضاف ثالثاً من عنده، وفي المبسوط اتفق معه في كتابين وأضاف ثالثاً، لكنه في النهاية يتافق معه في فضل المحکم لابن سیده. أي أن القلقشندی في تأثره بابن ساعد قد نقل واختصر وأضاف واتفق في بعض وجهات النظر فأفرها صراحة وهذا يحسب له.

ونلحظ التنبیه على كتاب بعینه بأنه الأفضل في هذا العلم وهو ما ينمّ عن اطلاعه على الكتب التي يذكرها ومن ثم ينبه كاتب الإنماء على أفضليتها على ما عداها مثل: حديثه عن الكتب المطلولة في علم الأدب حين قال "قال في إرشاد القاصد: ولا أفع ولا أجمع من المحکم لابن سیده"²، وعند حديثه عن الكتب المتوسطة في علم التصريف

¹ المصدر نفسه، ص 111-112

² صبح الأعشى، 1/468

مجلة الهند

حين يقول: "تصريف ابن الحاجب، وهو من أحسن الكتب الموضعية فيه وأجمعها"^١. وفي علم النحو يوصي بشدة على تسهيل الفوائد لابن مالك بالرغم من وجود كتاب آخر له إذ يقول في الكتب المتوسطة "الكافية الشافية لابن مالك، وتسهيل الفوائد له وهو الجامع على شدة اختصاره"^٢. وفي الكتب المطولة في النحو يقول "وأوسع الكل شرح الشيخ أثير الدين أبي حيّان على التسهيل"^٣.

كما أشار بكلمة "منفرد به" لكتاب واحد في علم بعينه مثل مصنف تميم الحرسي في علم المعاني وكتابين في علم البيان مثل نهاية الإعجاز لفخر الدين الرازي والجامع الكبير لابن الأثير الجزري^٤. وبالرغم من تعدد الكتب في علم البديع إلا أنه أشار لكتاب زهر الربيع للمطرizi وأشار إليه بأنه مختصر منفرد^٥، وهذه الإشارات كانت واجبة من أراد أن يقرأ كتاباً منفرداً بعلم المعاني أو علم البديع ذلك أن ابن الأكفاني^٦ وأشار على ربط اللغة والنحو التصريف ببعضهم في جل المؤلفات فأشار الفلقشندي لوجود كتاب منفرد في الموضوع من أراد أن يقرأ فيه مفرداً.

وحين يشترك كتاب أو عدة كتب في عدد من العلوم كان يكتب "تنبيه" ويورد بعده هذا الكتاب أو هذه الكتب مثل قوله (تنبيه) "ومن الكتب المشتملة على علوم المعاني والبيان والبديع روض الأزهار لابن مالك، والإيضاح لابن مالك، وأعظمها شهرة بالديار المصرية تلخيص المفتاح لقاضي القضاة جلال الدين القزويني، وعليه عدة شروح، منها شرح الخلالي، وشرح الشيخ أكمـل الدين، وشرح الشيخ بهاء الدين السبكي ، وهو من أجلـ شروحـهـ، والمـعـولـ عـلـيـهـ مـنـهاـ سـعـدـ الدـيـنـ التـفـتـازـانـيـ"^٧.

^١ المصدر نفسه، 468/1

^٢ المصدر نفسه، 468/1

^٣ المصدر نفسه، 468/1

^٤ المصدر نفسه، 468/1

^٥ المصدر نفسه، 468/1

^٦ إرشاد القاصد، ص 115

^٧ صبح الأعشى، 469/1

مجلة الهند

كما وضح من خلال تصنيفه للعلوم أنه كان مطلعًا على المؤلفات المعاصرة له مدرگاً لأهميتها، حين تحدث عن علم العروض في قسم الكتب المطلولة في ختامها قال: "وقد نظم فيه صاحبنا شعبان الآثاري محتسب مصر ألفية سماها "هداية الضليل إلى علم الخليل" جمع فيها فأوعي".¹

الإشارة للاكتفاء بمؤلفه الصبح والاستغناء عما عداه من الكتب وبخاصة في علم الخط إذ يقول: "وقد أودعت في هذا الكتاب ما فيه كفاية من ذلك".²

أوصي بكتابين أحياً ملوف واحد مثل الكافية الشافية وتسهيل الفوائد لابن مالك.³

الإشادة ببعض الكتب بحكم كونها تغنى عن سواها وذلك لسبب انتشارها بين الناس مثل قوله: "من الكتب المختصرة فيه التيسير لأبي عمرو الداني، ونظمه الشاطي في قصيده التي وسمها بحرز الأماني، فأغنت عما سواها من كتب القراءات واعتنى الناس بشرحها".⁴

كما بين التمايز فيما بين كتب التفسير بحسب تخصصاته مؤلفها حين قال: "واعلم أن كل واحد من المفسرين قد غالب عليه فن من الفنون يميل إليه في تفسيره، فالتييفاشي تغلب عليه القصص، وابن عطية تغلب عليه العربية، وابن عطية تغلب عليه أحكام الفقه، والزجاج تغلب عليه المعاني وغير ذلك"⁵ وفي علم الفراسة أشار إلى عدد من الكتب وأشار بأن أحدها اختص بفراسة النساء دون الرجال وذلك في قوله: "من الكتب المصنفة فيه كتاب أرسطاطالليس وكتاب الفراسة للإمام فخر الدين الرازى، ولفلين فيه كتاب مختص بالتفرس في النساء".⁶

¹ المصدر نفسه، 469/1

² المصدر نفسه، 469/1

³ المصدر نفسه، 468/1

⁴ المصدر نفسه، 470/1

⁵ المصدر نفسه، 470/1

⁶ المصدر نفسه، 474/1

مجلة الهند

وكذلك في علم أحكام النجوم أشار للمختصين من العلماء في بعض الأمور الدقيقة حين قال: "ومن الكتب المنفردة ببعض أجزائه الأدوار لأبي معاشر، والإرشاد لأبي الريحان البيروني، والمواليد للخصبى، والتحاویل للسحرتى، والمسائل للقيصرانى، ودرج الفلك لسكلوشا. ومن المدخل إليه مدخل القبصي، والتفسيم للبيروني مدخل إلى هذا الفن، وفيه ما يحتاج إليه من الرياضة أيضاً¹. ونلاحظ أنه لم يكثر في فروعيات العلوم سوى في أحكام النجوم والتفسير ربما ذلك تنبية لكاتب الإنشاء بحاجته كثيراً للبحث في دقائق هذين العلمين.

كما وضح التسلسل في الأهمية من الأعلى إلى الأقل أهمية بشكل مدرج كما في علم الحديث حين يقول: "أضبط الكتب المصنفة فيه وأصححها رواية صحيح البخاري، وصحيح مسلم رضي الله عنهما، وبعدهما بقية كتب السنن المشهورة: كسان أبي داؤد، والترمذى، والتسمانى، وابن ماجة، والدارقطنى. والمسندات المشهورة كمسند أحمد، وابن أبي شيبة، والبزار ونحوهما"².

كما جعل علم ال الحديث والمغازي والسير توأمين في علم واحد حيث أوضح تدرج كتب الصحاح ثم المسانيد ثم ذكر مشاهير كتب السيرة كسيرة ابن هشام ونحوها ثم عاد للحديث بذكر الكتب التي ذكرت المتون دون المسانيد ثم الكتب التي جمعت الترغيب والترهيب³.

الإشارة لكثرة شروح بعض الكتب مثل شروح مختصر ابن الحاجب حين قال: "وشرح مختصر ابن الحاجب كشرح القطب الشيرازى، وشرحى المسىلى، وشرح الشيخ شمس الدين الأصفهانى، وأتقن شرح عليه للعهد، وكشرح منهاج البيضاوى لابن المطهر، وشرحه للشيخ جمال الدين الأستوى، وغير ذلك؛ وكشرح التنقىح لمصنفه"⁴.

¹ المصدر نفسه، 474/1

² المصدر نفسه، 470/1

³ المصدر نفسه، 471/1

⁴ المصدر نفسه، 472/1

مجلة الهند

الأكثار من نماذج كتب الفقه الشافعي حيث عدد عشرة كتب مختصرة وستة متوسطة وخمس عشرة مبسوطة وهذا انحياز واضح لمذهبه^١.

نبه على أهمية بعض الكتب بالرغم من نقصها مثل كتاب شرح المذهب للنبوبي في الفقه الشافعي قال عنه: "شرح المذهب للنبوبي انتهى فيه إلى أثناء الريا، ولو كمل لأنقى عن جل كتب المذهب" وقال في الفقه المالكي: "وشرح التلقين للمازري وليس بكامل"^٢.

احتل الفقه قمة العلوم التي صنفها القلقشندى إذ بلغ عدد الأمثلة التي أوردها للكتب الفقهية بـ 85 كتاباً موزعة على المذاهب الأربع والخلاف بين المذاهب وكان أكثرها المذهب الشافعى بـ 31 كتاباً كما ذكرنا بحكم الانتماء وأقلها مذاهب أهل السلف كتاب واحد فقط^٣.

دراسة القلقشندى بعلم الطب وظهر ذلك من وجهة نظره فيما ألف من كتب الطب المبسوطة أي الموسوعية حيث أثني على ابن سينا قائلاً: "والقانون للرئيس أبي علي بن سينا وهو الذي أخرج الطب من التلقيق إلى التهذيب والترتيب، وهو أجمع الكتب وأبلغها لفظاً وأحسنها تصنيفاً"^٤.

ومن الغريب اكتفاءه بذكر كتاب واحد في علم البيطرة وهو كتاب حنين ابن إسحق^٥ بالرغم من ضخامة التراث المنتج في مجال علم البيطرة وربما يكون أشهرها في عصره كتاب كامل الصناعتين في البيطرة والزرقة المشهور بالناصري نسبة للسلطان الناصر محمد بن قلاوون مؤلفه أبي بكر ابن البيطار ت 741هـ / 1340م^٦.

^١ المصدر نفسه، 471/1

^٢ المصدر نفسه، 472/1

^٣ المصدر نفسه، 473/1

^٤ المصدر نفسه، 474/1

^٥ المصدر نفسه، 474/1

^٦ تحقيق: الدكتور عبد الرحمن إبريق، حلب، 1993م (المقدمة)

مجلة الهند

إدراك القلقشندى لدرجة توافر الكتب التي يذكرها ومن ثم ينبه على نقصها حال ذكرها في حديثه عن السحر وعلم الحروف والأوفاق يقول: "ومن كتب علم الحرف كتاب لطائف الإشارات للبوسي، وشمس المعارف له، وهو عزيز الوجود".¹

من قراءة تصنيف القلقشندى يمكننا تبيان طابع الانتقاء في كتب التخصص الذي يذكره ويمكننا تبيان ذلك من عدة موضع مثل حديثه عن علم السحر يقول: "ومن كتب السحر المعتبرة في بعض طرائقه السر المكتوم المنسوب للإمام فخر الدين، وكتاب الجمهرة للخوارزمي، وكتاب طيمارس لأرسطاطاليس، وفي غاية الحكم للمجريطي فصول كافية في بعض طرقه أيضًا".²

إشارته للاستفادة من كتب التصنيف السابقة وقد رصدنا ذلك حين قال في علم الطلسمات: "في كتاب طبانا الذي نقله ابن وحشية عن النبط أنموذج لعمل الطلسمات ومدخل إلى علمها، وفي غاية الحكم للمجريطي قواعد هذا العلم قال في إرشاد القاصد إلا أنه ضن بالتعليم كل الضن".³

كما بين تبحر أرسطوطاليس في عدد كل علوم الطبيعية وأن علماء المسلمين أدركوا ذلك فترجموا وشرحوا وبنين ذلك من تنبئه صاغه في نهاية العلوم الطبيعية قائلاً: "تنبيه - لأرسطاطاليس ثمانية كتب في الطبيعي يختص كل كتاب منها بجزء جردها ابن سينا في مختصر ترجمه بالمقتضيات، ولخصها أبو الوليد بن رشد تلخيصاً مفيداً، والمتاخرون جمعوا في غالب كتبهم بينه وبين الإلهي في التصنيف كما في الطوالع والمصباح للبيضاوي".

اقتصر في علم الآلات العربية على ذكر كتاب بني موسى ابن شاكر بالرغم من تأليف عدد لا يأس به من الكتب في زمن قريب من القلقشندى وربما لم يطلع عليها بسبب أنها كتب عسكرية يختص بها المالكية دون غيرهم.⁴

¹ صبح الأعشى، 474/1

² المصدر نفسه، 474/1

³ المصدر نفسه، 475/1

⁴ المصدر نفسه، 476/1

مجلة الهند

كما أبدي رأيًا علميًّا في بعض المسائل العلمية الدقيقة مثل علم الزيجات وهي حركة الكواكب إذ يقول: "قال في إرشاد القاصد: أقرب الزيجات عهداً بالرصد الزيج العلائي. قال وأهل مصر في زماننا إنما يقيمون دفتر السنة من زيج لفقوه من عدّة أزياج ولقبوه بالمصطلح؛ وأتم الزيجات في زماننا الذي نحن فيه زيج الشيخ علاء الدين بن الشاطر الدمشقي، وهو عزيز الوجود لم ينتشر ولم تكثر نسخه بعد"^١. ومن هنا يتضح موافقته لرأي ابن ساعد الأكفاني ومن ثم لم ينكر عليه رأيه في نماذج الأزياج التي يأخذون بها، ومن هنا أتني على زيج بن الشاطر^٢ ويبدو أنه قد اطلع عليه وإلا لما وصفه بأنه الأكمل والعزيز أو ربما سأل أهل الخبرة عنه لكن أرجح اطلاعه في ظل الغرض الذي من أجله وضع التصنيف.

اهتم أحياناً بنسبة الكتب للزمن الذي ألفت فيه كما بدا في علم تسطيح الكرة إذ يقول: "من الكتب القديمة فيه كتاب تسطيح الكرة لبطليموس. ومن الكتب المحدثة فيه الكامل للفرغاني، والاستيعاب للبيروني، وألات التقويم للمراكشي"^٣ ومن هنا اعتبر ما انتهى للحضارة اليونانية قديم وكل ما ينتمي للإسلام محدث حق لو ابتعد عن عصر المؤلف بقرون لكنه ينتمي للحضارة القائمة وهي الإسلام ومن ثم وصفه بالمحاث.

هناك علوم لم يذكر أسماء مصنفات لها ربما بسبب شهرتها وكثرتها كما في علم حساب التخت والميل حيث وصفها بالكتب المعدة.^٤

^١ المصدر نفسه، 476/1

^٢ ابن الشاطر: هو علي بن إبراهيم بن محمد المطعم، كان موقتاً في الجامع الأموي حوالي سنة 777 هـ وقد ألف في الفلك والأسطرلاب والمتلثات، وله زيج معروف باسمه انظر: قدرى حافظ طوقان، تراث العرب العلمي في الفلك والرياضيات، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2008م، ص 221.

^٣ صبح الأعشى، 1/477

^٤ المصدر نفسه، 477/1

مجلة الهند

كما لحظنا أن القلقشندى لم يورد المنطق ضمن أصناف العلوم التي ذكرت بالرغم من ذكرها عند ابن الأكفانى وربما يرجع ذلك لاتفاق القلقشندى مع من رأوا أن المنطق ليس علمًا لكنه آلة لغيره من العلوم.¹

ونخلص إلى أن القلقشندى في تصنيفه للعلوم لم يكن مجرد معدداً لفروع العلم، وإنما كان شمولياً لجميعها، دقيقاً في وصفه لها، محدداً لأبرز معارفها، من خلال الشواهد الممثلة لكل علم على حده. وأنه بتصنيفه هذا بلغ درجة عالية من تصنيف العلوم استفاد فيه ممن سبقة ولم يخجل من ذكر من استفاد منهم، كما حقّق غاية تصنيفه وهي إرشاد كتاب الإنشاء لطريقة الحصول بسرعة على الكتاب الذي يعينهم في عملهم في ديوان الإنشاء.

¹ إرشاد القاصد، ص 128

المصادر والمراجع

1. ابن الأكفاني: إرشاد القاصد، دار الفكر العربي، القاهرة، 1990م
2. أبو المحاسن جمال الدين ابن تفري الأتابكي الظاهري: المهل الصافي والمستوفي بعد الواقي (تحقيق: الدكتور محمد محمد أمين)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1984م
3. أبو بكر البيطار: كامل الصناعتين (تحقيق: دكتور عبد الرحمن إبريق)، حلب، 1993م
4. أحمد بن عبد الوهاب النويiri: نهاية الأرب في فنون الأدب (تحقيق: د. مفید قمیحه)، بيروت، دار الكتب العلمية، بيروت، 2004م
5. أحمد محمود عبد الجليل: تدوين العلوم في العصر العباسي، رسالة ماجستير، آداب عين شمس، 2004م
6. إسماعيل بن حماد: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار)، القاهرة، 1402هـ
7. جمال الدين محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ت.
8. الخوارزمي: مفاتيح العلوم، بيروت، 1989م
9. خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 2002م
10. خير الله سعيد: النظام الداخلي لجماعة إخوان الصفا، دار كنعان، دمشق، 2000م.
11. دور الكتب العربية العامة وشبها العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط، دار الفكر، بيروت، 1991م
12. الفارابي: إحصاء العلوم، بيروت، 1996م
13. فوزي خليل الخطيب: تصنيف العلوم، مؤسسة حمادة، إربد، 2003م
14. قدرى حافظ طوقان: تراث العرب العلمي في الفلك والرياضيات، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2008م

دورُ شرف "شمس العلماء" في نشر وتطوير اللغة العربية وآدابها

(العلامة محمد شبلي النعmani نموذجاً)

- د. أورنك زيب الأعظمي¹

مدخل: الحكومات لعبت دوراً ملماً وراء كل نمو أو تطور في كل عصر من عصور التاريخ البشري، ولو هي لم تقدم خطواتها لخيف أن تواجه البشرية قدرًا كبيرًا من التخلف في كل مجال من مجالاتها. هذا لا يعني أننا نقلّ أهمية دور الأشخاص المعدودين في هذا الشأن ولكن هذا من الواقع أنما قامت به الحكومات في أزمانها المختلفة من خدمات منظمة تجاه تقدّم البشرية لم يقم بها الرجال الخواص بل لا تتجاوز لو قلنا أن دور هؤلاء الرجال ضيق إلى حدّ بعيد بالنسبة لدور الحكومات وسعة نطاقها ولنا دليل قوي على دعوانا هذه في الخلافة العباسية التي منّت على البشرية ما لن ننساها إلى أبد الآباد فدور الحكومات له قيمة وأهمية ليس بإمكاننا أن ننساها أو نغفل عنها في أي شعبة من شعب حياتنا الاجتماعية أو الفردية.

والحكومة البريطانية قد حكمت على العالم لمدة طويلة حتى اشتهر فيها أن شمسها لا تغرب في العالم وهذا يعني أن حكمها امتدّ نطاقه حتى أحاط بدول العالم كلها إلا أنها واجهت ما واجهها كل الحكومات من الزوال والانحطاط وهذا أصل من أصول التاريخ أن لكل جواد كبوة ولكل عروج زوالاً.

¹ مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة الملكية الإسلامية، نيو دلهي، الهند

مجلة الهند

إن بريطانيا سلبت الحكم على الهند من المسلمين الذين حكموها لحوالي ألف سنة فحكمت عليها لمدة مائة سنة وهذه المدة أقل من المدة التي حظيت بها حكومة المسلمين وذهب بحكمها تيار الاستقلال الوطني ولكنها في غضون هذه المدة القليلة أددت خدمات جليلة لم يكدرؤدها المسلمون طوال حكمهم المتدلل لـألف سنة فخلفت ما خلفت ونستفيد من مآثرها اليوم فلها شكر منا معشر الهند.

وخدماتها هذه تتنوع وتتعدد في كل مجال من مجالات الحياة إلا أننا اليوم نتحدث عن خدماتها في أدب من الأدب بل في فرع من فروع الأدب وهو خدمتها في نشر اللغة العربية وأدابها في الهند عن طريق تفضيل مواطنها بشرف "شمس العلماء" وهذا الشرف كان يعادل بالجاذرة الوطنية الرئيسية في يومنا، وقد سُرّ بهذا الشرف من تفضل به وافتخر به في كل مجلس من مجالس القوم:

وهذا شرفنا فجئني بمثله إذا جمعتنا يا جير المجامع

تشرف به العديد من المواطنين الهنود وكان هذا الشرف يحتوي على العباء والعمامة وشهادة الشرف، وفيما يلي أسماء بعض الفائزين بهذا الشرف:

2. الشيخ عبد الحق الخيرابادي	1. المحدث ميان نذير حسين
4. البدوي نذير أحمد الدلهلوبي	3. الشيخ الطاف حسين حالي
6. اللغوي الكبير عمر بن محمد داؤد بوتا	5. المعلم الكبير الميرزا قليتش بيغ
8. محمد حسين آزاد	7. الشيخ العالمة مير حسن
10. الشيخ إله داد المهاري	9. الشيخ محمد نعيم الفرنغي محلبي
12. الشيخ ذو الفقار علي الكولكتاوي	11. الشيخ أمير أحمد النقوي السهسواني
14. العالمة شibli النعmani الهندي	13. الشيخ عبد الحق الكانفورى

مجلة الهند

ونوّد في هذه العجالة أن نتحدث عن الفائز الأخير بهذا الشرف ألا وهو العلامة محمد شibli النعmani الهندي ونري من خلال هذا الحديث درجته فيما بين معاصريه ونقوم بدراسة أعماله قبل فوزه بالشرف وبعد فوزه به ونكشف عن تقييم الحكومة أعمال شعيبا الجليلة والدور الذي لعبه هذا الشرف في تشجيع الفائزين به على تقديم أفضل وأكثر مما قدّموه من قبل.

لحة عن حياة العلامة محمد شibli النعmani وخدماته: العلامة محمد شibli النعmani الهندي (4/ يونيو 1857م - 18/ نوفمبر 1914م) ينتهي إلى بِندُول (Bindawal) إحدى قرى محافظة أعظم كره، (ولاية أوتار براديش، الهند). بدأ دراسته في 1863م على الحكيم عبد الله (ت 1890م) والشيخ شكر الله (ت 1897م) وبعدهما شدا من العلوم والفنون توجّه نحو غازيفور المحافظة المجاورة لمحافظة أعظم كره في 1873م ليستفيد من أستاذ الأستانة العلامة محمد فاروق التشيروكي (ت 28/ أكتوبر 1909م). وكذلك استفاد محمد شibli من الشيخ فيض الله المثوي (ت 20/ يوليو 1898م) كما نزل ل أيام معدودة في مدرسة جونفور ليستفيض من أستانتها. وفي 1874م سافر إلى رامبور وتلقى الفقه وأصوله على الشيخ إرشاد حسين الرامبور (ت 10/ نوفمبر 1993م) ومن هنا ارتحل إلى لاهور حيث استفاض من علامة الهند فيض الحسن السهارنفور الأديب (ت 1887م) وفي غضون هذه المدة أقام بدار العلوم في ديواند لشهر واستفاد من مكتبتها، ثم ذهب إلى سهارنفور في 1876م حيث تعلم الحديث النبوى على المحدث أحمد علي السهارنفورى (ت 11/ أبريل 1879م). وبعدهما أنهى دراساته الدينية العليا حجّ بيت الله الحرام وهو ولد لم يتجاوز عمره 19 سنة. وبجانب حجته لبيت الله الحرام استفاد من مكتبة المدينة المنورة الثرية.

وبعدهما رجع من الحج شرع يدرّس في محافظة فتح على يديه الإمام عبد الحميد الفراهي (11/ ديسمبر 1930م) والشيخ محمد سميع (ت 1916م) والشيخ محمد عمر (لم نعثر على سنة وفاته)، وفي 1880م أدى امتحان المحاماة فنجح فيه وفي نفس السنة ألف كتابه "إسكات المعتمدي على إنصات المعتمدي" الذي أطار صيته في الآفاق. ومنذ 1881م جعل يشتغل بخدمة المحاماة كما أصدر كتابه "ظل الغمام في مسألة القراءة

مجلة الهند

خلف الإمام". وفي نفس السنة لقي السير سيد أحمد خان (ت 1898 م) ومدحه في قصيدة عربية نشرت في مجلة كلية الشرقية. وفي يناير 1883 م انتسب بهذه الكلية كبروفيسور للفارسية وأستاذ مساعد للعربية. وفي 20/يونيو أسس مدرسة وطنية في أعظم كره، ترقّت وأصبحت كلية عالية حكومية وتعنى باللغة العربية وأدابها عنابة باللغة. وفي 1884 م بدأ كتابة "تاريخ بنى العباس" الذي لم يوفق له التمام.

وفي 1887 م ألقى مقالته الرائعة عن ثقافة المسلمين الزاهرة في مؤتمر إسلامي للتعليم في لكتناؤ كما ألقى كتابه الشهير "المؤمن" ومقالته الرائعة عن مساهمة المسلمين في نقل علوم الأجانب، وفي نفس السنة بدأ يدرس القرآن الكريم في كليته، وفي 1889 م كتب رسالته القيمة "الجزية" التي قال عنها السير سيد أحمد خان: لو عرض العالمة شibli رسالته هذه للمسلمين ثم تحدى "فأتوا بسورة من مثله" لما بالغ". وكذا أنهى الجزء الأول لكتابه "سيرة النعمان" في هذه السنة، وفي 1891 م رتب كتابه "تاريخ بدء الإسلام" بالعربية. وفي سنة 1892 م أنهى الجزء الثاني لكتابه "سيرة النعمان" كما كتب مقالته الشهيرة "مكتبة الإسكندرية" وفي 26/أبريل في هذه السنة بدأ رحلته الطويلة للبلاد العربية حيث لقي كبار علمائها وأدبائها ومفكّرها وزار مكتباتها الشهيرة. رجع من هذه الرحلة في شهر نوفمبر وكتب مقالتيه الشهيرتين "حقوق الذميين" و"المكتبات الإسلامية". وفي 17/فبراير 1894 م فضّلته الحكومة البريطانية بشرف "شمس العلماء" فكتب مقالته الشهيرة "رواج البيمارستانات في الحكم الإسلامي"، وحضر ندوة اتحاد العلماء في الهند في كانفور كما قام بوضع المنهج الدراسي للفارسية في جامعة الله آباد ثم استغل بأمور ندوة العلماء ودارها للعلوم بلكتناؤ. في 1898 م عين عضواً لمبئنة مراقبة المعارف في حكومة بوفال الإسلامية ثم أصابه المرض فاستقال عن كلية علي كره الإسلامية ورجع إلى داره في أعظم كره وجعل يؤلّف ويري تلامذته فأنهى كتابه الشهير "الفاروق"، وفي 1899 م قدم العالمة رشيد اسمه لإصلاح خطة التدريس في الجامع الأزهر بمصر كما وضع العالمة شibli اللغة الإنجليزية في المنهج الدراسي لندوة العلماء ثم صدرت له كتب ورسائل تترى بما فيها "الغزالى" و"علم الكلام" و"الكلام" كما عين مدير

مجلة الهند

تحرير مجلة "الندوة" الشهرية. في 17/ مايو 1907 م ذهبت إحدى رجليه ضحية رصاص أطلق خطأ من بندوقيته. في سنة 1908 م تم تأسيس مدرسة الإصلاح بسرای میر (أعظم كره) فأعان في قيامها ووضع منهاجها الدراسي. وفي نفس السنة صدر الجزء الأول لكتابه الشهير "شعر العجم" كما صدر ديوان شعره الفارسي الأول وهكذا عرّف العلامة بقسم اللغة الہندية والسنڌكريتية في ندوة العلماء. وفي 1909 م صدر له "مجموعة مقالاته عن عالمغير" و"جزآن لكتابه "شعر العجم" وديوان شعره الفارسي الثاني. في 1911 م ألف نقده الشهير على كتاب "تاريخ التمدن الإسلامي" لجرجي زیدان والذي قد أضرّ بإحدى عينيه، وفي 1912 م بدأ تأليف "سيرة النبي" الكتاب الذي تم في سبعة مجلدات والذي قال فيه العلامة يوسف القرضاوي في خطاب تلفزيوني: لما يصدر كتاب يماثله في العالم كله".

وفي 1913 م قدم اسمه للتدريس في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة وفي سنة 1914 م استقال عن ندوة العلماء إثر خلاف وقع بينه وبين مسؤولي الندوة. وفي 18/ نوفمبر لنفس السنة غربت هذه الشمس عن آفاق الدنيا تاركاً وراءه تلامذة بارعين ومدارس وكليات كبيرة ومؤلفات قيمة لا يوجد لها نظير في العالم كله¹.

مساهمة العلامة محمد شبلي النعماني في نشر اللغة العربية وأدابها: بدا من هذه اللمحـة أن العلامة محمد شبلي النعماني ساهم كثيراً في نشر اللغة العربية وأدابها مما قد خـلـد ذكره على صفحـات التاريخ العلمـي في الهند وخارجـها وفيـما يـلي بعض الأضـواء على مـساـهمـاتـهـ الجـليلـةـ في خـدـمةـ اللـغـةـ العـرـبـيـةـ وأـدـابـهاـ وـنـشـرـهاـ وـتطـوـيرـهاـ عـلـىـ المـسـتـوىـ الوـطـنـيـ وـالـدـولـيـ كـذـلـكـ.

ولمزيد التسهيل نقسم هذه المساهمات إلى خمسة مباحث نرى من خلالها مدى سعة نطاق مساهمات العلامة محمد شبلي النعماني في نشر اللغة العربية وأدابها وتطويرها على كل المستويين: الوطني والدولي:

¹ أخذنا هذه المعلومات كلها من ترجمته التي كتبها تلميذه العلامة سيد سليمان الندوى في 642 صفحة وهي أجمع ترجمة وأوثقها للعلامة شبلي النعماني

المبحث الأول: جهوده في إعداد المناهج الدراسية وإعادة النظر فيها

ولقد أسدى العالمة محمد شibli النعmani خدماته الجليلة لإعداد المناهج الدراسية والإصلاح فيها ل مختلف الكليات والجامعات والهيئات التعليمية، وهذه المناهج الدراسية تتعلق بنشر اللغة العربية وأدابها مباشرة أو بدون مباشرة. وهي كما يلي:

1. أول محاولة للعالمة شibli نجدها في هذا المجال هي بالنسبة ل كلية علي كره الشرقية التي أصبحت اليوم جامعة إسلامية تدرس اللغة العربية وأدابها بصورة منتظمة ومستقلة. قام العالمة شibli بإعداد منهاجها الدراسي¹ فأدخل فيه كتابه العربي "تاريخ بدء الإسلام"² كما ألزم على طلابها الكتابة والخطابة باللغة العربية وجعل يدرس القرآن الكريم لطلابها³، الأمر الذي خلق فهم ذوق تدبر القرآن والتفكير فيه وفوق ذلك قام بتدريس اللغة العربية لأستاذها المستشرق آرنولد.⁴
2. والمحاولة الثانية لهذا المجال نجدها حين إقامته مدرسة وطنية أصبحت اليوم كلية عالية وطنية وحكومية ولها قسم خاص باللغة العربية وأدابها.⁵
3. والمحاولة الثالثة هي المدرسة الدينية التي بناها في قريته والمشهور المعترف عن المدارس الإسلامية بالهند أن كلاً منها تدرس اللغة العربية وأدابها بصورة منتظمة فلا بد للعالمة شibli من أن يضع منهاجها الدراسي ويضمّ إلى موادها اللغة العربية وأدابها.⁶
4. والمحاولة الرابعة نجدها حين حضوره في المؤتمر التعليمي الإسلامي وتقديمه مقالته القيمة عن ثقافة المسلمين القديمة الزاهرة والتي كانت مبنية على أن ما قدم المسلمين من خدمات تعليمية لا تنكر ولا تنزع عن المناهج الدراسية الراهنة.⁷

¹ حيات شibli، ص 142

² المصدر نفسه، ص 142

³ المصدر نفسه، ص 143

⁴ المصدر نفسه، ص 136

⁵ المصدر نفسه، ص 132

⁶ المصدر نفسه، ص 133

⁷ مقالات شibli، 41-4/4

مجلة الهند

5. والمحاولة الخامسة هي خطابه القيّم في تعضيد التعليم القديم في 1892م بعلي كره.¹
6. زار البلاد الإسلامية ونظر في مناهجها الدراسية فاستفاد منها وطبقها في مناهج الهند الدراسية.²
7. عين مسؤولاً عن الأمور التعليمية لندوة العلماء ووضع منهاجها الدراسي وأكّد فيه على تعليم اللغة العربية الجديدة³ فكتب، على تشجيع منه، تلميذه السيد سليمان الندوبي كتاباً مدرسيّاً جديداً للغة العربية كما وضع معجمًا للغة العربية الجديدة.⁴
8. نصب اسمه من قبل العالمة رشيد رضا لإصلاح المنهاج الدراسي للجامع الأزهر.⁵
9. في 2/ مارس سنة 1898م حضر كعضو لجنة مراقبة المعارف لحكومة بوفال الإسلامية جلسة الإصلاح في منهاجها الدراسي وإصدار الإرشادات للأستاذة.⁶
10. وعمل كمشير على هيئة التعليم لحكومة حيدرabad الإسلامية.⁷
11. أقام مدرسة الإصلاح فوضع منهاجها الدراسي وهذه المدرسة نجحت في خلق كبار أساتذة اللغة العربية⁸ ومنهم الأستاذ محمد أسلم الإصلاحي عميد كلية اللغات لجامعة جواهر لعل نهرو (نيو دلهي).⁹
12. وأعدّ المنهاج الدراسي للجامعة العثمانية التي كان فيها 12 قسمًا للدراسات العربية والإسلامية.¹⁰

¹ آثار شibli، ص 30

² المصدر نفسه، ص 30-31

³ المصدر نفسه، ص 37

⁴ حياة سليمان، 33

⁵ آثار شibli، ص 35

⁶ المصدر نفسه، ص 34

⁷ المصدر نفسه، ص 36

⁸ ذكر فراهي، ص 372

⁹ فهرست المتخريجين في مدرسة الإصلاح المنصوب على جدار مكتبتها

¹⁰ آثار شibli، ص 40

مجلة الهند

13. وجعل عضواً لإصلاح المدارس لبنغال الشرقية وأسامٍ^١.
14. حضر المؤتمر التعليمي الإسلامي في دلهي وهنّا إقبال على تعيينه ترجماناً للمؤتمر وبشره بنبوغه غالباً^٢ آخر في الهند^٣.
15. نودي بقيام جامعة ناغفور وسائل العالمة شibli لتقديم معونته العلمية^٤.

المبحث الثاني: إقامة النوادي والمدارس وإصدار المجلات لترويج اللغة العربية وأدابها وتطويرها

ولقد قام العالمة شibli النعmani بتأسيس النوادي والمدارس والمجمعات التي نشرت اللغة العربية وأدابها كما أصدر مجلات أو أدار تحريرها والتي قامت بدورها بنشر اللغة العربية وأدابها ومنها ما يلي:

1. المدرسة الوطنية بأعظم كره: في 20 / يونيو 1883 م أسس مدرسة وطنية بمحافظته أعظم كره والتي أصبحت فيما بعد كلية وطنية عالية وحكومية وهي تدرس اللغة العربية وأدابها حتى البكالوريوس^٥ كما هي عقدت ندوات دولية حضرها علماء العرب^٦.
2. المدرسة الإسلامية في بندول: وفي نفس السنة أقام مدرسة إسلامية في قريته "بندول" ولنعلم أن المدارس الإسلامية في الهند مثل كليات وجامعات عربية وإسلامية وهي تعنى بالدراسات العربية والإسلامية وتخرج منها علماء كبار^٧.

^١ المصدر نفسه، ص 42

^٢ أسد الله خان غالب شاعر هندي للأردية

^٣ آثار شibli، ص 42

^٤ المصدر نفسه، ص 47

^٥ حیات شibli، ص 132

^٦ راجع لتقرير الندوة الدولية المنعقدة فيها: مجلة الهند، 3/1/4-715-735

^٧ حیات شibli، ص 133

مجلة الهند

3. لجنة الأدب: أقامتها فور وصوله إلى علي كره وهي كانت تعنى بتدريب الطلبة على الكتابة والخطابة بالعربية¹.

4. إخوان الصفاء: أسسها كذلك في رحاب كلية علي كره وهي كذلك اعنت بالكتابة والخطابة بالعربية² وهاتان الجتنان قد قرضاها عدة قصائد عربية بمناسبة تشرف العلامة شibli النعmani بـ"شمس العلماء"³ ومما يلي:

يا خير من يسمو إلى العلياء كالشمس بازغة بوسط سماء

قد كنت قدماً للمعلم إلى ساميَا
أورثته عن شيء الآباء

فلئن سموت إلى المكارم والعالي
فلقد نشأت بعزة قعساء

لا غرو نصل السيف إن يك صارماً
أو يستهل البرق باللآلاء

فلامنت بالعزمات سيف صارم
ولأنت برق لامع بذكاء

لاذت بجانبك العلوم فإنهما
لو لم تصنها آذنت بفناء

قد أملحت أرض العلوم وأصبحت
عرصاتها كسمائق البيداء

لعبت بهما هوج الرياح تنوبها
من كل عاصفة من النكاء⁴

5. ندوة العلماء: قام بوضع خطتها⁵ وهي الآن مثل "الجامع الأزهر" في الهند تعنى باللغة العربية الجديدة ومن المتخرجين فيها العلامة أبو الحسن علي الندوبي.

¹ ذكر فراهي، ص 122

² المصدر نفسه

³ راجع لهذه القصائد: مجلة الهند (العدد الخاص بحياة العلامة شibli وخدماته)، 3/4-1، 713.

⁴ حيات شibli، ص 256

⁵ المصدر نفسه، ص 350

مجلة الهند

6. الندوة: أصدر مجلة "الندوة" الشهرية التي كانت تنشر مقالات قيمة عن العرب ولغتهم والدراسات الإسلامية¹ ودرّب من خلالها المولانا أبا الكلام آزاد². كان العلامة شibli يدير تحريرها³.

7. في 1908م أعان في إقامة مدرسة الإصلاح في سرائِي مير (أعظم كره) والتي خدمت اللغة العربية كثيراً وجعلت القرآن مركزاً لكافة العلوم والأداب والفنون⁴ فتخرج منها علماء وأساتذة كبار خدموا في المراكز العلمية والجامعات ومنهم المحقق الكبير الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي⁵.

8. مجلس تأليف سيرة النبي: لتأليف موسوعة عن سيرة النبي ﷺ أقام مجلساً باسم "مجلس تأليف سيرة النبي" في 1912م⁶ والذي قد أتم ما بدأ به من تأليف "سيرة النبي" أحد أعضائه العلامة سيد سليمان الندوى⁷.

9. دار المصنفين: في شهر مارس سنة 1914م قدم خطة إقامة "دار المصنفين" لكي يخدم تحت رصيفها العلماء والباحثون العلوم والفنون⁸ والآن هي قائمة على ساقها ونشطة وعقدت مؤخراً ندوة دولية حضرها علماء العرب⁹ وهي أول وأخر

¹ المصدر نفسه والصفحة ذاتها

² المصدر نفسه والصفحة ذاتها

³ المصدر نفسه والصفحة ذاتها

⁴ المصدر نفسه، ص 523-525

⁵ قام الدكتور محمد أجمل بتحقيق العديد من كتب الإمام عبد الحميد الفراهي كما قام بتحقيق كتب الإمام ابن تيمية وجمع مقالات العلامة أبو محفوظ الكريم معصومي. له نقد قيم لإصلاح ما غلط به التميمي

⁶ آثار شibli، ص 43

⁷ العلامة سيد سليمان الندوى كان تلميذاً للعلامة شibli النعماني فألف كتبًا قيمة مثل "سيرة عائشة" و"العلاقات العربية-الهندية" وأكمل موسوعة "سيرة النبي".

⁸ آثار شibli، ص 47

⁹ مجلة الهند (العدد الخاص بحياة وخدمات العلامة شibli النعماني)، 3/415-715

مجلة الهند

مجمع هندي غير رسمي يخدم الدراسات العربية والإسلامية ومنها نشرت "أبو العلاء ماله وما عليه" و"جمهرة البلاغة" وأعمال أخرى قيمة¹.

10. مجلة "معارف" الشهرية: وفي النهاية رسم خطة مجلة علمية باسم "معارف"² وهي مجلة أفحمت اعترضات المستشرقين على الإسلام ورسوله وكتابه العزيز.

المبحث الثالث: تعليم وتربية العلماء والأساتذة البارعين للغة العربية

وآدابها

وبجانب جهوده في إعداد المناهج الدراسية وإعادة النظر فيها وإقامة النوادي والمدارس لنشر اللغة العربية وآدابها وترويجها وتطويرها فقد قام العلامة محمد شibli النعmani بتعليم وتربية نخبة من العلماء والأساتذة للغة العربية وآدابها والذين قد برزوا ونالوا شهرة دولية ومنهم من يلي:

أولاً: من علمهم ودرّبهم قبل حظوظه من شرف "شمس العلماء": ممن علمهم ودرّبهم من العلماء والأساتذة قبل حظوظه من شرف "شمس العلماء" نذكرهم بإيجاز مشارياً إلى خدماتهم لنشر اللغة العربية وآدابها وتطويرها:

1. الإمام عبد الحميد الفراهي	2. الشيخ محمد سميع
3. الشيخ محمد عمر	4. البروفيسور آرنولد
5. الشيخ شوكت علي	6. الشيخ محمد علي جوهر
7. الشيخ ظفر علي خان	8. السيد سجاد حيدر يلدريم
9. الشيخ محمد عبد الله	10. وغيرهم ممن تلمذ له في كلية علي كره الشرقية

والحديث عن خدمات هؤلاء الطلاب كلهم يقتضي صفحات طوالاً فنقصر

¹ لمزيد التفصيل راجع فهرست إصداراته

² آثار شibli، ص 47

مجلة الهند

كلامنا على الإمام عبد الحميد الفراهي فالإمام الفراهي يعتبر واعظ مدرسة خاصة في تفسير القرآن وكافة أعماله بالعربية وهي أكثر من 70 كتاباً. كان العلامة الفراهي شاعرًا للغات الثلاث: العربية والفارسية والأردية. له ديوان عربي وفارسي. وهو أول شاعر عربي في الهند قرض قصائد سياسية وإليكم بعض نماذجها:

قال في اعتداء القوات الإيطالية على طرابلس:

أعلمـنا بـطـ رـابـلسـ	كـيفـ الـقـرارـ وـقـدـ نـكـسـ
الـأـعـدـاءـ تـرـقـبـ الـخـلـسـ	كـيفـ الـقـرارـ وـحـولـنـاـ
بـيـنـ الـقـتـيـلـ وـمـنـ جـسـنـ	بـكـيـ عـلـىـ إـخـوـانـنـاـ
رـشـرقـنـ بـالـمـلـائـمـ الـلـسـنـ	نـبـكـيـ لـرـبـاتـ الـخـدـوـ
أـفـيـأـلـ وـنـ وـلـاـ نـحـسـنـ	هـمـ أـهـلـنـاـ وـعـشـرـيـنـاـ
كـمـ وـلـيـسـ بـمـلـبـسـنـ	هـلـ تـرـضـهـ وـنـ بـذـلـ دـيـنـ
مـادـامـ فـيـنـاـ مـنـ نـفـسـنـ ¹	وـالـلـهـ لـاـ نـرـضـهـ بـمـ

وقال أيضًا:

لـاـ تـرـقـأـنـ لـكـ المـدـامـعـ	يـاعـيـنـ بـكـيـ بـالـهـوـامـعـ
يـنـ تـطـحـطـحـثـ بـهـمـ الـقـوـارـعـ	قـتـلـىـ طـرـابـلـسـ الـذـ
أـهـلـ الـمـكـارـمـ وـالـدـسـائـعـ	بـكـيـ عـلـىـ إـخـوـانـنـاـ
تـكـ بـالـمـرـاكـبـ وـالـمـدـافـعـ	دـهـمـهـمـ الـمـرـومـ الـفـوـواـ
جـمـعـ الـضـوارـعـ فـيـ الشـوارـعـ	قـتـلـواـ الـمـرـاضـعـ فـيـ المـضـاـ

¹ ديوان المعلم عبد الحميد الفراهي، ص 17

مجلة الهند

حَلَمَ عَنِ الْعَدُوِّ وَاعْ	لَا دِينَ عَنِ الدِّهْنِ وَلَا
زُورًاً وَقَدْ رَفَضَ وَالشَّوَّافُ	يَبْدُونَ نَصْرَانِي
يُرْكِبُونَ مِنَ الشَّنَاعَةِ ^١	بَلْ يَشْمَّئِرُونَ الْكَفَرُ مَا

وثانيًا: من علمهم ودرّسهم بعد حظوظه من شرف "شمس العلماء": وكذا علم العلامة شibli النعmani ودرّب العديد من العلماء والأساتذة بعد حظوظه من شرف "شمس العلماء" وهم كما يلي:

1. السيد سليمان الندوبي	2. المولانا أبو الكلام آزاد
3. المولانا عبد الماجد الدرية باذمي	4. العلامة محمد إقبال خان
5. العلامة عبد السلام الندوبي	6. الشيخ مسعود عالم الندوبي
7. الشيخ سعيد الأنصاري	8. الشيخ عبد الباري الندوبي

والحديث عن كافة التلامذة أمر صعب للغاية فأقصر كلامي على العالمة سيد سليمان الندوى فهو من ولاية بهمار، وتنتهي شجرة نسبه إلى فاطمة الزهراء بنت الرسول صلى الله عليه وسلم، نال العلوم الابتدائية ثم التحق بندوة العلماء في 1901 م فتلقى العلوم النهائية على الشيخ عبد اللطيف السنہی لی والسيد علي الزینی والشيخ حفیظ الله الأعظمی والشيخ محمد فاروق التشریاکوٰتی ثم تلمذ للعلامة شبی النعمانی الذي دریبه خیر تدرب. ثم عمل في مختلف المیثات والکلیات مثل "الندوة" و"الهلال" و"کلیة بھوفال". زار العالم الإسلامی غیر مرة. أمدّ في تأسيس دار المصنفین في 1915 م وأتمّ ما بقی من مشاریع أستاذہ العالمة النعمانی ثم هاجر إلى باکستان في 1950 م حيث توفي. كان عالماً كبیراً للقرآن الكريم والسنۃ والتاريخ الإسلامي بجانب براعته في العربية والإنجليزية والفارسية والأردية وقرض الشعر بها. من مؤلفاته "سیرة عائشة" و"خيام" و"أرض القرآن" و"العلاقات الهندية-العربية" و"بحارة العرب".

¹ المصدر نفسه، ص 17

مجلة الهند

المبحث الرابع: كتابة المقالات والبحوث الرائعة المتعلقة باللغة العربية وأدابها

ولو أنما كتبه العلامة محمد شibli النعmani من المقالات العلمية والأدبية والفنية لا يحصى عددها وقد جمعها تلامذته في ثمانية مجلدات فنفضل أن نذكر بعضًا منها كما يلي:

أولاً: المقالات والبحوث التي كتبت قبل حظوظه من شرف "شمس العلماء"

الألف: المقالات المتعلقة باللغة العربية وأدابها مباشرة:

عنوان المقالة	الموضوع	عدد الصفحات
1. تعليم المسلمين الماضي	رغبة العرب المسلمين في العلوم لاسيما الترجمة من وإلى العربية	41-4/3
2. ترجم	تاريخ حركة الترجمة العربية عبر العصور الإسلامية	90-1/6

الباء: المقالات المتعلقة باللغة العربية وأدابها غير مباشرة:

عنوان المقالة	الموضوع	عدد الصفحات
1. المكتبات الإسلامية	ذكر المكتبات الإسلامية	141-122/6

وثانيًا: المقالات والبحوث التي كتبت بعد حظوظه من شرف "شمس العلماء"

الألف: المقالات المتعلقة باللغة العربية وأدابها مباشرة:

عنوان المقالة	الموضوع	عدد الصفحات
1. اللغة العربية	تاريخ اللغة العربية	3-1/2
2. فن البلاغة	البلاغة	12-4/2

مجلة الهند

27-13	بلاغة القرآن	3. جمهرة البلاغة
46-28/2	تاريخ الشعر العربي وأعلامه	4. شعر العرب
52-47/2	المقارنة بين الشعر العربي والفارسي	5. المقارنة بين الشعر العربي والفارسي
97-87/2	بحث عن صنائع الهند وبدائعها بالعربية	6. تحفة الهند
136-130/3	المقررات الدراسية في اللغة العربية	7. الندوة والمقررات الدراسية
140-137/3	البحث عن محسن ومناقص كتب النحو العربي	8. كتب النحو المتداولة
176-164/3	البحث عن إحياء العلوم العربية	9. إحياء العلوم العربية
15-13/4	ذكر بلاغة النساء العربيات	10. بلاغات النساء
126-115/4	دراسة تحليلية لكتاب المذكور آنفًا	11. النظر في السفر إلى المؤتمر
177-133/4	دراسة نقدية لكتاب المذكور آنفًا	12. كشف الستار عن تاريخ التمدن الإسلامي
4-2/5	ذكر أسماء رضي الله عنها	13. أسماء
74-63/5	الشاعر المتنبي	14. المتنبي
102-90/5	ذكر هذا العالمة الهندي	15. غلام علي آزاد البلغراوي
46-45/8	ذكر أستاذة العالمة محمد	16. غربت شمس أخرى

مجلة الهند

	فاروق التشرياكوتي	
55-53/8	الموضوع نفسه	17. نشر الكتب العربية القديمة
108-107/8	ذكره ومقرراته الدراسية العربية	18. جامع الأزهر

الياء: المقالات المتعلقة باللغة العربية وأدابها غير مباشرة:

عدد الصفحات	الموضوع	عنوان المقالة
2-161	ذكر الكلمات المتعلقة بكتابه القرآن	1. تاريخ ترتيب القرآن
27-12/1	ذكر بعض القراءات واختلافها	2. اختلاف المصاحف والقراءة
41-38/1	ذكر وجوه الإعجاز في القرآن	3. إعجاز القرآن
49-42/1	الأساليب العربية والقرآنية للإقسام	4. إقسام القرآن
75-73/1	ذكر تدوين الكلام العربي	5. كيفية تدوين القرآن
78-76/1	ذكر الكتابة بالعربية	6. الكتابة
124-108/1	إثبات أن الحجاب كان عاماً في العرب	7. الحجاب في الإسلام
231-221/1	تحقيق كلمة الجزية	8. الجزية
163-153/3	إعادة النظر في المقررات	9. الجامعة الشرقية لريادة

مجلة الهند

	الدراسية العربية	حيدرabad
155-142/6	ذكر الترجمات العربية	10. البيمارستانات والحكومات الإسلامية
92-80/7	ذكر البلاغة العربية	11. جلسة ندوة العلماء السنوية
72-68/8	ذكر مؤلفات البلاغة	12. جلسة ندوة العلماء

المبحث الخامس: تأليف الكتب المتعلقة باللغة العربية وأدابها

أولاً: الكتب التي ألّفت قبل حظوظه من شرف "شمس العلماء"

عنوان الكتاب	اللغة التي كتب فيها	موضوع الكتاب
1. إسكات المعتمدي على إنصات المعتمدي	العربية	هذه الرسالة باللغة العربية وهي أول إنتاج علمي للعلامة شibli النعماني، موضوعها وجوب إنصات المقتدي لدى قراءة الإمام في الصلوات الخمس. طار صيت هذه الرسالة في الآفاق حتى قد وجدتها العلامة شibli حينما زار تركيا وهي التي أعادته خلال القيام بها. نشرت فيها أبياتها العربية الأولى.
2. ظل الغمام في مسألة القراءة خلف الإمام	الأردية	هذه الرسالة باللغة الأردية وهي تنطق عما نطق عنده الرسالة الأولى، لغتها سهلة وهي الآن نادر وجودها. ناقش فيها العلامة عن

مجلة الهند

<p>الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وروايات الصحابة، وهي خير شاهد على براعة العلامة شibli النعmani في اللغة العربية وتفقهه في علوم الدين.</p>		
<p>هذا كتاب قيم للعلامة شibli النعmani في سيرة الخليفة العباسى مأمون الرشيد. جزءه الثاني الذى يتحدث عن قدر المأمون الثقافى وخدماته العلمية والأدبية قيم إلى حد بعيد. لو أجد كتاباً يضاهيه فى الموضوع. قمت بترجمته العربية.</p>	الأردية	3. المأمون (جزءان)
<p>هذه الرسالة باللغة العربية وهى تناقش كلمة "الجزية" المستخدمة في اللغة العربية ومن ثم تردد على اعترافات المستشرقين بأن المسلمين هم الذين أجبروا شعوبهم غير المسلم على أداء الجزية لكي يدخلوهم عنوة في الإسلام. تمت ترجمتها إلى الإنجليزية.</p>	العربية	4. الجزية
<p>هذا الكتاب القيم يتحدث عن سيرة النعمن وتفقهه. جزءه الثاني الذى يتحدث عن عربية النعمن وتفقهه قيم وفائق النظير.</p>	الأردية	5. سيرة النعمن (جزءان)
<p>هذه الرسالة باللغة العربية وتبيّن</p>	العربية	بدء تاريخ

مجلة الهند

<p>تاريخ الإسلام في بداية عهده. أعدّها العالمة شibli في ضوء المصادر الأولى وزاد قيمتها بنقل الآيات العربية والرسائل النبوية والاتفاقيات المعقودة في أوقات مختلفة.</p>	<p>الإسلام</p>
---	----------------

وثانيًا: الكتب التي ألفت بعد حظوظه من شرف "شمس العلماء"

عنوان الكتاب	اللغة التي كتب فيها	موضوع الكتاب
1. سفرنامہ روم ومصر وشام	الأردية	هذه قصة رحلته الطويلة للبلاد العربية وتحتوي على معلومات قيمة عن العرب ولغتهم وثقافتهم ولاسيما تقدمهم العلمي أو تخلفهم في مجال التعليم. إنها كذلك تخبر عن وجود مخطوطات قيمة في مكتباتهم الرسمية وغير الرسمية.
2. الفاروق (جزاءان)	الأردية	هذه موسوعة الخليفة الثاني عمر الفاروق رضي الله عنه. لم يُؤلف كتاب مثله. ترجم إلى الإنجليزية والعربية.
3. رسائل شibli	الأردية	هذه مجموعة بعض مقالاته المنشورة في الدراسات العربية والإسلامية.
4. شعر العجم (5)	الأردية	هذا كتاب أردو يتحدث عن تاريخ

مجلة الهند

<p>الشعر الفارسي وأعلامه الإيرانيين والهنود. بحث فيه العلامة عن تأثير الشعر العربي على الشعر الفارسي وترجمته عليه. مبحثه "الموازنة بين الشعر العربي والشعر الفارسي" قيم للغاية.</p>	أجزاء)	
<p>هذه كمثل موسوعة للإمام الغزالى.</p>	الأردية	5. الغزالى
<p>هذا يتحدث عن تاريخ علم الكلام ومساهمة المسلمين العرب والعجم فيه.</p>	الأردية	6. علم الكلام
<p>هذه إعادة النظر في فن علم الكلام وتوسيعه إلى الاحتجاج بالقرآن الكريم والحديث النبوي وأقوال الصحابة الكرام رضي الله عنهم.</p>	الأردية	7. الكلام
<p>هذه دراسة بدئعة لفلسفة المولانا الرومي.</p>	الأردية	8. سوانح مولانا روم
<p>في هذا الكتاب أثبتت العلامة شبلي ثقافة السلطان عالمغير كما ردّ على كافة الاعتراضات التي أوردها عليه المستشرقون والعلماء الهنود.</p>	الأردية	9. مضامين عالمغير
<p>هذا إثبات أن الوقف على الأولاد مشروع في الإسلام ولا معنى لإلغاء الحكومة البريطانية له.</p>	الأردية	10. وقف على الأولاد

مجلة الهند

<p>هذه دراسة مقارنة للشاعرين الكبارين للأردية في الرثاء.</p>	الأردية	11. موازنة أنيس ودبیر
<p>هذه دراسة نقدية فاقدة النظير لكتاب "تاريخ التمدن الإسلامي" لجري زيدان. نشرت أولاً في الهند ثم في مجلة "المنار" في صورة حلقات. أثني عليها العلامة رشيد رضا المصري.</p>	العربية	12. الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلام
<p>هذه موسوعة عن سيرة النبي لم يوجد لها نظير حتى الآن في كافة أنحاء العالم. كتب العلامة شibli النعmani جزئيه ثم وافته المنية قبل إتمامه إلا أنه قد رسم خطته فأتمها تلميذه العلامة سيد سليمان الندوى كاتب "ترجمة شibli".</p>	الأردية	13. سيرة النبي (7 أجزاء)
<p>هذه مجموعة خطبه التي ألقاها ب مختلف المناسبات.</p>	الأردية	14. خطبات شibli
<p>هذه مجموعة رسائله وهي في الواقع موسوعة علمية لأتها تحتوي على معلومات جمة عن اللغات والأداب لاسيما العربية وأدابها.</p>	الأردية	15. مكاتب شibli (جزءان)

مجلة الهند

ملخص المقالة: بدا من هذه الدراسة العاجلة أن العالمة محمد شibli النعmani الهندي تعلم على كبار أساتذة عصره ثم خدم الكليات والمعاهد والهيئات العلمية المختلفة كما أنشأ العديد منها ودعمها ولم يأل أي جهد في تطويرها والعناية بها وكذا ألف كتاباً ورسائل قيمة لم يصدر مثلها في العالم كله وهي بالفعل ترجمت إلى اللغات المحلية والعالمية بما فيها اللغة الهندية والإنجليزية والعربية، وأما مقالاته وبحوثه فهي أيضاً قيمة وبعضها تعادل الرسالة العلمية من مثل "ترجم" في مائة صفحة و"مكتبة الإسكندرية" في ثمانين صفحة. إنها أيضاً ترجمت إلى اللغات المحلية والعالمية من مثل الهندية والإنجليزية والعربية. وقد حاول جهده لكي يدفع عن الإسلام وأتباعه ويرد على الاعتراضات والحملات الواردة على الدول العربية والإسلامية. ردوده المفخمة على انتقادات المستشرقين تفقد نظيرتها في العلم والاستدلال ولاسيما كتابه بالعربية "الانتقاد على تاريخ التمدن الإسلامي" لجري زيدان وهذا كتاب لم يقدم عدليه حتى الآن لا في الهند ولا في البلاد العربية والإسلامية. وفوق تلك أن كتاباته تتتنوع علمًا وفنًا فقد كتب عن الأدب العربي والأدب الفارسي والأدب الأردوبي كما ألف عن القرآن الكريم والحديث النبوي والفقه الإسلامي والكلام وتاريخه والمنطق والفلسفة والعلوم الجديدة، وكل كتاباته تحلى باللغة الفصحى وهو يعتبر ركناً من أركان الأدب الأردوبي، وبالجملة فقد كان العالمة شibli عالماً كبيراً وأديباً بارعاً وناقداً شهيراً ومفكراً معروفاً وماهراً في التعليم وفوق تلك أنه كان يجب العرب الذين كانوا حاملي الإسلام إلى البلاد الأخرى الدانية والنائية وهكذا إنه لم يؤخر أي خطوة للدفاع عن مصدر الإسلام وأتباعه ومن تعلق به.

المصادر والمراجع

1. الدكتور شرف الدين الإصلاحي: ذكر فراهي (ترجمة الإمام الفراهي)، الدائرة الحميدية، سرائى مير، أعظم كره، 2001م
2. الدكتور محمد إلياس الأعظمي: آثار شibli، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2013م
3. السيد سليمان الندوى: حیات شibli (ترجمة العلامة محمد شibli النعماني)، دار المصنفين، أعظم كره، 2008م
4. الشاه معین الدین الندوی: حیات سليمان (ترجمة العلامة السيد سليمان الندوی)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1973م
5. الشیخ رحمن علی: تذکرہ علماء هند (ترجمة اردویہ: محمد ایوب القادری)، مؤسسة باکستان التاریخیة، کراتشی، باکستان، 1961م
6. العلامة محمد شibli النعماني: مقالات شibli (ترتيب: العلامة سید سليمان الندوی، المجلد الأول)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2010م
7. العلامة محمد شibli النعماني: مقالات شibli (ترتيب: العلامة سید سليمان الندوی، المجلد الثاني)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2012م
8. العلامة محمد شibli النعماني: مقالات شibli (ترتيب: العلامة سید سليمان الندوی، المجلد الثالث)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2009م
9. العلامة محمد شibli النعماني: مقالات شibli (ترتيب: العلامة سید سليمان الندوی، المجلد الرابع)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 1956م
10. العلامة محمد شibli النعماني: مقالات شibli (ترتيب: العلامة سید سليمان الندوی، المجلد الخامس)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2007م
11. العلامة محمد شibli النعماني: مقالات شibli (ترتيب: العلامة سید سليمان الندوی، المجلد السادس)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2009م

مجلة الهند

12. العلامة محمد شibli النعmani: مقالات شibli (ترتيب: العلامة سيد سليمان الندوى، المجلد السابع)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2007م
13. العلامة محمد شibli النعmani: مقالات شibli (ترتيب: العلامة سيد سليمان الندوى، المجلد الثامن)، دار المصنفين، أعظم كره، الهند، 2010م
14. فهرست المتخريجين من مدرسة الإصلاح (مخطوط)
15. مجلة "ثقافة الهند" الفصلية الصادرة عن المجلس القومي للعلاقات الثقافية، نيو دلهي، الهند
16. مجلة الهند الفصلية الصادرة عن مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال ترست، بنغال الغربية، الهند

مجلة الهند - - - - -

إسهام ملفوظات الشيخ أحمد السرهندي في إصلاح الفكر الإسلامي للادارة المغولية، "المكتوبات الربانية" نمؤذجاً

د. صاحب عالم الأعظمي الندوي^١

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين،
المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واتبع هداه بإحسان إلى
يوم الدين.

أَمَا بَعْدُ:

فمن المعلوم تاريخياً أن للنصيحة والإرشاد والإصلاح شأنًا عظيمًا في حياة الملوك والسلطانين في التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية؛ وذلك منذ العهد النبوى، ووردت في ذلك أحاديث جامعية تبيّن مفهوم الإصلاح والنصيحة الشرعية وحدودها، رواها الصحابة والتابعون ثم العلماء والصوفية في العصور التاريخية الإسلامية. وكانت الغاية المرجوة من نشر ثقافة الإصلاح والنصيحة والإرشاد تقويمُ الملوك والسلطانين دينياً وفكرياً وخلقياً واجتماعياً مع بذل ما يستطيع في إرشادهم للقيام بواجبهم وما ينفعهم وينفع الناس، معتبرين الإصلاح والنصيحة والإرشاد عماد الدين، وقد حذرت الشعوب حنوا الملوك والأمراء في ذلك، ومن المعلوم أن الشعوب على دين ملوكها.

وقد دخلت ثقافة عملية الإصلاح والنصيحة والإرشاد مع الثقافة الإسلامية الأخرى إلى كل البلدان التي دخلها المسلمون عبر قنوات الصوفية والتجارة الدولية أو من

باحث أكاديمي من الهند^١

خلال الفتوحات الإسلامية، ومن هذه البلدان الإسلامية شبه القارة الهندية التي حكم المسلمين فيها ثمانية قرون متتالية، و منحت الثقافة الإسلامية للهند والهندو من خلال الدول الإسلامية والإمارات الإسلامية المستقلة طيلة هذه الفترة المذكورة أعلاه؛ أحسن ما عندها من الدين والعقيدة والأخلاق الحسنة كما طورت العلوم الهندية ونشرتها بين عامة الناس والتي كانت حكراً للملوك ورجال الدين.

والصوفية الذين أسهموا في مجال الإصلاح والنصيحة والإرشاد من خلال ملفوظاتهم ومكتوباتهم في العصور الإسلامية لا سيما في عصرى سلطنة دهلي والدولة المغولية؛ كثيرون معظمهم قاموا بذلك مع الإخلاص الكامل متجردين عن الهوى والأغراض الشخصية والنوايا السيئة التي قد تحبط الأعمال، مع استخدام طرق الرفق والحكمة والبصيرة مع اختيار أسلوب النصح المتزن بعيد عن الانفعالات وانتقاء الكلم الطيب والوجه البشوش والصدر الربح، واختيار الزمان والمكان المناسب لنجاح عملية الإصلاح والنصيحة والإرشاد.

ويعتبر الشيخ الصوفي أحمد السرهندي رحمة الله المتوفى 1033هـ/1624م من الشخصيات المعروفة بين الشخصيات الصوفية الهندية الذين كان لديهم رؤية واضحة حيال الدين الإسلامي، وبذلوا مجهدًا طيباً في نشر الفكر الإسلامي الصوفي وترويجه في ربوع الهند، بجانب بذل السعي الحثيث لتقويم الوزراء والأمراء والملوك دينياً وفكرياً وثقافياً من خلال تقوية العلاقات عبر السماح لهم بالحضور في الجلسات العلمية والدينية الخاصة وال العامة، وإرسال الرسائل إليهم لإصلاح أحوالهم الدينية والفكرية. وعلى الرغم من أن تقوية العلاقات مع الأمراء والسلطات الحكومية كان أمراً مثيراً للجدل بين الطرق الصوفية لا سيما الطريقة الجشتية، ولكن الطريقة النقشبندية - منذ نشأتها وقبل وصولها إلى الهند - قامت بتوطيد العلاقات مع الأمراء والوزراء والملوك، وأدت دوراً كبيراً في مجال السياسة.¹ ومن هنا لم يجد الشيخ السرهندي نفسه معزولاً عن الشؤون السياسية. فقد أدى دوراً مهماً في السياسة

176-158، ص State and Culture in Medieval India¹

المغولية. وكان يعتبر السياسة جزءاً مهماً من الدين الإسلامي مثل أسلافه من الطريقة النقشبندية لا سيما خواجة عبيد الله الأحرار المتوفى 1490هـ/1036م.¹ وقد عبر الشيخ أحمد السرhenدي عن ذلك في إحدى رسالاته قائلاً: "اعلم أن السلطان في الدنيا، كالقلب في البدن، فإذا صلح القلب صلح الجسد، وإذا فسد القلب فسد الجسد، كذلك صلاح السلطان صلاح الدنيا وفساده فساد الدنيا...".² ومن أهم أعمال الشيخ السياسية أنه اختار منهجاً خاصاً لإقناع العلماء، والصوفية³، والأمراء، حتى السلطان جهانگیر المتوفى 1627هـ/1036م نفسه وكان معاصراً له؛ بإصلاح أحوالهم الدينية والفكرية والسياسية، وذلك عبر ملفوظاته التي سطرها في الرسائل وكان يبعث بها إلى هؤلاء النخبة. وقد توجه إليهم بجدية تامة مع بذل المجهودات كافة عبر القنوات العديدة لتحسين الأوضاع الدينية والفكرية في الهند.

وهكذا مجموعة ملفوظاته المنشورة في المكتوبات الربانية مليئة بأمثال النصائح والإرشادات والإصلاح الصادرة عنه حيال الأمراء والوزراء والسلطان نفسه. وتعتبر هذه الملفوظات وثيقة تاريخية لدراسة الحياة السياسية والدينية والفكرية والاجتماعية في ذلك الوقت. وسأبحث من خلال تلك الملفوظات عن دور الشيخ أحمد السرhenدي في تقويم النخبة السياسية والإدارية للدولة المغولية لنشر الفكر الإسلامي الصحيح وإخراج الإدارة المغولية وسلطانها وأمرائها والشعب المسلم الهندي نفسه من البدع والخرافات واللادينية إلى الإسلام السليم والقويم. ويعد الشيخ أحمد السرhenدي من أكبر المصلحين في ذلك الوقت بل يعتبره كثير من الباحثين من مجده الإسلام بسبب دوره الكبير في تجديد الدين الإسلامي وإحياء السنة النبوية وإصلاح المجتمع الهندي وتقويم الإدارة المغولية دينياً وفكرياً وسياسياً واجتماعياً.

¹ 177-174/2. A History of Sufism in India

² راجع: مكتوبات الإمام الرباني، المجلد الأول، رقم المكتوب: 47.16.

³ عن قيامه بتقويم الصوفية وإصلاح الفكر الصوفي راجع الكتاب التالي:

Muhammad Abdul Haq Ansari: Sufism and Shari'ah: A Study of Shaykh Ahmad (Islamic Foundation U.K. 1986)., Sirhindi's Effort to Reform Sufism

مجلة الهند

هذا وسيتضمن البحث النقاط التالية:

1. أهمية الملفوظات في دراسة التاريخ.
2. تعريف موجز بالطريقة النقشبندية وأعلامها.
3. ترجمة وجيزة للشيخ أحمد السرهندي.
4. الوضع الديني في عهد الشيخ أحمد السرهندي ومنهجه في عملية الإصلاح والإرشاد.
5. جهود الشيخ أحمد السرهندي في إصلاح السلطان وأركان الدولة، الأمراء والوزراء وغيرهم.
6. الخاتمة والنتائج.
7. قائمة المصادر والمراجع.

المبحث الأول: أهمية الملفوظات في دراسة التاريخ والحضارة الإسلامية

تعريف لغوي لكلمة "ملفوظ": جاءت كلمة "ملفوظ" من الكلمة العربية "لفظ" بمعنى "نطق به"، ومنها الكلمة "لفظ" ما يلفظ به من الكلمات جمعها ألفاظ. ويقال لفظ الشيخ بالكلام أي نطق به وتكلم. والآية القرآنية تقول: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدِيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} {18}. ومنها الكلمة "ملفوظ" يعني ما يلفظ به من الكلام. ويقال أيضاً "حرف ملفوظ أي منطوق أي ينطق به. ولكلمة "ملفوظ" معنى آخر في اللغة العربية ألا وهو "مطروح"¹!".

هذا، وقد صارت الكلمة "ملفوظ" أو "ملفوظات" من مصطلحات الآداب الصوفية. وهو شامل لكل ما يعني من النصائح والإرشاد والإصلاح التي قام بها الصوفية في تاريخهم الطويل من خلال مجالسهم الخاصة وال العامة، وإلقاء الكلمة على السلاطين والإداريين والعلماء والصوفية شفويًا أو مكتوبةً من خلال إرسال المكتوبات الدعوية. ومعظم الصوفية في الهند خلال عصر سلاطين دهلي اختاروا منهجه شفويًا لإلقاء

¹ راجع كلمة "لفظ" في المعجم الوجيز، ص 560

مجلة الهند

كلمتهما الدعوية على الخاصة وال العامة وعلى تلاميذهم للتربية والتعليم، ولكن ما كانوا يمنعون تلاميذهم و مریديهم من تسجيل ما كانوا ينطقون به.¹ ثم تطور هذا المنهج في عصر الدولة المغولية لدى بعض الصوفية الذين فضّلوا الملفوظات المكتوبة في صورة الرسائل والمكتوبات على الملفوظات الشفوية. ومنهم على سبيل المثال الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى، والشيخ أحمد السرهندي وغيرهم.

وقد يتعرض البعض على أن المكتوبات ليس لها علاقة بالملفوظات فهما مصطلحان مختلفان من ناحية البنية اللغوية. والجواب على ذلك أنه علينا أن ننظر فيما من ناحية المقاصد. وطبعاً لا يعنينا هنا كباحثين في التاريخ والحضارة التفاصيل في توضيح هذه المصطلحات لأن لها فرسانها من اللسانيين ونقاد الأدب وأهل الدراسات اللغوية. وهناك كثير من الباحثين عالجووا هذا المصطلح للتفرق بين اللسانيات التلفظية واللسانيات الخطابية. ووصلوا إلى النتيجة أنها واحدة في المعنى والانسجام.² وعلى كل لو أنعمنا النظر في مقاصد الملفوظات لوجدناها أنها كانت تهدف إلى التربية والتعليم بالدرجة الأولى عند الصوفية شفوية كانت أم مكتوبة في صورة الرسائل. ومن هنا نستطيع أن نقول إن الملفوظات تضارع تماماً المكتوبات والرسائل والخطابات والحكم كتها الشيخ بنفسه أو سجلها أحد تلاميذه مثلاً.

أهمية الملفوظات في دراسة التاريخ: والسؤال الذي يطرح الآن هو عن أهمية الملفوظات في دراسة التاريخ؟ أي هل هناك فعلاً أهمية خاصة للملفوظات لدراسة تاريخ دولة ما ووضعها السياسي والديني والثقافي والاجتماعي؟ وإلى أي مدى توفر لنا

¹ ومن أهم كتب الملفوظات المؤثرة للمشايخ الجشتية "خير المجالس"، و"فوائد الفوائد"، و"سرور الصدور"، و"أحسن الأقوال"، و"نفائس الأنفاس"، و"جوامع الكلم"، و"أنوار العيون"، و"لطائف قدسي"، وفخر الطالبين" و"نافع السالكين" وغيرها. عن الآداب الجشتية الصوفية راجع: تاريخ مشايخ جشت، ص 447-444

² راجع مقالة علمية لعز الدين الناجي: مقاربة تداولية لحكمة عطائية، في دورية "الخطاب" المحكمة الصادرة عن جامعة مولود معمري، تizi وزو، الجزائر. العدد الثالث مايو عام 2008م،

مجلة الهند

الملفوظات المواد العلمية لعملية الدراسة والوصول إلى النتائج المرجوة؟ ولا شك أنها مادة غنية وثيرة للغاية لمعالجة الجوانب الدينية والسياسية والاجتماعية والثقافية للدول الإسلامية لا سيما شبه القارة الهندية. ويستطيع الباحث معالجة هذه الجوانب المذكورة والوصول إلى كثير من الحقائق الصحيحة معتمداً على الآداب الصوفية لكونها دونت وسجّلت بعيداً عن الهوى الخاص وعن المقاصد السياسية وتحت ضغوط أو عواطف سياسية.

ومن هنا يمكن الباحث من الدراسة الوافية للتطورات الدينية والسياسية معتمداً على الملفوظات التي توفر للباحث مادة دسمة لدراسة هذه الجوانب المذكورة أعلاه، لأن أكبر عائق أمام الباحثين والدارسين باللغة العربية وحتى باللغات الهندية المحلية عن المظاهر الحضارية الهندية بما فيها الحياة الدينية والاجتماعية والثقافية والسياسية لا سيما طبيعة العلاقات بين الصوفية والعلماء والسلطانين هي الكتب المعاصرة التي دونت معظمها تحت رعاية وإشراف الدولة أو قام بذلك بعض الإداريين المنتسبين إلى النزعات الدينية والسياسية الخاصة، والمؤرخين الرسميين الذين لا تشفي كتبهم التاريخية الغليل خصوصاً حول الحقائق عن العلاقات بين الشعوب والأعراق وبين السلطانين والشريائع الأخرى. لأنها هي قائمة في الجملة على تاريخ ملوكها وحكامها، أما الشعب فليس له حساب عند أكثر هؤلاء المؤرخين الرسميين.

ومن المعلوم تاريخياً أن الباحث الذي يعرض لتفسير الحياة فيها لا يستطيع قط أن يفهم تاريخ الدول بما فيها الهند بطبيعتها على وجهها الصحيح قبل أن يتناول بالدراسة المفصلة كل ما مرّ بأهلها من حركات دينية وحضارية. ومن هنا إلى جانب المصادر الرسمية التاريخية هناك مصادر معاصرة أخرى تعطي معلومات قيمة حول تاريخ الهند وحضارتها وثقافتها ألا وهي كتب الملفوظات والمكتوبات أي الرسائل وكتب الحوار وكتب التراجم وغيرها، والتي دونها تلامذة الصوفية ومريديها.

وهناك عشرات من المؤلفات في هذا المجال والتي تعالج الجوانب الدينية والاجتماعية بل والسياسية أيضاً تتعلق بعضها بعصر سلطنة دلهي وبعضها تتعلق بالدولة

مجلة الهند

المغولية. وهي تعتبر من أهم الكتب التي يمكن للباحث والدارس أن يعتمد عليها لدراسة الحياة الاجتماعية والدينية بل والسياسية ومواقف الصوفية من السلاطين والعكس، لأنها تعطي المعلومات القيمة للوصول إلى النتائج العلمية الصحيحة، وإلى جانب ذلك تعدّ أوثق مصدر لإلقاء الضوء على النشاطات الصوفية.

المبحث الثاني: تعریف موجز للطريقة النقشبندية وأعلامها

طريقة خواجگان: تنتهي الطريقة النقشبندية إلى طريقة خواجگان التي أسسها خواجة أبي الشيخ أبو يعقوب يوسف الهمداني المتوفى عام 535هـ/1140م. وقد تلقى الخواجة تعليمه في بغداد، ثم استقر في مرو وهرات، وتوفي في مرو.¹ وكان له أربعة خلفاء قاموا بتطوير هذه الطريقة ونشرها وترويجهما.² ومنهم الخواجة أحمد عطاء اليسوي المتوفى عام 561هـ/1166م،³ الذي يعدّ بعض الباحثين من المؤسسين الحقيقيين لهذه الطريقة الصوفية.⁴ وقد أطلق عليه الصوفي الخواجة فريد الدين عطار لقب "پیر تركستان".⁵ وعلى كل كان ملوك دول آسيا الوسطى يحبّونه ويقدّروننه جدًا. وتقديرًا له قام ملك تيمور بناء ضريحه في كازاخستان وسجل ذلك في وقائعه.⁶ وينسبون طريقة خواجگان إلى أربع شخصيات تاريخية، أولها حضرة الخضر عليه السلام، ثانية الشیخ جنید البغدادی، ثالثها حضرة بايزید البسطامي الذي وصلت

¹ لترجمته راجع نور الدين محمد عبد الرحمن جامي: *نفحات الأننس* (ترجمة أردية)، ص 406-408

² A History of Sufism in India 95/1

³ وهؤلاء الخلفاء هم الخواجة عبد الله برقي، والخواجة حسن اندتی، والخواجة أحمد اليسوي، والخواجة عبد الخالق الغجدواني. وقد غادر الخواجة أحمد اليسوي لتركستان مشيرًا على مريديه لتفعيل نشاطاتهم الصوفية تحت رعاية الشیخ الخواجة عبد الخالق الغجدواني وإشرافه. راجع جامي: *نفحات الأننس*، ص 408

⁴ State and Culture in Medieval India 159

⁵ راجع: منطق الطير، ص 182-183

⁶ ويقول ملك تيمور: "حضرت صاحب قران به قريه يسى بزيارت شیخ احمد یسوی توجه فرمود----وبه تعمیر آن مزار مبارک اشارت عالی ارزانی داشت وعمارت معتر اساس اند اختند." راجع: ظفرنامه یزدی، ص 9-10

مجلة الهند

إليه النسبة من طرف حضرة علي كرم الله وجهه، ورابعها حضرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومن هنا يطلق عليه "نمك مشايخ" أي ملح المشايخ.¹

هذا، وقد قام بعد موت المؤسس الحقيقي لهذه الطريقة خواجة عبد الخالق بن عبد الجميل الغجدواني المتوفى 574هـ/1179م، بترسيخ دعائم هذه الطريقة إلى أن جاء خواجة بهاء الدين نقشبendi المتوفى 791هـ/1389م،² وبذل مجهوداً كبيراً في نشر وترويج أفكار هذه الطريقة وبسبب تأثيره البالغ تغيير اسم هذه الطريقة الخواجگانية إلى الطريقة النقشبندية التي انتشرت فيما وراء النهر وأسيا الوسطى والهند من خلال تلامذة الشيخ المذكور، وتركث أثراً محموداً في الأسرة التيمورية التي حكمت الهند بعد سقوط سلطنة دهلي.³

¹ راجع: مشايخ نقشبندية مجددية، ص 108

² محمد بن محمد بهاء الدين البخاري ولد في عام 717هـ/1317م، بقرية على بعد فرسخ من بخاري، يطلق عليه "كشك هندوان" والذي عرف فيما بعد باسم "كشك عارفان". وأخذ العلم والتصوف من كل من علاء الدولة عبد الخالق الغجدواني، ومحمد بابا السماوي، وبعد وفاة الأخير عين تلامذته النقشبند خليفة للسماس. وكان له جولات وصلوات في هذه المنطقة وكان على صلة وثيقة بملوك وسلطانين هذه المنطقة. وكلمة نقشبند فارسية الأصل، وهي تعني حرفيًا أثر النقش، ومجازًا عالمة سلوك الطريق. ويفسر المؤرخون اسمه "نقشبند" بـ"نقاش" على أن معناه على حسب بعض المؤرخين "رسم صور منقطعة النظير لعلم الله". لترجمته راجع: الموسوعة الإسلامية الميسرة، 1222-1233هـ/2-1222م، ويقول بعض الباحثين إنه لقب بهذا اللقب لأنه أمر شيوخ هذه الطريقة بالذكر سرًا في الانفراد والجمع على السواء، حيث كان شيوخ هذه الطريقة حتى زمانه يذكرون الله خيفة في الانفراد وجهرًا في الجمع... فكان لذكرهم السري هذا، أثره البالغ في قلوب المريدين، فقيل لذلك الأثر: نقش، أما كلمة "بند" فمعنى الربط، فصار المعنى: ربط النقش، والنقش يعني بلوغ الكمال الإنساني، فيعني الكلمة "نقشبند" أي لازم النقش أو مربوط النقش، راجع: التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس في عصر النابليسي، ص 233 وما بعدها، وللشيخ نقشبند مؤلفات عديدة في التصوف ومنها "الأوراد المائية"، وـ"سلك الأنوار" في التصوف، وـ"هدية السالكين وتحفة الطالبين" في التصوف راجع ترجمته في جامي: نفحات الأنس، ص 415-419

³ ترك الخواجة الغجدواني أربعة خلفاء ومنهم عارف روکری المتوفى عام 657هـ/1259م الذي يعتبر أول شيخ لخواجة بهاء الدين نقشبند والذي يربط الأخير إلى الطريقة الخواجگانية. وتأتي أسماء

تأسيس الطريقة النقشبندية في الهند: يعدّ الشيخ الصوفي الخواجة نصير الدين عبيد الله الأحرار المتوفى عام 1490هـ/895م من الصوفية النقشبندية، وهو من أهم تلامذة الشيخ يعقوب الجركي التلميذ المباشر للشيخ بهاء الدين نقشبند،¹ الذي بذل المجهودات كافة في نشر وترويج الفكر الصوفي النقشبندى في بلاد ما وراء النهر لا سيما في تاشقند التي أنشأ فيها المدارس والخانقاھات النقشبندية، وتمكن من تكوين الكوادر الصوفية الذين قاموا بتفعيل النشاطات الصوفية النقشبندية في هذه المناطق التي كانت تابعة آنذاك للأسرة المغولية التيمورية. وأثروا من خلال نشاطهم الدينية والفكرية في سياسة الدولة المغولية الفتية. وساعد الشيخ ملوك هذه الأسرة على تقوية دولتهم سياسياً وعسكرياً واقتصادياً. وكان له تأثير قوي للغاية في اتخاذ القرارات السياسية حيال مستقبل هذه الدولة.²

وقد ترك الشيخ خلفه كثيراً من تلامذته من العلماء والصوفية والسلطانين الذين روجوا الفكر الصوفي النقشبندى وكانت لهم علاقة وطيدة مع أسرة شيخه وشيوخ الصوفية النقشبندية الآخرين. ومن السلطانين التيموريين السلطان عمر الشیخ میرزا المتوفى 1492هـ/897م، وولده الأكبر السلطان ظہیر الدین بابر المتوفى عام 937هـ/1531م. وعلى الرغم من أن الأخير لم يقابل الشيخ عبيد الله أحرار، ولكن كان مرتبطاً جدًا بأحد تلاميذ الشيخ عبيد الله أحرار وهو محمد القاضي.³ ولا تمكن السلطان بابر من فتح الهند وتأسيس الدولة المغولية في عام 932هـ/1526م، مما وفر الفرصة الرائعة للشيخ

هؤلاء الخلفاء الأربعة كالتالي: 1. الخواجة عارف روگری المتوفى عام 1271هـ/670م، 2. عزيز علي الراميتي المتوفى عام 1306هـ/705م، 3. محمد باب السماسی المتوفى عام 1340هـ/740م، 4. السيد أمیر کلال البخاري المتوفى عام 1371هـ/772م. ثم يأتي الشيخ الصوفي خواجة بهاء الدين نقشبند. للتفصيل راجع ترجمتهم في جامي: *نفحات الأنس*, ص 410-412 Rizvi: A history of Sufism in India, 1/96-97

¹ لترجمة الشيخ چركي راجع جامي: *نفحات الأنس*, ص 427-428

² عن حياته الدينية والفكرية والسياسية راجع عارف نوشاهي: *خواجة أحرار*, ص 81-109-115

³ State and culture in Medieval India, ص 161

مجلة الهند

النقشبندية لتفعيل النشاطات الصوفية النقشبندية في رعاية الدولة التيمورية الفتية في الهند.¹ وقد استقر كثير من الأسر الصوفية النقشبندية التي وصلت إلى الهند إثر فتوحات ظهير الدين بابر والتي كان يحترمها السلطان بابر احتراماً بالغاً.²

وكتب السلطان بابر في سيرته الذاتية حول وليمة نظمها في آگرا في تقدير واحترام المشايخ النقشبندية فيقول: "جلسنا معًا في الجانب الشمالي من جناح حديثي البناء ذي ثمانى زوايا وأضلاع. وجلس على جانبي الأيمن الخواجہ عبد الشاہد والخواجہ کلان، وهما من أحفاد الشيخ عبید اللہ احرار... جنباً إلى جنب مع الشیوخ والعلماء النقشبندیة...³ وكان بابر يرجع إلى الشیوخ النقشبندیة في الشؤون السياسية والدينية، حتى وفي بعض الحالات العرجحة من الأمراض والأزمات الأسرية. ونذكر هنا مثلاً واحداً، حيث تفید المصادر المعاصرة أنه بعد سنوات من تأسيس الدولة التيمورية في الهند حدث أن الأمير همايون أصيب بمرض خطير في مدينة سنبل، وكان السلطان بابر في حالة السخط والحرج الشديد من مرضه الذي ربما طال لبعض الوقت. ورجم العطاں إلى الصوفية النقشبندية الذين أوصوه بممارسة بعض الأعمال ومنها الطواف بسرير همايون المريض ثلاث مرات، وقام بها بابر وشفى ابنه على الفور.⁴

¹ يؤكّد بعض الباحثين معتمدًا على المصادر النقشبندية على أن أول صوفي نقشبendi وصل إلى الهند هو الشيخ باباولي الذي استقر في كشمير. راجع: كلمات طبيات، ملفوظات الشيخ باقي بالله، ص 4-5 وكذا راجع: (State and culture...P.159). بينما كتب بعض الباحثين أن كثيّرًا من تلامذة الشيخ أحرار رحلوا إلى مشارق الأرض ومغاربها لنشر الفكر الصوفي النقشبندی، ومنهم الشيخ الصوفي فياضي البخاري الذي مكث لبعض الوقت في الصين التي قضى في جبالها وصحارائها لممارسة الرياضيات الصوفية وقبل الحملات العسكرية التيمورية في زعامة بابر ووصل إلى راجستان وتوفي هناك. راجع: P.180, vol. 2, Rizvi: A history of Sufism in India

² تفید المصادر أنه اصطحب السلطان بابر أحفاد الشيخ أحرار معه إلى كابل وأگرا والذين استقروا في الهند مع أسرتهم. وبسبب تأثيره بالفكر الصوفي النقشبندی قام بابر بنقل كتاب الشيخ "رسالة والدية" إلى اللغة التركية. عن علاقته مع أسرة الشيخ راجع عارف شاهي: خواجہ احرار، ص 115 راجع: بابر نامہ، ص 631

³ "بخلوت خاص در آمده شغلے که در سلسله قدسیه خواجهانے نقشبند رضوان اللہ علیہم اجمعین مقرر است بجا آورده سه بار بر گرد فرزند سعادت پیوند گردیدند" راجع: إقبال نامہ، Khaliq Ahmed: State and culture...P162

وورث أحفاد بابر تقاليد آبائهم وأجدادهم في توقير الشيوخ النقشبندية واحترامهم وتقديرهم وإعطائهم الأراضي والعقارات لممارسة النشاطات الصوفية النقشبندية.¹ وفي عهد السلطان همايون وصل الخواجة خوند محمود، وهو من سلالة الخواجة عبيد الله أحرار، إلى الهند، استقبله السلطان المذكور بترحيب بالغ.² وكذلك صار كامران أخو السلطان همايون تلميذاً للشيخ عبد الحق صنو الشيخ خوند محمود المذكور.³ وقد زاد تأثير المشايخ النقشبندية في الإدارة المغولية في بداية عهد السلطان أكبر، وتفيد المصادر بوصول واستقرار كثير من الأسر النقشبندية من وطنهم الأصلي إلى آكرا وفي المناطق الهندية الأخرى.⁴ وكثير من هؤلاء الصوفية النقشبندية حصلوا على الوظائف الإدارية والعسكرية.⁵ ويبدو من خلال الأحداث التاريخية أنه قد تم

¹ ناقش بعض الباحثين الوضع الصوفي في المجتمع في العصور الإسلامية دورهم في تأسيس الدول والإمارات المحلية. وأتى ذكر كثير من الإمارات الإسلامية التي قامت في الهند إثر سقوط سلطنة دهلي، والتي ساعد فيها الصوفية الأسر الحاكمة مساعدة معنوية ومن أهمها الإمارات التي قامت في الدكن، وكجرات، ومالوه، وبنغال، وجونپور وغيرها، والتي منحت لشيوخ الطرق الصوفية أموالاً طائلة لتفعيل وتنشيط ممارساتهم الدينية والفكرية من خلال الخانقاهات والزوايا التي حظيت طيلة تاريخ الهند الإسلامي برعاية الحكام المسلمين في الهند، إذ كانوا يتقربون إلى الناس بالإحسان إلى أولئك الصوفية وبرعاية الخانقاهات التي يعيش فيها المتصوفة. وسوف نذكر لهذا أمثلة عديدة في الصفحات الآتية. للتفصيل راجع:

Khaliq Ahmed: Nizami: Akbar and Religion (Idarah –i-Adabiyat-i-Delhi 1989), P.92

² 162, State and cultre in Medieval India

³ أكبر نامه (ترجمة إنجليزية)، 195/2.

⁴ ومنهم على سبيل المثال خواجة عبد الشهيد من أحفاد الشيخ عبيد الله أحرار، عاش في الهند لثمانية عشر عاماً في نشر الفكر الصوفي النقشبendi، وتوفي عام 982هـ/1574م، راجع: منتخب التواريخ، 396-395/3 ولما قدم الشيخ يحيى، وهو أيضاً من سلالة الشيخ عبيد الله الأحرار، إلى الهند، استقبله السلطان أكبر بحفاوة بالغة، ورفع قدره، ومنحه أرضاً لنفقة، وبعثه أميراً على قافلة الحج إلى مكة المكرمة، ولما عاد من سفر الحج، جهز له الإقامة الدائمة في مدينة آكرا.

راجع: منتخب التواريخ، 447-448/3

⁵ 181/2, A history of Sufism in India

مجلة الهند

التقسيم في صفوف المشايخ النقشبندية حيال القرارات السياسية والدينية التي أخذها السلطان أكبر بعد عام 1579 م. حيث تفيد المصادر أن الصوفية النقشبندية الذين كانوا يعملون في الإدارة والجيش عبروا عن ولائهم للسلطان وكذلك دعموا السياسات العامة الشاملة التي اتخذها السلطان لتطوير الأجهزة الإدارية والسياسية والدينية وتنظيمها.¹ أما الصوفية النقشبندية الذين جاؤوا من كابل وقضوا بعض السنوات في رعاية وإشراف الأمير ميرزا عزيز كوكا، هو أخ من الرضاعنة للسلطان أكبر، كانوا موالين للأمير المذكور، والذين عارضوا بشدة هذه السياسات الدينية والإدارية التي اتخذها السلطان أكبر. ومنهم على سبيل المثال الشيخ الداعية "الخواجة عبيد الله الكابلي" تلميذ الشيخ طيف الله النقشبendi، والذي انخرط في البلاط الأكبري، وذلك بعد قضاء بعض السنوات في عملية الدعوة والإرشاد في كابل تحت رعاية الأمير ميرزا كوكا. وتدخل في بعض المجادلات الدينية التي كانت تحصل آنذاك في البلاط السلطاني بين العلماء والصوفية، ولما لم يعجب السلطان كلامه ونقاشه أبعده إلى المناطق الهندية الأخرى.²

إلى جانب هؤلاء المشايخ النقشبندية الذين أثروا في السلاطين المغوليين، هناك بعض المشايخ الذين استقروا في بعض المناطق الهندية الأخرى بعيداً عن العاصمة أكبر. وكانوا بصلة وثيقة بالإدارة المغولية التي تعتقد فيهم وترجع إليهم في الشؤون السياسية والدينية. ومنهم على سبيل المثال الخواجة خاوند محمود البخاري المعروف بحضرت ايشان قدس المتوفى عام 1052هـ/1642م، الذي عاصر كلاً من السلطان أكبر وجهانگیر وشاه جهان، وكان له علاقات جيدة مع هؤلاء السلاطين والإداريين. وهو الذي فتح الطريق أمام الصوفية النقشبندية في منطقة كشمير لتفعيل نشاطاتهم الفكرية. وتمكن خلال وجوده في كشمير من فتح الخانقاھات والمدارس النقشبندية في رعاية الإدارة المغولية التي وفرت له كل التعاون المادي والمعنوي. وكان

¹ Muslim Revivalist Movements in Northern India in the Sixteenth and Seventeenth Centuries82-81 ، ص

² A History of Sufism in India181/2 ،

مجلة الهند

يعتقد فيه كثير من الوزراء والأمراء إلى جانب بعض الأمراء مثل السلطانة سليمية بيغم، وكلخ بيغم. وبجانب منطقة كشمير كان يتردد إلى لاهور ودهلي وأكرا العاصمة، وكان السلاطين والأمراء يكرمونه غالية الإكرام، وباباً له ألف من الناس.¹ وهناك شخصيات صوفية نقشبندية أخرى كثيرة ولها إسهامات جليلة في ترويج الفكر الصوفي النقشبendi في ريوه الهند.² وخوفاً من الإطالة نكتفي بهذا القدر مع ذكر ترجمة وجيزة للشيخ عبد الباقي النقشبندى المعروف بـ"الباقي بالله" وهو شيخ المشايخ لأحمد السرهندي الذي سذكر عنه في الصفحات التالية.³

ويعدّ الشيخ الخواجة عبد الباقي بالله المتوفى عام 971هـ/1563م من كبار الشيوخ النقشبندية الهندية، الذي تطورت الطريقة النقشبندية في عهده؛ وذلك بعد وصوله إلى دهلي من كابل.⁴ وتفيد المصادر النقشبندية الموثقة أنه لم يعش إلا أربع سنوات بعد قدومه إلى دهلي، وفي تلك المدة الوجيزه وفق الشيخ باقي بالله بترسيخ دعائمه

¹ عن ترجمته راجع: خزينة الأصفياء، 3/174-175، وكذا راجع: الإعلام، 2/526 عن علاقاته مع الأمراء والأمراء راجع: A history of Sufism in India، Rizvi: 2/183.

² لترجم أعلام الصوفية النقشبندية راجع: خزينة الأصفياء، 3/167-305.

³ جاءت ترجمته في الإعلام بشيء من التفصيل، وأذكر هنا بعض المقتطفات بتصرف. الشيخ عبد الباقي النقشبندى المعروف بخواجة باقى بالله، كان من العلم والمعرفة آية من آيات الله تعالى... ولد في حدود عام واحد أو اثنين وسبعين وتسعمئة بكابل، وأخذ العلوم النقلية عن الشيخ محمد صادق الحلواني، وسار معه إلى ما وراء النهر ولا زمه مدة، ثم بدا له الدخول في طريق الصوفية فترك تحصيل العلوم وطاف حول مجالس كثير من كبار مشايخ نقشبندية في بلاد ما وراء النهر وكابل ولahir إلى أن وصل إلى دهلي، واختار للإقامة القلعة الفيروزية التي كانت مطلة على نهر جمنا وبها مسجد عظيم، فأقام هناك إلى أن توفي عام 1012هـ/1603م. وكان صاحب الأذواق.. كثير التواضع... وكان يعتمد في ستر أحواله وسيرته عن أنظار الآخرين، ولا يرى نفسه أهلاً لمقام النصح والإرشاد... وكان كثير الصمت وذا خلق حسن لا يتميز عن الناس بشيء، حتى إنه كان يمنع أصحابه من أن يقوموا لتعظيمه وأن لا يعاملوه إلا كما يعامل بعضهم بعضاً... ومن مصنفاته الرسائل البدعية، والمكاتيب العالية، والأشعار الرائقة، منها سلسلة الأحرار، شرح فيه رياضياته في الحقائق والمعارف باللغة الفارسية. راجع: الإعلام، 2/351-353.

⁴ لسيرته راجع: خواجة باقى بالله

الطريقة النقشبندية، وبلغ أصحابه إلى أعلى مدارج الكمال حتى أئمهم فاقوا أسلافهم من الشيوخ النقشبندية الهندية من خلال تفعيل النشاطات النقشبندية وفكراها في ربوع الهند، ولم يكتب لهم النجاح مثلما حصل الشيخ عليه خلال وجوده في دلهي، ومن هنا غلت الطريقة النقشبندية على الطرق الصوفية الأخرى.¹

وعلى حسب المصادر المعاصرة واللاحقة كان الشيخ كثير التواضع والانكسار، وما كان يحب الشهرة. ولكن لدى وصوله إلى دلهي دخل عدد كبير من الأمراء والوزراء في زمرة مرديه، وكان ذلك بسبب اعتقاد الإدارة المغولية في المشايخ النقشبندية. ومن كبار الوزراء الذين رحبوا به الشيخ فريد بخاري، وعبد الرحيم خان خانان، وغيرهما. وكان الشيخ يراسلهم ويشير عليهم في الشؤون الإدارية والسياسية.²

وعلى الرغم من أن الشيخ فريد قام بإنشاء الخانقاہ النقشبندية للشيخ الباقي بالله على حسابه الخاص.³ ويؤكد على ذلك كلام الشيخ أحمد السرهندي الذي أشار في إحدى رسائله على رعاية خاصة للشيخ فريد على الشيوخ النقشبندية مع توفير كل الدعم المادي والمعنوي لهم.⁴ ولكن الصوفية النقشبندية المتأخرین ينكرون ذلك، وتفيد بعض المصادر النقشبندية أنه ما كان يقبل الأموال من الإدارة المغولية والأمراء والوزراء. ومنهم الوزير الكبير عبد الرحيم خان خانان الذي أرسل مئة ألف روبيّة كنفقة السفر لأداء الحج لدى المعرفة عن عزم الشيخ على ذلك، فرفض الشيخ

¹ راجع: زينة المقامات، ص 58

² 192/2. A History of Sufism in India

³ 163, State and Culture in Medieval India

⁴ راجع المكتوب الرابع والخمسين المرسل إلى الشيخ فريد، يقول الشيخ أحمد السرهندي فيه: "... قد ورد أن من لم يشكر الناس لم يشكر الله، فشكر إحساناتكم لازم لنا فإنكم كنتم أولًا سبباً لجمعية حضرة شيخنا، فطلبنا الحق سبحانه وتعالى برకتكم في تلك الجمعية ولننا حظاً وافرًا من تلك الأمانة، ولما بلغت التوبة هذه الطبقة بحكم: كبرت بموت الكباء كنتم مرة ثانية واسطة اجتماع الفقراء وباعثًا على انتظام نظام الطالبين الغرباء فجزاكم الله سبحانه عنا خير الجزاء..." المكتوبات، 97/1

مجلة الهند

مساعدته المالية وأعادها إليه مع التوبيخ.¹ وكلامهم يتناقض مما كتبه الشيخ أحمد السرهندي عن المساعدة المادية والمعنوية التي قدمها الشيخ فريد للشيخ باقي بالله لإنشاء الخانقاہ النقشبندية والإدارة شؤونها المالية.

وفي الواقع معظم الصوفية من السلالسل الصوفية ينكرون أن المؤسسات الصوفية وأعلامها كانوا يقبلون العطايا والأموال المتقدمة من جانب الدولة وعناصرها من الأمراء والوزراء، ولكن هذا غير صحيح؛ لأن الخانقاہات كانت تتطلب الاهتمام الكبير مادياً لإدارة نشاطاتها المتنوعة بما فيها تنظيم المطابخ العمومية لتوفير الطعام والشراب للمريدين والفقراء والمساكين والمحاجنين الزائرين. ومن هنا كانت هذه المؤسسات الصوفية بحاجة إلى الوسائل المادية القوية لتوفير الأموال بالاستمرار لسد الاحتياجات اليومية، وكان من الصعب أن توفر كل هذه الأموال دون مساعدة الدولة وتعاونها مباشرةً أو بصورة غير مباشرةً بواسطة الأمراء والوزراء وأعيان الدولة والأثرياء.

هذا، وقد ترك الشيخ الباقى بالله كثيراً من تلامذته ومريديه، والأخص منهم الشيخ تاج الدين بن سلطان العثماني السنہلی، والشيخ حسام الدين بن نظام الدين البدخشي، والشيخ إله داد الدھلوی والشيخ أحمد السرھندي الذي سنذكر ترجمته الوجيزة في الصفحات الآتية.²

المبحث الثالث: ترجمة وحيزة للشيخ أحمد السرھندي

تنتمي أسرة الشيخ أحمد السرھندي إلى الشيخ شهاب الدين علي فرخ شاه الكابلی جده الخامس عشر، وهو مؤسس هذه الأسرة في كابل وفي الهند. وكان يعد من الفضلاء النوابغ والمصلحين والداعية. وعلى حسب بعض المصادر النقشبندية يتصل نسبة بسيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه باثنتين وثلاثين واسطة.³

¹ زينة المقامات، ص 52

² المصدر نفسه، ص 111

³ يعتبر كتاب "الجනات الثمانی" من أقدم الكتب النقشبندية المجددية سطره الشيخ عبد الأحد وحدت المتوفى عام 1126 هـ، وهو حفيد الشيخ أحمد السرھندي. ولله مخطوط وحيد في مكتبة آزاد

ويعتبر السلطان فرخ شاه الكابلي أول من انحدر إلى الهند مع الأسرة وأسهم في النشاطات الدعوية. واستقرت هذه الأسرة العلمية إلى سرهند، ومعناها رأس الهند، بعد تأسيس القلعة والمساكن في داخلها بيد الشيخ رفيع الدين أحد أجداد الشيخ أحمد السرهندي. فهو مؤسس هذه المدينة، ولم تزل هذه الأسرة منذ ذلك الوقت ساكنة في هذه المدينة،¹ وعلى حسب بعض الباحثين إن تأسيس القلعة وببداية عمران هذه المدينة في سرهند كانا في عام 760هـ/1358م.²

من الولادة إلى الإجازة: ولد الشيخ الإمام أحمد السرهندي ليلة الجمعة 14 شوال عام 971هـ/الموافق 1563 م بمدينة سرهند، في الأسرة المتدينة. فكان أبوه الشيخ عبد الأحد المتوفى عام 1007هـ/1598 م يعدّ من العلماء الربانيين والمخلصين والمتواضعين والمهتمين بالسنن النبوية والمحبين لأهل بيته رسول الله وأصحابه رضوان الله أجمعين

عليّگرہ تحت رقم "عبد الأحد مجموعة رسائل الشيخ، شيفة عربية رقم 65/72، وعلى حسب هذا المخطوط جاء نسبه كالتالي: الشيخ أحمد بن عبد الأحد بن زين العابدين بن عبد الحفيظ بن محمد بن حبيب الله بن الإمام رفيع الدين بن نور بن نصیر الدين بن سليمان بن يوسف بن إسحاق، عبد الله بن شعيب بن أحمد بن يوسف بن السلطان فرخ شاه الكابلي بن نصیر الدين بن محمود بن سليمان بن مسعود بن عبد الله الوعاظ الأصغر بن عبد الله الوعاظ الأكبر بن أبي الفتح بن إسحاق بن إبراهيم بن ناصر بن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه". في المخطوط المذكور بعض الأسماء من رقم 27 إلى 32 متروك فيها. راجع: الجنات الثمانى، ورقة 31-32. وأيضاً: زيدة المقامات، ص 137

¹ راجع: الجنات الثمانى، ورقة 32

² الإمام السرهندي حياته وأعماله، ص 116-117، وقد استوطنت في هذه المدينة أسر علمية كريمة، وأنجبت هذه المدينة عدداً من نوابغ الرجال وكبار العلماء والمصلحين وبلغت ذروة التقدم والعمران وتوطدت صلتها بالثقافة الإسلامية في بداية القرن العاشر. وأسهمت الأسر العلمية والدينية في عملية التدريس والإفادة والتربية والإرشاد والإصلاح، وقد بلغت هذه المدينة في الرخاء والبهاء أوجها في العهد المغولي حتى كان فيها 360 مسجداً ورباطاً وغيرها من المنشآت المدنية. راجع: المصدر نفسه، ص 117

على حد قول بعض المصنفين النقشبنديين.¹ بدأ تعليمه بحفظ القرآن تحت رعاية وإشراف والده، وحفظ القرآن الكريم الكامل في صغره، وأخذ عنه مبادئ الكتب المتداولة وعن شيوخ مدینته. ثم رحل إلى سيالكوت وقرأ العلوم الإسلامية على الشيوخ والعلماء التوابع ومنهم الشيخ كمال الدين الكشميري، وأخذ الحديث عن الشيخ يعقوب الصريفي الكشميري الذي أخذه بيده عن محدث عصره الشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيثمي المكي.² وفرغ من تحصيل العلوم العقلية والنقلية ولم يبلغ عمره أكثر من سبعة عشر عاماً، وعاد إلى بلده وجلس على كرسى التدريس والإفادة. وشدّ كثير من طلاب العلم رحالهم من داخل الهند وخارجها للاستفادة العلمية من الشيخ الذي كان يعقد حلقاته العلمية في التفسير والحديث والعلوم الإسلامية الأخرى.³

من التدريس إلى البيعة للخواجة عبد الباقي: وفي أثناء عملية التدريس والإفادة فكر الشيخ في الحصول على مزيد من العلم والمعرفة لا سيما وإنه سمع عن تجمع العلماء في العاصمة آكرا، وعلى كل شد رحاله واكتسب شهرة كبيرة خلال مدة وجيزة بين العلماء لما له من اليد الطولى والرسوخ في العلوم العقلية والنقلية. وكانت له جلسات علمية أيضاً مع علماء بلاط السلطان أكبر المتوفى عام 1014هـ/1605م، وأخص منهم أبا الفضل المتوفى عام 1011هـ/1602م، وصنوه فيضي المتوفى عام 1004هـ/1595م. وتفيد بعض المصادر أنه ساعد أيضاً في تفسير معاني بعض الآيات القرآنية في تفسير

¹ راجع: زينة المقامات، ص 141-184، وتقول المصادر إن ميزة الشيخ عبد الأحد تجلّى في المواقف مع الحق والباطل والدليل الشرعي، والخضوع له، والإنصاف من نفسه، وتعظيم الشريعة الإسلامية والسنّة النبوية وإجلالها، والسعى لاتباعهما، والعنابة بتطبيقيهما، والحمية الدينية وعلوّ الهمة والطموح في ارتقاء درجات الإحسان، والتقدم في مراتب الإيمان، وقد ورثت منه هذه الخصائص والميزة الباهرة ابنه الشيخ أحمد السرهندي. راجع: زينة المقامات، ص 182

² ولد الشيخ يعقوب بن الحسن الصريفي الكشميري عام 980هـ، وسافر إلى سمرقند لتحصيل العلم، وأخذ الطريقة الكبورية من الشيخ حسين الخوارزمي وصحابه مدة طويلة، ثم سافر إلى الحرمين الشريفين ودرس على علمائهما الحديث وحمل من هناك كتاباً قيمـاً في الفقه والحديث والتفسير، وتوفي عام 1003هـ، راجع لترجمته: الإعلام، 2/665.

³ لمزيد من المعلومات عن تعليم الشيخ أحمد وتربيته راجع: زينة المقامات، ص 189 وما بعدها.

فيضي غير المنقوط "سواتع الإلهام"، مما جعل الأخير المعترف بغزاره علمه، وسيلان طبعة، ورسوخه في العلم.¹ وعلى رغم ذلك إنه من الصعب للتصديق على أنه اكتسب شهرة واسعة في سن السابعة عشر وخلال هذه الفترة الوجيزة أن يدع من جانب البلاط الملكي أن يساعد الوزيرين أبي الفضل والفيضي على إنجاز الأعمال الأدبية والدينية. ومن هنا رفض بعض الباحثين المحدثين هذه الواقعة مؤكداً على أن الواقع لا يؤيد ذلك، إنما هي مذكورة فقط في المصادر النقشبندية وغير ثابت تاريخياً بسبب انطوائه على مفارقة تاريخية.²

وعلى كل حال بسبب الاختلاف الفكري والعقائدي لم ينسجم طبعه معهما، لا سيما بعد أن دخل معهما إلى الحوارات الدينية الطويلة عبرا خلالها السخرية والاستهزاء والتهكم في الشريعة الإسلامية والنبوة المحمدية.³ وفي تلك الفترة قامت القنوات

¹ راجع: حضرات القدس، 2/10-11

² Shaykh Ahmed Sirhindi، ص 13

³ كان الوزير أبو الفضل يعتقد في الله سبحانه وتعالى ولكنه كان ينكر الشريعة الإسلامية والعبادات، والأديان جلها كانت غير صحيحة في نظره لأنه كان يثق بالعقل فقط ومن خلاله يحكم على الأفكار الدينية. ويبدو من خلال كتاب الشيخ إثبات النبوة أنه رد عليه فيما يتعلق بتقييم الدين بالعقل، حيث ينتقد فيه الشيخ فيقول: "قالوا أي أصحاب العقول اتبعنا الشرائع فوجدنا مشتملة وعلى ما لا يوافق العقل والحكمة فعلمنا أنها ليست من عند الله كإباحة ذبح الحيوان وإيلامه لمنفعة الأكل وغيره... راجع: إثبات النبوة، ص 29 ولترجمة أبي الفضل وأفكاره الدينية والفكيرية راجع :

Rizvi: Religious and Intellectual History of the Muslims in Akbar's Reign (Munshi Manoharlal publication, Delhi), P.339-73

ولم تكن تلك الأفكار الهادمة متوقفة عند الأخوين بل يحمل معظم الإداريين وفي البلاط السلطاني مثل هذه الأفكار الدينية المنحرفة. وقد عبر عن ذلك الشيخ أحمد في كتابه "إثبات النبوة" والذي أعد للرد على منكري النبوة والشريعة الإسلامية قائلاً: "...إنني لما رأيت فتور اعتقاد الناس في هذا الزمان في أصل النبوة ثم في ثبوتها وتحقيقها لشخص معين، ثم في العمل بما شرعته النبوة وتحقيق شيء ذلك في الخلق حتى إن بعض متغلبة زماننا عذب كثيراً من العلماء بتشدیدات وتعذيبات لا يناسب ذكرها لرسوخهم في متابعة الشرائع وإذعان الرسل وبلغ الأمر إلى أن يهجر التصريح باسم خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام في مجلسه ومن كان مسجّى باسمه الشريف غير

مجلة الهند

الشيعية من الدولة الصفوية الشيعية إلى الهند بترويج المذهب الشيعي ونشره عبر القنوات العديدة بما فيها إجبار السنين على اعتناق المذهب الشيعي. فكتب الشيخ أحمد السرهندي كتابين للرد على نشاطهم الشيعية ضد السنة. أولهما "الرسالة التهليلية"^١ ووثانهما "رسالة رد رواض" وذلك في عام 1002هـ تقريباً^٢ وتمكن قبل ذلك بكتابه "إثبات النبوة" في عام 994هـ/1585م^٣. وقد مكث الشيخ لبعض السنوات في آكرا ثم غادرها بمعية والده إلى بلده سرهندي. وفي الطريق مر بمدينة تهانيسر، استقبلهما الشيخ سلطان - الذي كان من رؤساء هذه المدينة وأعيانها، وكان والياً على منطقة تهانيسر - بحفاوة بالغة، وأكرمهما غاية الإكرام، وأنزلهما عنده ضيفين مبجلين، وأبدى رغبته في تزويج ابنته من الإمام السرهندي، فقبل والده هذه المصاهرة، وخطب خطبة النكاح، وتم الزواج، وسارت الزوجة مع القافلة إلى سرهندي.^٤ وقبل أن يقابل الشيخ محمد عبد الباقي أخذ عن والده الطريقة القادرية والجشتية للتربية والسلوك وأعطاه والده خرقة في هذه الطرق وجعله خليفة له.^٥

اسمه إلى اسم غيره ومنع ذبح البقرة وهو من أجل شعائر الإسلام في الهند وخرب المساجد ومقابر أهل الإسلام وعزم معابد الكفار وأيام رسوماتهم وعبادتهم وفي الجملة أبطل شعائر الإسلام وأعلامه ورجم رسوم الكفار وأديانهم الباطلة حتى أظهر أحكام كفرة الهند فنقلها من لغتهم إلى اللغة الفارسية ليمحو آثار الإسلام وكلها...." راجع: إثبات النبوة، ص 11-12

^١ سطرها باللغة العربية وتناول فيها قضية التوحيد وشهادته لله، ومعجزات القرآن، ومعجزات النبي بالإضافة إلى دلال النبوة وفضائلها. وتقع هذه الرسالة نحو عشرين صفحة. راجع: رسالة تهليلية

² ألهها باللغة الفارسية، راجع: سيرة مجدد ألف ثاني، ص 306.

³ ألهها أيضاً باللغة العربية وعالج فيها قضايا عديدة متعلقة بأصل النبوة وإثباتها وتحقيقها تحت عناوين عديدة ومنها: البحث الأول في تحقيق معنى النبوة، والبحث في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، وحقيقة النبوة ومقداصها وكيفية إثباتها، بالإضافة إلى ذكر الطرق للرد على المنكرين ومعجزات النبي صلى الله عليه وسلم، ومقداص البعثة النبوية إلخ وتقع هذه الرسالة نحو واحدة وأربعين صفحة. راجع: إثبات النبوة

⁴ راجع: روضة القيومية، ص 67-68؛ وأيضاً: سيرة مجدد ألف ثاني، ص 88

⁵ راجع: حضرات القدس، 2/7-11 وقد كتب الشيخ السرهندي في أحد مكتوباته عن انتماهه إلى هذه الطرق، فيقول: "... وإرادتي متصلة بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم بوسائل كثيرة فببني وبينه

مجلة الهند

وقد ذكر بعض الباحثين أن الشيخ أحمد حج بيت الله الحرام عام 1008هـ/1599م،¹ ولكن المصادر النقشبندية لا تفيد بذلك إطلاقاً، إنما تفيد أنه خرج من بلده عازماً على أداء مناسك الحج وذلك بعد وفاة أبيه عام 1007هـ/1598م إلا أنه قابل صديقه القديم الشيخ حسن الكشميري الذي أوصله في خدمة الشيخ عبد الباقي بالله الذي كان قد اكتسب الشهرة بسب علو مكانته وجلالة شأنه، وقوته باطنها، وقد سمع الشيخ أحمد عن الطريقة النقشبندية، ويبدي شوقه إليها، فذهب مع صديقه إلى الشيخ عبد الباقي ورغبت نفسه في مقابلة الشيخ، ورأى أن هذه الملاقا ستتوفر له زاد الطريق إلى الحجاز. ولدى المقابلة قال له الشيخ عبد الباقي: "أنت ذاهب إلى زيارة بيت الله، ولكن لو مكثت هنا لبعض الأيام لكان ممكناً أن تحصل على بغيتك مما ستطلب في الحرمين الشريفين... وقال له عليك أن تمكث فقط لثلاثة أيام ولو ارتحت نفسياً فتكمل وإلا فستغادر للحرمين الشريفين..."³.

وقد لبث الشيخ أحمد السرهندي بالفعل عند الشيخ عبد الباقي بالله لبعض الأشهر لكتاب المعرفة والتربية الروحية التي كان يريدها من هذا السفر. وعبر الشيخ في بعض مكتوباته عمما وصل إلى مدارج الرقي والكمال، وما ظهرت فيه من آثار وكرامات وكيفيات قلبية باطنية خلال فترة وجوده في خدمة الشيخ.⁴

في الطريقة النقشبندية واحدة وعشرون واسطة، وفي الطريقة القادرية خمس وعشرون واسطة، وفي الطريقة الجشتية سبع وعشرون واسطة... راجع: المكتوبات، 2/356، رقم المكتوب: 87

¹ راجع: الإمام السرهندي، ص 125

² لا سيما الجنات الثمانى، وحضرات القدس، وزبدة المقامات، وروضة القيومية وهي أوثق المصادر المعاصرة للمعرفة عن حياة الشيخ ونشاطاته الدينية والإصلاحية.

³ عن وفاة والده ورحلته إلى دهلي ومقابنته مع الشيخ عبد الباقي راجع: حضرات القدس، 2/11-12

⁴ راجع المكتوب التسعين والمتين إلى الملا محمد هاشم في بيان الطريق الذي خصه الله سبحانه به في أوائل حال الشيخ أحمد السرهندي وتوفيقه لتسلیك الطالبين إليه وبيان الطريقة النقشبندية مع ذكر نبذة من كمالات الشيخ عبد الباقي وكيفية وصوله إلى معدن الإرشاد ومنبع المعرفة من خلال شيخه المذكور. المكتوبات الربانية 1/423-435

وقد زار الشيخ أحمد السرهندي شيخه مرتين بعد هذه الزيارة، حصل خلالهما على الإجازة والخرقة من شيخه لتعليم الطالبين وإرشاد السالكين وتربية المريدين.¹ وهكذا التحق الشيخ بالطريقة النقشبندية وحمل أعباءها بعد وفاة شيخه عبد الباقي بالله. واستقر الشيخ في بلده سرهندي لخطيب وتنفيذ المشاريع الإصلاحية والتربوية التي كان ي يريد لها في داخل الهند وخارجها. ويبدو من بعض رسائل الشيخ عبد الباقي أن أسرة الشيخ أحمد السرهندي كانت تعاني من الفقر الشديد في ذلك الوقت. ولم تُعط رسالة معلومة عما إذا طلب الشيخ أحمد السرهندي منه كتابة التزكية إلى صدر الصدور للموافقة على منحة سنوية للصرف على أسرته، أم كشف وضعه الصعب على شيخه فحرر التزكية باسم صدر الصدور مير صدر جهان بهاني الذي كان يعتقد في الشيخ عبد الباقي بالله وينتمي إلى الطريقة النقشبندية.² كتب الشيخ في التزكية فقال: "الشيخ أحمد السرهندي؛ عالم كبير ورجل صالح وتقى من سكان سرهندي، صحبه العبد الفقير مدة يسيرة فشاهد عجائب أحواله، وعظيم صفاتة. وأرجو أن يوفقه الله تعالى ليكون سراجاً يضيء العالم. وإنني على ثقة ويقين من أحواله كاملة، وأحوال أهله وأسرته وأقاربه من الطيبين والصالحين، ومن يعرف الفقير إلى الله البعض منهم، ويشهد بأنهم موهوبون وعلماء ربانيون. أما أبناء الشيخ فهم أيضاً يتحلون بالفضائل العلمية والمحاسن العملية وبلغ المدارج الروحية العالية... وباختصار، تعاني هذه الأسرة الكريمة الكبيرة بسبب فقرها المدقق ودخلها المحدود من حالة مادية ومعيشية سيئة ومؤلمة. فالمرجو من سعادتكم التكرم بالموافقة على صرف منحة مالية سنوية لهذه الأسرة، ولو تمت الموافقة على ذلك لكان في ذلك خير كثير وأمر جدير بالثناء والتقدير، فالفقراة والمساكين هم بوابة الوصول إلى الله".³

¹ عن رحلاته إلى دهلي للحصول على التربية والسلوك من شيخه باقي بالله راجع: سيرة مجدد ألف ثاني، ص 103-115.

² عن ترجمته: منتخب التواريخ، 3/478-479.

³ راجع: مكتوبات الباقي بالله، رقم المكتوب: 16، نقلًا عن السيد محمد عابد ميان: أنوار العارفين، ص 607-606، وأيضاً راجع في: Rizvi: A History of Sufism in India: 192-193/2.

مجلة الهند

وفاته: لقد اشتد المرض على الشيخ في آخر عمره وعلى حسب المصادر النقشبندية كتب إلى أبنائه طالباً منهم الحضور إلى خدمته والذين حضروا إليه. وفي حضرتهم توفي الشيخ يوم الثلاثاء 28 من صفر عام 1034هـ الموافق 10 ديسمبر عام 1624م. وصلّى عليه ابنه الكبير الشيخ محمد سعيد وحمل النعش إلى قبره الذي جهزه في حياته.¹

أولاده: رزق الشيخ أحمد السرهندي بسبعة أبناء وثلاث بنات. وأسماء الأبناء كالتالي:

1. خواجه محمد صادق المتوفى 1025هـ/1616م؛ 2. خواجه محمد سعيد المتوفى عام 1070هـ/1650م؛ 3. خواجه محمد معصوم المتوفى عام 1079هـ/1659م؛ 4. خواجه محمد فرج المتوفى عام 1025هـ/1616م؛ 5. خواجه محمد عيسى المتوفى عام 1025هـ/1616م؛ 6. خواجه محمد أشرف؛ 7. خواجه محمد يحيى المتوفى عام 1096هـ/1684م.²

وأسماء البنات كالتالي: 1. بي بي رقية بانو، 2. وبي بي خديجة بانو، 3. وبي بي أم كلثوم بانو.³

مؤلفاته: تعدّ مجموعات رسائله "المكتوبات" من أهم أعماله التي قام من خلالها بتنشيط عملية الإصلاح والتبلیغ والدعوة والقضاء على الفتنة والبدع والخرافات. و تعالج هذه المكتوبات أيضاً المسائل السياسية والعقائدية والأخلاق والمعرفة والتزكية والسلوك والعمران. وهذا لا يعني أنها خالية من الزلات، فهناك كثير من المسائل الشرعية وعلم الأسرار والأحكام فسّرها الشيخ معتمدًا على الأحاديث الموضوعة، والنكات الفلسفية التي تناولها الشيخ في إطار الفلسفة المعقّدة وهي بعيدة كل البعد عن التصوف الإسلامي الصحيح الواضح. وهذه الموضوعات خارجة

¹ وقد كتب تلميذه ومريده هاشم كشمي بشيء من التفصيل والتوضيح عن وفاته راجع: زيدة المقامات، ص 379-404. وعن برامجه اليومية وعاداته وشمائله راجع: المصدر نفسه، ص 274 وما بعدها.

² زيدة المقامات، ص 405-427؛ وسيرة مجدد ألف ثاني، ص 273

³ سيرة مجدد ألف ثاني، ص 373

مجلة الهند

عن النقاش في هذا البحث لأنها بحاجة إلى بحث مستقل للمناقشة. وتشتمل مكتوباته على ثلاثة مجلدات:¹

1. يحمل المجلد الأول تلات مئة وثلاث عشرة رسالة، جمعها خليفته يار محمد البدخشي الطالقاني في عام 1025هـ/1616م تحت اسم "در المعرفة".

2. يحمل المجلد الثاني تسعًا وتسعين رسالة جمعها ورثتها الشيخ عبد الحي الحصاري في عام 1028هـ/1618م تحت اسم "نور الخلاق".

3. ويحوي المجلد الثالث اثنين وعشرين ومئة من الرسائل رثتها الشيخ محمد هاشم الكشمي في عام 1031هـ/1621م تحت اسم "معرفة الخلاق". وقد ترجمت هذه المكتوبات إلى اللغات الأردية والتركية والعربية.²

وإلى جانب مكتوباته ألف الشيخ بعض الرسائل الوجيزة المهمة لتفنّد بعض الدعاوى الكاذبة حول النبوة والعقيدة الإسلامية ومنها:

1 الرسالة في إثبات النبوة: وسبق أن تناولت في الصفحات السابقة الأسباب التي دفعته إلى إعداد هذه الرسالة؛ 2. تعليقات لعوارف؛ 3. الحاشية على شرح العقائد الجلاي؛ 4. المقدمة السننية في انتصار الفرقنة السننية؛ 5. مبدأ ومعاد؛ 6. مكاففات غيبية؛ 7. معارف لدنية؛ 8. رد الروافض أو رد شيعة؛ 9. شرح رباعيات خواجة بيرنگ؛ 10. رسالة مقصود الصالحين؛ 11. رسالة تعين ولا تعين؛ 12.

¹ هناك مبحث خاص لذكر مؤلفات الشيخ أحمد السرهندي في المخطوط "الجනات الشماني" تحت عنوان: "الجنة الخامسة في ذكر مصنفاته العالية"، راجع ورقة 34، وقد بالغ مؤلف هذا الكتاب في وصف هذا الكتاب كأنه نزل من السماء كogy، نعوذ بالله، على الشيخ أحمد السرهندي. وكتب أنه رأى الأمير محمد نعمان (في منامه) رسول الله صلّى الله عليه وسلم وقال يا رسول الله قال شيخي (أحمد السرهندي) كذا وكذا، قال عليه السلام ما قال الشيخ أحمد فهو مطابق للواقع... ووقع في خاطري تردد في صحة معارف هذه المكاسب هل مرضية له (الله) سبحانه وتعالى أو لا فألمي الله تعالى أن ذلك كله صحيح ومرض عندي ونشأ من كلامه". راجع الورقة نفسه.

² لتفاصيل عن ترجمتها وشرحها ومخطوطاتها راجع: سيرة مجدد ألف الثاني، ص 296-303

مجلة الهند

رسالة در بيان مسألة وحدة الوجود؛ 13. آداب المريدين؛ 14. رسالة جذب وملوك؛ 15. رسالة علم حديث؛ 16. رسالة حالات خواجگان نقشبند؛ 17. مجموعة تصوف؛ 18. رسالة تهليلية؛ 19. كنوز الحقائق؛ 20. رسالة معرفة النفس ومعرفة الرب.¹

لا يعطي مخطوط "الجනات الثمانى" كل هذه التفاصيل عن مؤلفات الشيخ وعن هذه الرسائل التي جمع معظمها تلاميذه بعد وفاته. ويبدو أن كثيراً من هذه الرسائل أخذت من المباحث المذكورة في مكتوباته ونشرت على حدة مما جعل فهرس مؤلفاته كثيرة، إنما الحقيقة أنه لم يسطر غير مكتوباته ورسالة في علم الحقائق والسلوك وهو المبدأ والمعاد، والمعارف اللدنية، والمكاشفة الغيبية، وإثبات النبوة، وشرح رباعيات شيخه عبد الباقي في علم التصوف، والرسالة التهليلية.²

خلافوه: على حسب المصادر النقشبندية أرسل الشيخ أحمد السرهندي عدداً كبيراً من خلفائه إلى مختلف أرجاء البلاد للتربية والدعوة والإرشاد، فبعث بسبعين شخصاً تحت قيادة الشيخ محمد قاسم إلى تركستان، وأربعين شخصاً في إمارة الشيخ فرج حسين إلى بلاد الحجاز واليمن والروم والشام، وعشرة أشخاص من كبار المسؤولين تحت قيادة الشيخ محمد صادق الكابلي إلى كاشغر، وثلاثين خليفة من خلفائه بزعامة الشيخ أحمد البركي إلى توران وبدخشان وخراسان بجانب إرسال بعض خلفائه إلى المناطق الهندية.³ ومن العجيب أن عدد خلفائه المرسلين إلى الخارج يتتفوق على المرسلين في داخل الهند برغم أن المجتمع الإسلامي الهندي كان بحاجة شديدة إلى أكبر قدر من الكوادر لإنصافه دينياً وثقافياً، فهل كان هدف الشيخ الأول هو نشر

¹ للتفصيل عن بيانات هذه الرسائل راجع: سيرة مجدد، ص 304-308

² راجع: الجناة الثمانى، ورقة 34-35

³ الروضة القيومية، 1/166-167؛ وعلى حسب المصادر النقشبندية لا سيما زيدة المقامات وحضرات القدس وصل عدد خلفائه الكبار إلى ثلاثة وخمسين خليفة. راجع: زيدة المقامات، ص 111-121؛ حضرات القدس، 2/266-382

مجلة الهند

الأفكار النقشبندية وتوسيع نطاقها في جميع أرجاء العالم وترويجها أم هو جزء من النشاطات الدينية الأخرى الآتية؟

المبحث الرابع: الوضع الديني في عهد الشيخ أحمد السرهندي ومنهجه في عملية الإصلاح والإرشاد

الوضع الديني في عهد الشيخ أحمد السرهندي: لقد كانت هناك أسباب عديدة منها داخلية ومنها خارجية والتي دفعت المجتمع الإسلامي الهندي إلى الوقوع في خندق الانحرافات الدينية والعقائدية والخلقية وسيطرة الفكر الهندوسي على الفكر الإسلامي. ولم يتمكن المسلمون من إخراج أنفسهم من تأثيرات العادات الهندوسية وثقافتها طيلة فترة التاريخ الإسلامي الهندي. ومن أهم الأسباب الداخلية هي التخلف الثقافي الذي زاد بعد قيام الدول الإسلامية بيد الملوك والفاتحين من الترك والأفغان والمغول. ومن هنا بدلاً من أن يؤثر المسلمون في الفكر الهندوسي أثر الأخير تأثراً بالغاً في الفكر الإسلامي عبر العصور الإسلامية كلها. ثم أهملت الحكومات الإسلامية تثقيف المسلمين الذين أسلموا من سكان البلاد، ودخلوا في دين الله من تلقاء أنفسهم أو بجهود الوعاظ والدعاة، فكانت النتيجة أن الجمهرة الكثيرة من أولئك الذين أسلموا ما انفكوا عاكفين على شعائرهم الدينية متسكعين في ظلام الشرك والوثنية. ثم كان هناك قصور كبير في تطوير المناهج التعليمية التي جرت عملية التعليم والتدريس في عصر الحكومات المسلمة الهندية والذي ترك أثراً كبيراً في بقاء الآلاف المؤلفة من المسلمين الجدد على عقائدهم الباطلة، وعاداتهم وتقاليدهم الزائفة الممزوجة بخرافات الوثنية الهندوسية. فإنهم لم يعطوا التعليم والتثقيف حقهما من العناية، ولم يهتموا أصلاً بتنمية الناشئة المسلمة تقييماً صحيحاً. فكان هناك عدم الاعتناء بالكتاب والسنة الشريفة، وانحصر الدين في كتب الفقه وشرحها التي ألفها المتأخرون من الفقهاء في الهند وفي إيران وما يجاورهما، وانكباب الدارسين على التقليد الجامد، وتهافتهم على دراسة خرافات الفلسفات اليونانية والهنديّة، وانحرافهم عن اللغة العربية وأدابها وبذل كل المجهودات في ترويج اللغة الفارسية وأدابها والثقافة الإيرانية أدى كل ذلك في نهاية المطاف إلى امتزاج دين

مجلة الهند

التوحيد الخاص والنقي بالعقائد الوثنية والمجوسية وأوهام المتصوفة الهندوسية التي أثرت تأثيراً بالغاً في تكوين الشخصيات الصوفية الإسلامية في الهند والذين أخذوا عن الفلسفات الهندوسية معظم التعاليم لممارسة الشعائر الصوفية من الرياضيات والأوراد والأعمال التي يشتغل بها العباد الهندوس والجوكية من خلال نقل أعمالهم إلى اللغة الفارسية. ووجدت الطرق الصوفية الإسلامية ذات الخلفية الإيرانية بغيتها في الهند ووجدوا أرضاً خصبة للرواج والانتشار في الهند. وقامت الطرق الصوفية في ربوع الهند بتأسيس مراكز تربوية روحية لنشر أفكارهم الصوفية وكان أصحاب العاطفة الدينية العميقة من الطالبين للسلوك والمحبين للزهاد والصالحين من عامة الناس وخاصتهم يتصلون بهم وينتمون إليهم وإلى خانقاهم، ويتمسكون بطريقتهم، ويوفرون لهم كل ما يحتاجون من الدعم المادي والمعنوي لترسيخ دعائمهم في الهند. وقد بلغت هذه الأوضاع الدينية المتربدة منذ بداية القرن العاشر الهجري. كل ذلك أدى إلى القلق والفوبي في الأفكار، ودفع الناس إلى اعتناق دعوات وحركات خارجية أو داخلية والتي كانت تروي ظمائمهم وكانوا يجدون فيها سلواهم، ونهجت لهم مسالك جديدة - خاطئة أو صحيحة - وخرجت بهم عندائرة المحدودة. كما أن من البواعث الأساسية، والد الواقع القوية، لهذا الاضطراب الفكري، وغفلة المجتمع عن تعاليم الكتاب والسنة، وقلة العلم بالحديث الذي يساعد على تكوين تصور سليم وفهم صحيح للدين الإسلامي.¹

ومن هنا، كانت الهند في القرن العاشر الهجري أرضاً خصبة لوصول واستقرار كثير من الفرق الدينية الباطلة التي نشأت وترعرعت في إيران وفي البلدان المجاورة لها بسبب وضعها الديني المتredi للغاية. ومن المعلوم تاريخياً أن معظم الدعاة الملاحدة الذين خرجوا عن الإسلام وحاربوه باسمه، ينتمون إلى الأصول الفارسية. ومن أهم هذه الفرق الباطلة الخطيرة الفرقية النقطوية التي نشأت في إيران على يد "محمد

¹ مستفاد من الباب الأول لكتاب الإمام السرهندي حياته وأعماله، للشيخ أبي الحسن الندوى،

البسیخوانی المتوفی عام 1428ھ/832م¹، وظلت تنموا وتقوی إلى أن بلغ عدد أتباعه في القرن العاشر الآلاف المؤلفة في الهند وإیران. ووصلت إلى الهند بید دعاتها وأخص منهم شریف آملي الذي كان قد أصبح من أقرب مقربي السلطان أكبر، وساعدته كثيراً في وضع وترويج الدين الإلهي وكان السلطان أسنـد إلـيه قيـادة الجـيش، وعيـنه حاكـماً في كـابل في عـام 1581ھ/990م، كما عـينـه حاكـماً في إقـليم بنـگـال في عـام 1581ھ/990م، وكان من أـخـصـ أصحابـ السـلطـانـ أكبرـ وأـصـدقـائهـ، كان يـنـوبـ عنـ السـلطـانـ فيـ مـخـاطـبـةـ أـتـيـاعـ الدـيـنـ الإـلـهـيـ وـالـمـعـتـقـدـينـ فـيـهـ.²

ومن الفرق الدينية المدamaة المستوردة إلى الهند "حركة ذکری" التي كانت مؤسسة هي الأخرى على عقيدة انتهاء نبوة محمد صلی الله عليه وسلم عند انتهاء الألف الأول من الهجرة، وبداية نبوة جديدة، ودعوة جديدة لبداية الألف الثاني، نشأت هذه الحركة

¹ حسب المصادر المعاصرة "نقطة" عبارة عن الإلحاد والزنادقة والإباحية، واستحلال كل شيء، والاعتقاد بقدم العالم وإنكار الحشر والنشر، ومن أشهر عقادتها المدamaة هي التناصح بالأرواح والإيمان بالعقيدة الألفية، أي وضع دين جديد بعد كل ألف سنة. ولما مضى على الإسلام ألف سنة وظهر محمود البسيخوانی فقد انتهى دور العرب على حسب عقيدتهم، وابتدأ دور العجم، وهذا انتهت صلاحية الشريعة الإسلامية التي جاء بها محمد صلی الله عليه وسلم لأن مدتها ألف عام. للتفصیل راجع: فرقـةـ نقطـويـةـ برـایـكـ نـظـرـ (ـنـظـرةـ عـابـرـةـ عـلـىـ الفـرـقـةـ النـقطـويـةـ)، مجلـةـ فـكـرـ وـنـظـرـ، عـدـدـ يولـيوـ 1960ـ مـ

² اعتبره المؤرخ عبد القادر من أكبر شياطين ودرجاتي البلاط السلطاني، راجع: منتخب التواریخ، 192/194 عن هجرة جماعية للنقطويین إلى الهند إثر قيام الإدارة الصفوية بالقضاء عليهم، حيث وجدوا في ظل الدولة المغولية الفتية وفي بلاط السلطان أكبر أحسن وأمن ملجاً، الذي توثقت صلات بعض وزرائها مثل أبي الفضل مع زعماء هذه الفرقـةـ في إیران مما مهد لهم الطريق إلى الهجرة إلى الهند، ووأقام السلطان المناصب العالية في الإدارة، كما منحهم كثيراً من المزايا والتسهيلات وهيأ لهم الفرص الرائعة لتنفيذ خططهم ليثـ الروحـ في قضـيةـ الأـلـفـيةـ وـتـأـسـيسـ الدـيـنـ الجديدـ منـ خـلالـ المـهـدـيـ المنتـظرـ راجـعـ: الإـسـمـاعـيـلـيـوـنـ فـيـ العـصـرـ الـوـسـيـطـ: تـارـيخـهـ وـفـكـرـهـ، راجـعـ القـسـمـ الثـانـيـ: الطـورـ النـزـاريـ: حـرـكـةـ مـحـمـودـ بـسـيـخـانـيـ النـقطـويـةـ وـدـوـرـهـ المـادـيـ الصـوـفيـ العـجـيـ، صـ306ـ289ـ

مجلة الهند

في بلوجستان، ونمّت وقويت، على يد ملا محمد الذي يعتبره أتباع هذه الحركة أفضضل الرسل وخاتم النبيين، ويقدسونه، ونشروا هذه الأفكار من خلال كتبهم والتي تتجلّى فيها نماذج غريبة للكذب والافتراء والتديليس، والتلبيس الباطل والجرأة الواقحة على الله ورسوله.¹

ومن هذه الفرق الإمامية والإسماعيلية النزارية من الشيعة المتطرفة المهاجمة التي نشأت وترعرعت بتأثير الإيرانيين في جنوب الهند، وفي كشمير وفي آغرا، أما الجنوب فكان قد اعتنق برهان نظام شاه-أمير ولاية أحمد نغر- في أواسط القرن العاشر، المذهب الشيعي، وغلا في مذهبه الجديد، وتطرّف، حتى أمر الناس بسب الخلفاء الراشدين الثلاثة في المساجد والرباطات وعلى الشوارع وفي الأسواق، وعيّن رواتب ضخمة مغربية لمن يقومون بهذه الخدمة، وقتل كثيّراً من أهل السنة والجماعة، وأسر كثيّراً منهم. أما الكشمیريون فانتشر فيهم المذهب الشيعي بجهود الشيخ مير شمس الدين العراقي الذي بذل مجهودات كبيرة في نشر هذا المذهب، وتحمّس للدعوة إليه. أما البلاط السلطاني فكان يقود القاضي نور الله شوشتري الجماعة الشيعية لتنشيط وترويج أفكار الشيعة في داخل البلاط وخارجها.²

وهذه الفرق الباطلة المستوردة من إيران مهدت الطريق لبعض الشخصيات الدينية وشجّعت كثيّراً من الشيوخ والصوفية المنحرفين على تأسيس الفرق الدينية وتكون الجميات مستهدفاً تحقيق أهدافهم السياسية والدينية. ومن هذه الحركة الهدامة "الروشنائية" فهي الأخرى من الفرق النشطة التي نشأت في القرن العاشر الهجري في الأطراف الشمالية للقارّة الهندية، وببلاد الأفغان. أسسها بايزيد بن عبد الله بن محمد الأنصاري.³ ودعا الشيخ بايزيد إلى عقائد كثيرة زعم أنها من صميم الإسلام، ومن أهمها العقيدة في وحدة الوجود الذي يعتبره بايزيد أنه هو التوحيد الحقيقي الذي

¹ راجع ذكري مذهب كا تفصيلي جائزه، للدكتور ضياء الحق الصديقي، وذكرى مذهب اور إسلام،

² راجع: سرمایة عمر، ص 114 ما بعدها.

³ لترجمته راجع: إعجاز الحق قدوسی، ص 83-84

جاء به الإسلام، ويدلّ عليه القرآن الكريم. ومن عقائدها الخطيرة هو الاعتقاد أن الشيخ بايزيد ملهم من الله ويسمع نداء الغيب. والشيخ نفسه روج هذه الأفكار بين تلامذته ومربييه من خلال تأليف الكتب في هذا المجال. وفي الجملة دعوته مؤسسة على ثمانية أصول مهمة وهي أهم ما يميز هذه الفرقة عن مثيلاتها التي نشأت في القرن العاشر الهجري، وهي: 1. الشريعة؛ 2. الطريقة؛ 3. الحقيقة؛ 4. المعرفة؛ 5. القرية؛ 6. الوصلة؛ 7. الوحدة؛ 8. السكونة¹. وتمكن الشيخ من استقطاب دعاة كثيرين إلى صفوف حركته، الذين اعتنقوا مبادئ الفرقة الروشنائية، وقاموا بدور مهم في نشر مبادئ هذه الفرقة وترويجها ودخلوا مع الإدارة المغولية في صراع سياسي طويل امتد إلى عهد السلطان شاه جهان.²

وكان من أنشط الحركات المتطرفة وأقواها في ذلك العصر، حركة المهدوية، التي هزّت المجتمع الإسلامي كله في شبه القارة الهندية، وما يجاورها من البلاد.³ أسسها محمد بن يوسف الجونبوري المتوفى عام 910هـ/1504م، وكانت دعوته مؤسسة على سبعة أصول: 1. الانصراف عن الدنيا، 2. العزلة عن الخلق، 3. الهجرة عن الوطن، 4. صحبة الصديقين، 5. دوام الذكر على طريقة حفظ الأنفاس، 6. مشاهدة الرب سواء كانت بالعين أو بالقلب، في اليقظة أو في المنام، شرط لازم لتحقيق الإيمان والإسلام. 7. التوكل على الله. وقد ادعى مؤسساها بأنه المهدي المنتظر. وقد بالغ تلاميذه في تعظيمه وتقديسه حتى ساوهه بالأنبياء والمرسلين، بل فضّلوا عليهم أحياناً. وانتشرت

¹ حالنامه، من ورقة 272 ألف- 278 نقلاً عن:

Tariq Ahmed: Religio-Political Ferment in the North West Frontier during the Mughal Period, (Idarah-I Adabiyat-I Delli, Delhi 1982), P.60

² راجع للتفصيل ولترجمة الشيخ: حالنامه، وله مؤلفات عديدة في العربية والفارسية والبشتوية، ومن أهمها "خير البيان" الذي ألفه الشيخ نفسه في أربع لغات، وهو الكتاب يعدّه تلامذته كلام الله المباشر إليه والصحيفة السماوية المنزلة عليه. والكتاب "خير البيان" منشور من جامعة كابل عام 1975م.

³ راجع: الإمام السرهندي، ص 45-50

مجلة الهند

هذه الفرقة في گجرات وأحمد نگر انتشاراً واسعاً، خصوصاً بعد دخول كثير من النساء والأعيان إلى هذه الفرقة الباطلة.¹

هذه نبذة بسيطة لبعض الفرق الباطلة نشأت في خارج الهند وداخلها وكان لها حضور قوي خلال فترة البحث في انحراف المجتمع الإسلامي في الهند والإدارة المغولية لا سيما السلطان أكبر نفسه الذي صار ضحية لهذه الفرق لا سيما النقطوية والشيعية والفرق الدينية الهندوسية التي وجدت ضالتها في شخصية السلطان أكبر لتأسيس دين جديد وفتح عهد جديد في شبه القارة الهندية تحت الرعاية السلطانية. وبجانب هذه الأسباب كانت هناك عوامل أخرى خطيرة شجّعت السلطان الأبي على تأسيس الدين الإلهي ومن أهمها قيامه بإنشاء "عبادت خانه" لجمع العلماء من كل فرقه وطائفة من السنة والشيعة والبراهمة والفرق الباطلة المذكورة أعلاه، والمهد والنصارى، والمجوس، وجعل ينافسهم في مسائل الدين مع وضع المجالس الخاصة للمناظرة الدينية بين هذه الطوائف الدينية والفرق الباطلة، فبدأ يقنع أن الأديان كلها على حق، ولا مزية للإسلام بينها، ولا فضل له على غيره، وكانت هذه النزعة الجديدة توطنها لدعوة التقارب بين الأديان، وتأسيس المذهب الجديد؛ ذلك بعدها ورد كل مورد، وشرب من كل منه، وظاف على كل دين ومذهب، واقتبس منه ما أراد، وأعلن عن مذهبه الجديد.² وقد صور بعض مؤرخي البلاط وضع البلاط السلطاني وعبادت خانه،³ فيقول منتقداً علماء السوء: " بسبب الخلاف القائم بين العلماء حول المسائل الدينية وتنافسهم الشديد حيال الدنيا والمادة، ظهر أهل البدع والأهواء بأراءهم الخاطئة، وشبهاتهم الباطلة من مكانتهم، وبذلوا يعرضون الباطل في صورة الحق، والخطأ في شكل الصواب ورسخوا الشك والارتياح في نفس السلطان الذي كان

¹ عن ترجمة الشيخ ونشاطاته الدينية والصراع الذي قام في حياة الشيخ وبعد وفاته راجع: الإعلام، 418-420/1

² عن هذه التجمعات في عبادت خانه وفي البلاط السلطاني راجع: منتخب التواريخ، 202/2

³ عن نشاطات عبادت خانه راجع: منتخب التواريخ، 151-152/2-200-201

يملك الذكاء والفطنة، ويبتغي الحق، إلا أنه كان أمياً محضاً، يأنس إلى الكفار من الهندوس واليهود والنصارى، الذين زادوا في حيرته واضطرابه، وضعاف الهدف الحقيقى، وانحل رباط الشريعة، ولم يبق بعد خمسة أعوام عين ولا أثر للإسلام، وانقلبت الدنيا رأساً على عقب".¹

وكتب المؤرخ نفسه في موضع آخر فيقول: "بدؤوا يثرون الشكوك والشبهات، ويضحكون ويستهزئون بكل فرضية من فرائض الإسلام وكل عقيدة من عقائد الدين، سواء كانت تتعلق بالأصول أو الفروع، كعقيدة النبوة والرسالة، ومسألة كلام الله ورؤيته، وتکلیف الإنسان، وتكوين العالم، والحضر والنشر، وغير ذلك من المسائل العقدية".² وعلى كل ساعد كل من العلماء السوء،³ والإدارة المغولية المنحرفة هي الأخرى،⁴ واليمونة الشيعية والنصرانية والمجوسية في البلاط السلطاني،⁵ والتآثيرات الهندوسية من خلال المصاهرات وعبر تقوية العلاقات السياسية والاجتماعية مع رجال الدين من الجوكين وغيرهم،⁶ والعقيدة الأليفة التي اتخذها السلطان من الفرقة النقطوية والذكورية كما تناولت في الصفحات السابقة، على خلق جو مناسب للسلطان أن يقنع -على حسب مؤرخ البلاط- أن مدة ألف سنة بعدبعثة النبوة- وهي العمر الطبيعي لهذا الدين- قد انقضت فلم يبق هناك ما يحول دون إبداء تلك الرغبات الكامنة في الصدر".⁷ وبعد ترسيخ هذه العقيدة في مخ السلطان، شرع الأخير في اتخاذ ما يلزم لنشر هذه العقيدة أي الدين الإلهي بين الجماهير وترسيخها في أذهانهم في عام 990هـ/1581م. ولإعطاء الدين الإلهي المشروعية الكاملة الحقة اتخذ السلطان قبل

¹ المصدر نفسه، 201/2

² المصدر نفسه، 257-258/2

³ المصدر نفسه، 200-201/2

⁴ المصدر نفسه، 201-202/2

⁵ المصدر نفسه، 206-207/2

⁶ المصدر نفسه، 274/2

⁷ المصدر نفسه، 250/2

مجلة الهند

ذلك بعض الإجراءات الصارمة ومن أهمها إعداد الوثيقة التي وقع عليها كبار علماء الدولة، ومنح السلطان أكبر بموجها المرجعية المائية في الشؤون الدينية.¹

وكان الهدف الأساسي في المذهب الإلهي هو محاولة إزالة الخلاف بين المسلمين والهندوس بصفة خاصة، وبين الإسلام والديانات الأخرى عامة، وصولاً إلى ما كان يهدف إليه من وحدة الأديان في المذهب الجديد، وكان السلطان يرى أن نشر العقيدة الألفية يساعد على ترسيخ هذا الاتجاه، وتم الاختيار على بعض العقائد الأساسية التي عليها مدار الدين الإلهي وهي عقيدة وحدة الوجود، ووحدة الأديان، ومن هنا اختارت اللجنة المعنية لترويج الدين الإلهي مجموعة من العقائد والأعمال، والتي كانوا يرون فيها أنها توحد صفوف جميع أهل الأديان، ويرفع من بينهم العداوة والبغضاء، ومن أبرز هذه العقائد هي تحريف كلمة التوحيد "لا إله إلا الله...." وسجدة التحية، وعبادة الشمس والنار، وإسقاط فرائض الإسلام، واستبدال تحية السلام، وتقدير وتقديس الخنازير والأبقار والحيوانات الأخرى، واعتناق التقاليد الهندوسية وغيرها من المعتقدات الفتاكة التي أدت إلى الانحرافات الكاملة وخلق جوًّ من البدع والمنكرات في المجتمع الهندي الإسلامي ومن أهمها: الدعوة إلى عبادة النار والشمس وتقديس مياه الأنهار المقدسة عند الهندوس،² واعطاء الحرية الكاملة للمسلمين الجدد أن يرتدوا عن دين الإسلام، ويرجعوا إلى أديانهم الأولى، والسماح الكامل لكافة الأديان والطوائف الدينية بإنشاء معابدهم.³ وتحليل الخمر والميسر على مرأى من الناس ومسمع تحت رعاية وإشراف الإدارة المغولية،⁴ ومنع المسلمين من تزوج بنات

¹ المصدر نفسه، 217-218 أعدت هذه الوثيقة في عام 987هـ، وتم تنفيذها في المملكة، ووقع عليها جميع العلماء بإشارة من السلطان، ومن ثم أصبح الملك إماماً مجتهداً، ومستوجب الطاعة والانقياد، وخليفة الله في الأرض وظله، وكانت هذه نقطة البداية لرحلة الردة التي انتهت لا إلى الزيف والانحراف عن الإسلام فحسب؛ بل إلى المعارضة والعناد والمكابرة". راجع: الإمام السرهندي، ص

96

² المصدر نفسه، 207-208

³ المصدر نفسه، 335/2

⁴ المصدر نفسه، 250-251

مجلة الهند

العم والعمدة وكذلك منع أولادهم من الختان، تقليداً للعادات والتقاليد الهندوسية.¹ وترخيص نشاطات البغایا والعواهر أن يتعاطين أشغالهن تحت رقابة الإدارة المغولية.² وإسقاط الاغتسال من الجنابة، وكان السلطان يرى هو وندماوه أن الاستحمام قبل الجماع أنساب وأوفق للطائع البشرية.³ والدعوة والتشجيع إلى السفور والخلاعة والقضاء على الحجاب والنقاب، وإصدار الفتاوى بجواز نكاح المتعة على حسب شريعة الشيعة.⁴ وإصدار الأوامر الإدارية بمنع اللغة العربية وتدرس الدراسات الإسلامية، وتطهير اللغات الهندية والفارسية من الكلمات والمفردات العربية وتحريفها.⁵ وإصدار الأمر بتعطيل أعياد المسلمين واستبدالها بأعياد والمهرجانات غير الإسلامية مثل النوروز وغيرها.⁶ وإباحة أكل لحوم الحيوانات الضارة والخنازير.⁷ وإصدار الأوامر لحلق اللحية والاستهزاء بها.⁸ وإصدار الفرمان لمنع الزكاة وإسقاط الجزية عن المشركين.⁹ وإصدار الفرمان العام لمنع ذبح البقرة لتعظيم الوثنين إليها وعبادتهم لها.¹⁰ والازدراء بالدين الإسلامي وإهانته،¹¹ وإنكار

¹ المصدر نفسه، 255/2

² المصدر نفسه، 252-251/2

³ المصدر نفسه، 255/2

⁴ المصدر نفسه، 160-158/2

⁵ من السلطان أكبر تداول اللغة العربية وأداتها والعلوم الإسلامية حتى قامت اللجنة العلمية بإخراج بعض الحروف العربية المهمة مثل "ث، ح، ع، ص، ض، ط، ظ" فبدأوا يكتبون عبد الله "أبد الله" و"رمضان" رمان و"أحد" اهد وغيرها، وكذلك أصدر الفرمان لترك العلوم الإسلامية واستبدالها بالعلوم العقلية من الفلك، والحساب والطب والفلسفة وغيرها، وكانت هذه الضربة قاسية للغاية وبالتالي لم يخرج الهنود من قضية النطق الصحيح لكتير من الكلمات العربية خصوصاً وفيها الكلمات المذكورة أعلاه. راجع: منتخب التواريخ، 2/ 308-257

⁶ المصدر نفسه، 259-258/2

⁷ المصدر نفسه، 255/2

⁸ المصدر نفسه، 253/2

⁹ المصدر نفسه، 223/2

¹⁰ المصدر نفسه، 252/2

¹¹ المصدر نفسه، 256/2

مجلة الهند

المعجزات،^١ والسخرية من الإسراء والمراج،^٢ وإهانة مكانة النبوة،^٣ والنفور من أسماء النبي صلّى الله عليه وسلم والكرابحة لها،^٤ والاستهزاء بأركان الإسلام وفرائضه،^٥ إلغاء التقويم الإسلامي الهجري، واتخاذ التقويم الإلهي الذي بدأ من اعتلائه لسدة الحكم عام 963هـ، وسمّاه التاريخ الألفي.^٦

وتتجدر الإشارة هنا إلى أن الإدارة المغولية وضعـت هذه الخطة الشاملة المذكورة أعلاه من ضمن بنود قوانين الدولة المغولية في كتاب "آئين أكبرى" أي قوانين أكبرى، والتي تم تنفيذها على أرض الواقع لتطبيق الدين الإلهي وعقائده، وتنجلى منها التصورات الحقيقة لتلك الكراهة، والعناد والبغض للإسلام ولصاحب الشريعة الغراء عليه الصلاة والسلام، والتي كانت نتيجة انحراف السلطان والإدارة المغولية عن دين الإسلام.^٧ وما جاء في هذه القوانين يدلّ على صدق صاحب منتخب التواريخ وحياديته وإنصافه، وقلقه الشديد على الأوضاع الدينية، وجراحته، وصراحته بكلمة الحق. ولا شك أنه من المؤرخين المنصفين الذين لم يبالوا بما يحدث معه إنما كان شغفهم الشاغل هو تسجيل الأخطاء والزلات دون مبالغة وفي غاية الوضوح.

وعلى حسب المصادر المعاصرة لقد أثار الدين الإلهي وعقائده الهداة ببلبة شديدة في المجتمع الإسلامي الهندي آنذاك، وسنحت فرصة ذهبية للعناصر غير الإسلامية

^١ المصدر نفسه، 257/2

^٢ المصدر نفسه، 266/2

^٣ المصدر نفسه، 257-256/2

^٤ حسب المصدر المعاصر غير السلطان أسماء بعض الإداريين من محمد وأحمد ومصطفى إلى بار خان، رحمـت خان وغيرهم، المصدر نفسه، 264/2

^٥ المصدر نفسه، 264/2

^٦ المصدر نفسه، 256/2

^٧ آئين أكبرى، 2/350 بند رقم 53، 2/356 بند رقم 85، 2/354 بند رقم 103، 2/356 بند رقم 106، 2/356 بند رقم 107، 2/357 بند رقم 111، 2/359 بند رقم 132، 2/360 بند رقم 134، 2/361 بند رقم 142، 2/361 بند رقم 143، 2/362 بند رقم 144، 2/363 بند رقم 150، 2/364 بند رقم 158، 2/365 بند رقم 172، 2/366 بند رقم 183، 2/367 بند رقم 184، 2/370 بند رقم 204.

لتطالهم ضدّ الإسلام والشريعة الإسلامية وبدؤوا يسخرون من العقيدة الإسلامية والسنة النبوية، وجعلت هذه الخطوات الإسلام غريبًا في وطنه وبلده، ولم تعدله قوّة ولا سلطة كما كان، وذهبته هيّته من قلوب المسلمين وغير المسلمين.¹ وكانت لها تأثيرات سلبية للغاية في الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية كذلك.

منجز الشيخ أحمد السرهندي في عملية الإصلاح والإرشاد: لدى الاطلاع على أعمال الشيخ أحمد السرهندي، لا سيما مكتوباته المرسلة والموجهة إلى الجهات المختلفة، نستطيع أن نحدد أنه قبل أن يبدأ أعماله الإصلاحية، في عهد السلطان جهانگير؛ وذلك لما بلغ أشدّه وتكاملت معارفه، وشاهد بأمّ عينيه ما آلت إليه أحوال المسلمين في الهند آنذاك، فندب نفسه للرد على الفتنة لا سيما الدين الإلهي، ولكن أمعن النظر في دوافع المذاهب المنحرفة، وبحث أوّلاً عن رأس الفتنة، فوجد أن هناك ثلاثة روافد تتدفق منها روح الفتنة والاضطرابات الدينية، أولها: الإدارة ورجالها وأركانها الذين ما كانوا يحملون عقيدة صحيحة راسخة محكمة في الدين والدولة والشريعة، ومن هنا وقعوا بمنتهى السهولة في الاضطرابات الدينية والفكريّة، وصاروا هدفاً خاصّاً للحركات الإلحادية الهدامة المذكورة في الصفحات السابقة، واهتموا بالصالح الخاصة على حساب مصالح الدولة، وتنافسوا في تحقيق أهدافهم السياسية والماليّة مما جعلهم غير قادرين على تنظيم الدولة وإدارتها والجمع بين سموّ الأخلاق والاستقامة الدينية والتقدّم بالشريعة.

أما ثانياً: العلماء لا سيما علماء البلاط الذين لم يقوموا بدور أساسي فعال في ملازمة السلطان وصيانته من الزيف والانحرافات الدينية، وحمايته من التطرف وفقدان الاتزان، لأنّهم ما كانوا يمتازون بالتفقه وال بصيرة في الدين وما كانوا يتحلون بالحكمة والفهم الصحيح الشامل، وكانوا يتعمقون في الجزئيات أكثر من كليات الدين، ولم يكن لديهم قدرة كافية في فهم مقاصد الشريعة وغاياتها، وفي نفس الوقت ما كانوا متصرفين بسموّ الأخلاق، وموسومين بالإخلاص والإيثار، فكانوا يهتمون بحب الجاه

¹ راجع: منتخب التواريخ، 216/2

مجلة الهند

والمال، وما كانوا يعرفون أهمية الدولة الإسلامية الناهضة ودقة موقفها. ومن خلال متابعة الأحداث التاريخية نستطيع أن نقول إن الفريقين لم يكونوا على المستوى اللائق فحسب؛ بل من المؤسف المحزن أنهم خانوا الدولة بدل أن يخدموها، ونفروا السلطان من الدين بدل أن يشرحوا صدره له ويحببوه إليه.¹

أما ثالثها: فكانت تمثل في محاربة الطرق الصوفية المنحرفة، الذين تركوا الشريعة وبحثوا الحقيقة في الطريقة والنشاطات غير الدينية وفي الفلسفات الهندوسية، وأسسوا مراكزهم الروحية التربوية لممارسة الرياضيات والأعمال الشاقة للوصول إلى الحقيقة بعيداً عن السير على السنة النبوية والإسهام في نشر الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية وترويجها في الهند التي كانت تعيش فيها الأكثريّة من غير المسلمين. وكانت انحرافات الصوفية من الرواقد المهمة التي استقى منها "الدين الإلهي" مبادئ الفكر الصوفي، لا سيما عقيدة وحدة الوجود ووحدة الأديان.² فرُكِّزَ الشِّيخُ أَخْمَدُ السُّرْهَنْدِيُّ كُلَّ مجْهُودَاتِهِ الحَثِيثَةَ عَلَى تَقْوِيمِ هَذِهِ الشَّرَائِحِ الْمُهِمَّةِ مِنَ الدُّولَةِ وَالْإِدَارَةِ وَالْمُجَتَمِعِ. وَبِدَا الشِّيخُ نَشَاطَاتِهِ الإِصْلَاحِيَّةَ عَلَى ثَلَاثِ جَهَاتٍ مُخْتَلِفةً، أُولَاهَا: تَحْرِيرُ الْمَكْتُوبَاتِ وَإِرْسَالُهَا إِلَى أَرْكَانِ الدُّولَةِ، وَثَانِيهَا: قِيَامُهُ بِتَصْنِيفِ وَتَأْلِيفِ لِلرَّدِّ الْمُنْاسِبِ عَلَى الْكَذَبِ وَالْافْتِرَاءِ عَلَى الشَّرِيعَةِ وَالسَّنَةِ النَّبُوَّةِ، ثَالِثَاهَا: تَنْشِيطُ الْحَلَقَاتِ الْدِينِيَّةِ وَالْتَّعْلِيمِيَّةِ وَالتَّرْبِيَّةِ.

¹ لقد وضح الشِّيخُ أَخْمَدُ السُّرْهَنْدِيُّ فِي أَحَدِ مَكْتُوبَاتِهِ مُشِيرًا إِلَى وَضْعِ الْعُلَمَاءِ وَالصَّوْفِيَّةِ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ أَكْبَرَ، فَيَقُولُ: "... إِنَّ عُلَمَاءَ الدِّنِيَا الَّذِينَ هُمْتَهُمُ التَّهَافُتُ عَلَى مَتَاعِ الدِّنِيَا وَجَمْعِ حَطَامِهَا صَحْبَتُهُمْ سَمَّ قَاتِلٍ وَفَسَادِهِمْ فَسَادٌ مُتَعَدٌ... وَكُلَّ بَلَاءٍ ظَهَرَ فِي الْقَرْنِ الْمَاضِي أَيْ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ أَكْبَرَ، إِنَّمَا ظَهَرَ بِسَبِيلِ شَوْمٍ هُؤُلَاءِ الْجَمَاعَةِ فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَخْرَجُوا السُّلْطَانَ مِنَ الطَّرِيقِ الْحَقِّ، بَلْ لَيْسَ فِرْقَةً مِنْ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً إِلَّا وَمَقْتَدَاهُمْ فِي اخْتِيَارِ طَرِيقِ الضَّلَالَةِ هُمُ الْعُلَمَاءُ السُّوءُ وَقَلَّ مَنْ تَتَعَدَّى ضَلَالَتِهِ إِلَى الْغَيْرِ اخْتَارَ لِضَلَالَةِ غَيْرِ عُلَمَاءِ السُّوءِ، وَأَكْثَرُ الْجَهَلاءِ الْمُتَشَهِّدِينَ بِالصَّوْفِيَّةِ فِي هَذَا الزَّمَانِ لَهُمْ حُكْمُ عُلَمَاءِ السُّوءِ أَيْضًا، فَإِنَّ فَسَادِهِمْ فَسَادٌ مُتَعَدٌ... راجِعٌ: الْمَكْتُوبَاتُ، 91/1، رَقْمُ الْمَكْتُوبِ: 47

² مستفاد من كل من أبي الحسن الندوبي: الإمام السرهندي، ص 76-78 ومحمد منظور نعماني: تذكرة مجدد ألف ثاني، ص 136-138

ونحن هنا بقصد الشريحة الأولى التي دعاها الشيخ السرهندي إلى حفظ الدين وصيانته والقضاء على البدع والخرافات ونشاطات الفرق الباطلة وإعادة المياه إلى مجارها مرة أخرى، لأنه كان يرى أن السلطان بالنسبة إلى العالم بمثابة القلب بالنسبة إلى البدن منبني آدم، فكما أن القلب إذا كان صالحًا يكون البدن صالحًا وإذا كان فاسدًا يكون البدن فاسدًا، كذلك صلاح السلطان وصلاح العالم وفساده فساده¹. وقام الشيخ من خلال إرسال المكتوبات التي سنعتمد عليها للمعرفة عن علاقة الشيخ مع أركان الدولة وموقف بعضهم ببعضًا، ولكن علينا أن نبدأ أولاً علاقته مع السلطان جهانگیر الذي جلس على كرسي الحكم بعد وفاة والده السلطان أكبر، ودوره في تقويم الأخير دينياً وثقافياً.

المبحث الخامس: جهود الشيخ أحمد السرهندي في إصلاح السلطان وأركان الدولة²

جهود الشيخ أحمد السرهندي في إصلاح السلطان: بدأ الشيخ أحمد السرهندي نشاطاته الدعوية والإصلاحية لأركان الدولة في عهد السلطان أكبر من خلال إرسال المكتوبات التي سندكرها فيما بعد، وإنما سنتحت له المواقع للاحتكاك مع السلطان جهانگیر وإصلاحه بعد وصول الأخير إلى سدة الحكم. وعلى كل علينا أن نقسم علاقتهما إلى ثلاثة مراحل مع ذكر جهود الشيخ في إصلاح السلطان:

المراحل الأولى: ظهرت علاقات الشيخ أحمد السرهندي مع السلطان جهانگير لدى جلوس الأخير على عرش الهند. يؤكّد بعض الباحثين على أنّ الشيخ أحمد السرهندي والآخرين الموالين إلى الفكر الإسلامي، أدّوا دوراً في وصوله إلى سدة الحكم.³ وفي الواقع

¹ المكتوبات، 1، 90/1، رقم المكتوب: 47

² من باب الأمانة العلمية أنه لا بد من الذكر أن الباحث استفاد كثيراً من المبحث الخاص بعنوان: "شيخ أحمد سرهندي اور اهل حکومت میں شریعت کی ترویج" لصاحبہ البروفیسور ظفر الاسلام إصلاحی فی کتابہ "عہدِ اسلامی کی ہندوستان میں معاشرت، معيشت اور حکومت کی مسائل"،

ص 150-183

³ 168، State and Culture in Medieval Indian

دعم الشيخ بعض الشخصيات الإدارية لغير السياسة في البلاط السلطاني ومساندة الأمير جهانگير للجلوس على عرش الهند، ومن أهم هذه الشخصيات الشيخ فريد البخاري الذي أرسل إليه الشيخ أحمد عدداً كبيراً من المكتوبات،¹ تفيد واحدة منها بأن الشيخ كان يرى أن الشيخ فريد من المتحمسين لحفظ الدين الإسلامي وشرعيته.² وعلى كل يقال إنه لما جاء الأمير سليم نهايأً إلى دهلي رافقه الشيخ فريد في الموكب السلطاني. ولما تم الانقسام بين الوزراء حول قضية الجلوس على العرش إثر وفاة السلطان أكبر، قام الشيخ فريد الذي استجمع قوات فرقة السيدين من "بارهه" للدعم السياسي والعسكري الكامل للسلطان جهانگير. وفي هذا الصدد ينبغي أن يوضع في الاعتبار أنه قد سئل الأمير سليم من جانب الكوادر الإسلامية التي كان يقودها الشيخ فريد، التعهد بحفظ الإسلام وصيانته وحمايته وإلغاء كل القوانين المضادة للإسلام والتي شرعت في عهد أكبر بعد جلوسه على كرسي الحكم، ووعد الأمير سليم بذلك.³ ومع ذلك هناك بعض الباحثين المنتقدين للشيخ أحمد السرهندي لا يرون دور الشيخ أحمد في هذه العملية السياسية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ويرون أن هذا الرأي يبدو أنه رو

¹ اسمه الكامل مرتضى بن أحمد البخاري، كان سياسياً كبيراً وسخياً وكريماً وكان يقر أهل العلم والفضائل، أدرك السلطان أكبر شاه في صغر سنّه فتقرب إليه، وتدرج إلى الإمارة حتى نال منصب "مير بخشكيري"، ثم لما جلس السلطان جهانگير على كرسي الحكم أضاف في منصبه ولقبه بصاحب السيف والقلم، وكان له إسهامات جليلة في إنشاء المنشآت الدينية والمدنية خلال فترة ولايته في گجرات ولاهور وغيرهما من المدن الهندية، بالإضافة إلى ذلك كان رجلاً سخياً وكريماً وكان يأكل في مائته ألف وخمسمائة نفر كل يوم. للمزيد راجع: الإعلام، 2/647-648

² راجع رسالته المرسلة إلى الشيخ فريد في المكتوبات، 1/84-86، رقم المكتوب: 44

³ معظم المؤرخين والباحثين المحدثين يؤكدون على أن الشيخ فريد ومعاونيه ساعدوا الأمير سليم للوصول إلى سدة الحكم وهو الذي وعد بحماية الشريعة الإسلامية. راجع:

R.P. Tripathi: Rise and Fall of the Mughal Empire, Allahabad, India 1985, P.340; Beni Prasad: History of Jahangir , Allahbad, India 1962, P.66-67

مجلة الهند

من جانب اليسوعيين النصارى الذين روجوا مثل هذه الأفكار أن الإسلاميين ساعدوا الأمير سليم على وصوله إلى كرسي الحكم.¹

ولكن خلافاً لرأي هذا الناقد للشيخ أحمد السرهندي، يتبيّن من مكتوبات الشيخ أحمد أنه كان يستشير الشيخ فريد من الشيخ أحمد وكان هناك صداقّة قوية وتفاهم متتبادل بين الشيختين وكان الشيخ فريد بدوره يشير على الأمير سليم قبل وبعد جلوسه على العرش. ثم لم يكن يكتب الشيخ أحمد مكتوباته موجهاً إلى أعيان الحكومة بهذه الطريقة الصريحة والواضحة دون أن يجد أفكاره مقبولة ومسموعة لديهم. وتتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ أحمد شخصياً ذكر الأمير سليم، في إحدى رسالاته المرسّلة إلى الشيخ فريد شاكراً من ضعف أهل الإسلام وغلبة الكفار سائلاً الشيخ فريد لترغيب السلطان الجديد في ترويج الدين والشريعة الإسلامية وتقوية المسلمين، أنه سلطان المسلمين، ولا بد من تقديم كل المساعدة المعنوية والمادية له لترويج الشريعة الإسلامية، معبراً عما حدث مع الإسلام والمسلمين في عهد السلطان أكبر، فيقول: "... وأما في القرن الماضي فقد أجري الكفار حكمائهم في دار الإسلام على الملاً بطريقة الغلبة والاستيلاء (على السلطان والإدارة المغولية) حتى عجز المسلمين عن إظهار أحكام الإسلام بحيث من أظهره قتلوا، ويا ويلاه ويا مصيّتاه ويا حسرتاه ويا حزناه كيف صار مصدقاً محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم محظوظ رب العالمين أذلاء حقيرين عديمي المقدار، ومنكروه في غاية العز والاعتبار، والمسلمون في تعزية الإسلام مع قلوب مجرورة، والمعاندون يرشون الملح على جرائمهم بالسخرية والاستهزاء، وشمّس الهدایة مستورة تحت أفق الضلال... وقد وصل الآن زوال مانع ظهور الإسلام وبشاشة جلوس سلطان المسلمين على سرير السلطنة إلى مسامع الخاص والعام فينبغي لأهل الإسلام أن يعدوا معاونة السلطان وإمداده لازمة لذمّتهم، وأن يدلوا على ترويج الشريعة وتقوية الملة... وأفضل الإمداد هو تبيان المسائل الشرعية وإظهار العقائد الكلامية على حسب الكتاب والسنة وإجماع الأمة

222-219، Muslim Revivalist Moment in Northern India¹

النبوية لئلا يظهر في البين ضال ومبتدع فيسد الطريق....¹ وهذه الرسالة تكشف بوضوح تام أنه كانت هناك بعض التوقعات لدى الشيخ أحمد السرهندي وبعض المخلصين الإداريين من أن السلطان الجديد سيطبق الشريعة الإسلامية. وتكشف هذه الرسالة أيضاً أنه قد وعد السلطان قبل جلوسه الشيخ فريد أنه سيحمي الإسلام ويناصر المسلمين عند وصوله إلى سدة الحكم. ويتبين أيضاً من هذه الرسالة أن الشيخ فريد كان يخبر الشيخ أحمد المستجدات في البلاط السلطاني وفي الساحة السياسية، ومن هنا لم يكن بد من أنه قد أرسل الخبر حول النجاح في وصول جهانگير إلى سدة الحكم موضحاً وعد الأخير بحماية الإسلام والمسلمين والذي يظهر من مدح الشيخ السرهندي للسلطان لدى جلوسه على كرسي الحكم، ولو لا ذلك لما ذكره الشيخ كسلطان المسلمين وعبر عن ابتهاجه وانتصاره ووصوله إلى سدة الحكم.² وتبين من الرسالة أنه على إمام تام بما يجري في الساحة السياسية برغم أنه يسكن في سرهند بعيداً عن العاصمة. وعلاوة على ذلك قد قدم الشيخ أحمد السرهندي في هذه الرسالة خدماته واستعداده لتقديم كافة المساعدات المعنية والدينية في سبيل ترويج الإسلام والشريعة عبر القنوات الرسمية فيقول: "وبناء على هذا يريد هذا الفقير أن يلقي نفسه إلى ميدان ممدّ دولة الإسلام ويجتهد فيه بقدر الإمكان فيحكم (من كثُر سواد قومٍ فهو منهم)³ يحتمل أن يكون هذا العاجز عديم القدرة داخلًا في زمرة هؤلاء الجماعة... والمرجو أن أتشرف بالحضور عن قريب إن شاء الله تعالى.... والمتوقع من جناب شرفكم حيث يسر الله سبحانه وتعالى لك

¹ راجع: المكتوبات، 1/90-91، رقم المكتوب: 47

² وقد مدحه الشيخ السرهندي في أحد مكتوباته فيقول: "وقد اندرجت في المكتوب الشريف شيمة من طلب سلطان الوقت لله - هذه الجملة غير مفهومة- تعالى من حسن النشأة ووقع رمز إلى العدالة والتزام الأحكام الشرعية فأورثت مطالعة ذلك فرحاً وافراً وذوقاً كما أن الحق سبحانه وتعالى نور العالم بنور عدل سلطان الوقت وعدالته، نصر الشريعة المحمدية وأعز الملة المصطفوية أيضًا بحسن اهتمامه... راجع: المكتوبات، 2/199-206، رقم المكتوب: 92

³ الرواية: عبدالله بن مسعود المحدث: ابن حجر العسقلاني المصدر: فتح الباري لابن حجر - الصفحة أو الرقم: 13/41 خلاصة حكم المحدث: له شاهد

الاستطاعة وقرب السلطان على الوجه الأتم أن تجتهد في ترويج الشريعة المحمدية على صاحبها وعلى آل الصلاة والتحية، وإخراج المسلمين من الكربلة، والإسلام من الغربة في خلوة وجلوة...¹ وهذه كلها تدل على أن الشيخ فريد قد أخذ الوعد من السلطان قبل جلوسه على العرش بحماية الإسلام والمسلمين وتطبيق الشريعة الإسلامية.

وفيما سطر بعض الباحثين عن عدم رغبة السلطان في الدين الإسلامي وميله إلى العقيدة الإسلامية، وكلامه مردود لأن هناك شواهد عديدة موجودة في سيرته الذاتية تؤكد على ميله الدينية واعتقاده في العقيدة السننية، واحترامه وتقديره الشديد نحو الإسلام.² وتظهر عقيدته الثابتة والقوية فيما كتبه فيقول: "أرجو أن تمر كل المراحل من حياتي ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى، ولا تمر لحظة من حياتي دون ذكر الله سبحانه وتعالى".³ وبجانب ذلك كلما يأتي الخبر إليه حول نجاح جيشه في العمليات العسكرية يشكر الله ويسجد له سجدة الشكر في ساعته.⁴ وكان يدخل في جدل ديني مع العلماء الهندوس لإقناعهم بالإسلام وشريعته.⁵ وسمح بإقامة الصلوات في البلات الملكي بالجماعة والتي كانت محظورة في عهد والده السلطان أكبر.⁶ وهناك أمثلة عديدة أخرى تلقي الضوء على نزعته الدينية وتعظيم الشعائر الإسلامية، وإعلاء كلمة الله واحترام الدين.⁷ وقد ألغى السلطان كلاً من "مير عدل" و"القضاة" من

¹ راجع: المكتوبات، 91/1، رقم المكتوب: 47

² راجع: علماء هند كاشاندار ماضي، 19/1

³ توزك جهانگيري، ص 225

⁴ المصدر نفسه، ص 105

⁵ في بداية عهده عقد السلطان المجلس الديني للمناقشة مع علماء الهندوس وخرج سالماً وغانماً مع إعطاء الدروس القاسية لهؤلاء العلماء حول الشرك بالله من خلال الأصنام والتمايل الذين يعتبرهم الهندوس واسطة لازمة بين الله وخلقه. راجع: توزك جهانگيري، ص 15

⁶ المصدر نفسه، ص 100، وأيضاً: علماء هند كاشاندار ماضي، ص 125

⁷ كتب جهانگير في مذكراته فيقول: "خرجنا غرة ربيع الأول عام 1031هـ، للتفرج والنزهة في قلعة كانگڑا، فأمرنا أن يرافقنا القاضي ومير عدل وغيرهما من العلماء، ليظهروا في هذه القلعة شعائر الدين الإسلامي، وأحكام الشريعة المحمدية...وصلنا بعد سير فرسخ واحد إلى ذروة القلعة، فأمرت بتوسيع الله تعالى بالأذان، فأذن، ثم ألقيت خطبة، وأمرت بذبح البقرة ولم يتفق ذلك قط منذ بناء هذه القلعة-خررت لله ساجداً على أن وفقي إلى ما لم يوفق إليه أي سلطان قبل، وأمرت ببناء مسجد واسع عالٍ في داخل القلعة..." توزك جهانگيري، ص 340

مجلة الهند

ممارسة سجود التحية أمامه.¹ وعلاوة على ذلك وعلى حسب إحدى مكتوبات الشيخ أحمد السرهندي أمر السلطان جهانغير الشیخ فرید لتعيين أربعة علماء في البلاط السلطاني للاستشارة في الشؤون الدينية. يقول الشیخ احمد السرهندي: "قد سمعت أن سلطان الإسلام والمسلمين أمر جنابكم من حسن نشأته الإسلامية التي أودعت في جبلته أن تنتخب أربعة أنفار من العلماء المتدينين ليلازموه ويبينوا له المسائل الشرعية حتى لا يصدر حکماً من الأحكام خلاف الشريعة الإسلامية. الحمد لله سبحانه على ذلك، وماذا يكون للمسلمين أحسن بشارة من ذلك وأي شيء يكون لأهل المأتم أشد تسليمة مما هناك". ولو لم يكن لدى السلطان رغبة وميول دينية صحيحة لما طلب من الشیخ فرید تعین أربعة علماء لإدارة الشؤون الدينية. وعلى أن أنقل نص المكتوب الباقی حول ذلك، لمعرفة موقف الشیخ السرهندي من ذلك. حيث يبدو من نص مكتوبه أنه أشار على الشیخ فرید أن يقنع السلطان بتعيين عالم جلیل رباني ومخلص واحد بدلاً من الأربعة؛ ذلك للتتجنب من الخلافات والمشاحنات الدينية التي جرت في عهد السلطان أكبر، يقول الشیخ السرهندي: "... ولكن الفقیر حيث كنت متوجھاً نحو جنابكم العالی لهذا الغرض كما أظهرت ذلك مكرراً لا أسامح نفسي وأرخص لها في السکوت والقعود عن الكتابة في هذا الباب بالضرورة، فالمرجو مسامحتكم إبایي فإن صاحب الغرض مجنون، فالذی أرید أن أقوله، هو أن مثل هؤلاء العلماء المتدينين الذين يتسامون بأنفسهم عن حب الجاه والسلطان، ولا هم لهم إلا تأیید الإسلام ونصرة الدين، ونشر الشريعة الحنيفية... فإن كان واحد من هؤلاء العلماء يميل إلى الجاه، ويتظاهر بفضله وتفوّقه وبراعته، ويثير مسائل خلافية، ويحاول عن طريق ذلك، الوصول للمكانة والزلفى لدى السلطان، والحفاوة والإکرام، فإن ذلك يسیء إلى الدين ويعرضه للخطر، فقد كانت هذه الاختلافات الجزئية بين العلماء في العهد الماضي، هي التي سببت الكارثة، وأصابت الدنيا بمصيبة وبلية، ويعود ذاك الخطر، الذي يكون سبباً لتلف الدين وضياعه بدلاً عن تمكين الدين وتأییده- والعياذ بالله سبحانه- من ذلك، ومن فتنة علماء السوء؛ ومن هنا لو اختر- بدل العلماء الأربعة- عالم واحد مخلص، لكان أصلح وأحسن؛ لأنه إن كان من علماء الآخرة فما أحسن ذلك، ومجالسته كالکبريت الأحمر، وإن لم يكن من

^١ المصدر نفسه، ص 100

علماء الآخرة؛ فينبغي أن يختار من طبقة العلماء من هو أحسنهم حالاً وعلماً وإخلاصاً وأفضلهم شأنًا فما لا يدرك كله لا يترك كله... والغرض من كل ذلك، أن لا تتخذوا أي إجراء في هذا الصدد إلا بعد ترّقٍ كثير وتفكير عميق، لأنه إذا انقضى الأمر فلا تدارك ولا علاج...¹ يستطيع أي أحد أن يصل بسهولة إلى النتيجة من هذه العبارات أن السلطان قد تأثر ولو عن طريق غير مباشر من خلال وزرائه وأمرائه المريدين للشيخ، من فكر الشيخ السرهندي الإسلامي والسياسي. وقد أصاب بعض الباحثين بقولهم حول مدى تأثير الشيخ السرهندي في السلطان جهانگیر مثيراً إلى نقطة خلافية حول ذلك، و قالوا إن عدم قيام السلطان جهانگير باتخاذ سياسات والده في تجريب المسائل الدينية يؤكد على اجتنابهم القضايا الدينية والخوض فيها.²

المرحلة الثانية: تبدأ هذه المرحلة من العلاقات بين السلطان جهانگير والشيخ السرهندي من خلال قيام الأخير بتعيين خليفة الشيخ بديع الدين كمندوب له في الجيش المغولي في العاصمة آكرا عام 1024هـ/1616م،³ وكان الغرض وراء هذا التعيين تبليغ رسالة السرهندي وترويجها في المعسكر المغولي.⁴ ويبدو من الأحاديث أن وجود الشيخ بديع في العاصمة أتى ببعض النتائج الإيجابية المرجوة في المهمة الدينية للشيخ. واكتسب الشيخ بديع الشهرة في العسكر وبين عامة الناس، وأنهم رحبوا به بحماسة تامة ودخل كثير منهم إلى زمرة تلاميذه. وخلال تلك الفترة حدثت بعض التطورات السياسية مما دفعت السلطان جهانگير لاعتقال الشيخ السرهندي ومنها أن خليفته بديع الدين حصلت له شهرة كبيرة والنفوذ والقبول في المعسكر السلطاني على حساب الشيخ السرهندي، لا سيما أنه تحدث أمام الناس عن وقائع الشيخ الغربية وعن كشوفه ومعارفه، فتكلم الناس في شأنه، وكثير ترددت إلى أعيان الدولة،

¹ راجع: المكتوبات 1/96، رقم المكتوب: 53، وعالج الموضوع نفسه في مكتوب آخر، راجع: المكتوبات، 1/225، رقم المكتوب: 194

² State and Culture in Medieval India ص 171

³ راجع: زينة المقامات، ص 476-481

⁴ وتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ قد أرسله إلى آكرا بعد إدراكه تمام مليول السلطان جهانگير الدينية والعقائدية، ولولا ذلك لم يأخذ هذه المخاطرة.

فتتحدث الناس في ذلك وبالغوا فيه، وتوجسوا منه الخطر، وذكروا للسلطان أن الشيخ السرهندي يريد عن طريق خليفته الشيخ بديع الدين توثيق الصلات مع الجيش والمؤامرة معهم ضد السلطان، وإعداد خطة للثورة والخروج على الدولة.¹

ولدى التمعن في الأحداث يبدو جلياً أن ذلك كان مؤامرة من جانب العناصر العدائية التي كانت تبحث عن مثل هذه الفرص المواتية لنشر الدعاية ضد الشيخ السرهندي في البلاط السلطاني لتوسيع الفجوة بين السلطان والشيخ السرهندي. ولو كان الهدف وراء تعيين مندوبيه في العسكر وضع الخطة الشاملة للمؤامرة والخروج على الدولة المغولية في عهد السلطان أكبر وفي عهد جهانغير، لاستغل الشيخ تلك الفرص وتحالف مع الثوار في بنغال ومهار وكابل. وفي الواقع كل ما كان يريده الشيخ السرهندي هو جمع المسلمين كلهم على كلمة واحدة وعلى تعاليم القرآن والسنة النبوية بالحسنى وليس من خلال اندلاع الثورات والخروج على السلطان.

وإن النشاطات المعادية من جانب الأعداء لم تقف إلى هذا الحد، بل أفسدوا ذهن السلطان ضد الشيخ وأقنعواه أن الشيخ قد حصل له الشهرة الواسعة والقبول العام، وهناك غلو في الناس في اعتقادهم وحبيهم وإجلالهم في الشيخ، والتفافهم حوله، وتهافتهم عليه تهافت الفراش على النور، مما سيترتب عليه الخطر المحدق على السلطة والدولة المغولية، وأنه سيستغل هذه الشهرة والقبول لدى المعارضة والاستيلاء على الحكم في أي وقت.² كل هذه الاتهامات المعادية والكاذبة شنتها العناصر الشيعية التي كان الشيخ يقاومها من خلال تأليف الكتب وإرسال المكتوبات إلى الشخصيات والجهات المعنية للقضاء على تأثير التشيع في الأعمال والمعتقدات الذي كاد يستولي على المجتمع الإسلامي كله بعد دخول العناصر الإيرانية الشيعية في البلاط السلطاني، والتي نجحت في عهد السلطان أكبر في السيطرة الكاملة على البلاط. وعلى الرغم من أن هيمتهم بدأت تتقلص في عهد السلطان جهانغير إلا أنهم وجدوا فرصة مرة أخرى لازدياد الجاه والنفوذ السياسي في البلاط السلطاني بعد وفاة

¹ راجع: زينة المقامات، ص 478-477

² Shaikh Ahmed Sirhindi's Relation with Jahangir in Contribution of Shaikh Ahmed 31-27 Sirhindi to Islamic Thought

الشيخ فريد البخاري وزواج السلطان جهانگیر بالملكة نور جهان الشيعية وازدياد هيمنة أهلها على البلاط.¹ وقد حانت لهم الفرصة فسعوا إلى تعكير المياه للاصطدام فيها. فبجانب المؤمرات المذكورة أعلاه بحثوا عن بعض المكتوبات التي كتبها الشيخ السرهندي لشيخه عبد الباقي بالله منذ ثمانية عشر عاماً، والتي تناول الشيخ السرهندي محتويات المكافئات والمشاهدات الغيبية، والطريقة والسلوك العميق، وحط من شأن بعض الأئمة الشيعة،² ورفع مقامه من مقام الخلفاء الراشدين.³

¹ يقول بعض الباحثين إن آصف جاه أخا الملكة نور جهان ورئيس الوزراء للسلطان جهانگیر، أشار على السلطان بأخذ الاهتمام بقضية الشيخ أحمد الذي، على حسب قوله، توسيع نطاق شهرته وتأثيره في الهند وخارجها في إيران، وتوران، وبدخان. وكذلك أشار على السلطان بمنع رجال الجيش بمقابلة تلاميذ ومريدي الشيخ أحمد والحضور في جلساتهم العلمية والدينية. راجع

P.24-25. Lahore 1940. Burhan Ahmad Faruqi: The Mujaddid's concept of Tawhid

² كتب الشيخ في مكتوبه: "أن مقام الذي كنت رأيتني فيه سابقاً وقع النظر على عبور الخلفاء الثلاثة منه بعد الملاحظة حسب الأمر الشريف، ولالم يكن لي فيه مقام واستقرار لم أرهم فيه أول وهلة كما أنه لا استقرار فيه ولا ثبات لأحد من أئمة أهل البيت غير الإمامين أبي الإمام الحسن والحسين والإمام زين العابدين رضي الله عنهما أجمعين... راجع: المكتوبات، 27/1، رقم المكتوب: 11

³ كتب الشيخ: "...وكذلك المقامان اللذان يذكران بعد. ثم وقع النظر على مقام فوقه وما وصلت إليه تبين لي أنه مقام الفاروق رضي الله عنه، وللخلفاء الباقيين عبور من ذلك المقام. ثم ظهر فوقه مقام الصديق الأكبر رضي الله عنه ووصلت إليه أيضاً ووجدت الخواجة بهاء الدين النقشبendi قدس سره رفياً لي من بين المشايخ في جميع المقامات ولسائر الخلفاء عبور من هذا المقام. لا تفاوت إلا العبور والمقام والمدح والثبات. ولا يرى فوقه مقام أصلاً إلا مقام خاتم النبيين والمرسلين عليه من الصلوات أكملها ومن التحيات أتمها وظهر في محاذة مقام الصديق الأكبر رضي الله عنه مقام آخر نوراني عال جداً لم أر مثله قط، وكان له ارتفاع يسير من ذلك المقام كما إذا رفعوا اللوح من الأرض وتبين لي أنه مقام المحبوبة وكان ذلك المقام مزياناً ومنقشاً فوجدت نفسي أيضاً مزياناً ومنقشاً من انعكاسه ثم وجدت نفسي بعد ذلك لطيفاً في تلك الكيفية ورأيتني منتشرة في الآفاق مثل الهواء وقطعة السحاب حتى استواعت بعض الأطراف، وحضرت الخواجة النقشبendi في مقام الصديق وأجدني في مقام المحاذي له بكيفية معروضة". راجع: المكتوبات، 29/1، رقم المكتوب: 11، وللعلم أن الشيخ الخواجة بهاء الدين نقشبendi أيضاً رأى نفسه في هذه المقامات، وتفيد بعض المصادر نقلاً عنه: "لقد وصلت إلى مقام كل من الشيخ شibli، والشيخ منصور الحلاج، وبها يزيد البسطامي، ووصلت إلى المقام وصلوا هم أيضاً، حتى وصلت إلى المقام الأعلى وعرفت أنه مقام النبي صلى الله عليه وسلم، وعرفت أيضاً أنه قد وصل الشيخ بها يزيد البسطامي

مجلة الهند

فبحث الشيعة هذه الزلات من مكتوبات الشيخ وانتهزوا الفرصة للايقاع بالشيخ مع ربط القضايا السياسية الأخرى مع هذه القضية الدينية.

ولا ريب أنه ما كتبه الشيخ في مكتوبه حول مقامه الرفيع بالنسبة للصحاباة بل وتدرج إلى مقام النبوة كما يفيد المكتوب، فهو من شطحاته التي نجدها في كثير من المكتوبات التي هي بحاجة شديدة إلى فحصها ونقدها نقداً شاملأ لأن مثل هذه الأقوال مخالفة للشرع وأوجبت على الناس الاختلاف. ومن الغريب أن بعض العلماء الكبار مثل الشيخ أبي الحسن الندوى أثني على ما كتبه الشيخ السرهندي، وهي عنده محتويات المكاشفات والمشاهدات، والطريقة والسلوكيات العميقة التي تدل على عظمة الشيخ السرهندي وجلالته شأنه، وتفوقه على كثير من رباني هذه الأمة ومشايخها المصلحين.¹

وطبعاً ليس هذا هو السبب في اعتقاله لأن هذا المكتوب كتبه الشيخ عام 1603هـ/1012م، في عهد السلطان أكبر، ثم ظهر هذا المكتوب في عام 1025هـ/1616م، ولكن السلطان جهانغير لم يأخذ أي موقف ضد الشيخ خلال كل هذه الفترة من حكمه. والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا لم يلاحظ السلطان هذا المكتوب ونشاطات الشيخ الدينية قبل 1028هـ/1619م؟ وبعد تحليل القضية وفهم التطورات السياسية

إلى هذا المقام وكان يريد أن يتوجول فيه ولكن لم يتمكن بسبب سوء الأدب وقلة الاحترام فمنع من ذلك، أما أنا فبسبب الأدب والتعظيم تمكتت من ذلك". راجع: مشايخ نقشبندية مجددية، ص 110، ولم يكتف الشيخ بذلك بل أكد في بعض بيانته أنه ما حدث مع النبي صلى الله عليه وسلم بالإرادة الإلهية حدث معه أيضاً، ثم يذكر الشيخ مثال على ذلك قائلاً: "حدث مرة أن النبي صلى الله عليه وسلم صنع رغيف الخبز مع أصحابه أجمعين في التنور، فاستوت أرغفة أصحابه ولم يحدث ذلك مع أرففته، وحدث معي أي الشيخ، أني حاولت صنع رغيف الخبز مع أصحابه واستوت أرغفة أصحابي ولم يحدث مع أرففتي، والسبب في ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين، ومن هنا بسبب مس يده صلى الله عليه وسلم بتلك الأرغفة لم تؤثر النار فيها، أما أنا بما أني اتبع النبي صلى الله عليه وسلم اتباعاً كاماً فحدث معي ذلك أيضاً ببركة الاتباع الكامل". راجع: مشايخ نقشبندية مجددية، ص 112-113، والسؤال الذي يطرح هنا على نفسه هو من أين جاء الشيخ بهذا الكلام؟ هل هو حديث مروي من أصحابه؟ وهل هو مذكور في كتب الأحاديث النبوية؟ لا نعرف ذلك على وجه التحقيق.

¹ راجع: الإمام السرهندي، ص 142-143

في البلاط السلطاني نجد أنه كان هناك صراع شديد بين السنة والشيعة في البلاط السلطاني، وكان للشيعة نفوذ وغلبة على السنة بسبب الملكة نورجهان وأهلها الذين أرغموا السلطان بأي صورة على إصدار فرمان ضد الشيخ واعتقاله.¹ وبحثوا عن الن ráع لتحقيق غاياتهم؛ لأنه كان من الصعب أن السلطان يتخذ مثل هذه الإجراءات بسبب هذا المكتوب لأنه ببساطة لم يكن في يوم من الأيام صاحب هذه النفسية الدينية ولم يكن من ذكاء الحس، ودقة الشعور في مثل هذه المسائل الدينية التي لا تتعلق بأمور دولته وسلطنته في البلاد.²

والسؤال هنا أيضاً يطرح نفسه كيف كان للسلطان لا يعرف مكانة الشيخ الدينية وشهرته خلال كل هذه السنوات الطويلة أي أربعة عشر عاماً؟ على الرغم أن معظم الوزراء الكبار كانوا من مريدي الشيخ أحمد وكانت لهم صلات قوية بالأخير، والذين سيأتي ذكرهم في هذا البحث. فهل كان السلطان لا يعرف عن الزعيم الديني لوزرائه وأمرائه الكبار؟ وكان الشيخ فريد، وهو من كبار وزراء السلطان، عاش لأحد عشر عاماً بعد جلوس السلطان على كرسي الحكم، أمكنه لا يخبر السلطان عن عظمة الشيخ الدينية والروحية؟ كيف يمكن ذلك؟ حتى لو كان قد مات الشيخ فريد، فأين كان الوزراء الآخرون لدى هذه المؤامرات ضد شيخهم؟ لماذا سكتوا عمّا حدث للشيخ؟ أم مات ضميرهم وصاروا جبناء أمام الأوامر السلطانية وبسبب المصالح الشخصية؟ أم كان عليهم الضغط السياسي القوي من جانب اليمونة الشيعية في البلاط السلطاني؟ أكد بعض الباحثين أن السلطان قرر اتخاذ المواقف الصارمة ضد الشيخ بعدما قام بإبعاد الوزراء والأمراء المریدين للشيخ إلى المناطق البعيدة، فمثلاً أرسل خان خانخان إلى الدكن، وصدر جهان إلى المناطق الشرقية، وخان جهان إلى مالوه، وخان أعظم إلى گجرات، ومهابت خان إلى كابل. ولما علم الأخير بسجن الشيخ انزعج كثيراً وأخذ بعض النشاطات المعادية ضد السلطان مع حذف اسم السلطان من خطبة الجمعة ومن النقود المضروبة في كابل، كما خرج مع جيشه لمحاربة الجيش

¹ State and Culture in Medieval India، ص 169.

² راجع: الإمام السرهندي، ص 143.

السلطاني. وتمكن من إلقاء القبض عليه وربما يكون قد ذهب من ذلك إلا أن الشيخ منعه وأرسل إليه رسالة تحمل تعليماته لطاعة السلطان وعدم التسبب في أي اضطراب في المملكة. ومن هنا قرر مهابت خان بإطلاق سراح السلطان.¹ وفي الحقيقة لم يذكر الباحث المصادر التي اعتمد عليها لذكر هذه التفاصيل.

ولكي نحسم هذه القضية علينا أن نرجع إلى الأمير دارا شكوه الذي كان يسكن مع جده السلطان في القصر وكان له حضور مستمر في البلاط السلطاني، وكان مطلعاً على الظروف السياسية التي أدت بالشيخ إلى السجن. فهو يؤكد على معرفته عن تلك الأسباب السياسية قائلاً في كتابه "سفينة الأولياء": "كل ما جرى وحدث ضد الشيخ السرهندي كان ذلك بسبب الكذب والافتراء الذي قام به أعداؤه في البلاط السلطاني".² وأكبر أعداء الشيخ في البلاط كانوا من الشيعة. ومن الجدير بالذكر أن السلطان ترك تسجيل يومياته منذ العام السابع عشر من الجلوس إلى العام التاسع عشر، وقام بكتابه بعض الأحداث نديمه الخاص محمد شريف الشيعي الذي لقبه السلطان معتمد خان.³ وقام بتكرمه توزك جهانگيري أحد مؤرخي البلاط مرزا محمد هادي الشيعي، الذي كتب ديباجة أيضاً في بداية الكتاب. ومن المحتمل جداً أن قام أحدهما بزيادة بعض العبارات الكاذبة في الكتاب ونسبها إلى السلطان.⁴ لأن من المستحيل أن السلطان المثقف والمتمكن من العلوم الشرعية والأدبية يختار مثل هذه الكلمات الجارحة ضد الشيخ. وتفيد المصادر أن المؤرخ محمد شريف على الرغم من كونه معروفاً بكتابه التاريخ والأدب، ولكن لم يكن دقيقاً وشاملاً، ومع ذلك تم تعينه

¹ 26-25، ص The Mujaddid's Concept of Tawhid

² راجع: سفينة الأولياء، ص 197-198 / وكان الأمير دارا شكوه في عمر الخامسة والعشرين لما كتب هذا الكتاب، ويتوقع من الشخص من هذه الفئة العمرية أنه جمع مواده لكتابه بعد البحث والتدقيق الشامل فيها.

³ راجع: مآثر الأمراء، 3/269-270

⁴ مذهبی رواداری، 2/112-113

مجلة الهند

كمؤرخ في البلاط السلطاني، وقد قام بهذيب كثير من الواقع التاريخية المهمة ولم يذكر بعض الجزئيات المهمة في عملية الكتابة.¹

وعلى كل طلب السلطان من الشيخ السرهندي الحضور إلى البلاط السلطاني، ولدى وصوله تمت التحريات والاستجوابات عما اتهم به، وقد أنكر الشيخ أمام السلطان كل التهم الملصقة بشخصيته.² وما دخل على السلطان في البلاط لم يأت من الآداب والتقاليد التي كان يتلزم بها الوافدون على السلطان، فلفت بعض الأعداء، نظر السلطان إلى أن الشيخ لم يراع أدب الدخول عليه، ولم يأت بالتحية المعتادة للسلاطين، فسأله السلطان عن السبب، فقال: إنني لم أزل متقيداً بالآداب والأحكام التي دعا إليها الله رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا أعرف غير هذه الآداب، فغضب السلطان، وقال اسجد لي، فقال الإمام: ما سجدت لغير الله

¹ مأثر الأمراء، 270/3

² لقد استخدم السلطان ألفاظاً قوية وجارحة جداً فيما كتبه عن الشيخ، فيكتب في تاريخ أربع عشرة من جلوسه فيقول: "وصلني الخبر عن رجل مخادع اسمه أحمد الذي قام بتوسيع نطاق مصيدة الغش والمخاتلة في سرهندي وانخدع كثيراً من الناس البسطاء والسودج به. وتمكن من فتح المراكز لنشر دعوته في جميع المناطق الهندية من خلال تعين تلاميذه ومريديه المتrossين في عملية الغش والخداع. وقد كتب هذا الرجل لهم وللمعتقدين كثيراً من الخرافات وجمعها في كتاب سماه المكتوبات"، وتناول فيه كثيراً من الموضوعات غير الدينية يصل بعضها إلى حد الكفر، فقد كتب في أحد مكتوباته أنه مر في طريق السلوك من مقام جميع الصحابة والتابعين والصالحين حتى وصل إلى مقام المحبوبة المشاهدة وكان يعكس عليه الأنوار الإلهية يعني أنه تقدم مقامات جميع الصحابة ووصل إلى أعلى مرتبة من المقام عند الله... وكتب مثل هذه الكلمات في الأماكن الأخرى في كتابه والتي لا يتسع المكان هنا لذكرها. ومن هنا أمرت بإحضاره إلى البلاط الملكي. ولدى حضوره أمامي طرحت عليه أسئلة عديدة لم يستطع الرد المقنع. ووجده شخصاً متذمراً بالرياء والمكر والتكبر والخطرسة، ومن هنا فكرت في تأدبه وإصلاح أحواله من خلال القبض عليه وإيقاعه في السجن لکبح جماحه وطيشه وتهوره وللقضاء على الفتنة والاضطرابات الدينية التي أثارها هذا الرجل من خلال النشاطات غير المرجوة، وأمرت المسئول أنني رأي سنگه بسجنه في قلعة كوالياز".

راجع: توزك جهانگيري، ص 272-273

قط، ولن أسجد لغيره أبداً فتغفيظ السلطان وزاد غضبه، وأمر بفرض الإقامة الجبرية عليه في قلعة كوالياي.¹ وعلى كل فقد أرسل الشيخ إلى القلعة المذكورة في شهر ربيع الآخر عام 1028هـ الموافق مارس عام 1619م² وعلى حسب مكتوب الشيخ يبدو أنه قد صودرت، بعد اعتقاله، كتبه وبستانه، وبئرها، ورباطه، ومنزله، ونقل أهله إلى مكان آخر.³ وقد بقي الشيخ عاماً كاملاً في قلعة كوالياي، ثم تم الإفراج عنه في عام 1029هـ/1620م على حسب المصادر المعاصرة والحديثة.⁴

¹ لمزيد من التفاصيل راجع: حضرات القدس، 2/115-117، وتتجدر الإشارة هنا إلى المكتوب الذي يؤكد على موقف الشيخ من سجدة التحية للسلطانين وما يناسب ذلك، فيقول: "إن السجدة التي هي عبارة عن وضع الجبين على الأرض متضمنة نهاية التذلل والانكسار ومشتملة على كمال التواضع والافتقار ولیندا جعلوا هذا القسم من التواضع مخصوصاً بعبادة واجب الوجود جل سلطانه ولم يجوزه لغيره تعالى... وبعض الفقهاء وإن جوزوا سجدة التحية للسلطانين ولكن اللائق بحال المسلمين العظام أن يتواضعوا في هذا الأمر لحضرية الحق سبحانه وتعالى وأن لا يجوزوا نهاية التذلل والانكسار هذه لغيره تعالى. وقد سخر لهم الله سبحانه وتعالى العالم وأحوالهم في ينبغي أداء شكر هذه النعمة العظمى وأن يخصصوا مثل هذا التواضع المتبع عن كمال العجز والانكسار بجناب قدسه تعالى وأن لا يجوزوا الشركة معه تعالى في هذا الأمر وإن جوز جمع هذا المعنى ولكن ينبغي لحسن تواضعهم أن لا يجوزوه هل جزء الإحسان إلا الإحسان، وحيث إن سلطان الوقت نزل إلى دار الخلافة راجعاً من أقصى ممالكه يتحمل أن يوصل هذا الفقير نفسه عن قريب إلى دار الخلافة بمشيئة الله تعالى... راجع المكتوبات، 2/196-200، رقم المكتوب: 92

² توزُّك جهانگيري، ص 272-273

³ كتب الشيخ رسالة شاملة إلى أهله للصبر والسلوان، فيقول: "الحمد لله رب العالمين في السراء والضراء وفي اليسر والعسر وفي النعمة والنقم وفي الرحمة والرحمة وفي الشدة والرخاء والعطية والبلاء... أنها الأولاد الكرام إن وقت الابلاء وإن كان مرأً كريه الطعم ولكن الفرصة مفتتحة... وينبغي ألا يكون في جانب الإثبات من الكلمة الطيبة شيء غير غيب الهوية الذي هو وراء المعلومات والمخيلات وهم الدار والقصر والبئر والبستان والكتب وأشياء أخرى سهل ينبعي ألا يكون شيء مزاحماً لوقتكم ولا يكون شيء غير مرضٍ للحق جل وعلا.(هذا الكلام غير واضح تماماً)... فإننا لو ذهبنا ذهبت هذه الأشياء كلها فلتذهب في حياتنا... راجع: المكتوبات، 2/228-229، رقم المكتوب: 2

⁴ Shaikh Ahmed Sirhindi's Relation with Jahangir، ص 37

مجلة الهند

ولا يوجد بيدينا ما يؤكد الأسباب التي دفعت السلطان للإفراج عنه، هل تم ذلك بسبب مجهودات أبنائه أو تلامذته؟ المصادر المعاصرة لا تفي بالذكرا. وعلى كل لدى خروج الشيخ من القلعة في عز وإجلال واحترام، وقد منحه السلطان الخلعة وألف روبية كجائزة مالية، وعلى حسب بعض المصادر أعطى الشيخ السرهندي الاختيار في البقاء في المعسكر أو مغادرته لبلده ومنزله، وقرر الشيخ أن يبقى مع السلطان جهانگیر بدلاً من عودته إلى سرهندي.¹ وبقاوته في العسكر يفتح صفحة جديدة حول العلاقة بين الشيخ والسلطان.

المراحلة الثالثة: تفيد المصادر المعاصرة والحديثة أن الشيخ بقي في العسكر لأربع سنوات مرافقاً للسلطان أينما توجه في المناطق الشمالية الهندية. ويبدو من مكتوباته

¹ وقد تم إطلاق سراح الشيخ أحمد بحكمه، وأعطيته الخلعة وألف روبية لنفقته وخيرته بين أن يذهب إلى بلده أو يبقى معنا، فاختار مرافقتنا والبقاء معنا بعد ما وصل إلى الهداية بسبب التأديب والتنبيه، توزك جهانگيري، ص300. هذا ما كتبه السلطان جهانگير وهو غير صحيح، لم يعطه الخيار في البقاء والمغادرة؛ بل أمره بمرافقتنا في عسكري لثلاث أو أربع سنوات متتالية، وتؤكده على ذلك بعض مكتوبات الشيخ بعث بها إلى أبنائه وتلامذته، ففي أحد مكتوباته يخاطب ولدي الشيخ محمد سعيد والشيخ معصوم فيقول: "ليكن أولادي الكرام على جمعية إن الناس ينتظرون إلى محنتنا في جميع الأوقات ويطلبون مخلصاً من هذا المضيق ولا يدركون أن في عدم حصول المراد وعدم الاختيار وعدم نيل المقصود والمرام بلاءً حسناً... وأي نعمة تساوي لإخراج الإنسان من اختياره بلا اختياره وإعطاء المعيشة له بلا اختيار وجعل أموره الاختيارية تابعة لعدم اختياره... راجع: المكتوبات، 2/352-353، رقم المكتوب: 83. وقد فسر بعض الباحثين ذلك بتوجس السلطان وخيفته من اعتقاد الناس في الشيخ، وشهرته وقبوليته في المجتمع، ولأجل ذلك بعد رفع الإقامة الجبرية في القلعة، أمره بمرافقتنا في عسكري لثلاث سنين، في الطعن والإقامة، حتى يتعرف على طبيعة العلاقات القائمة بينه وبين أمراء البلاط وأركان الدولة، ويطمئن إلى أنه لا خطر منه على السلطة والدولة، وأنه لا يستغل أي عنصر معارض للدولة، أو مغامر طامع للاستيلاء، فلما اطمأن خاطره بما رأى من سيرة الشيخ وسلوكه، وشاهد إخلاصه، وإيثاره، وبعدة عن الطمع، وسموه في مكانته، ورأى بأم عينه أن الشيخ لا يقيم لزينة الدنيا وزهرتها وجاهاها وسلطتها أي وزن، ولا يلتفت إليها إطلاقاً، أذن له بالإقامة في سرهندي كما يشاء، راجع: الإمام السرهندي، ص144-145

أنه لم يترك فرصة واحدة لإقناع السلطان بالدين الإسلامي وتعليماته والشريعة الإسلامية وأهميتها. وقد كتب في إحدى رسالاته المرسلة إلى ولدي محمد سعيد ومحمد معصوم، مثيّزاً إلى جلساته العلمية والدينية مع السلطان جهانگير فيقول: "إن أحوال هذه الحدود وأوضاعها مستوجبة للحمد. قد تمر صحبات عجيبة وغريبة وبعنایة الله سبحانه وتعالى لا يتطرق مقدار شعرة من المساهلة والمداهنة في هذا القيل والقال إلى الأمور الدينية والأصول الإسلامية ويقع البيان في هذه المعارك بعين العبارات التي كانت تصدر في الخلوات والمجالس الخاصة بتوفيق الله سبحانه فإن كتبنا ما جرى في مجلس واحد يستدعي أن يكون مجلداً خاصاً في البارحة التي هي الليلة السابعة عشرة من شهر رمضان وقد ذكرت أشياء كثيرة من فائدة بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وعدم استقلال العقل والإيمان بالأخرة وعداهم وثوابها ومن إثبات الرؤية وخاتمية خاتم الرسل... وسنن التراویح وبطولة التناصح ومن أحوال الجن ومن عذابهم وثوابهم وأمثال ذلك وصارت مسموعة بحسن الاستماع وذكر ضمن ذلك أيضاً أشياء أخرى... وأوصلت ختم القرآن إلى سورة العنکبوت وكل ليلة أنصرف من ذات المجلس وأجيء إلى محلِي أشتغل بالتراویح وفائدة الحفظ التي هي دولة عظيمة قد حصلت في هذه الفترة التي هي عين الجمعية والحمد لله أولاً وأخراً".¹ ويظهر من هذه الرسالة بوضوح تام موقف الشيخ من السلطان وكيفية تعامله معه ومنهجه في شرح الفكر الإسلامي بين الجمهور من أعيان وأركان الدولة. ويجب أن يوضع بعين الاعتبار أن كل هذه المسائل الدينية والعقلانية التي شرحها الشيخ السرهندي في حضور السلطان جهانگير كانت هي نفس المسائل والقضايا التي تم تفسيرها وتوضيحها بشكل خاطئ تماماً في عهد السلطان أكبر.²

وتؤكد بعض المكتوبات المرسلة إلى السلطان جهانگير على حضور الشيخ السرهندي لدى بعض المعارك الحاسمة ونجاح العسكر في الاستيلاء على بعض القلاع المتنية ومنها قلعة

¹ راجع: المكتوبات الربانية، 294/3، رقم المكتوب: 43، وهناك رسائل أخرى تؤكد على مجالسه العلمية والفكرية مع السلطان راجع: المكتوبات، 410/3، رقم المكتوب: 106
² Shaikh Ahmed Sirhindi's Relation with Jahangir

كانگڑا التي تمت السيطرة عليها بعد الحصار حولها امتدت أكثر من أربعة عشر شهراً، وذلك أن نص الرسالة لا يشير إلى اسم القلعة ودعاء الشيخ لفتحها ونجاح العسكر في الفتوحات. يقول الشيخ: "إن أقل الداعين أحمد يظهر الانكسار والتواضع لخدام ذلك الجناب المعلى ويؤدي شكر نعمة الأمن والأمان التي هي شاملة لحال الخواص والعموم، ويطلب الفتح والنصرة للعساكر الإسلامية في أوقات مخلنة إجابة الدعاء وزمان اجتماع الفقراء فإن كل أحد مخلوق لأمر وكل ميسر لما خلق له فإن العبث في أفعال الله تعالى ممتنع والأمر الذي جعل مربوطاً بالعساكر الغزاة المجاهدين هو تقوية قوائم الدولة القاهرة وتأييد أركان السلطنة الباهرة التي تعمل على ترويج الشريعة الغراء منوط بها لما قبل من أن الشرع تحت السيف وهذا الأمر جليل القدر أيضاً مربوط ب العسكرية دعاء الذين هم الفقراء وأصحاب البلاء، فإن الفتح والنصرة على قسمين، الأول: جعل مربوطاً بالأسباب وهو صورة الفتح والنصرة المتعلقة بعسكر الغزاة، والثاني: حقيقة الفتح والنصرة الكائنة من عند مسبب الأسباب قوله تعالى "وما النصر إلا من عند الله"، إشارة إلى ذلك وهي متعلقة بعسكر الدعاء سبق بذلك وانكساره عسكر الغزاة وترقى من السبب إلى الأسباب... وهذا الفقير وإن لم يكن لائقاً بأن يجعل نفسه في عداد جنود الدعاء ولكن بمجرد اسم الفقر ولاحتمال إجابة الدعاء لا يجعل نفسه فارغاً من دعاء الدولة القاهرة ويكون رطب اللسان بالدعاء والفاتحة بلسان الحال والقال...".¹

في ضوء ما ذكرت في الصفحات السابقة، يمكن استخراج النتائج الإيجابية؛ فعلى الرغم من اعتقال الشيخ من جانب السلطان جهانگیر استمرت العلاقات بين الطرفين في ود واحترام وتقدير وتأثير وتأثير. وقد انهز الشيخ كل الفرص لنشر الفكر الإسلامي في العسكر وترويجه بين النخبة والجماهير. وكذلك كان لمرافقته السلطان أثر عميق في نشأة النزعية الدينية الجديدة فيه، وعنياته بتعمير المساجد المهدمة من جديد، وشغفه بإقامة المدارس الدينية في المناطق المفتوحة، وما ظهر من السلطان عام 1031هـ بمناسبة فتح قلعة كانگڑا من عواطف الإسلامية، وإظهار شعائر الإسلام

¹ راجع: المكتوبات، 3/299-300، رقم المكتوب: 47

مجلة الهند

فيها، يدل على حدوث التحول، والتقدم في الدين الذي يمكن معه القول بأنه كان غيضاً من فيض مراقبة الشيخ أحمد السرهندي.

جهود الشيخ أحمد السرهندي في إصلاح أركان الدولة: يتبع من مكتوبات الشيخ السرهندي والتي أرسلها إلى أركان الدولة لا سيما الوزراء الكبار، أنه اهتم بإصلاح هذه الشريحة اهتماماً بالغاً. وقد ذكر الشيخ في بعض المكتوبات الأسباب التي جعلته أن يسعى إلى إصلاح أركان الدولة بالدرجة الأولى؛ حيث وعلى حسب قوله إنهم يعتبرون عصب المجتمع مثل القلب والروح في جسم الإنسان وللذين تعتمد عليهم صحة الإنسان وفساده. يشرح الشيخ في أحد مكتوباته الموجهة إلى خانجهان وزير السلطان جهانگير، فيقول بعدهما شرح له ووضح العقيدة الإسلامية والعبادات ومقاصد الشريعة وترويجها في المجتمع الهندي ودعوته للسلطان وأمرائه وأعوانه إلى نشر وترويج الإسلام والشريعة الإسلامية: "معلوم أن السلطان كالروح وسائر الناس كالجسد؛ فإن كانت الروح صالحة فالبدن صالح وإن كانت الروح فاسدة فالبدن فاسد؛ ومن هنا فيبذل الجهود والسعى إلى إصلاح السلطان وأعوانه بيت القصيد والسعى الحقيقي إلى إصلاح المجتمع بأكمله. ولن يتحقق الإصلاح الحقيقي إلا من خلال إظهار كلمة الإسلام بأي طريقة كانت... ولو نجحت الدولة في تحقيق هذه الغاية المرجوة لحصلت على الوراثة العظمى من الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، وهذه الدولة قد حصلت لكم مجاناً؛ فينبغي أن يعرف قدرها ومنزلتها...".¹

ويوجه برسالة أخرى لمزيد من توضيح وتبين هذه القضية، إلى صدر الصدور الشيخ ميران صدر جهان فيقول: "إن إحسان السلاطين حاصلة لكافة الخلق فبحكم "جبلت القلوب على حب من أحسن إليهم" قلوب الخالق مائلة إلى جانب المحسنين بالضرورة فلا جرم كانت أخلاق السلاطين وأوضاعهم سارية إلى جميع الخالق بواسطة هذا الارتباط القلبي على تفاوت درجات الإحسان وكأنه لذلك قيل: الناس على دين ملوكهم؛ وأحوال القرن السابق مصادق هذا الكلام....".²

¹ راجع: المكتوبات، 2/159-169، رقم المكتوب: 67

² راجع: المكتوبات، 1/225-226، رقم المكتوب: 195

وانطلاقاً من هذه الرؤية الواضحة تجثم الشيخ السرهندي عناءً طويلاً لإصلاح السلطان وأعوانه وتقويمهم. وضع خطة جيدة لاستخدام الكوادر السياسية المهمة والمقربة إلى السلطان نفسه في ترويج الشريعة الإسلامية. وكان من حسن الحظ أن معظم هؤلاء الوزراء والأمراء كانوا يعتقدون في الطريقة الصوفية النقشبندية وكانوا من مريديه. ويرى بعض الباحثين أن الشيخ السرهندي بادر إلى تقوية العلاقات معهم، ولما تقربوا هم إليه تأثروا بشخصيته جداً ورسموا محنة وعظمة الشيخ في قلوبهم، مما جذبهم إليه وهنا انتهز الشيخ فرصة لتربيتهم وارشادهم؛ فجعلهم لائقاً لتفعيل نشاطات الإصلاح والإرشاد في الإدارة المغولية¹.

ولتحقيق الغايات المرجوة اختار الشيخ منهجاً خاصاً إلا وهو كتابة المكتوبات والرسائل الموجهة إلى العلماء والوزراء والأمراء والصوفية المريدين وغيرهم، وكان ذلك من الوسائل الناجحة والمفقرة آنذاك للتواصل العلمي والبحثي والديني، مما أضاف في الأدب الصوفي نوعاً من أنواع المواد التاريخية التي من الممكن أن يتم استخراج المعلومات القيمة المتعلقة بالحياة السياسية، والدينية والاجتماعية والثقافية وغيرها من المعلومات المهمة. ومعظم العلماء والفضلاء اختاروا هذه الوسيلة للتواصل العلمي والبحثي مع بعضهم البعض².

وقد وضع الشيخ بعض الأشياء بعين الاعتبار لدى إرسال المكتوبات إلى الأمراء والوزراء، ومنها عدم استخدام المصطلحات الفلسفية والصوفية وتعبير الموضوعات باللغة السهلة والبساطة؛ ذلك لأن الهدف كان يتعلق بفهم الأمراء والوزراء العقائد الدينية

¹ تذكرة إمام رئاني، ص 144

² ومن معاصري الشيخ أحمد السرهندي الشيخ عبد الحق الذي خاطب الإدارة المغولية أيضاً من خلال إرسال المكتوبات لنقدين الأمراء والوزراء دينياً وثقافياً، إلى جانب إرسال المكتوبات إلى الصوفية والعلماء لتصحيح كثير من العقائد الدينية مع النقد فيما كتبوا حول الدين والشريعة وفي التصوف والفكر الإسلامي. راجع المكتوبة المرسلة إلى الوزير الشيخ فريد بمناسبة وفاة السلطان أكبر، والذي يحمل المواد المتعلقة عن التوحيد، وتعريف الرسائلات السماوية، وواجبات الأنبياء وخصائصهم في العملية الدعوية. والرسائل الأخرى المرسلة إلى العلماء والصوفية. راجع: تصوف أور أهل تصوف، ص 127-159

وأحكام ومقاصد الشريعة الإسلامية وتعريفها لكي تتمكن هذه الكوادر من ترويج الشريعة الإسلامية في البلاط السلطاني وتنفيذها وخلق الجو الديني المناسب في الإدارة المغولية مما كان قد وفر الفرصة لهم أن يعرفوا السلطان بمسائل الدين والشريعة الإسلامية. وكانوا يبغون من خلال هذه المراسلات أيضاً الحصول على المعلومات المتعلقة بأحوال السلطان وموقفه من الدين والعلماء والشريعة وأحوال البلاط السلطاني. وكانوا يعرفون حق المعرفة أن هذه الشريحة من الإدارة المغولية تستطيع أن تؤدي دوراً مهماً في تحقيق الغايات المرجوة، ومن هنا اختاروا في هذه الرسائل الطرق العديدة لخلق الرغبة لدى الوزراء والأمراء في قبول الدعوة. وكان منها أنه في كثير من الأحيان يذكر في مكتوباته أئمّة يثنون عليهم ويشجّعون على تمكّهم من تحقيق الأهداف الدينية في البلاط السلطاني مع ذكر تأثيرهم القوي في سياسة السلطان وقراراته الإدارية والسياسية. كتب في أحد مكتوباته الموجهة إلى الوزير الشيخ فريد في الترغيب بترويج الشريعة الغراء فيقول: "نَسَأَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ تَقْوَيَّةً أَرْكَانَ الشَّرِيعَةِ الْغَرَاءِ وَرَوَاجَ أَحْكَامَ الْمَلَكِ السَّمْحَةِ... وَالنَّجَاةِ لِغَرِيَّاءِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ فِي مَثَلِ هَذِهِ الْأَيَّامِ مِنْ لَجَةِ بَرِّ الْخَلَالَةِ... وَيَنْبَغِي صِرْفُ الْهَمَةِ الْعُلَيَا فِي تَحْصِيلِ هَذِهِ السَّعَادَةِ الْعَظِيمَى. وَقَدْ تَيسَّرَ لَكُمْ بِعِنْيَةِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْجَاهُ وَالْكَرْمُ وَالْعَظَمَةُ وَالشُّوكَةُ كُلُّهَا، فَإِنْ انْضَمْتَ هَذِهِ الْأَوْصَافَ إِلَى تَلْكَ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ مَعَ وُجُودِ الشَّرْفِ وَالْعَزَّةِ؛ فَقَدْ أَحْرَزْتُمْ قَصْبَ السَّبَاقِ فِي مَيْدَانِ السَّعَادَةِ عَلَى جَمِيعِ الْأَقْرَانِ، وَهَذَا الْفَقِيرُ مُتَوَجِّهٌ نَحْوَكُمْ بِإِرَادَةٍ إِظْهَارِ أَمْثَالِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي تَأْيِيدِ الشَّرِيعَةِ الْحَقَّةِ وَتَرْوِيْجِهَا".¹

وذكر ذلك بشكل واضح وصريح في أحد مكتوباته المرسلة إلى وزير السلطان جهانگیر فيقول: "... والدولة التي جعلك الله سبحانه ممتازاً بها وأكثر الناس غافلون عنها؛ بل تقاد لا تدركها أنت أيضاً... ولما كان مثل هذا السلطان عظيم الشأن مصفيّاً إلى قولكم بحسن الاستماع ومتلقيّاً إياه بالقبول، كان اللازم أن يعد ذلك فرصة عظيمة وأن يبلغ الكلمة الحقة أي كلمة الإسلام الموافقة لمعتقدات أهل السنة صراحة أو إشارة إلى سمع السلطان وأن يعرض إليه كلام أهل الحق بقدر الإمكاني؛

¹ راجع: المكتوبات، 1/93-94، رقم المكتوب: 51

مجلة الهند

بل ينبغي أن يترصدوا الفرص ويلتمسوا دائمًا مناسبة من المناسبات يتطرق فيها الكلام إلى الدين والشريعة الإسلامية، حتى تنتهزوا الفرصة لإظهار أن الإسلام حق، والكفر باطل وشنيع...¹.

ويخاطب الشيخ السرهندي الوزير الخان الأعظم ميرزا عزيز كوكا بشكل واضح فيقول: "... فلا جرم فاختيار صحبة السلاطين وجعلهم منقادين إليه بتصرفه وترويج الشريعة بواسطتهم، وقد جعل الله سبحانهكم مؤثراً وأودع فيه تأثيراً ببركة محبتكم لأكابر هذه الطائفة وأسرارهم وظهرت عظمة إسلاميتكم في نظر الأقران، فالمكتمس سعيكم في هذا الباب ولو لهمد أكبر أحكام الكفر الذي له شيوع تام بين أهل الإسلام حتى يكون أهل الإسلام محفوظين من تلك المنكرات، فجزاكم الله عننا وعن سائر المسلمين خير الجزاء".²

وتفيد بعض المكتوبات أنه كان يدعو الكوادر السياسية من هؤلاء الوزراء والأمراء إلى ترويج الشريعة الإسلامية في البلاط السلطاني وإلى تقويم السلطان وإصلاحه وإرشاده. يكتب في أحد مكتوباته داعياً الوزير جهانغير قلي خان الملقب "لالة بيگ" فيقول: "... قد بلغت غربة الإسلام منذ قرن واحد مبلغًا، وغاية لا يرضى أهل الكفر بمجرد إجراء أحكام الكفر في بلاد الإسلام، بل هم يريدون إزالة أحكام الإسلام ورفعها بالكلية، ويجهدون في إعداد أثر الإسلام والمسلمين، وبلغ الأمر حدًا لو أظهر مسلم شيئاً من شعائر الإسلام يذيقونه القتل. وذبح البقر من أعظم شعائر الإسلام في بلاد الهند، ولعل الكفار يرضون بأداء الجزية ولا يرضون بذبح البقر أصلًا. وها نحن في بداية حكم السلطان جهانغير. فإن حصل الرواج والقوة للإسلام والاعتبار للمسلمين في بداية سلطنته فيها ونعمت، وإنما سيكون صعباً للغاية في حق المسلمين. الغياث ثم الغياث والغياث...".³

¹ راجع: المكتوبات، 2/ 166-167، رقم المكتوب: 67

² راجع: المكتوبات، 1/ 111-112، رقم المكتوب: 65

³ راجع: المكتوبات، 1/ 133، رقم المكتوب: 81

ويقول في رسالة أخرى موجهاً كلامه إلى صدر الصدور ميران "لَا تغيرت الأوضاع السياسية الآن في البلد وانكسر سور عناد أهل الملل لزم أئمة أهل الإسلام من الصدور العظام والعلماء الكرام صرف جميع الهمة في ترويج الشريعة الغراء وتقويم أركان الإسلام المهدمة وأحكامها في بداية الأمر، فإن التأخير ليس فيه خير وقلوب الغرباء في غاية الاضطراب من هذا التأخير في هذا الباب وشدائ드 القرن السابق متمكنة في قلوب المسلمين؛ فهم خائفون من فوت تلافي ذلك فتنجر غربة الإسلام إلى الطول، فإذا لم يكن في السلاطين شوق ترويج السنة السنوية يتراهى مقربوه في هذا الباب أيضاً ويعذّون حياة أيام معدودة غنيمة يكون الأمر ضيقاً على فقراء أهل الإسلام ومظلماً جداً....".¹

والجوانب المضيئة المهمة من مكتبيه المرسلة إلى أركان الدولة والتي تؤكد على إرسال دعوته من خلالها، أنه بذل المجهودات الحثيثة في توضيح الفكر الإسلامي وتبيان المسائل والقضايا الإسلامية. وفي كثير من الأحيان قام ذلك مع ذكر الأحاديث والآيات القرآنية لمزيد من التأكيد والتوضيح، مع اختيار الكلمات والعبارات المناسبة الملائمة بنصيحة وإرشاد، وفي بعض الأحيان يستغفث بهم على السير على السنة والشريعة الإسلامية الغراء. ونذكر هنا رسالته الطويلة التي أرسلها إلى الخان الأعظم ميرزا كوكا، موضحاً أحوال الإسلام والمسلمين السيئة وغربة الإسلام في الدولة الإسلامية والعراقيل في تطبيق الشريعة الإسلامية، فيقول: "أَيْدِكُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَنَصْرَكُمُ عَلَى أَعْدَاءِ الإِسْلَامِ فِي إِلَاعَةِ الْأَحْكَامِ، قَالَ الْمُخْبَرُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ مِنَ الصَّلَوَاتِ أَفْضَلُهَا وَمِنَ التَّسْلِيمَاتِ أَكْمَلُهَا: إِنَّ الْإِسْلَامَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ فَطَوِيَ لِلْغَرَبَاءِ".² وقد بلغت غربة الإسلام حدّاً يطعن الكفار في الإسلام بين ملة ويندون المسلمين ويجررون أحكام الكفر بلا تحاشٍ ويمدون أهله في الأرقّة والأسوق والمسلمون عاجزون ممنوعون من إجراء أحكام الإسلام ومطعون فيهم في إتيان أحكام الشّائع عند هؤلاء الكفّرة اللئام... وقد قيل: الشرع

¹ راجع: المكتوبات، 226/1، رقم المكتوب: 195

² صحيح مسلم، رقم الحديث: 145

مجلة الهند

تحت السيف وجعل رونق الشرع الشريف مربوطةً بالملوك والسلطانين، والآن قد انعكست القضية وانقلبت المعاملة في هذا الزمان واحتراز... ونحن اليوم نعدّ وجودكم الشريف مغتنماً ولا ندرى من المبارز في هذه المعركة الضعيفة المنكسرة غيركم، والله سبحانه يكُون مؤيدكم وناصركم بحرمة النبي وأله الأمجاد عليه وعليهم الصلوات والتسليمات والتحيات والبركات".¹

ووضع الشيخ السرهندي القضية نفسها والأزمات التي يمر بها المسلمون آنذاك في رسالة أخرى، فيقول: "بحكم "الشريعة تحت السيف" رواج الشريعة الغراء مربوط بحسن اهتمام المسلمين العظام. وهذا المعنى قد طرأ عليه الضعف منذ أوقات فصار الإسلام ضعيفاً بالضرورة وطفق كفار الهند يهدمون المساجد بلا خوف وخطر ويعمرون في مواضعها معابدهم، فكان هناك مسجد في تهانيسير هدموه وبنوا موضعه معبداً هندوسياً كبيراً. وأيضاً يقوم الكفار بمراسيم الكفر والإلحاد على الملاً كما شاؤوا والمسلمون عاجزون عن إجراء أحكام الإسلام وفي أيام صيام الديانة الهندوسية يهتمون في لا يطبخ ولا يبيع أحد من المسلمين خبزاً في أسواق بلاد المسلمين وفي شهر رمضان المبارك يطبخون الخبز والطعام على الملاً ويباعون ولا يقدر أحد من ضعف الإسلام على منعه...".²

وتمدّنا مكتوبات الشيخ بمقدمة فيما يتعلق بتبني الوسائل العديدة لترويج الشريعة الإسلامية والفكر الإسلامي بين الكوادر الحكومية المهمة. وفي معظم هذه الرسائل المرسلة إلى أركان الدولة عبر الشيخ عن قلقه الشديد بغربة الإسلام، ومهانته، وقلة حيلته، وانتهاك حرمات الشعائر الإسلامية، والأحكام الدينية، وهوان المسلمين وإلجام ألسنتهم أن تنطق بالحق. ووجههم - باستخدام مناصبهم الكبيرة، ومكانتهم الخطيرة، وخدماتهم العظيمة للدولة - إلى أن يلفتوا نظر السلطان إلى الأوضاع المتردية، وما يعاني الإسلام فيه من غربة، وأن يثيروا فيه عرقه الإسلامي الذي ورثه عن آبائه، ويوقفوا

¹ راجع: المكتوبات، 110-111/1، رقم المكتوب: 65

² راجع: المكتوبات، 199-196/2، رقم المكتوب: 92

مجلة الهند

الجمالية الدينية من سباتها، فهذا كل ما نراه في الرسائل المرسلة إلى هذه الشريحة المهمة من المجتمع الهندي. وللعلم فإن هؤلاء الأئمة وأركان الدولة الذين اختارهم الشيخ السرهندي بين الآخرين يعتقدون في الشيخ أيضاً وكانوا متأثرين بفكرة ومنهجه. وخوفاً من الإطالة نحن نختار هنا فقط بعض الوزراء والأئمة الكبار الذين أرسل إليهم الشيخ السرهندي مكتوبات عديدة ومهمة لتفعيل النشاطات الدينية وتوسيع نطاق سيادة الفكر الإسلامي في شبه القارة الهندية. ومنهم النوافل فريد مرتضى خان البخاري المتوفى عام 1025هـ/1615م¹ وعبد الرحيم خانخانان أي أمير الأئمة المتوفى عام 1036هـ/1626م²، ومرزا عزيز كوكا خان أعظم المتوفى 1033هـ/1623م¹، وميران صدر

¹ الأمير الكبير مرتضى بن أحمد بن أبي بكر بن جلال بن إله ديا بن لطف الله بن هباء الدين بن أبي الغيث بن محمد غوث بن جلال الدين حسين بن علي الحسيني البخاري، نواب فريد الدين مرتضى خان كان يعتبر أحد أجواد الدنيا، ولم يكن له نظير في زمانه في السياسة والتدبر والاسخاء والكرم والمحبة لأهل الفضائل والميل إلى معالي الأمور. وكان المير بخشى في عهد السلطان أكبر، ولما جلس السلطان جهانگير بن أكبر على كرسى الحكم أضاف في منصبه ولقبه بصاحب القلم والسيف، ثم لقبه بمرتضى خان وولاه على گجرات، فاستقل بها أربعين عاماً، ثم ولى على البنجاب فأقام بها مدة حياته. وكان رجلاً سخياً ومحباً للعلم والعلماء والفقراء والمساكين واليتامى. وكان يكفل اليتامي ويربيهم كتربية الآباء للأبناء وزوج البنات العوانس، ويجهز لهم، وكان يأكل على مائته قرابة ألف وخمسمائة نفر كل يوم، لمزيد من التفصيل حول حياته وأعماله الخيرية، راجع: مأثر الأئمة، 2/418-423، وأيضاً: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، 2/647-648.

² الأمير الكبير مبارز الدين عبد الرحيم بن بيرم خان الدهلوى الملقب بخانخانان. وكان مربياً للعلماء والفضلاء مما أدى إلى جمع من رجال العلم والمعرفة ما لم يجتمع عند غيره من الملوك والأئمة. وكان من أهل التفنن في الفضائل والعلوم وماهراً في اللغات العديدة ومنها العربية والفارسية والتركية والهندوستانية وغيرها، مقدماً في المعارف متكلماً في أنواعها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب من الخطأ، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة والحلم والتواضع والشجاعة والكرم. جعله السلطان أكبر معلماً لولده جهانگير، وبسبب أعماله العسكرية الناجحة لقبه بخانخانان أي أمير الأئمة. وكان يؤلف ويترجم الأعمال التاريخية والأدبية من وإلى اللغة التركية والفارسية. ومن مؤلفاته القيمة "توزك بابري" نقله من التركية إلى الفارسية. راجع ترجمته في مأثر الأئمة، 1/479-492؛ وكذا راجع: الإعلام، 2/560-561.

مجلة الهند

جهان الحسيني البهانوي المتوفى 1020هـ/1611م²، محمد قلبح خان الأندجاني الأكبرى المتوفى عام 1023هـ/1614م³، مرتا داراب خان ابن عبد الرحيم خانخانان المتوفى عام 1034هـ/1624م⁴، خواجه دوست محمد كابلي (خواجه جهان)،⁵ لاله بيگ،⁶ وغيرهم من الوزراء الكبار والصغار. وإن عدداً كبيراً من هذه المكتوبات بعث بها الشيخ السرهندي إلى الأمير السيد فريد البخاري وعبد الرحيم الخانخانان والتي لها أهمية بالغة لما تشمله من الموضوعات الدينية والفكرية التي تناولها الشيخ فيها. وهناك مكتوب خاص يقع في إحدى عشرة صفحة من القطع الكبير والذي أرسله الشيخ

¹ الأمير الكبير الفاضل عزيز الدين بن شمس الدين محمد الغزنوي ثم الدهلوى، أحد الرجال المشهورين في الهند، كان معاصرًا للسلطان أكبر وأخاه في الرضاعة، وكان السلطان أكبر يحبه جبًا مفرطاً ويقدمه في كل باب، وكان متسامحًا مع إلى أقصى درجة. تولى على الولايات العديدة وبسبب أعماله العسكرية والإدارية لقبه السلطان أكبر بالخان الأعظم. سافر مع أهله إلى الحرمين الشريفين في عام 1002هـ، لأداء مناسك الحج والعمرة، فحج وزار وبذل أموالًا طائلة على الفقراء والمساكين في الحرمين الشريفين ووظف للناس من مجاوري الروضة المنورة، واشتري عروضاً وعقارات في المدينة المنورة ووقفها. بعد عودته من الحج عام 1003هـ جعله السلطان وكيلًا مطلقاً له في مهمات الأمور. وكان حسن المحاضرة جيد القول، راعي العلماء والفضلاء، وكان ينتقد السلطان انتقاداً شديداً فيما قام به الأخير من تأسيس الدين الجديد ونشر الأفكار الجديدة. لمزيد من المعلومات عنه راجع: مآثر الأئمّة، 1/467-478؛ وأيضاً: الإعلام، 2/587-587.

² الشيخ العالم الفقيه المفتى صدر جهان بن عبد المقتدر بن شاهين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن سراج الدين بن تاج الدين بن عليم الدين بن كمال الدين الحسيني الترمذى. كان من العلماء البارزين في العلوم الإسلامية والعربية. تقلد المناصب العديدة في عهد السلطان أكبر الذي جعله معلمًا لابنه جهانگير الذي حفظ عنه أربعين حديثاً. وفي عهد الأخير نال المناصب الأخرى إلى جانب الصدارة. وعاش مائة وعشرين عاماً مع صحة حواسه وسلامة أفعاله. راجع: منتخب التواريخ، 3/478؛ وأيضاً: الإعلام، 2/542-543.

³ راجع ترجمته في مآثر الأئمّة، 3/49-53.

⁴ راجع ترجمته في مآثر الأئمّة، 2/14.

⁵ راجع ترجمته في مآثر الأئمّة، 1/465-466.

⁶ راجع ترجمته في مآثر الأئمّة، 1/355-356.

مجلة الهند

السرهندي إلى خان جهان وضح فيه العقيدة الإسلامية الصحيحة، والعبادات والأحكام الشرعية، ومقاصد الشريعة وكيفية ترويجهما في الإدارة والمجتمع، مع دعوته إلى إلقاء كلمة الحق على سمع السلطان.¹

وكان الشيخ يرى أن عملية تفعيل النشاطات الدينية وتطبيق الشريعة الإسلامية ورواجها مربوط بالإدارة وأعيان الدولة وحسن اهتمامهم نحوها، ومع أن العلماء والدعاة يقومون بترويج الدين والشريعة الإسلامية، إلا أن الإدارة الإسلامية والسلطان وأركان الدولة يقدمون لهم كل الدعم المادي والمعنوي لتحقيق هذه البغية النبيلة.² وقد قام الشيخ أولاً بتوضيح أهمية الدعوة الإسلامية وضرورة تطبيق الشريعة الإسلامية لدى هذه الشريعة الإدارية، مؤكداً عليهم أن العمل الدعوي إلى الشريعة الإسلامية عمل الأنبياء والرسل على أساس أن النجاة فيها ومنها، مبيناً أن المقصود في إرسال الأنبياء والرسل هو التبليغ والدعوة الإسلامية، ومن هنا يجب أن يكون المقصود الأول والأخير هو السعي الحثيث إلى ترويج الإسلام والشريعة وإحياءها لا سيما في هذا الزمن العصيب. يقول: "الملة المصطفوية قائمة بالشريعة، والناس إنما يسألون يوم القيمة عن الشريعة دون التصوف... والأنبياء والرسل الذين هم أفضل الكائنات إنما دعوا الخلق إلى الشرائع وجعلوا مدار النجاة عليها. والمقصود من بعثة هؤلاء الأكابر هو تبليغ الشرائع. فأعظم الخيرات إذاً هو السعي في ترويج الشريعة وإحياء حكم من أحكامها لا سيما في الزمن الصعب الذي انهدمت فيه شعائر الإسلام".³

ولترسيخ مبدأ تطبيق الشريعة وأهميتها في قلوبهم وتحريضهم على المبادرة إليها قال الشيخ في المكتوب نفسه: "لو أنفق ألواناً في سبيل الله لا يساوي ذلك ترويج مسألة من المسائل الشرعية فإن في هذا الفعل اقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين هم أعظم المخلوقات ومشاركة معهم في عملية التبليغ، ومن المقرر أن أكمل الحسنات مسلماً لهم وإنفاق الألوف ميسراً لغير هؤلاء الأكابر أيضاً... نعم إن كان الإنفاق لتأييد

¹ راجع: المكتوبات، 2/ 159-169، رقم المكتوب: 67

² راجع: المكتوبات، 2/ 198-199، رقم المكتوب: 92

³ راجع: المكتوبات، 1/ 92-93، رقم المكتوب: 49

الشريعة وترويج الملة فله درجة عليا وإنفاق فلس بهذه النية يساوي إنفاق ألف في سائر الأمنية...¹ وقد عبر الشيخ السرهندي عنأسفه الشديد في المكتوب التالي عما جرى في عهد السلطان أكبر مع الدين الإسلامي الذي صار غريباً، فشكراً ذلك الشيخ في أحد مكتوباته الموجهة إلى الشيخ النواب فريد للحث على تصحيح العقائد والإغراء على ترويج الشريعة والثقافة الإسلامية، فيقول: "سيدي الشريف! إن الإسلام غريب في هذا الزمان جداً؛ فصرف فلس واحد في تقوية الإسلام في هذا الزمان يساوي الملايين، فلننظر من يكون ذلك الصقر الجريء الذي ينعم الله عليه بهذه النعمة الحليلة، إن العمل الذي يقوم به الإنسان لنشر الدين وتأييد الملة -في أي عصر من العصور- جميل ومحبوب ولكن في هذا الوقت العصيب، حيث صار الإسلام غريباً، أجمل وأحب، فجدير بكم -أنتم الأشراف- إذ أن هذه الثروة العظيمة من ميراثكم، وهو لكم مباشرة، ولغيركم بواسطة، وإن وراثتكم لجدكم الكريم لها أهميتها الكبيرة في نيل هذه السعادة، فإن هذه الساعة هي التي ورد عنها ذلك الحديث: "عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إِنَّكُمْ فِي زَمَانٍ مَّنْ تَرَكَ مِنْكُمْ مَا عُشْرَ مَا أَمْرَ بِهِ أُهْلِكَ، ثُمَّ يَأْتِي زَمَانٌ مَّنْ عَمِلَ مِنْهُمْ بِعُشْرِ مَا أَمْرَ بِهِ تَجَاءُ" ، فإن هذه الجماعة من الناس، هي تلك الجماعة، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون".²

ثم يرجع فيدعى إلى التشميم عن ساعدتهم ومواجهة الصعوبات التي ستأتي في سبيل تحقيق هذه الغايات النبيلة المرجوة فيقول: "... فإن حصلت الأذية والمشاكل في سبيل التبليغ والدعوة فيينبغى أن يعدها سعادة عظيمة لأن ترى أن الآباء عليهم الصلاة والسلام ماذا رأوا من الإيذاء والصعوبات وكم تحملوا من المحن حتى قال أفضلهم عليه الصلاة والسلام ما أؤذي نبي قط مثل ما أؤذيت".³

¹ راجع: المكتوبات، 1/ 92، رقم المكتوب: 49

² راجع: المكتوبات، 1/ 223، رقم المكتوب: 193. والحديث المذكور ضعيف، راجع: ضعيف الجامع الصغير وزيادته، رقم الحديث 2038

³ راجع: المكتوبات، 1/ 225، رقم المكتوب: 193 "ما أؤذى أحدٌ ما أؤذيت"، تذكرة الحفاظ، رقم الحديث: 274

مجلة الهند

ونرى في كافة مكتوباته أنه اهتم بالشريعة الإسلامية في مهمته لصلاح الفكر الإسلامي لدى الإدارة المغولية. ومن هنا نجد أنه قام في معظم هذه المكتوبات بشرح وتوضيح النكات المهمة المتعلقة بالشريعة الإسلامية لتفهيم الناس المعنية، ولا ريب أن كل مسلم يحتاج إلى فهم المسائل الدينية المهمة لممارستها بأحسن وأدق صورة. وقد قسم الشيخ السرهندي الشريعة إلى ثلاثة أقسام: الأول: العلم، والثاني: العمل، والثالث: الإخلاص. ولن يتحقق المقصود دون أن تتعلق هذه الأمور الثلاثة بالشريعة، ثم ولا بد للإنسان منها كلها حتى تيسّر النجاة الأبدية.¹ وكان يلح على الوزراء والأمراء والإداريين أن يتّعلموا ويلمّوا بالمسائل الشرعية الضرورية وتصحّح العقائد وإتيان الأعمال الصالحة وترويجها بين الآخرين. وقد كتب مكتوبًا إلى أحد الإداريين فيقول: "إنه لا بد من تعلم أحكام الفرائض والسنن والواجبات والمستحبات والحلال والحرام والمشبهات، ويتم الأعمال كلها بموجب هذه الأحكام المذكورة."² وكان يتوقع من الأمراء والوزراء المقربين إلى السلطان أن يخبروه عن الأحكام الشرعية كلما سُنحت لهم الفرصة. وكان يعتقد أنه كثير من التأثيرات الهندوسية رسوم الكفر والشرك جارية وساربة في البلاط الملكي وفي الإدارة؛ وذلك بسبب عدم معرفة السلطان وفهمه لما يجري في البلاط، ومن هنا يجب على العلماء والأمراء أن يخبروه عن ذلك. وفي هذا الصدد يكتب في إحدى رسالاته الموجهة إلى الشيخ النواب فريد في يقول: "... بقايا رسوم الكفر التي ظهرت في القرن السابق تُثقل على قلوب المسلمين جداً ولم يبق لسلطان الوقت توجّه إلى أهل الكفر في هذا الوقت، ومن هنا فإنه من اللازم لمن يقدر من المسلمين إعلام السلطان بقيمة رسوم الهندوسية وبذل كل الجهود في إزالتها فإن بقاءها يتحمل أن يكون مبنياً على عدم معرفة السلطان وعلمه بقيمتها...".³

ولم يكتف الشيخ السرهندي بدعوة الأمراء والوزراء إلى تعليم أحكام الشريعة فحسب؛ بل أشار عليهم أيضًا باختيار الكوادر من العلماء الفضلاء المتّقين المؤهلين

¹ راجع: المكتوبات، 1/102-104، رقم المكتوب: 59

² راجع: المكتوبات، 1/140، رقم المكتوب: 94

³ راجع: المكتوبات، 1/224، رقم المكتوب: 193

مجلة الهند

المخلصين للدين والدولة وتعيينهم في البلاط الملكي. ووضح موقفه من علماء السوء مثيراً على الإداريين بعدم الالتفات إلى علماء الدنيا المستغلين علمهم ودينه لكسب المال والشهرة والمستخدمين علمهم ومنصبهم لتحقيق مصالحهم الخاصة على حساب الدين، مؤكداً على أنهم هم الذين يسبون للمسلمين والإسلام بمحن وويلات وكوارث وإساءات كبيرة. يقول في مكتوبه ناصحاً أحد الإداريين: وينبغي الاستفسار عن الأحكام الشرعية والاستفتاء فيها من علماء الآخرة؛ فإن لكلامهم تأثيراً فعّالاً أن يحصل التوفيق للعمل بها ببركة أنفاسهم. وينبغي الاجتناب لعلماء الدنيا الذين جعلوا العلم وسيلة للجاه والمناصب. وفي حالة عدم وجود مثل هؤلاء العلماء الريانيين المتقيين فمن الممكن الرجوع إلى علماء الدنيا ولكن ينبغي أن يكون ذلك في إطار معين وعند الضرورة فقط. وللعلم أن الحاج ميان محمد الأترة من العلماء المتدينين في منطقة لاہور وهو مما تعرفونه جيداً وهنالك الشيخ على الأترة وهو من أحبابكم وكل من هذين الشخصين مغتنم في تلك المنطقة والرجوع إليهما في تحقيق المسائل الشرعية أنساب...¹.

وهذا التوضيح من جانب الشيخ يدل على أنه كان يرى أن العلماء الصالحين هم الملجأ والمأوى لتحقيق الغايات الشرعية ويجب أن يتم الاستلهام منهم في هذا الباب، ويدل أيضاً على أنه كان بمعرفة جيدة بالعلماء الصالحين والطالحين في المناطق الهندية.

وتتجدر الإشارة إلى أن الشيخ السرهندي لم يدع إلى الحصول على أحكام الشريعة وتنفيذها وتطبيقاتها وترويجهما على أرض الواقع مع توضيح كيفية تنفيذها فحسب؛ بل كان يصر على أنها يتم تطبيقها وممارستها في الحياة اليومية الritibah. وهذه هي النقطة المهمة التي يركز عليها ومهتم بها يضع جل اهتمامه في معظم المكتوبات تحدث فيها عن الشريعة الإسلامية وأحكامها. وهذه هي النقطة المحورية التي نقاشها كثيراً في المكتوبات المرسلة إلى الأماء والعلماء والصوفية وهي مشتركة بينهم. فكما أنه نصح العلماء باتباع الشريعة وتحمل المسؤولية بنشرها وترويجهما في المجتمع الهندي من

¹ راجع: المكتوبات، 122/1، رقم المكتوب: 73

ناحية، انتقد الحكماء وال فلاسفة بعدم تبعية الشريعة الغراء من ناحية أخرى، مع التأكيد على الصوفية بأن الطريقة والحقيقة خادمتان للشريعة وليس العكس بالعكس. ويوضح ذلك في إحدى رسالاته المرسلة إلى بعض الصوفية فيقول: "اعلم أن للشريعة ثلاثة أجزاء: العلم والعمل والإخلاص. وإذا لم يتحقق كل من هذه الأجزاء الثلاثة لا تتحقق الشريعة، ومتى تحققت الشريعة فقد تحقق رضا الحق سبحانه وتعالى الذي هو فوق جميع السعادات الدنيوية والأخروية ورضوان من الله أكبر. فكانت الشريعة متكفلة بجميع السعادات الدنيوية والأخروية، ولم يبق مطلب يقع فيه الاحتياج إلى ما وراء الشريعة. أما الطريقة والحقيقة اللتان امتازت بهما الصوفية فهما خادمتان للشريعة في تكميل جزئها الثالث وهو الإخلاص، فالمقصود من تحصيل كل منهما تكميل الشريعة لا أمر آخر وراء الشريعة".¹

وتتجدر الإشارة هنا إلى النقطة المهمة وهي أن الرسائل التي أرسلت إلى الأمراء والوزراء الذين كان معظمهم ينتمون إلى الطريقة النقشبندية، فكان الشيخ يروج الأفكار الصوفية بينهم وينصحهم بإصلاح الباطن مؤكداً على أنه يمر بطريقة الشريعة المطهرة ودون السير عليها من المستحيل أن يصل أحد إلى المنزل المقصود. يوضح ذلك في أحد مكتوباته المرسلة إلى بعض الإداريين: "ينبغي أن يكون المرء متوجهاً إلى الباطن بعد أن جعل الظاهر محل إثبات الأحكام الشرعية لئلا يكون العمل مختلطًا بالغفلة. والتحلي بالأحكام الشرعية بدون إمداد الباطن متذرر ووظيفة العلماء الإفتاء وشغل أهل الله العمل والاهتمام في الباطن مستلزم للاهتمام في الظاهر والذي يهتم بالباطن ويعجز عن الظاهر فهو ملحد... وعلامة صحة حال الباطن تحلي الظاهر بالأحكام الشرعية... والله سبحانه الموفق".²

وينصح بعض الإداريين حول ذلك فيقول: "أيها الولد: إن الذي ينفع الإنسان غدًا هو متابعة صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام والتحية، فإن اجتمعت الأحوال

¹ راجع: المكتوبات، 1/72-73، رقم المكتوب: 36

² راجع: المكتوبات، 2/193-194، رقم المكتوب: 87

مجلة الهند

والماجید والعلوم والمعارف والإشارات والرموز مع تلك المتابعة فهم ونعمت وإلا فلا شيء سوى الخذلان والاستدراج...¹ ثم يوضح هذه النقطة أكثر في الرسالة الأخرى المرسلة إلى النواب الشيخ فريد فيقول: "... والناس إنما يسألون يوم القيمة عن الشريعة دون التصوف، وكل من دخول الجنة وتجنب النار مربوط بإتيان الشريعة...".²

إلى جانب قيام الشيخ السرهندي بتلقين أركان الدولة تطبيق الشريعة وتنفيذها والسير عليها، يوجههم إلى أداء الفرائض والسنن. وكل ما قدّمه في هذا الباب مهم للغاية. وقد حث في رسائل عديدة على اتباع الأنبياء والرسل مع توضيح التكاليف الشرعية من الفرائض أي الأركان الأربع والأحكام العادلة المتعلقة بالمعيشة، مؤكداً على أنها وضعت من جانب الله تعالى الذي يراعي في كل كبيرة وصغيرة ضعف الإنسان واحتياجاتهم البشرية الطبيعية، ومن هنا فالدين والفرائض والأحكام الضرورية وضفت لليسر وليس للعسر، لأن اليسر مقصد من مقاصد الشريعة الإسلامية، جعله الله تعالى أساساً لكل ما أمر به ونهى عنه في كتابه وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - ، وأمرنا أن نلتزم في فهمنا للدين والعمل به والدعوة إليه؛ فقال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ} (البقرة: 185). ويوضح الشيخ السرهندي ذلك في أحد مكتوباته التي أرسلها إلى الوزير خانخانان فيقول: "... ومن كمال عناية الحق سبحانه وتعالى رعاية نهاية اليسر وغاية السهولة في جميع التكاليف الشرعية والأحكام الدينية؛ حيث إنه أمر مثلاً بسبع عشرة ركعة من الصلاة في الليل والنهار لا يبلغ مجموع أوقات أدائها ساعة واحدة ومع ذلك اكتفى في قراءتها بما تيسّر، وجَوَّز القعود عند تعذر القيام والاضطجاع عند تعذر القعود، وأمر بالإيماء عند تعذر الركوع والسجود، وجعل التيمم خلفاً للوضوء وقت العجز عن استعمال المياه، وعيّن للفقراء والمساكين حصة واحدة من أربعين حصة في زكاة الأموال وقيد افتراضها أيضاً بكون الأموال نامية والأنعام سائمة، وفرض في جميع العمر حجاً واحداً ومع ذلك جعله مشروطاً بالقدرة على الزاد والرحلة وأمن الطريق، ووسع دائرة المباح حيث أباح

¹ راجع: المكتوبات، 216/1، رقم المكتوب: 185

² راجع: المكتوبات، 92/1، رقم المكتوب: 48

مجلة الهند

نکاح أربع من النساء ومقدار ما يملکه ويقدر عليه من السراري، وجعل الطلاق وسيلة لتبدیل النساء، وجعل أكثر الأطعمة والأشربة والأقمشة مباحاً وجعل المحرم منها قليلاً وتحريمها أيضاً بواسطة مصالح العباد...¹.

ووضّح الشيخ أنّ هناك أقساماً مختلفة للشريعة الإسلامية توجد فيها أنواع مختلفة من العبادات وركز على هذه النقطة المحورية مع توضيح أهمية وفضل كل من الفرائض والتواfwال في الشريعة الإسلامية، مؤكداً على أن لكل واحد مقاماً ومرتبة ولم ولن تأتي التواfwال في مرتبة الفرائض، ويوضح ذلك في أحد مكتوباته، فيقول: "..... واعلم أن مقربات الأعمال إما فرائض وإما نوافل فالنواfwال لا اعتبار لها في جنب الفرائض أصلأً، فإن أداء فرض من الفرائض في وقت من الأوقات أفضل من أداء التواfwال ألف سنة وإن أديت بنية خالصة أي نفل كان من الصلاة والصوم والذكر والفكر وأمثال ذلك..." وللتاكيد على ذلك ينقل الشيخ كلام سيدنا عمر رضي الله عنه حول ذلك حيث نقل أنه رضي الله عنه صلّى يوماً صلاة الصبح بجماعة ثم نظر إلى القوم وتفقدهم فلم ير فيهم شخصاً من أصحابه، فقال: ألم يحضر فلان الجماعة؟ فقيل: إنه يسهر أكثر الليل فيحتمل أن يكون قد غلبه النوم في هذا الوقت. فقال: لو نام تمام الليل وصلّى صلاة الصبح مع الجماعة لكان أولى وأفضل. ومن هنا فرعية الأولى واجتناب المكروه وإن كان تنزيهياً أولى من الذكر والفكر والمراقبة والتوجيه بمراتب كثيرة... فكما أن التصدق بدانق مثلاً في حساب الزكاة أفضل بمراتب من التصدق بمقدار جبال عظام من ذهب بطريق النفل....².

وتتجدر الإشارة هنا إلى أن الشيخ السرهندي في كثير من مكتوباته يشير على كل من العلماء والأمراء بالمعرفة عن أهمية الفرائض وتنفيذها بصورة كاملة وصحيحة، ولكنه يهتم بها أكثر في الرسائل المرسلة إلى الصوفية، مما يدل على أن التواfwال كانت

¹ راجع: المكتوبات، 221/1، رقم المكتوب: 191

² راجع: المكتوبات، 54/1، رقم المكتوب: 29

لها أهمية خاصة في ذلك الوقت لدى الصوفية وكانوا يحرصون على الاهتمام بها دون إعطاء الاهتمام الكبير واللائق بالفرائض، وكانوا ينصحون تلامذتهم ومربيهم بذلك، ويبدو أنه في تلك البيئة الدينية ما كانت الفرائض تجد مقامها المستحق، وقد شعر الشيخ باختلال التوازن في باب العبادات فتوجه إلى هذه الشرائح بها. والفرائض التي يؤكد عليها الشيخ أكثر في الرسائل المرسلة إلى الأمراء والوزراء هي الصلاة والزكاة. ويعبر عن موقفه منها في إحدى رسالاته قائلاً: "... واعلم: أن الإنسان أنه لا بد له من تصحيح الاعتقادات، كذلك لا بد له من إثبات الأعمال الصالحة. وأجمع العبادات وأقرب الطاعات هو أداء الصلاة كما قال عليه الصلاة والسلام: "الصلاحة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ومن تركها فقد هدم الدين"¹. ومن وفق للمواظبة على أداء الصلاة فقد امتنع عن الفحشاء والمنكر قوله تعالى: {إِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِيمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} العنكبوت: 45، مؤيد لهذا الكلام، والصلاحة التي ليست بهذه المثابة يعني لم تمنع صاحبها عن الفحشاء والمنكر فهي صورة الصلاة لا حقيقة لها ولكن ينبغي أن لا ترك الصورة إلى أن تحصل الحقيقة؛ فإن ما لا يدرك كله لا يترك كله، ولا يستبعد اعتبار أكرم الأكرمين الصورة وأن يقبلها مكان الحقيقة. فعليكم بالمواظبة على أداء الصلاة مع الجماعة ومع الخشوع والخصوص فإنهما سبب النجاة والفلاح، قال الله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَائِسُونَ} المؤمنون: 1-2.² وتدل هذه

¹ لم أقف عليه بهذه العبارة الكاملة، ولكنني وقفت على أوله "الصلاحة عماد الدين". ويؤدي معناه ما أخرجه الترمذى (2616) وابن ماجه (3973)، وأحمد (231/5 ، 237) من حديث معاذ بن جبل الطويل وفيه: (قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : ألا أخبرك برأس الأمر كله وعموده ، وذروة سنته؟ قلت: بلى يا رسول الله! قال: رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنته الجهاد...)). قال الترمذى: (حديث حسن صحيح)

² راجع: المكتوبات، 1/135-136، رقم المكتوب: 85

مجلة الهند

العبارة أيضًا على أن الشيخ ما كان يصرّ على أداء الصلوات فحسب؛ بل كان يبغي أن تؤدي كافة الصلوات الخمس بالجماعة، ووضح ذلك في رسائل عديدة.¹

وكذلك اهتم الشيخ السرهندي بتوضيح أهمية بالغة لشهر رمضان الكريم لدى الإدارة المغولية وأركان الدولة. وفي إحدى رسالاته المرسلة رداً على رسالة الوزير النواب فريد البخاري، يذكر فضائل شهر رمضان ويحث على فعل الخير والأعمال الصالحة فيقول: "لما ورد مكتوبكم الشريف في شهر رمضان المبارك خطر في الخاطر الفاتر أن أكتب نبذة حول فضائل هذا الشهر العظيم القدر. ينبغي أن يعلم أن شهر رمضان شهر عظيم. وكل عبادة نافلة من الصلاة والذكر والصدقة وأمثالها في هذا الشهر تساوي أداء فريضة فيما سواه، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه، ومن فطر فيه صائمًا كان له مغفرة لذنبه وعتق رقبته من النار وكان له مثل أجره من غير أن ينتقص من أجره شيء، ومن خفف عن مملوكه فيه غفر الله له وأعتقه من النار.... ومن وفق للخيرات والأعمال الصالحة في هذا الشهر كان التوفيق رفيقه في تمام هذا العام، وإذا مرّ هذا الشهر على تفرقة يكون في جميع العام على تفرقة. ومن هنا ينبغي فيه أن يجتهد في تحصيل الجمعية مما أمكن مفتئنًا لهذا الشهر....".²

¹ يقول في إحدى رسائله: "ينبغي أن تصرف الأوقات إلى ذكر الله تعالى بعد أداء الصلوات الخمس مع الجماعة وأداء السنن الرواتب، وأن لا يستغل بغيره سواء كان وقت الأكل أو النوم أو المشي. وقد بين لكم طريق الذكر، فينبغي الاشتغال به بهذا الطريق المعهود..." راجع: المكتوبات، 140/1، رقم المكتوب: 93. أيضًا يوضح الشيخ السرهندي ذلك في مكتوب آخر فيقول: "ينبغي لك أن تكون مولعاً وحربيضاً بتكرار ذكر القلوب معتقداً أنه من أجل نعم الله جل شأنه وأن تصلي الصلوات الخمس مع الجماعة من غير تكامل وفتور وأن تؤدي زكاة الأموال إلى الفقراء والمساكين بنشاط القلب وأن تتجنب المحرمات والمشتبهات وأن تكون مشففاً على الخلق وهذا هو طريق النجاة والخلاص". راجع: المكتوبات، 219/1، رقم المكتوب: 189

² راجع: المكتوبات، 87-88/1، رقم المكتوب: 45

مجلة الهند

ولما كانت الزكاة إحساناً إلى الخلق، وهي مُطهّرة للمال من الدنس، وحصانة له من الآفات، وعبودية، وتطهير للنفوس من الشح والبخل، وامتحان للأثرياء والأغنياء حيث يستطيعون أن يتقربوا إلى الله بإخراج شيء معين من مالهم المحبوب إليهم. تغيد كثير من مكتوباته أنه اهتم أكثر بتوضيح وتأكيد أهمية الزكاة لدى أركان الدولة والأثرياء والأغنياء. وفي هذا الصدد حاول الشيخ ترسیخ الفكر الإسلامي حول اجتناب المظاهر في توزيع الأموال والأرزاق على الفقراء والمساكين لنيل الاستحسان والشهرة بين أقرانهم، داعياً لهم إلى أداء الزكاة بصورة صحيحة وصرفها على المحتاجين لابتغاء مرضاه الله سبحانه وتعالى كما جاء في الشريعة الإسلامية. ويبدو من بعض مكتوباته أن التقاليد في توزيع الأموال على الناس والفقراء والمساكين بمناسبات مهمة كانت راسخة في الآداب السلطانية المغولية وصارت ظاهرة لدى أركان الدولة فكانوا يقومون بذلك لكسب الشهرة وفي نفس الوقت كانوا مقصرين في أداء واجبهم على النحو المطلوب في أداء الزكاة وصرف أموالها بأحسن صورة. وتعكس هذه الصورة في أحد مكتوباته نصيحة الشيخ فيه أركان الدولة والأثرياء والأغنياء حول أداء الزكاة فيقول: "... وينبغي الاهتمام التام في أداء الفرائض والاحتياط في الحل والحرمة والعبادات النافلة في جنب الفرائض كالمطروح في الطريق وساقطة عن الاعتبار وأكثر الناس في هذا الوقت في ترويج النوافل وتخييب الفرائض يهتمون بإثبات النوافل العادات ويعدون الفرائض حقيقة وعديمة الاعتبار. ويعطون مبلغاً كبيراً للمستحق وغير المستحق في المناسبات وفي غير المناسبات ولكن إعطاء فلس في أداء الزكاة للمصرف متيسر عليهم ولا يدرؤن أن إعطاء فلس من الزكاة للمصرف خير لهم من إعطاء ألف صدقة نافلة فإن في إعطاء الزكاة مجرد امتثال أمر المولى جل سلطانه وفي الصدقة النافلة كثيراً ما يكون المنشأ الهوى النفسي ولهذا لا مسامغ للرياء في الفرض. وأما النفل ففيه مجال للرياء ومن هنا كان الأولى في أداء الزكاة الإظهار لنفي التهمة وفي الصدقة النافلة الإخفاء لكونه أليق بالقبول. وبالجملة لابد من التزام الأحكام الشرعية حتى يتصور الخلاص من مضره الدنيا، فإن لم تتيسر حقيقة ترك الدنيا

مجلة الهند

ينبغي أن لا يقصر في الترك الحكمي وهو التزام الشريعة في الأقوال والأفعال والله
سبحانه الموفق....^١

ومن هنا نرى أن الشيخ حاول بشتى طرق أن يلتزم أركان الدولة والأغنياء بأداء الفرائض ومنها الزكاة، وبين لهم الطرق السهلة لأداء الزكاة والفرائض الأخرى. وفي إحدى رسالاته الموجهة إلى بعض الأمراء أكد الشيخ فيها على أهمية الصلاة والزكاة مع وضع الخطة الشاملة لأداء الزكاة بطريقة سهلة ويسيرة. فيقول: "عليكم أن تؤدوا الصلوات الخمس مع الجماعة فإن تيسر قيام الليل وصلاة التهجد فنعتم السعادة، وأداء زكاة الأموال أيضًا من أركان الإسلام فلابد من أدائها البتة. وأسهل طرق أدائها أن يعزل حق الفقراء من المال في كل سنة بنية الزكاة فيحفظه عنده ويصرفه في مصارف الزكاة في تمام السنة، فعلى هذا التقدير لا يلزم تجديد نية أداء الزكاة في كل مرة بل تكفي النية وقت العزلمرة واحدة. ومن المعلوم أنه كم يصرف إلى الفقراء والمستحقين في طول العام ولكن لما لم يكن بنية أداء الزكاة لم يكن محسوبًا منها، وفي الصورة المذكورة تسقط الزكاة من الذمة ويحصل التخلص أيضًا من الخرج من غير مضايقة، فإن لم يصرف للفقراء في تمام السنة مقدار الزكاة بل بقيت منها بقية ينبغي أن يحفظها كذلك معزولة عن سائر الأموال، فإن مثل هذا العمل يحتاج إليه في كل عام، ومتى كان مال الفقراء ممتازًا ومعزولاً فعسى أن يحصل التوفيق لإنفاقه غداً وإن لم يحصل اليوم...² ويوضح من ذلك أن الشيخ لم يوصهم بأداء الزكاة فحسب؛ بل بين لهم الطرق السهلة لتحقيق هذه الغاية المرجوة مع قيامهم بتوزيع الأموال على الفقراء والمساكين. وتفييد كثير من مكتوباته بوجود التساهل الكبير لدى أركان الدولة في باب أداء الزكاة وبيؤكد قلق الشيخ الذي عبر عنه في هذه المكتوبات المرسلة إلى كبار أركان الدولة منهم الوزير عبد الرحيم خانخانان والشيخ النوايب فريد البخاري وغيرهم. نصح الشيخ في إحدى رسالاته فيقول: "...ينبغي أداء الزكاة من الأموال النامية والأنعام السائمة كما هو حقها وأن يجعل ذلك وسيلة

^١ راجع: المكتوبات، 2/190-191، رقم المكتوب: 82

² راجع: المكتوبات، 1/121-122، رقم المكتوب: 73

مجلة الهند

لقطع التعلق عن الأموال والأنعام، وينبغي ألا يكون حظ النفس ملحوظاً ومنظوراً إليه في أكل الأطعمة اللذينة ولبس الألبسة النفيسة، بل اللائق في استعمال الأطعمة والأشربة أن لا ينوي شيئاً غير حصول القوة لأداء الطاعات...¹

ويوجه دعوته إلى الأمراء الصوفية، مؤكداً على أن أداء الزكاة بموجب الشريعة الإسلامية أفيد لتزكية النفس ولإزالة الهوى النفسي، فيقول في إحدى رسالاته: "... وكلما عمل شيئاً بمقتضى الشريعة يزول من الهوى النفسي بقدرها ولهذا كان فعل شيء من الأحكام الشرعية أفضل في إزالة الهوى النفسي من رياضات ألف سنة ومجاهداتها التي كانت من قبل النفس، بل هذه الرياضيات والمجاهدات التي لم تقع على مقتضى الشريعة الغراء مؤيدة ومقوية للهوى النفسي ولم تصر البراهمة والجوكية في الرياضيات والمجاهدات شيئاً، ولكنها لما لم تكن على وفق الشريعة لم ينتفعوا بها أصلاً ولم يحصل لهم غير تقوية النفس وتربيتها. فمن صرف مثلاً دانقاً بنية أداء الزكاة التي أمر بها الشرع فهو أنفع في تدريب النفس من صرف ألف دينار من قبل نفسه، وأداء ركعتي الفجر مع الجماعة التي هي فرض من الفرائض أفضل من قيام تمام الليلة بالنافلة مع ترك الجماعة في الفجر..."²

وكان قد ذكر كثيراً الجوانب السهلة لأداء الزكاة لترغيب أركان الدولة في ذلك. وكان يقول إنه ليس من المشكك أن يخرج المرء ربع العشر من أموالهم النامية والأنعام السائمة. وقد رکز في أحد مكتوباته على هذه النقطة فيقول: "... وينبغي أن يتم أداء الزكاة على تقدير وجود النصاب من ضروريات الإسلام أيضاً، فينبغي إذا أدواها بكمال الرغبة بل بقبول المنة. وقد عين الحق سبحانه وتعالى بكمال كرمه للعبادة في اليوم والليلة خمسة أوقات، وعيّن من الأموال النامية والأنعام السائمة ربع العشر تحقيقاً وتقريراً لأجل الفقراء، ووسّع ميدان تصرف المباحثات، والتکاسل في صرف ساعة واحدة مع أربع وعشرين ساعة في طاعة الحق سبحانه وتعالى، والبخل بأداء

¹ راجع: المكتوبات، 1/115-116، رقم المكتوب: 70

² راجع: المكتوبات، 1/94-95، رقم المكتوب: 52

مجلة الهند

سهم واحد من أربعين سهماً إلى الفقراء ووضع القدم في خارج دائرة المباح الواسعة الفضاء البعيدة الأرجاء والواقع في المحرمات والمشتبهات من غاية عدم الإنصاف...¹.

وفي بعض الرسائل المرسلة إلى الأمراء ناقش الشيخ أهمية الحج ومكانته كأركان الإسلام، وجلب انتباهم إلى ذلك، على الرغم أنه لا توجد في مكتوباته الترغيبات والتأكيدات مثلما نجدها فيما تناولها حول الصلاة والزكاة والصيام. وتفييد بعض المصادر النقشبندية بأنه خرج من بلده عازماً على أداء مناسك الحج وذلك بعد وفاة أبيه عام 1007هـ/1598م إلا أنه لما وصل إلى شيخه عبد الباقي بالله الذي قال له: "أنت ذاهب إلى زيارة بيت الله، ولكن لو مكثت هنا لبعض الأيام لكان ممكناً أن تحصل على بغيتك مما ستطلبه في الحرمين الشريفين... وقال له عليك أن تمكث فقط لثلاثة أيام ولو ارتحت نفسياً فتكملي وإلا فستغادر للحرمين الشريفين...".²

وعلى حسب كلام الشيخ السرهندي وصل هو إلى معدن الإرشاد ومنبع المعارف خلال فترة وجوده عند شيخه ومن خالله، ومن هنا ربما لم يفكر بعد ذلك أن يغادر إلى الحرمين لأداء مناسك الحج وال عمرة.³ وللعلم فإن شيخه الباقي بالله أيضاً لم يفكرا في أداء مناسك الحج، حتى تفييد بعض المصادر أن الوزير الكبير عبد الرحيم خان خanan أرسل بمئتا ألف روبية كنفقة السفر لأداء الحج لدى المعرفة عن عزم الشيخ على ذلك، فرفض الشيخ مساعدته المالية وأعادها إليه مع التوبيق.⁴ ولو كانت هناك بعض الظروف المادية الملائمة وغيرها في بداية أمر الشيخ السرهندي، لتحسينت كثيراً حياته، لا سيما بعد تقوية علاقته مع بعض الوزراء الكبار الذين ساعدوه مادياً في إدارة الخانقاه الذي أسسه في مدينته السرهند وعاش طول حياته فيها، فلماذا لم يفكّر الشيخ السرهندي أن يسافر الحرمين الشريفين لأداء مناسك الحج وال عمرة؟! علمًا أنه كان هناك رواج عام ورغبة شديدة عند المسلمين في الهند في ذلك الوقت في

¹ راجع: المكتوبات، 142/1، رقم المكتوب: 96.

² راجع: حضرات القدس، 12-11/2، رقم المكتوب: 290.

³ راجع: المكتوبات الربانية، 423/1، رقم المكتوب: 435.

⁴ زبدة المقامات، ص 52.

السفر إلى الحرمين الشريفين لتحصيل العلوم الإسلامية لا سيما علوم الحديث ولأداء مناسك الحج والعمرة، وهناك بعض الشخصيات المعاصرة للشيخ السرهندي الذين سافروا إلى الحجاز لأداء مناسك الحج والعمرة ومكثوا لفترة لتحصيل علوم الحديث ولهم دور كبير في نشر علوم الحديث في الهند، ومنهم على سبيل المثال الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى (958-1551هـ/1642م).¹

وعلى كل حال لا نجد في مكتوبات الشيخ السرهندي مما تفيد أنه حاول من خلال مكتوباته في خلق الرغبة عند أركان الدولة وترشيدهم إلى تكميل هذا الركن من أركان الإسلام.² وفي الحقيقة لم يكن لدى الشيخ أحمد السرهندي رغبة في أداء مناسك الحج وما كان ينوي أن يتخصص في علوم الحديث والفقه وغيرها من العلوم الإسلامية التي كانت تدرس في ذلك الوقت في الحجاز التي صارت مركزاً علمياً مهماً وتجمعاً خاصاً للعلماء والفضلاء،³ لأنه دخل إلى ممارسة التزكية والسلوك وكان يرحب فقط في الاطلاع على تراجم بعض الشخصيات الصوفية، كما عبر عن ذلك في إحدى رسالاته فيقول: "لا يميل قلبي إلى مطالعة الكتب ولا يطيب به إلا ما كان فيه ذكر مناقب المشايخ الكبار العالية وأحوالهم السامية الواقعة في المقامات، فيستحسن لي مطالعة أمثال ذلك. وأحوال المشايخ المتقدمين أكثر رغبة فيها...".⁴

¹ عن رحلته إلى الحجاز لأداء مناسك والحج والعمرة وفي طلب العلم راجع "زاد المتقين في سلوك طريق اليقين".

² تجدر الإشارة هنا إلى أنه لم يحاول أحد من الوزراء والأمراء غير الأمير ميرزا عزيز الدين كوكا أن يسافر إلى الحجاز لأداء مناسك الحج والعمرة.

³ وقد عبر الشيخ في بعض رسائله عن رغبته في تحصيل علوم الحديث والفقه، فيقول: "وقد حصلت لي محبة كثيرة في حق العلماء وطلبة العلوم، وتستحسن لي سيرتهم، وأتمنى أن أكون في زمرتهم، ونتذكرة مع طلبة العلوم "التوضيح والتلويح، من المقدمات الأربع ونباحث معهم ونقرأ "الهداية" أيضاً من الفقه، وأشارك العلماء أيضاً في القول بالإحاطة والمعرفة العلميتين". راجع: المكتوبات، 1/22-23، رقم المكتوب: 8

⁴ راجع: المكتوبات الربانية، 1/27-30، رقم المكتوب: 11

مجلة الهند

ومن أهم الموضوعات التي تطرق الشيخ إليها واسترعى انتباها أركان الدولة، إلى جانب أداء الفرائض الدينية، هي: التمييز بين الحلال والحرام، والاجتناب عن الإسراف والتبذير على أساس أن المبذرين كانوا إخوان الشياطين، ومراعاة حقوق العباد فيما بينهم، والالتزام الشرعي في المأكل والمشرب والملبس، والتواضع في التعامل مع الخلق أجمعين لأنّه من الصفات المحمودة ويدل على طهارة النفس ويدعو إلى المودة والمحبة والمساواة بين الناس وينشر الترابط بينهم ويمحو الحسد والبغض والكراهية من قلوب الناس وفوق هذا كلّه فإن التواضع يؤدي إلى رضا المولى سبحانه وتعالى. والدعوة إلى الابتعاد عن علماء السوء والتقرب إلى العلماء الصالحين المتقين. ومن المعلوم أن لكل هذه الصفات علاقة مباشرة مع حياة المسلم اليومية الريتيبة التي تنضبط كل جزئياتها بالشريعة الإسلامية. والمهم أنّ الشيخ في كثير من مكتوباته خاطب أركان الدولة حول المعرفة الكاملة عن المال الحرام والحلال والفرق بينهما، مؤكداً على الانتباها الشديد بهما وتسييد الحقوق المالية لآخرين. ومن المعروف عن السلاطين والأمراء في العصور الوسطى أنّهم كانوا يرتكبون المخالفات الشرعية في الشؤون الإدارية والمالية، وكانت هناك طرق وقنوات عديدة غير شرعية للحصول على الأموال عن طريق تطبيق بعض القوانين غير الشرعية في الشؤون المالية مثل فرض قانون المحاصيل غير الشرعية، وصرف الأموال بالتبذير والإسراف على حياة الترف واللهو واللعب والتنعم، وصرف أموال الدولة والشعب على تحقيق غایياتهم الشخصية والأسرية، وكانت الإدارة المالية وكثير من رجالها كان المعروف عنهم عمليات الرشى والفساد المالي.

وتوجه الشيخ السرهندي ببعض مكتوباته إلى الأمراء وأركان الدولة في هذا الصدد، فيقول في أحد مكتوباته المرسلة إلى بعض الإداريين مع المشورة على الاحتياط في اللقمة وما يتعلّق بها: "والنصيحة الأخرى الاحتياط في اللقمة لا ينبغي للإنسان أن يأكل كل ما التقاه من أي مكان كان من غير ملاحظة الحل والحرمة الشرعيتين؛ فإن الإنسان لم يترك سدى حتى يفعل كل ما يريد بل له مولى جل شأنه كلفه بالأمر والنهي وبين مرضاته وخلافها بتوسط الأنبياء عليهم الصلوات والتسليمات الذين هم رحمة للعالمين والمحروم من السعادة من يقتضي خلاف مرضاته مولاها ويتصرف في ملكه

مجلة الهند

وملكه بلا إذنه، فينبغي الاستحياء حيث يراغعون رضا الصاحب المجازي ولا يريدون فوت دقيقة في هذا الباب ومولاهם الحقيقي قد نهادهم عن الأمور غير المرضية...¹.

وقد نصح الشيخ بعض الإداريين بالصدق والأمانة في الشؤون المالية فيقول: "...إن رد نصف دانق إلى شخص أخذه عنه ظلماً بلا وجه شرعي أفضل من أن يتصدق بمائتي درهم. ولو كان لشخص من العمل الصالح مثل عمل النبي وبقي في ذمته حق شخص مقدار نصف دانق لا يدخل الجنة حتى يؤدي ذلك...".² وينبه الشخص الإداري الآخر على رغبات الدنيا والحرص عليها، ناصحاً له باجتناب كلي للأشياء الحرام والمشتبه فيها، فيقول: "... أخشى من أن ينخدع الأصحاب أولوا الألباب مثل الأطفال بمزخرفات الدنيا الدنية التي لها طراوة وحلوة في الظاهر وأخاف عليهم من المباح إلى المشتبه ومن المشتبه إلى الحرام، فيبقون خجلين منفعين من مولاهם. وينبغي أن يكون في التوبة والإذابة قدم راسخ وأن يعتقد في المنيات الشرعية سماً قاتلاً...".³

نستطيع أن نقدر المجهودات المضنية التي بذلها الشيخ في تقويم الإدارة المغولية مالياً وإدارياً وأنصحهم بالابتعاد عن المحرمات والمشتبهات، إلى جانب قيامه بترسيخ مبادئ الإسلام نحو قضية الأموال وكيفية الصرف فيها. وإنه من الملحوظ، لا سيما بعد الاطلاع على المكتوبات المرسلة إلى السلطان وأركانه للدولة، أن الشيخ السرهندي على الرغم أنه نصح في هذه المكتوبات مراراً وتكراراً بأهمية إصلاح السلاطين وأركان الدولة، مع التوضيح والتأكيد على اتباع الشريعة الإسلامية والعمل بها مع التوجه إلى الأعمال المشينة التي تمت في عهد السلطان أكبر حيال الشريعة الإسلامية من انتهاك حرمة الشريعة الإسلامية، وارتكاب المخالفات للقوانين الشرعية وهتك العادات والتقاليد الإسلامية، إلا أنه لا توجد تعليمات وإرشادات ونصائح واضحة في هذه المكتوبات والتي تفيد أنه طلب من أركان الدولة والسلطان نفسه أنه لا بد أن تتم الأعمال الإدارية

¹ راجع: المكتوبات، 2/ 174، رقم المكتوب: 69

² راجع: المكتوبات، 2/ 193، رقم المكتوب: 87

³ راجع: المكتوبات، 2/ 189-190، رقم المكتوب: 81

مجلة الهند

ومسؤوليتها من خلال الشريعة الإسلامية، أي توضع الأصول والضوابط الشرعية في الأموال ووسائل دخلها وخرجها وصرفها، وتطبيق القوانين الشرعية برمتها في المحاكم القضائية المركزية والمحلية لتحقيق العدل والإنصاف على أرض الواقع، والقضاء على العادات والتقاليد غير الإسلامية، والتعامل مع الشعب في ضوء تعليمات نصوص القرآن والأحاديث النبوية الصحيحة. وهناك بعض المكتوبات المرسلة إلى السلطان جهانگير نفسه، وبعضها إلى أبنائه ذكر فيها الشيخ مجالسه العلمية والدينية وما قام فيها من الوعظ والتذكير للسلطان جهانگير ولكنها لم يلفت انتباه السلطان إلى هذه الأمور المذكورة أعلاه بكلام واضح في هذه المكتوبات.

وفي الرسالة المرسلة إلى السلطان جهانگير دعا فيها الشيخ للتوفيق والتسديد والفتح والنصر، وأكّد على أن العملية العسكرية والجهاد تقوى قوائم الدولة القاهرة وتؤيد أركان السلطة الباهرة التي بدورها تساعد معنوياً ومادياً على ترويج الشريعة الغراء على أساس أن الشرع تحت السيف، موضحاً أسباب الفتح والنصر. وقسمهما إلى قسمين: جعل مربوطاً بالأسباب وهو صورة الفتح والنصرة المتعلقة بالعمليات العسكرية والجهادية، والقسم الثاني: حقيقة الفتح والنصرة الكائنة من عند مسبب الأسباب قوله تعالى "وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ" إشارة إلى ذلك وهي متعلقة بعسكر الدعاء، فعسكر الدعاء سبق بِدْلِه وانكساره عسكر الغزو وترقى من السبب إلى المسبب". ويختتم الشيخ هذه الرسالة قائلاً: "وهذا الفقير وإن لم يكن لائقاً بأن يجعل نفسه في عداد جنود الدعاء ولكن بمجرد اسم الفقر ولاحتمال إجابة الدعاء لا يجعل نفسه فارغاً من دعاء الدولة القاهرة ويكون رطب اللسان بالدعاء والفاتحة بلسان الحال والقال" *"رِبَّنَا تَقْبِلْ مِنَّا إِنْكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ"*^١

وفي رسالة أخرى مرسلة إلى أبنائه ذكر فيها الشيخ السرهندي مجلسه العلمي والديني مع السلطان جهانگير، والذي انعقد في رمضان المبارك ألقى فيه الشيخ كلمته أمام السلطان حول مقاصد بعثة الأنبياء والمرسلين، وسبب ختم النبوة، وعدم استقلال

^١ راجع: المكتوبات، 3/299-300، رقم المكتوب: 47

مجلة الهند

العقل والإيمان بالأخرة وعذابها وثوابها، ومن إثبات رؤية الله في يوم القيمة، والاتباع للخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين، وسنية التروایح، وبطلان التناسخ ومن أحوال الجن ومن عذابهم وثوابهم وغيرها من الموضوعات الدينية المهمة. وأكّد الشيخ على أن السلطان سمع كلامه بجدية تامة.¹

وعلى كل حال لا يعي أن الشيخ السرهندي ما كان يريد إصلاح حياة السلطان وأركان الدولة السياسية والإدارية حسب الشريعة الإسلامية، إنما الحقيقة تكمن في أنه كان يرغب في إصلاح شامل للعلماء والصوفية والسلطان وأركان الدولة والعوام وكل طبقات المجتمع الهندي معاً، وكان يبغي أن تكون كل هذه الشرائح من المجتمع تتبع السنن النبوية في حياتها اليومية الرتيبة. وفي الغالب كان يحس الشيخ أنه لو تم إصلاح السلطان وأركان الدولة على أساس أنهم لو التزموا بالشريعة الإسلامية في حياتهم العامة، لكان خيراً لهم ولعامة الناس للسير بسلوقة على طريقة الشريعة الإسلامية في إطارهم الخاص مع انشغالهم في حياتهم المهنية والأسرية. ومن هنا نجد الاختلاف البسيط في محتويات المكتوبات المرسلة إلى العلماء والصوفية وأركان الدولة، حيث معظم النكات المهمة المذكورة فيها مشتركة بينهم جميعاً ومن أهمها: طاعة الله ورسوله وأولي الأمر، وتطبيق الشريعة الإسلامية، والممارسة بالتزكية والإحسان من خلال الفكر الصوفي النقشبendi وتعليماته.² وفي الواقع كان مهمه الشيخ السرهندي ثلاثة أركان لا وهي تصحيح العقائد، وتطبيق الشريعة، وتزكية النفس والسلوك، والركن الثالث على حسب توضيحه تكملاً وتتابع للركنين الأولين، وكان يريد إصلاح الناس على هذا المنهج، وأكّد على ذلك في كثير من مكتوباته مراراً وتكراراً.³

¹ راجع: المكتوبات، 294/3، رقم المكتوب: 43

² يكتب الشيخ عن حقيقة حصول الشكر بإثبات أحكام الشريعة، فيقول: "والشكر لله المنعم تعالى وتقديس إنما يكون بتصحیح العقائد أولًا: على مقتضى آراء الفرقۃ العلیۃ والتتصفیۃ والتزکیۃ؛ ثانیاً: على حسب سلوك الصوفیۃ العلیۃ من هذه الفرقۃ الناجیۃ السنیۃ أی النقشبندیۃ، ووجوب هذا الرکن الأکثر استحسانی بخلاف الرکنین السابقین... راجع: المكتوبات، 1/116-117، رقم المكتوب: 71

³ في إحدى رسائله الموجهة إلى بعض الإداريين يقول: "رزقکم الله سبحانه الاستقامة على جادة الشريعة المصطفوية على صاحبها الصلاة والسلام والتحية. والذي لا بد منه للإنسان هو تصحيح

مجلة الهند

نتائج عامة

وقد رأينا من خلال هذه المباحث المذكورة أعلاه أن الشيخ السرهندي قام بشرح العقيدة الإسلامية وتوضيحها والعبادات والأحكام الشرعية ومقاصد الشريعة والفكر الإسلامي ودعا النخبة السياسية والعلماء والصوفية إلى ترويجها ونشرها في المجتمع الهندي؛ ذلك كله من خلال ملفوظاته المكتوبة، وبذل مجهوداً كبيراً في تحقيق هذه الأهداف، وهذا كله جميل، ولكن ينبغي لنا أن نعرف أنه ليس الوحيد الذي قام بذلك بل كانت هناك بعض الشخصيات من المحدثين والعلماء الكبار مثل الشيخ عبد الحق المحدث الدهلوى، والشيخ طاهر البتني، والشيخ على المتقي وغيرهم ممن لهم دور كبير في نشر علوم الحديث والقضاء على البدع والخرافات ونشر التعليم الديني وفتح المدارس الإسلامية وغيرها من الإسهامات الجليلة. ثم يجب علينا أن ننبه على ما وقع فيه الشيخ من زلات وأخطاء فادحة، حتى يرى نفسه فوق كافة الشيوخ الصوفية، وأستاذه عبد الباقي، حتى فوق سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، وادعى القيومية وهي من شطحاته مثلما قال بعض الصوفية قبل ذلك، "سبحانى ما أعظم شأنى" و"ليس في جبتي سوى الله" وغيرها.¹

والسؤال الذي يطرح على نفسه هو إلى أي مدى نجح الشيخ أحمد السرهندي في تقويم السلطان جهانگير، والشخصيات المهمة من الوزراء، وأعيان الدولة؟ هل ساعدت رسائله ومكتوباته على تغير أحوالهم الدينية وأحوال الناس الآخرين؟ وهل هم بدورهم قاموا بنشر الإسلام والشريعة الإسلامية بواسطة القنوات المشروعة والمنظمة؟ وفي الواقع هذه الموضوعات خارج نطاق هذا البحث؛ لأنه ستطلب بحثاً

العقائد أولاً على مقتضى آراء أهل السنة والجماعة الصائبة الذين هم الفرقة الناجية، وإثبات الأفعال الصالحة ثانياً بموجب الأحكام الفقهية. فإن ساعد التوفيق الإلهي بعد تعلم أحكام الفرائض والسنن والواجبات والمستحبات والحلال والحرام والمشتهيات وحصول هذين الجناحين الاعتقادي والعملي، يمكن الطيران نحو عالم الحقيقة... راجع: المكتوبات الربانية، 140/1، رقم

المكتوب: 94، وأيضاً، 1/222-221، رقم المكتوب: 191 وأيضاً، 2/159-169، رقم المكتوب: 67

¹ عندما كتبه عن تفوقه على الأئمة والصحابة راجع: المكتوبات، 1/22، رقم المكتوب: 11

مجلة الهند

مستقلاً لمناقشتها، والبحث عن النتائج التي ترتب على مجهوداته في سبيل الفكر الإسلامي. ولكن تجدر الإشارة هنا إلى أن جميع الحركات الإصلاحية التي نشأت في العصور التالية تأثرت بالطريقة النقشبندية لاسيما بأفكار الشيخ أحمد السرهندي.

ولا شك أنه من خلال هذه المبادرات الإصلاحية كان يزيد أيضاً توسيع نطاق السيادة للطريقة النقشبندية على حساب الطرق الصوفية الأخرى، مما أدى إلى الصراع بين جميع الطرق الصوفية آنذاك وحتى في العصور التالية في عصر الدولة المغولية. ولكنه يعدّ من أكثر مفكري التيار الصوفي الإصلاحي في القرن الحادى عشر الهجري تأثيراً في الأجيال الممثلة في عصر الاستعمار البريطاني، لا سيما أسرة الشيخ ولی الله الدھلوي وغیرهم، والذین شکلوا امتداداً لدعوته سواء في مجال التربية الإسلامية أو نشر الأفكار الصوفية النقشبندية بواسطة أعمالهم الفكرية أو عن طريق تأسيس المؤسسات التعليمية والفكرية، وكذلك تأثر به الشخصيات الإسلامية الأخرى من المدارس الفكرية الأخرى.

مجلة الهند

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع العربية:

1. أ. ر. جب ورفقاوه: الموسوعة الإسلامية الميسرة (ترجمة: راشد البراوي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر ، 2013 م.
2. أبو الحسن علي الحسني الندوبي: الإمام السرهندي حياته وأعماله، دار القلم، القاهرة، 1414 هـ/1994 م.
3. أحمد الفاروق السرهندي: رسالة تهليلية، أكاديمية زوار، كراتشي، 2011 م.
4. أحمد الفاروق السرهندي: إثبات النبوة، أكاديمية زوار، كراتشي، 2011 م.
5. أحمد الفاروق السرهندي: المكتوبات المسى بـ"الدرر المكنونات النفيضة" (ترجمة عربية: محمد مراد المزلاوي القزاني، وتصحيح: عبد الحميد فردوس)، المطبعة الميرية، مكة المكرمة، 1316-1899 هـ/1317 هـ.
6. ظهير الدين بابر: بابر نامه (ترجمة عربية: ماجدة مخلوف)، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2013 م.
7. عبد الأحد: الجنات الثمانية، مخطوط عربي تحت رقم "عبد الأحد" مجموعة رسائل الشيخ، شيفه عربية رقم 72/65، مكتبة آزاد جامعة عليگراہ الإسلامية.
8. عبد الحي الحسني: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، دار ابن حزم، بيروت، 1420 هـ/1999 م.
9. عبد القادر أحمد عطاء: التصوف الإسلامي بين الأصالة والاقتباس في عصر النابليسي، دار الجيل، بيروت. د.ت.
10. فرهاد دفتری: الإسماعيليون في العصر الوسيط: تاريخهم وفكthem (ترجمة عربية: سيف الدين القصير)، دار المدى، سوريا، 1999 م.
11. محمد بن طاهر المقدسي القيسراني: تذكرة الحفاظ (تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي)، دار الصميمي، الرياض، 1415 هـ.

مجلة الهند

12. محمد ناصر الدين الألباني: ضعيف الجامع الصغير وزيادته (تحقيق: زهير الشاويش)، المكتب الإسلامي، بيروت، 1408هـ

13. مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: صحيح مسلم (تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي)، دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، 1374هـ

14. المعجم الوجيز، وزارة التربية والتعليم، مصر، 1418هـ/1997م.
قائمة المصادر والمراجع الفارسية والأردية:

1. أبو الفضل: أكبر نامه، كلكتا 1873-1887م؛ ترجمة إنجليزية هنري بيفرذج، كلكتا، 1902م.

2. أبو الفضل: آيین اکبری (ترجمة: مولوی محمد فدا علی طالب)، دار سنگ میل، لاهور، 2007م.

3. أحمد فريدي: خواجه باقى بالله، لکھنؤ، 1978م.

4. إعجاز الحق قدوسی: تذکرہ صوفیاء سرحد، مرکزی اردو بورد، لاهور، د.ت.

5. ایم اسلام: سرمایہ عمر، ندوۃ المصنفین، لاهور، 1976م.

6. بایزد الانتصاری: خیر البیان، جامعة کابل، 1975م.

7. بدر الدين: حضرات القدس (ترجمة: عرفان احمد خان)، لاهور، پاکستان، د.ت.

8. جهانگیر: توزک جهانگیر (تحقيق: سید احمد)، علیگرہ، 1864م؛ ترجمة اردویة: مولوی احمد علی، لاهور، پاکستان 1972م؛ ترجمة انگلیزیہ: الیکزندر روجرز(Alexander Rogers)، مراجعة: هنری بیفرذج (Henry Beveridge)، لندن، 1909م.

9. خلیق احمد نظامی: تاریخ مشايخ جشت، إدارة أدبیات، دہلی، 1980م.

10. دارا شکوه: سفینۃ الأولیاء، اگرا، 1269هـ

11. سید صباح الدین عبد الرحمن: مذهبی رواداری، دار المصنفین أکادیمیہ شبی، الهند، د.ت.

مجلة الهند

12. السيد محمد عابد ميان: أنوار العارفين، دهلي، 1936م.
13. شرف الدين علي يزدي: ظفرنامہ يزدی، کلکتا، الہند، د. ت.
14. ضياء الحق الصديقي: ذکری مذہب کا تفصیلی جائزہ، کراتشی، د. ت.
15. ظفر الإسلام إصلاحی: عہد إسلامی کی ہندوستان میں معاشرت، معيشت اور حکومت کی مسائل، دار المصنفین، 2009ھ/1430م.
16. عارف نوشاهی: خواجہ احرار، اکادیمیہ بورب، إسلام آباد، پاکستان، 2010م.
17. عبد الحق المحدث الدھلوی: سلوك طريق اليقين (ترجمة أردية: مسعود انور العلوي)، قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة علیگراہ، 2009م.
18. عبد القادر البدایونی: منتخب التواریخ (ترجمة أردية: علیم اشرف خان)، قومی کونسل برائے فروغ اردو زبان، 2008م.
19. عبد المجید: ذکری مذہب اور اسلام، مجلس تحفظ ختم نبوت، بلوجستان، د. ت.
20. عروج القادری: تصوف اور اہل تصوف (ترتیب: رضی الاسلام الندوی)، مرکزی مکتبہ إسلامی، دہلی، 2011م.
21. فرید العطار: منطق الطیر، الہند، 1297ھ
22. کمال الدین حمد احسان: الروضۃ القيومیۃ، لاہور، د. ت.
23. محمد حسن: مشايخ نقشبندیۃ مجددیۃ، إدارة أدبیات دلی، الہند، 2008م.
24. محمد مسعود احمد: سیرۃ مجدد ألف ثانی، کراتشی، 1396ھ/1976م.
25. محمد منظور نعمانی، تذكرة امام ربانی، مکتبہ فرقان، لکھنؤ، 1970م؛ دار الإشاعۃ، لاہور پاکستان، 1977م.
26. محمد میان، علماء ہند کا شاندار ماضی، دہلی، 1985م.
27. محمد ہاشم کشمی، زیدۃ المقامات، مکتبہ نعمانیۃ، إقبال روڈ سیالکوٹ، 1407ھ
28. مفتی غلام سرور، خزینۃ الأصفیاء (ترجمة وتحقيق: محمد ظہیر الدین بھتی)، مکتبہ نبویۃ، لاہور، پاکستان، 1414ھ/1994م.

مجلة الهند

29. نواب صمصادم الدولة شاهنواز خان، مآثر الأمراء (ترجمة أردية: محمد أيوب قادری، طبع مرکزی اردو بورد، لاہور، پاکستان، 1388ھ/1969م-2007م).
30. نور الدین محمد عبد الرحمن جامی، نفحات الأنس (ترجمة أردية: سید احمد علی)، لاہور، 2002م.

قائمة المصادر والمراجع الإنجليزية:

1. Athar Abbas Rizvi: A history of Sufism in India, Fourth impression 2009, Munshiram Publication, Delhi, India.
2. Athar Abbas Rizvi: Muslim Revivalist movements in northern India in the sixteenth and seventeenth centuries, Agra, India 1965.
3. Athar Abbas Rizvi: Religious and intellectual history of the Muslims in Akbar's reign (Munshi Manoharlal publication, Delhi).
4. Beni Prasad, History of Jahangir, Allahabad, India 1962.
5. Burhan Ahmad Faruqi: The Mujaddid's concept of Tawhid, Lahore 1940.
6. Iqbal Sabir: Shaikh Ahmed Sirhindi's Relation with Jahangir in Contribution of Shaikh Ahmed Sirhindi to Islamic Thought, Edited by Abdul Ali and Zafarul Islam (Institute of Islamic Studies, Aligarh, India 2005).
7. Khaliq Ahmed, Nizami: Akbar and Religion (Idarah –i-Adabiyat-i-Delhi 1989).
8. Khliq Ahmad Nizami: State and culture in Medieval India, Delhi 1925.
9. Muhammad Abdul Haq Ansari: Sufism and Shari`ah: A study of Shaykh Ahmad Sirhindi's effort to Reform Sufism, (Islamic foundation U.K. 1986).

مجلة الهند

10. R.P. Tripathi: Rise and fall of the Mughal Empire, Allahbad, India 1985, P.340.
11. Tariq Ahmed: Religio-political ferment in the North West frontier during the Mughal period, (Idarah-I Adabiyat-I Delli, Delhi 1982).
12. Yohanan Fridmann: Sheikh Ahmed Sirhindi, McGill 1971.

قائمة المجلات والدوريات:

1. عز الدين الناجح، مقاربة تداولية لحكمة عطائية، دورية "الخطاب" المحكمة الصادرة عن جامعة مولود معمرى، تizi وزو، الجزائر. العدد الثالث مايو عام 2008م.
2. نذير أحمد، فرقه نقطوية بر ايک نظر "نظرة عابرة على الفرقه النقطوية" ، مجلة فكر ونظر، عدد يوليو عام 1960م، ط: جامعة عليکره الإسلامية، الهند.

مجلة الهند

من القاعدة البغدادية إلى صحيح البخاري

القاضي أبو المعالي أطهـر المبارڪـوري¹

ترجمـة من الأردـويـة: دـ. أورـنـك زـيبـ الـأـعـظـمـي²

مقدمة الكاتب

نـحـمـدـ وـنـصـلـيـ عـلـىـ رـسـوـلـهـ الـكـرـيمـ،ـ أـمـاـ بـعـدـ!

فـهـذـهـ قـصـتـيـ لـلـثـقـةـ بـالـنـفـسـ وـالـعـصـامـيـةـ كـتـبـتـهـ لـأـجـلـ تـشـجـعـ وـتـحـرـيـضـ الطـلـابـ الـذـينـ يـتـوـجـهـوـنـ نـحـوـ الـمـبـانـيـ الـفـخـمـةـ لـدـورـ الـعـلـمـ وـالـجـامـعـاتـ بـعـقـولـهـمـ الـوـقـادـةـ وـأـذـهـانـهـمـ الـذـكـيـةـ لـكـيـ يـتـعـلـمـوـنـ تـحـتـ إـشـرـافـ وـعـنـيـةـ الشـيـوخـ وـالـأـسـاتـذـةـ الـمـهـرـةـ مـتـبعـيـنـ مـنـاهـجـهـاـ الـتـعـلـيمـيـةـ وـالـتـرـبـيـةـ الـجـيـدةـ،ـ وـلـكـنـهـمـ عـادـةـ مـاـ يـفـشـلـوـنـ فـيـ أـهـدـافـهـمـ،ـ وـأـخـيـرـاـ يـحـصـلـوـنـ عـلـىـ شـهـادـاتـ عـجـزـهـمـ وـذـلـهـمـ.ـ وـذـلـكـ لـأـنـ مـسـتـوـيـ الـتـعـلـيمـ وـالـتـرـبـيـةـ قـدـ أـصـبـحـ فـاسـدـاـ بـلـ مـمـيـتاـ لـلـعـلـمـ وـأـصـحـابـهـ بـسـبـبـ الـقـائـمـيـنـ عـلـىـ هـذـهـ الـمـدـرـاسـ وـالـمـهـتـمـيـنـ بـهـاـ.ـ وـبـالـعـكـسـ مـنـ ذـلـكـ فـالـقـائـمـوـنـ يـتـهـمـوـنـ الـطـلـابـ بـكـلـ مـاـ حـدـثـ ثـمـ يـتـنـفـسـوـنـ الصـعـدـاءـ،ـ وـإـنـ حـاـوـلـ الـبـعـضـ مـنـهـمـ أـنـ يـتـقـدـمـوـ بـأـنـفـسـهـمـ فـهـؤـلـاءـ الـقـائـمـوـنـ يـفـرـرـوـنـ عـزـائـمـهـمـ.

فـلـيـعـتـبـرـ مـثـلـ هـؤـلـاءـ الـطـلـابـ بـطـلـابـ الـمـدـرـاسـ الـصـغـيرـةـ كـأـمـالـنـاـ،ـ وـلـيـجـتـهـدـواـ لـتـحـقـيقـ آـمـانـيـهـمـ الـغـالـيـةـ السـامـيـةـ.ـ لـمـ أـقـصـ زـمـنـ درـاستـيـ الـابـدـائـيـةـ لـإـطـرـاءـ نـفـسيـ وـلـإـعـلـاءـ

¹ كـاتـبـ هـنـديـ كـبـيرـ لـهـ "ـرـجـالـ السـنـدـ وـالـهـنـدـ"ـ وـ"ـالـعـقـدـ الـثـمـنـ"ـ وـسـلـسـلـةـ ذـهـبـيـةـ لـلـعـلـاقـاتـ بـنـ الـهـنـدـ وـالـعـربـ.

² مدـبـرـ تـحـرـيرـ الـمـجـلـةـ وـأـسـتـاذـ مـسـاعـدـ،ـ قـسـمـ الـلـغـةـ الـعـرـبـيـةـ وـآـدـابـهـ،ـ الـجـامـعـةـ الـمـلـيـةـ الـإـسـلـامـيـةـ،ـ نـيـوـ دـلـهـيـ

مجلة الهند

ذكرى، فلا يقرأها الطلاب الأعزاء من وجهة النظر هذه بل ليقرؤوها كي يتشجّعوا بها على النمو والتقدّم.

ولقد ألفت من قبل كتاباً باسم "تعليمي سرگرمیان عهد سلف میں" (الأنشطة التعليمية في زمن السلف)، ولم يكن يهدف ذلك الكتاب سوى تشجيع الطلاب وتحريضهم، وهذه حلقة ثانية من تلك السلسلة الذهبية. وكذلك كتاب "علماء سلف" للشيخ حبيب الرحمن خان الشيرازي جيدٌ ومفيدٌ جداً، وهو من كتبه التي تحسن بها مستقبل حياتي، فليقرؤه الطلاب كذلك.

القاضي أطهر المباركفوري

1/ ربیع الأول 1407هـ - 5/ نومبر 1986م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيد المرسلين محمد وآله وأصحابه أجمعين.

نسبي ومولدي: ولدت في داري بمباركبور (Mubārakpūr) الساعة الخامسة صباح اليوم الرابع لشهر رجب سنة 1334هـ المصادف لليوم السابع لشهر مايو سنة 1916م. وأما داري فهي الدار الرابعة الواقعة على الجانب المقابل للشارع شمال الدار المسكونة والتي هي ملتقى لحي بوره صوفي (Purah Sūfi) وهي حيدرآباد (Hyderābād)، ثم انتقلنا إلى الدار الثالثة قبلها والتي قد قضيت فيها طفولي وشبابي وزمن دراسي. لقد خصّصت لي الحجرة الخارجية، وكانت بكرة أولاد أبي. سُمّاني جدّي لأمي المرحوم أحمد حسين الرسوليوري (ت 26/ رجب 1359هـ) بـ"عبد الحفيظ"، ولكنني اشتهرت بـ"القاضي أطهر المباركبوري". وكان أبي الشيخ الحاج محمد حسن بن الشيخ الحاج لعل محمد بن الشيخ محمد رجب بن الشيخ محمد رضا بن الشيخ إمام بخش بن الشيخ علي المتوفى 11/ ربیع الأول 1398هـ. وأما أمي فهي حميده بنت الشيخ أحمد حسين بن الشيخ عبد الرحيم بن الشيخ جمال الدين المتوفاة في 22/ ذي الحجة سنة 1352هـ. لقد ضبطت

مجلة الهند

أخبار وترجمات آبائِي الكرام من قبل جدي لأبي وجدي لأمي في كتاب "ماثر ومعارف" و"تذكرة علماء مباركفور".

كان جدي لأمي يدرس في تلك الفترة في دكا (Dhaka) فبشره بمولدي ومولد خالي عبد الباري شيخ تلك المنطقة العارف بالله الشيخ الشاه عبد الله كما دعا لنا الخير.

لقد هاجر جدي الأعلى كثا مانك بور (Kara Mānakpūr) إلى مباركبور مع الشيخ الراجه مبارك بن السيد أحمد بن الراجه السيد نور بن الراجه السيد حامد الجشتي المانكبوري (ت 2/شوال 965هـ) زمن سلطنة السلطان نصیر الدین همایون، ومنذ تلك الفترة نرث منصب نيابة القضاء أباً عن جد، والذي نجد طابعه في كل صغير وكبير من العائلة، ونمارس الغيرة وعزّة النفس وصدق القول والإباء إلى حد بعيد. وأنذكر حتى الآن أحداً ووّقائع لبدء طفولي أضررت بغيرتي وقد صقلت إبائي وأنفقي فيما بعد.

كانت عائلتي كبيرة للغاية فكان لأبي ثلاثة أشقاء عبد الله وأسد الله ومحمد حسين. وكان أبي (محمد حسن) أصغرهم، وكانت بكرة أولاده. فكان كل فرد من العائلة يحبّني ويلطف بي.

كنت أرافق أولاد حارتي في كافة أنواع اللعب، فكنت ألعب معهم، وكانت أصيد، وأتّرّه وأرتكب كل شقاوة تليق الطفل إلا أنني كنت أنهماهم عنها. فكانوا يلقبونني بـ"المولوي" (الواعظ) حتى دعاني بنفس الخطاب غيرهم من أولاد الحارة وكبارها. كنت مشغوفاً بصنع اللعب ومولعاً بصيد الطيور والأسماك. فكنت أطّوّف مع أبناء الأعمام في الحدائق والحقول والأرياف والأنهار خارج القصبة. كانت هذه الحال حق الدراسة الابتدائية للفارسية والعربية، فكنت أمضي معظم فردي في اللعب. وزُد على ذلك الجو العائلي الحالي من الأنشطة العلمية، فكان اثنان من إخوتي الأربع لا يعرفان سوى القليل من القراءة والكتابة، وكانا يقضيان حياة متدينّة. كنت صالحًا بسيطًا في الطفولة، ولقد ضعف بصري بسبب الرماد في العين. فكانت أمي تهتمّ بي، وكانت قلقة لحياتي المتأنلة إذا كبرت، وكانت تشاطر همّها هذا مع الآخرين. كانت جدي لأمي رحيمة بنت الحافظ الشاه نظام الدين السريانوي المتوفاة في 26 / رمضان 1378هـ امرأة

مجلة الهند

صالحة وعابدة. وقد أرضعني، وكانت تحبني حبًا جمًا. وفي أغلب الأحيان كانت تدعوني إلى رسولبور (Rasūlpūr) في الصباح، وكانت ترجعني إلى مباركبور في المساء. وكان يقوم بهذه الخدمة من كان يتعلم عليها من طلاب مباركبور.

وُهِبْت ذاكرة قوية فلم أنس حتى الآن أحدًا وقعت حينما كنت ابن ستة أشهر أو سنة. فكانت أمي تتلو القرآن، وأنا في حضنها وأسمع ما كانت تتلوه. وكذا كانت هي تدرس أولاد وبنات الحارة، ولذا فقد نبتت في رغبة في العلوم الدينية منذ الطفولة كما عثرت على أخبار ومعلومات عن الأنبياء وخاتمهم والصحابة وتابعهم ومن تبعهم. وكانت أتصفح كتب أمي، وهكذا فكان حضنها هي مدرستي الأولى. وأصبحت مواطناً على الصلاة منذ أن بلغت العشر سنوات من عمري. فمضت طفولي في رعاية والدتي وجدي لأمي اللتين كانت نفسيهما وبيتهم علمية ودينية يزورها تقوى الله وعبادتها المخلصة بينما كانت بيتهما العائلة والحرارة مختلفة تماماً عنها. فقد ولدت في هاتين البيوتين المضادة بعضهما البعض، وتتأثر بهما طفولي. فما يوجد في نفسي من البرودة والحرارة يرجع سببه إلى هذا التضاد والذي يبدو في بعض الأحيان حتى اليوم.

بداية التعليم المنظم: ولو أني جعلت أقرأ وأدرس قليلاً من لدن أمي وجدي لأمي، ولكنني ألحقت بكتاب الحارة للتعليم المنظم والذي كانت تدرس فيه القاعدة البغدادية والقرآن الكريم ومبادئ اللغة الأردية ومبادئ الإسلام. كنت أدرس في الدار على والدي الكريمين، ثم ألحقت بمدرسة إحياء العلوم. وكانت آنذاك أقرأ الجزء الثالث من القرآن الكريم الذي أنهيت قرائته على الحافظ علي حسن المرحوم كما ذكرت، وبدأت أقرأ قليلاً من اللغة الأردية قبل أن أدخل المدرسة، فتعلمت الأردية بعدما أنهيت قراءة القرآن على المنشئ عبد الوهيد الlahori الذي توطّن مباركبور، ووقف حياته على التدريس في مدرسة إحياء العلوم. وأما الحساب فقد تعلمته في هذه المدرسة على المنشئ أخلاق أحمد المتوفى 18/ ذي الحجة سنة 1404هـ

وفي تلك الفترة شغفت بجمع الأوراق الملونة والخرائط وأنواع من النقود كما كنت أجمع على الكريبت، وكانت أغرس شجيرات مختلف الأنواع والأزهار. وبجانب الألعاب

مجلة الهند

الأخرى رغبت في تربية الحمام، وبقيت أرتبها لسنوات، الأمر الذي جعلني غائباً عن المدرسة. فذات مرة ضربني أبي مبرحاً، وجرّني إلى المدرسة. فقام عوجي، وجعلت أحضر المدرسة بصورة منتظمة. وفي هذه الفترة تاقت نفسي لجمع الكتب الأردية؛ فجعلت أبحث عنها، وأجمعها من هنا وهناك. وفي 1346هـ صدرت أول طبعة لكتاب "سبيل الآخرة" لجدي لأمي والذي أثرت قراءته في فҳفت الموت والقبر والقيامة، ولم يزل خوفها في قلبي إلى هذه الأيام.

تعلمت الفارسية على الشيخ نعمة الله المباركوري المتوفى 28/ ربيع الثاني سنة 1362هـ، وعليه تعلمت جودة الخط الأردو والعربي. وبالجملة فقد تعلمت بطريقة أو أخرى اللغة الأردية والفارسية، وبلغت من العمر حوالي 15 سنة، ثم شرعت في تعلم اللغة العربية.

فترة تعلمي للعربية تمتد على عشر سنوات من صفر 1350هـ حتى شعبان 1359م. وما بدأت أتعلم العربية كنت قد بلغت من العمر 14 أو 15 سنة، وهي فترة عنفوان الشباب فتنشط كافة القوى العقلية. فإن كانت البيئة ملائمة فيصير الإنسان عالياً رفيعاً، وإلا فيحرم كافة أنواع التقدم البشري، ولكن منهم من تفعل موهبته فعلها ولو أن الظروف لا توافقها. وأما أنا فأعتبر نفسي من بين هؤلاء السعداء حظاً ونصيباً.

وفاة الأم وبداية أنواع من البلاء: لقد نشأت في رغدة العيش ورخائه حتى أن فرغت من تعلم الأردية والفارسية. وكانت طبيعة والدتي علمية ودينية خالصة، ولقد عم الدار الخير والبركة للقناعة والبساطة كما كانت تجارتنا نامية. توفيت أمي في 1352هـ حينما كنت أدرس "الكافية" وغيره من الكتب. فأنهك همها شبابي، وبقيت أحزن عليها سنوات. وكدت أنسى نفسي بعد هذا الحادث؛ فكان أبي يغدو ويروح لأجل التجارة، وكانت أكبر أولاد أبي؛ ثلاثة ذكور وأنثى واحدة، فصعب عليّ أن أخرج لنيل العلوم كما كانت شؤون العائلة الأخرى تعوق السبيل حتى جعلوا يتحدون عن إيقاف دراستي، ولكني أبديت الصبر. فواصلت دراستي كما انشغلت بالشؤون العديدة، وأنهيت دراستي في مدرسة إحياء العلوم ولم أخرج من القصبة سوى سنة واحدة للتخصص في الحديث

مجلة الهند

من الجامعة القاسمية (مدرسة شاهي) في مرادآباد. وخلال هذه الفترة في 1345هـ ذهبت إلى الجامعة القاسمية في غيا، ولكنني رجعت منها بعد شهرين.

بيئتي العلمية: قضيت فترتي الدراسية كلها في مباركبور. وكان يتوفّر فيها وفي ضواحيها علماء مهرة وكتاب بارعون. ولعل كافتهم كانوا يخدمون العلم والدين في مختلف الموضع. فلم أبلغ من العمر ما استفید فيه من الآخرين، ولم أجد الفرصة لها إلا أنه قد قرأت أعمالهم من بعد، وسمعت عنها. فتشجّعت على خدمة العلم، واستهديت منها.

ومن رأيهم أو استفدت منهم:

- **الشيخ عبد العليم الرسوليوري** (الشقيق الأكبر لجدي لأمي) المتوفى في 1341هـ، رئيس المدرسين في مدرسة چشمہ رحمت بغازپور (Ghāzīpūr)، أتذگر صورته حتى الآن. كان عالماً كبيراً لعصره ومفتياً ومدرسًا وطبيباً مصنّفاً.
- **الشيخ عبد السلام المباركبوري** (ت 1343هـ) كاتب "سيرة البخاري" ومدرس دار الحديث الرحمنية بدلهي، زرته مرة للمداواة بمرافقة أبي.
- **شمس العلماء الشيخ مناظر حسن الفاروق المباركبوري** (ت 1347هـ) مدرس دكا وأحب أصدقاء جدي لأمي. لم أوفق زيارته.
- **الشيخ عبد الحق الأملوي** مترجم "تلبيس إيليس"، كان يقيم بصورة منتظمة بمدرسة ميان صاحب بدلهي وتوفي بها، لم أوفق زيارته كذلك.
- **الشيخ محمد أحمد المهاوي** (ت 15/ شوال 1368هـ)، كان يبيّض "تحفة الأحوذى" بجماعة من العلماء في تلك الفترة. كنت أزوره للمداواة كما كنت أذهب إليه بدون مسوغ. سألني ذات مرة عن الكتب التي أدرسهها، فذكرت له أسماءها، فقال إنك متخلّف للغاية في المنطق فاجتهد فيه. ولما رأيت شغله العلمي والتاليفي تشجّعت على الكتابة. ولقد سمعت بلسانه أول مرة المثل العربي السائر "من ساوي يوماه فهو في الخسران"، فليكن اليوم القادر أفضل من الماضي. بهديني هذا المثل حتى الآن.

مجلة الهند

- **الشيخ محمد شريف المصطفى آبادي** (ت 2/ ذي الحجة 1372هـ) كاتب "الإفاضة القدسية في المباحث الحكمية" و"نسيم الكلام في تأييد شريعة خير الأنام"، كان عالماً فاقد النظير في المنطق والفلسفة وعلم الكلام وتعلم عليه الأساتذة. وكان يمكث في الوطن، وهو من أخلص أصدقاء جدي لأمي. كنت أزروه كما كان يشرف دارنا بزيارتة. كانت جلساته علمية بحثية.
- **جدي لأمي الشيخ أحمد حسين الرسوليوري** (ت 26/ رجب 1359هـ) العالم المتبحر، والمعلم الكاتب والطبيب الحاذق، كان أدبياً للعربية وشاعرًا له ديوان. كان يدرّس في دكا، وكان يؤوب إلى الدار في العطلة. فكان يستغل ليل نهار في قراءة الكتب وكتابتها وصنع الأدوية وغيرها من الأعمال. وفي أيامه الأخيرة لزم الدار لسنوات، فاغتنمت الفرصة لمشاهدة أشغاله العلمية، فاستضافت به كثيراً. وما توفي كنت في مراد آباد أتخصص في الحديث.
- **خالي الشيخ محمد يحيى** (ت 11/ صفر 1387) كان ذكياً للغایة وجاماً للعلوم، فاستفدت منه كثيراً، وصقل ذوقى العلمي. فكل ما امتلكته من التراث العلمي يرجع فضلها إلى خؤولتي.
- **الشيخ الحاكم محمد صابر** (ت 8/ رجب 1399هـ) كانت بين عائلته وخؤولتي علاقة علمية قديمة، فكنت أختلف إليه حين أيامي الدراسية الأولى. أشار على قراءة "وفيات الأعيان لابن خلkan"، ودلّني على أهميته وجمعه للمعلومات، فاستفدت منه كثيراً. وقد أخذت منه العديد من الكتب ل القراءة مما خلق في ذوق الأدب العربي من الشعر والنشر.
- **الملا رحمت علي إسماعيل المباركبورى** (ت 1944م) كان عالماً متبحراً من فرقه البوهرا، وقضى معظم أوقات حياته في مومباي. ولما اختلف عن الملا سيف الدين ظاهر خرج من عنده بجماعة، ورفع القضية ضده والتي تعرف بـ"قضية الغلة". ولما فشل فيها فتح له دكاناً لأسباب التجميل في مباركبور. كان الملا أدبياً جيداً للعربية، وشاعرًا فحالله. ألف عدداً من الكتب الدينية، وسافر إلى مصر والشام

مجلة الهند

إيران والجهاز غير مرة. كنت أجلس في دكانه، وكانت أحاديثه علمية ودينية. وكان يعييني كتب مذهبة الخطية لدراستها. ولقد قرأت "رسالة الغفران" للشاعر الفلسفي الشهير أبي العلاء المعري في تلك الفترة وقد منحني إياها. و وعد أنه سيلحقني بالأزهر الشريف، ولكنه لم يستطع الذهاب إلى القاهرة ولا دخلني الأزهر الشريف. استفدت منه في الأدب العربي، ووقفت بفضله على التعاليم الخفية لفرقة البوهرا.

الاختلاف إلى دار المصنفين بأعظم كره: في تلك الفترة كان علماء بارزون شتى في دار المصنفين بأعظم كره مشغولون بالكتابة والتحقيق. كانت دار المصنفين مركزاً للسياسة على مستوى المحافظة بفضل الشيخ مسعود علي، وكانت أتردّد إليها بمرافقة أصحابي. وكان السيد سليمان الندوبي يتوقف قليلاً حينما كان يرانا، وكان يسأل عن أحوالنا. وفي بعض الأحيان كان يزور بنفسه مدرسة إحياء العلوم، ولكني لم أتمكن من الاستفادة منه أو من دار المصنفين. الواقع أن دار المصنفين كـ"شجرة ممنوعة" في حق الآخرين إلا أنني استفدت كثيراً من إصداراتها وترجماتها العلمي مجلة "معارف" وقد صقلت ذوق التأليف.

بيئة المدرسة وأساتذتها: هذه كانت بيئتي العلمية المحدودة التي قضيت فيها عشر سنوات لدراسي، فتعلمت على أساتذة وعلماء الديار، ولم أخرج منها بسبب الظروف الاقتصادية والعائلية. كانت مباركيبور، في تلك الفترة، ساحة النزاعات والصراعات بين الشيعة والسنّيين، وبين أهل السنة والديوبنديين. فكان مبارز كل فرقـة أو مذهب وكأنه يخرج إلى الساحة فيبارز، وكانت عامة هذه الديار تدعـو علماءـها من الخارج. فتكـرـرـ من خالـفـها أو تـلـحـدـ من لم يـتـبعـ مذهبـها. وكانت الخطـبـ والـمـنـاظـرـاتـ تـجـريـ لـأشـهـرـ، وهـيـ تنـتـهـيـ إلىـ الخـاصـامـ والـقـتـالـ وـمـنـ ثـمـ إلىـ الـمـحاـكـمـةـ. وكانتـ الـعـامـةـ وـالـخـاصـةـ كـلـاـهـماـ تـعـتـبـرـ قـضـاءـ الـوقـتـ فـهـاـ وـضـيـاعـ موـاهـبـهاـ وـصـرـفـ أـموـالـهاـ جـزـءـاـ مـنـ وـاجـبـاتـ الـدـينـ وـأـعـمـالـ الـخـيرـ. ولـأـجلـ العـصـبـيـةـ الفـرـقـيـةـ كـانـ الأـحـادـيـثـ الـفـرـدـيـةـ تـتـحـوـلـ إـلـىـ قـضـيـةـ سـيـاسـيـةـ. كـانـ مـرـكـزـ حـزـبـ الـدـيـوبـنـدـيـينـ مـدـرـسـةـ إـحـيـاءـ الـعـلـومـ. وـعـلـاوـةـ عـلـىـ تـلـكـ كـانـ جـلـسـاتـ جـمـعـيـةـ الـعـلـمـاءـ وـحـزـبـ الـمـؤـتمـرـ وـالـحرـكـاتـ وـالـأـنـشـطـةـ السـيـاسـيـةـ وـالـدـينـيـةـ عـلـىـ مـسـطـوـيـ الـوـطـنـ وـالـأـحـوـالـ

مجلة الهند

الطارئة كانت تخلق ظروفاً مثيرة ومهيجاً، وكنا نحن الطالب حضورها. وكانت عملية التعلم والتعليم تبدو صعبة في هذه الفوضى وكانت تفقد الظروف الهديئة المطمئنة التي يتطلبهما هذه العملية. ولكن من العجب أن هذا العهد هو العهد الزاهر لمدرسة إحياء العلوم، فما كان هذا البهاء ولا كانت هذه البركة في المدرسة لا من قبل ولا من بعد؛ فقد طار صيت تعليمها وتربيتها في الآفاق، وكان كل طالب من هذه المدرسة يحاول التقدم وأن يصبح شخصية يشار إليها بالبنان. كان هذا كله من فضل إخلاص وأثره أساتذة القصبة الذين كانوا منقطعين إلى التعليم والتدريس صابرين ومقتنين براتب قليل مبلغه من عشر روبيات إلى عشرين روبية بعيدين عن الرغبة في المال ومتاع الحياة الدنيا، وكانوا يلقون من عشرة إلى اثنى عشر درساً يومياً. وليس هذا فقط بل كانوا يدعون الطلبة إلى بيوتهم خارج الدوام، فيعلمونهم ما يفيد مستقبليهم، ويربونهم ما يزكي أنفسهم. كانوا يجهدون أنفسهم ثم يشجّعون الطلاب على الاجتهد والكد والجد. وكانوا حريصين على أن يتعلّم تلامذتهم، فكانت علاقة الأستاذ مع تلميذه علاقة قريب مع قريبه، بل صديق مع صديقه.

أساتذة مدرسة إحياء العلوم: أول أستاذ تلمذت عليه من بين أساتذة المدرسة هو الشيخ المفتي محمد يسین المبارکبوري (ت 22 / محرم 1404هـ). فقد درست عليه معظم الكتب، ولقد استفدت من بساطته وصلاحه وخلوصه ولطفه بي. وأما المنطق والفلسفة فقرأت الجزء الكبير منها على الشيخ شكر الله المبارکبوري (ت 5 / ربيع الأول 1361هـ)، وأنا تلميذه الأخير الذي علّمه بكل رغبة ونشاط، وله سهم أكبر في تشجيعي وتربيري النفسية. وكذا قرأت بعض كتب المنطق على الشيخ بشير أحمد المبارکبوري (ت 3 / شوال 1404هـ)، وقرأت تفسير الجلالين على الشيخ محمد عمر المظاهري المبارکبوري. وهكذا مارست العروض والقوافي لدن خالي الشيخ محمد يحيى الرسولبوري (ت 11 / صفر 1387هـ) كما قرأت عليه بعض دروس الهيئة. وله دور كبير وجليل في تربيتي؛ فكان يوفر لي كتب العربية النادرة للقراءة، وليس من بين أساتذتي من كان أدبياً وشاعراً وكاتباً سواه، وكل ما نلتة اليوم يرجع فضله إليه. فهذه نتيجة إخلاصه وجهدي الشخصي.

مجلة الهند

أساتذة الجامعة القاسمية (الشاهية) بمراد آباد: ومن أساتذة الجامعة القاسمية بمراد آباد الذين تعلّمت عليهم الشيخ فخر الدين أحمد (ت 1392هـ) الذي قرأت عليه صحيح البخاري وسنن ابن ماجه وسنن أبي داود، والسيد محمد ميان (ت 16/شوال 1395هـ) الذي قرأت عليه سنن الترمذى، والشيخ محمد إسماعيل السنحلي (ت 1395هـ) الذي قرأت عليه صحيح مسلم، وخلال هذه الفترة أقامت بالجامعة القاسمية لشهرين فدرست الباب الأول من ديوان الحماسة ومقامات الزمخشري وقام بالتدريس السيد محمد ميان. كان السيد المرحوم أديب العربية، وكاتب الأدبية، وصاحب طبعة دينية خالصة فاستفاضت كثيراً من إخلاصه ومحبته وتشجيعه.

تأسيس جمعية الطلبة: وفي نفس الفترة أقيمت جمعية الطلبة بمدرسة إحياء العلوم ل التربية الطلاب الفكرية والنفسية، وتوسيع نطاق معلوماتهم. ولهذا الغرض أقيمت مكتبة عظيمة فخمة جمع فيها الآلاف من الكتب الموثوقة بها من كل علم وفن لاسيما التاريخ والأدب، وتم جلب العديد من الجرائد والصحف السياسية والدينية والأدبية والعلمية التي كان يستفيد منها الطلاب. ولعل كل كتاب في تلك الفترة أنهيت قراءاته، وكذا كان الطلاب يمارسون الخطابة في كل جمعة، وأصدرت مجلة شهرية باسم "إحياء" من جمعية الطلبة كنت مدير تحريرها. كان الشيخ شكر الله مدير المدرسة ومحركها، وكان يعتني بتعليم وتربية الطلاب عنابة باللغة. وكان يوذّ أن يخلق فيهم عزة النفس والغيرة وعلو الهمة وعظمة الخلق واليد الطولى في العلوم، فكان يحاول أن يتقدم طلابه في كل فرع من فروع العلم.

لم تكن تساعدنى وسائلى الضيقه وأوضاعي الخاصة أن التحق بالمدارس العليا، فقد نزعت من فرصي سنة خرجت فيها عن الديار، ولكن علو الهمة والهياق بنيل العلوم قد جتني أن التحق بالأزهر الشريف لنيل الدراسات العليا حتى لم تزل هذه الأمنية من صدري بعد أن كبرت، ولكني قد حولت الخيبة إلى النجاح بفضل رغبتي واجتهادي بأن جعلت بيتي ومدرستي الأزهر الشريف وجامع الزيتونة وجامع قرطبة والمدرسة النظامية والمدرسة المستنصرية، وحصلت على مالن أحتسّب معكثًا في الديار. وهذا كله بفضل الله ومحبة الأساتذة وجهدي وعزّمي. ولقد جنت في تلك الفترة جنوناً وهمت هياماً؛

مجلة الهند

فكنت أتخيل دائمًا دور العلم الإسلامية القديمة الشهيرة من بغداد وبخارا والأندلس وغرناطة وأساتذتها وطلابها، وكنت أستفيض من حسناتهم وبركاتهم.

وإذا وافق جهد الدارس الجهيد وسعيه المضي همة التقدم والرغبة فيه والنشاط له فييمكن أن يكون عظيماً وهو في مكان ضيق حقير، وإذا لم توجد فيه هذه الصفات فلن يعظم ولو هو في مكان واسع كبير. ما مسني أي معهد علمي وتحقيقي وتربوي كبير ولا اهتدية من شخصية كبرى، وزد عليها عدم مساعدة أوضاعي الداخلية، ولكي مع ذلك مطمئن بأنني قد حصلت بفضل رغبي وجهدي وعلوهمي وصنع نفسي على كل ما يمكن الحصول عليه في المعاهد العلمية الكبرى تحت إشراف الشخصيات العملاقة. وكان من الممكن أن تحرم شجيرة شخصيتي، كما يحدث عادة، النمو والنشأة في ظلال شخصية كبرى أو معهد علمي كبير، ولم توقف النمو الحر والإثمار في جو تحيط به هذه القيود.

فائدة المنهاج الدراسي النظامي: لا شك أن المنهاج الدراسي النظامي مفيد ونافع جدًا، ولو أنه مز ب الكثير من التهذيب. فلقد وضع العديد من المدارس منهاجاً دراسياً خاصاً بها، ولكنها لم تخلق علماء ينافسون خريجي المنهاج الدراسي النظامي فيقوموا بكتابة مؤلفات ورسائل كممثلهم، ولهم فكرة جامعة ونظرة ثاقبة في العلوم والفنون الدينية. إني لا أخالف التغيير في المنهاج الدراسي فلنقم بالتغيير فيه طبقاً للظروف والمتطلبات، ولكن لنقدم الإمام التام بالعلم والفن والعقيدة الثابتة والعمل عليها على ما سواها لأن هذا هو الهدف وراء قيام المدارس الدينية هي قائمة عليه وساعية له. ولقد درست حسب هذا المنهاج، وكل ما حصلت عليه راجع فضلها إليه.

بركة المواظبة على المطالعة: كنت أعتقد أن التعليم العربي صعب فكنت أغيّب عن المدرسة كثيراً، وكان وراء غيابي هذا إهمالي عن الدراسة، وقصري في الفهم، وعجز طريقة التعليم. وهذه كلها تجمعت في حتى لم أحضر المدرسة لعدة أشهر، والحال أني قد أنسى إلى العربية منذ طفولتي إذ كنت أطالع القرآن الكريم بترجمته الأردية كل يوم، وكانت أتفكر في المعاني الأردية لكلمات القرآن في صورة الترجمة. ولما فرغت من قراءة "ميزان" و"منشعب" و"علم الصيغة" و"نحو مير" جعلت أفهم خطبة الجمعة،

وسمت بتمرين كثير لقواعد اللغة العربية. وكنت أقرأ "علم الصيغة" و"نحو مير" حيناً بعد حين. وكذا حفظت عن ظهر القلب "خواص الأبواب" لـ"فصول أكبرى"، وأحفظت القضايا النحوية لهذه الكتب إلى اليوم كما كانت من قبل، واستفید منها في حياتي الحاضرة. ولما قرأت، فيما بعد، عشر مقامات من "مقامات الحريري" بحاشية الشيخ محمد إدريس كما حقها فنما في النزق الصحيح للعربية وأدابها، وتبصرت في مبادئها وما يتعلّق بها من مثل اللغة والاشتقاق والأبواب والصلات والنحو والصرف والخواص وغيرها مما سهل لي فهم الكتب الدراسية وغير الدراسية، ونمّت في الثقة بالنفس مما قوى همي وعزّيتي. لم يكن يدرسنا الأساتذة بدون مطالعة فكان من الضروري للطلاب ألا يحضرّوا الفصل إلا بعد أن قرأوا الدرس القادم فحاولوا حلّ معضلاتها وفهم معانّها، وهم أيضاً كانوا يطالعون في الليل فكانت نطالع الكتب الأربع الدراسية ليلاً بكل اجتهاد، وكذا نفّوش المعضلة إلى الأستاذ إذا لم يمكننا حلّها. وهكذا فلما أصبحنا قادرين على الدراسة أهّبنا دراسة "منية المصلي" و"نور الإيضاح" و"القدوري" و"كتز الدقائق" و"شرح الوقاية" في سنة واحدة فقط، وكنت أقرأ حتى ست صفحات من "شرح الوقاية" في يوم واحد. وكذا بدأت دراسة "تاريخ الخلفاء" في تلك الأيام ولكنني تركته بعدما قرأت بعض الدروس لأنه لم يكن من الكتب الدراسية بل كان مما يجب مطالعته فحسب. وقد حدث أني كنت أقول بعد قراءة العبارة إنّي قد فهمتها فكان الأستاذ يتقدّم في التدريس. هذا كله كان بفضل قوة مطالعتي التي أوجدها حفظ قواعد اللغة وممارستها والاجتهد في الأدب العربي. ولقد أجهدت نفسي لها منذ البداية، ولكنني مع ذلك لم أندِ الكلمات السيئة عن الأساتذة، وما انتقدتهم قط. وإن حدث شيء من هذا النوع فقد عوقبت على ذلك. والواقع أني استفاضت منهم كثيراً.

وهكذا كنت أدرس بعض الكتب في زمن الدراسة، وكان الطلاب يدرّسون بكل رغبة ونشاط. وكان منهم من كان زميلاً في الدرس، وكانوا يجبرونني على التدريس إذا لم أرد تدريسيهم حتى كان يقع بيننا النزاع في هذه القضية. وهكذا فقد كنت أدرس كما كنت أدرس. وهذا قد أفادني كثيراً. وكانت أحمل كل وقت كتاباً من غير المقررات الدراسية، وعندما كنت أفرغ من قراءة الدرس وتكراره كنت انشغل بدراسته. وما أعجب تغيير

مدارسنا العربية وما أكثر حزنًا انحطاطها العلمي أن الطلاب كأمثالنا كانوا غير جديرين وموهوبين لدى الأساتذة قبل اليوم باربعين سنة أو أكثر، فكان الأساتذة يلوموننا بأننا لا نعرف شيئاً، وأننا لا نليق بأن نجالس العلماء، ونضيع أوقاتنا في رحاب هذه المدرسة. وأما نحن فكنا نقول لهم بأسلوب صبياني في بعض الأحيان: إنكم ستذكرننا فيما بعد". وصدق ما ظننا. إذا ولدت في الدرس قوة المطالعة شعر في داخله بالشرح والسرور بالقراءة، وبلغت رغبتي في قراءة الكتب غير الدراسية حد الجنون. فلم أكن أجده في قراءة الكتب الدراسية سوى لأنجح في الاختبار بدرجة جيدة. فلم أحاول ولو مرة أن أكون "ممثراً" أو "جيداً جداً"، ولكني نجحت في كل مرة "جيداً جداً"، وبلغت في بعض الأحيان درجة "ممثاز". وبالعكس من ذلك فقد كنت مشغوفاً بقراءة الكتب غير الدراسية فكنت أحمل كل آن كتاباً من غير المقررات الدراسية حتى كنت أنظر إلى الكتاب وأنا أتناول الطعام، وكانت أدرس الكتب غير الدراسية لساعات بالليل بعدما أفرغ من قراءة الكتب الدراسية، وكانت أعتكف على الكتاب أمام مصباح الغاز في ليالي الصيف، وربما كانوا يجبرونني على القيام عنه والحال أن بصري كان ضعيفاً منذ طفولي فقد جعلت أضع النظارة فور ما بدأت أدرس العربية فكان بعض الأساتذة يقول للطفل بي: "لا تقرأ هذا القدر فتعمى" فكنت أجيء عليه: إذا عميت فسيتوقف العمل". وبسبب كثرة المطالعة والتصفح كانت عيني تحرقان في بعض الأحيان، وكانت الحبوب تظهر فيها، وكانت أعاني من الدوخة التي كانت تسبب نوعاً من الإغماء لوقت غير قصير.

وربما كنت أدفع عن الإمام الشافعي في الفقه وكان الأستاذ يحاول أن يقنعني، وكانت أتفكر دائمًا لم لا تدرس كتب أئمة الأحناف المتأخرين لاسيما علماء ما وراء الهر، ومن أين يمكن لي الحصول على أمهات كتب القدماء التي تحتوي على الروح الصافية للفقه الحنفي، واستخرجت الفروع من الأحاديث والآثار، وعلى هذا فقد رغبت شديداً في الكتب النادرة لأئمة الأحناف الصادرة عن إحياء المعارف النعمانية بحيدرآباد فجمعتها، وقمت باستعراضها بكل حرية ورحابة صدر. فقد كان الشيخ أبو الوفاء الأفغاني (ت 1395هـ) رئيس لجنة إحياء المعارف النعمانية بحيدرآباد حنفيًا متشددًا فبحث عن هذه الكتب، ونشرها بتعليقه عليها، ثم قال لي بعد وقت طويل: إني أود أن

مجلة الهند

أحرق كتب علماء ما وراء النهر هذه، وذلك لأن تداولها بين الناس قد قلل وجود كتب أئمة الأحناف كأمثال الإمام أبي حنيفة والإمام محمد والإمام أبي يوسف وغيرهم حتى ضاع العديد منها فصرفوا النظر عنها، وجعلوا كتب المتأخرین مصدرًا ومانحًا للفقه الحنفي. وبسبب دراسة إصدارات إحياء المعارف النعمانية وجة الله البالغة نما في ذوق القضايا الفقهية في ضوء الأحاديث والآثار.

وكذا يخطر ببالي كثيراً أن القرآن والحديث اللذين هما مأخذ الدين جعلا على الدرجة الثالثة في المنهج الدراسي النظامي، ويتم تدریسهما بصورة عابرة أو نظرة سارحة. وعلى هذا فقد اشتريت المشكوة وتفسير الجلالين وتفسير ابن كثير، وكانت أدرسها كما كنت أدرس موطأ الإمام مالك وموطأ الإمام محمد.

الكتب الموجّهة التي درستها: لقد تعرّفت على الأعمال العلمية للسلف أولاً بـ"مسدس حالي" وـ"علماء سلف" ثم بفهرست ابن النديم ووفيات الأعيان، ورغبت في تقليدها وتتبعها بعدما قرأت أخبارهم وسيرهم. وفي تلك الفترة سافر خالي الشيخ محمد يحيى بعد الفراغ من نيل العلوم والفنون إلى دار المبلغين بل Kavanaugh والتي أقيمت حدثاً. و كان يرسل إلى كتب الشيخ عبد الشكور أو يأتيه بها، وأما أنا فكنت أقرأها باهتمام ورغبة. وكذا أخذت منه الكتب الأخرى في رد التشيع. وقد توفر لي عدد ملموس من مثل هذه الكتب، ثم اختير (حالي) مدرساً في مدرسة چشمه رحمت بغازيبور، فكان يحمل لي كتاباً من مكتبيها وبعدما أنهى قراءتها كان يرجع بها. فالكتب التي قرأتها بوسيلته والتي تذكرت أسماءها منها: الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر، ودلائل النبوة للأصبهاني، وسبحة المرجان في آثار هندوستان لغلام علي آزاد البلغرامي، وأكام المرجان في أحکام الجن لأنبي بكر شبلي البغدادي، وحياة الحيوان للدميري، والصواعق المحرقة لابن حجر المكي، والعمدة في الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، والمحاسن والأضداد للجاحظ، والشعر والشعراء لابن قتيبة، والميزان الكبرى للشاعراني وغيرها.

وكذا أخذت فقرات من لدن الشيخ الحكيم صابر خان الكتب التالية: فقه اللغة للشعالى، وأمثال العرب للضي، ونقد الشعر لابن قدامة، وكتاب الصناعتين للعسكري.

مجلة الهند

وقرأت ما يلي من الكتب مستعيرًا من مكتبة مدرسة إحياء العلوم: سيرة ابن هشام ووفاء الوفاء للمسعودي والمستطرف وديوان الفرزدق. وهكذا استفدت مما يلي من الكتب بطريقة أو أخرى: وفيات الأعيان لابن خلكان وكتاب الملل والنحل للشهرستاني والعقد الفريد لابن عبد ربه ورسالة الغفران لأبي العلاء المعري وتهذيب التهذيب وتواتي التأسيس وغيرها.

هذه علاوة على الكتب التي كنت أشتريها، وكانت مشغولة بقراءتها. وسأقدم فهرستها فيما بعد. وكذا قرأت كل ما في مكتبة جمعية الطلبة من الكتب قليلها أو كثيرها، واستفدت منها. وحينما ظفترت بكتاب جديد كنت انقطع إلى دراسته. وبجانب قراءة هذه الكتب كنت أجمع المختار منها وأكتب المقالات والحال أني لم أقدر على فهمها تماماً حتى تلك الفترة بل البعض منها كان فوق مستوى فهمي ولم أستطع سوى استيعاب القليل منه، ولكن كلما فهمت قوياً همت العلمية، ورغبت في المزيد من المطالعة والقراءة.

المناظرة والمناقشة: وفي تلك الفترة كنت أناظر البعثة النصرانية في السوق كل ثلاثة خطاباً وكتاباً، وفي هذا الشأن أمعنت النظر في التوراة والإنجيل والكتب في رد النصارى.

وبسبب كثرة المطالعة وقراءة الكتب ازدادت معلوماتي كثيراً، ولذا امترت عن طبة المدرسة في الخطابة، وكانت ألقى الخطاب قبل الأساتذة في الجلسات المنعقدة في القصبة أو خارجها.

الشعر: نما في ذوق الشعر منذ الطفولة، وجعلت أقرض الشعر الجيد بدون إصلاح الآخرين. كانت قصائدي ومنظوماتي تنشد في الجلسات الدينية والسياسية والعلمية كما جعلت تنشر. ووافقه كتابة المقالات وهي أيضاً بدون إصلاح من الآخرين، وهي بدورها جعلت تنشر في الجرائد والمجلات.

وبالجملة فقد كدت أن أبلغ ذروة الشهرة في كثرة المطالعة والاطلاع الواسع وكتابة المقالات وذوق التأليف والشعر والمناظرة والخطابة، وانفتحت لي أبواب المواهب، وجعلت أشعر بجودة الطبع والنشاط العلمي في كل مجال من مجالات العلم والفن، ونممت في الثقة بالنفس فبلغت الغاية التي أردتها. وكان أساتذتي مسرورين بهذا كله، وكانوا يشجّوني

مجلة الهند

كثيراً. الواقع أنما حصلت عليه يرجع فضله إلى إخلاص أستاذتي ومحبتهم وتعليمهم وتربيتهم. فكانوا يجتهدون بأنفسهم كما كانوا يطلبون من تلامذتهم أن يجتهدوا، وكانوا يبعثون أنفسهم بعيدين عن الثروة والجاه على أن يصبح تلامذتهم مثقفين.

شراء الإصدارات وجمع المخطوطات: ومنذ أن بدأت أدرس اللغة الأردوية رغبت في جمع الكتب فكنت أستعير الكتب من زملائي كما كنت أشتريها بمنفسي، وكذا جمعت خرائط الأماكن المقدسة وغيرها مما كنت أتعثر عليها في هذه القصبة الصغيرة في صندوق صغير من خشب جاءت به أمي من رسولبور وكانت أقلّها وأرّتها من جديد بعد يومين أو ثلاثة فكانت هذه أول مكتبي أو متحفي الإسلامي. ولما جعلت أتعلم العربية ازداد ذوقى لقراءة الكتب فكنت آخذ الكتب الدراسية من مكتبة جدي لأمي مما شوّقني لجمع الكتب ثم اشتريت ميزان ومنشعب وعلم الصيغة والكافية والمرقاة وكفاية المتحفظ وكنز الدائق وديوان المتنبي ومقامات الحريري كما اشتريت من كتب الأردوية تاريخ حبيب إله، والكلام المبين، وحدائق البيان، والفاروق، وكانت تأثيني مجلة "مولوي" من دلّي بصورة مستقلة. ولقد قمت بتجليدها وجمعها لدى.

ولما عرفت قدراً من العربية ورغبت في قراءة الكتب غير الدراسية للعربية جعلت أبحث عنها هنا وهناك، وشرعت في قراءتها. وفي تلك الفترة طلب خالي المرحوم محمد يحيى فهرس إصدارات مصر وفهرس كتب المكتبة الرشيدية بدلي من عبد الصمد وأولاده تجار الكتب بسيدواوه (سورت) على عنواني ثم طلبهما لي، وبعد فترة طلبت فهرس إصدارات أبناء المولوي محمد غلام رسول السورتي تاجر الكتب بمومباي والمكتبة العربية الكبرى بمومباي، ولقد نشرت فهارس الإصدارات كلها سوى المكتبة الرشيدية بدلي باللغة العربية من مصر، ولقد صنِّف البعض منها حتى الآن في مكتبي. كانت هذه الفهارس تفصل أسماء الكتب وأسماء مؤلفها وأنسابهم وسنين وفاتهـم وأجزاء الكتب وأسعارها كما كانت تعـرف ببعض الكتب. فكانت هذه الفهارس تـبدو موسوعة علمية للإصدارات العربية ومؤلفها، فقد حصلت بها على المعلومات الوافرة عن مؤلفات السلف وإصدارات مصر والشام، واهتدى بها ذوقى العلمي فكنت أقرأها مراتاً وأراجعها ثم كنت أختار منها حسب ذوقى وسعـقـي. فكان قليـي يـوـدـ أنـ أـشـتـريـ كلـ ماـ ذـكـرـ فـيـهاـ،ـ ولـكـنـ

ظروفي الاقتصادية كانت تحول دون ذلك. فبدأت أشتغل بمهنة التجليد فجمعت كل أسبابه وألاته، وجعلت أقوم بتجليد الكتب؛ كنت أحمل الأسباب من أعظم كره حيث كنت أذهب إليها راجلاً وأعود إلى الدار بعد شرائها حتى الظهر فكنت أقطع 12 ميلاً في ساعات معدودة. كل ما كنت أكتسب من التجليد أجمعه لشراء الكتب، ولقد اتخذت حيلة أخرى بأنني جعلت أشتري الكتب من المكتبة الرشيدية بدمشق بسعر التاجر فكنت أتال ترخيص أربع آنات (قروش) في Robbie على الكتب العامة، وآتين في الكتب المصرية، وأما نسخ القرآن الكريم وأجزاؤه فكنت أتال ترخيصات أكبر عليها؛ فكنت أشتري نسخ القرآن الكريم والكتب الأخرى على طلب من طلاب المدرسة وأهالي القصبة، وأبيعها لهم على السعر المذكور في الفهرس. وما بقي لي من فوائد الترخيص بعد أجراه البضائع كنت أحافظ بها، وعندما كنت أشتري الكتب فكنت أشتري كتاباً يوافق ذوقى حسبما انتفعت، وهكذا فكان يبلغني شهرياً طردان أو ثلاثة عن طريق البريد أو القطار بما فيها كتاب يختص بي. وفي بعض الأحيان لم أقدر على جمع المبلغ المطلوب فلم أتمكن من شراء الكتاب المأهولة لذوقه لشهر عديدة، وهكذا فقد توفرت لي ذخيرة ملموسة من أهميات الكتب العربية النادرة وإصدارات مصر والشام وبيروت طوال عشر سنوات لدراستي. وقد بلغ بي الانتظار والاضطراب لهذه الكتب إلى أنني كنت أرى في المنام الكتب التي كانت تبلغني في الصباح فكنت أقصد مكتب البريد أو محطة القطار فأتي بالطرد. كان ذلك اليوم بالنسبة لي يوم العيد فكنت أقرأ الكتاب لأيام وأقلبه وكنت أصلّي ركعتين شكرًا لله. ولقد صليت شكرًا لكل كتاب بلغني في تلك الأيام بل لم تنقطع هذه السلسلة لسنوات بعدها، ثم كنت أبادره بتجليده حسب ذوقى. وفي بعض الأحيان حينما لم يرضيني الجلد كنت أفكّه ثم أقوم بتجليد جديد. فكتب تلك الفترة كلها مجلدة بيديّ هاتين. ثم كنت أبحث عن أخبار وترجمة الكاتب وأضبطها، وكانت أغلف الكتاب. وحتى الآن ستجد كلّ كتاب لي مغلقاً بالورق كما قد ضبط عليه قيمته وتاريخ شرائه.

شراء بعض الكتب المهمة مع ذكر قيمتها وسنة شرائها: فيما يلي فهرس الكتب العربية غير الدراسية مع قيمتها وتاريخ شرائها، وهي ستخبر القراء كيف تطورت علمًا وعقلاً حسب السنوات، وماذا كانت أسعار الكتب في تلك الأزمنة، وماذا أصبحت الآن:

مجلة الهند

1. مختار الصحاح للرازي: اشتريته بروبية هندية واحدة في شعبان سنة 1353هـ. هنا أول كتاب بلغني مما بلغني من إصدارات مصر. كان الشيخ شكر الله قد طلب ميزان الاعتدال وتذكرة الموضوعات والمستطرف من أبناء المولوي محمد بن غلام رسول السورتي بمومبائي، فوصل إلى هذا الكتاب مع تلك الكتب ثم اشتراه العديد من الطلاب بواسطتي.
2. أدب الكاتب لابن قتيبة: اشتريته بروبيتين.
3. كتاب الأضداد في اللغة لابن بشار الأنباري: اشتريته بروبية هندية واحدة. بلغني هذان الكتابان في شهر رمضان سنة 1353هـ من قبل عبد الصمد وأولاده تجار الكتب في سورت.
4. كتاب المعارف لابن قتيبة: اشتريته بروبية هندية واحدة ونصف روبية في شهر رجب سنة 1354هـ
5. ديوان النابغة الذبياني: اشتريته بعشر آنات هندية.
6. ديوان زهير بن أبي سلمى بشرح الأعلم الشنتري: اشتريته بخمس آنات هندية.
7. العلم الخفاف في علم الاشتقاد للنواب صديق حسن خان: اشتريته بست آنات.
8. ديوان الخنساء مع ديوان حاتم الطائي: اشتريته بثمان آنات تقريباً، بلغتني هذه الكتب الأربع في شوال 1354هـ من المكتبة العربية الكبرى بمومبائي.
9. مقدمة ابن خلدون: اشتريتها بروبية هندية واحدة وأربع آنات. أعطاني المفتى محمد يسین روبية واحدة كجائزة على نجاحي بالمركز الأول في الامتحان السنوي لمقامات الحريري لـ 1354هـ فأضفت إليها أربع آنات واشترت بها هذه المقدمة.
10. دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني: اشتريته بروبيتين هنديتين تقريباً.
11. العمدة في الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني في مجلدين: اشتريته بروبيتين هنديتين.

مجلة الهند

بلغني هذان الكتابان من المكتبة الرشيدية بدلي في صفر 1355هـ.

12. الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري: اشتريته بروبية هندية ونصف.

13. طبقات الأمم لابن صاعد الأندلسي: اشتريته بروبية هندية وخمس آنات.

بلغني هذان الكتابان من المكتبة العربية الكبرى بمومبائى في 16 / ربيع الثاني سنة 1355هـ.

14. الإصابة في تميز الصحابة لابن حجر العسقلاني في ثمانية مجلدات: اشتريته بعشر روبيات. جاءني هذا الكتاب من المكتبة الرشيدية بدلي في شهر رمضان سنة 1355هـ. كان سعره الحقيقي 12 روبية هندية، وبلغ السعر عشر روبيات ونصّاً بعد تخفيض آنتين على روبية، ولكن جزءاً من صفحات المجلد الثامن الخالية قد ضاع فخفض السعر إلى عشر روبيات. ولقد قمت بتجليد المجلدات الثمانية وحداً ثم كسرت التجليد فازدواجت مجلدين في جزء.

15. فتوح البلدان لأبي الحسن البلاذري: اشتريته بروبية و14 آنة، وبلغني في شوال 1355هـ.

16. كتاب الفهرست لابن النديم: اشتريته بثلاث روبيات عن طريق بعض أصدقائي من أبناء المولوي محمد بن غلام رسول السورى بمومبائى في 26 / رجب سنة 1356هـ.

17. شرح نزهة الفكر لابن حجر العسقلاني: اشتريته بثلاث آنات ونصف.

18. زاد المعاد في هدى خير العباد لابن قيم في أربعة مجلدات: اشتريته بأربع روبيات.

19. ديوان الحماسة لأبي تمام الطائي بشرح التبرizi الموجز في مجلدين: اشتريته بروبيتين.

بلغتي هذه الكتب الثلاثة من المكتبة الرشيدية بدلي في شهر رجب 1356هـ.

20. الكامل في اللغة والأدب للمبرد في مجلدين: اشتريته بثلاث روبيات ونصف.

21. فقه اللغة وسر العربية للشعالي: اشتريته بروبية وثمانى آنات.

مجلة الهند

بلغني هذان الكتابان من المكتبة الرشيدية بدلي في شهر رمضان 1356هـ

22. مشكاة المصابيح (طبعة أصح المطبع بدلي): اشتريته بروبيتين وتسع آنات، وبلغني في 17/شوال 1356هـ

23. ديوان مجذون: اشتريته بثلاث آنات، وبلغني في ذي الحجة 1356هـ

24. تفسير ابن كثير في أربعة مجلدات: اشتريته بعشر روبيات، وبلغني في 12/ربيع الأول 1357هـ.

25. صحيح البخاري بحاشية السندي في مجلدين: اشتريته بروبية و14 آنة، وبلغني في 15/رجب 1357هـ ثم طلبه العديد من الطالب بواسطتي.

26. إحياء العلوم للغزالى في أربعة مجلدات: في حواشيه كتاب المغني عن حمل الأسفار في تخریج ما في الإحياء من الأخبار للعراقي وكتاب تعريف الإحياء بفضائل الأحياء لعبد القادر العلوى وكتاب الإماماء عن إشكالات الإحياء للغزالى وعوارف المعارف للسهروردي، اشتريته بأربع روبيات، وبلغني في 16/شوال 1357هـ

27. تذكرة الحفاظ للذهبي في أربعة مجلدات: اشتريته بعشر روبيات ونصف، وبلغني في 4/ ذي الحجة 1357هـ

28. كتاب الخراج للإمام القاضي أبي يوسف: اشتريته بروبيتين ونصف، وبلغني في 24/ ربيع الآخر 1358هـ

29. تفسير الجلالين مع أسباب التزول في مجلدين: اشتريته بروبية واحدة.

30. الإمامة والسياسة لابن قتيبة: اشتريته بروبية ونصف.

لم أكتب تاريخ شرائهما، وبلغتني هذه الكتب من المكتبة الرشيدية بدلي.

31. سنن ابن ماجه

32. سنن النسائي

33. سنن الترمذى

مجلة الهند

كانت هذه الكتب قديمة فاشترتها بثمن رخيص من دارس في مراد آباد في 1369هـ.

هذه 33 كتاباً في 58 مجلداً والتي ميزانيتها حوالي 70 روبية في ذلك العهد، وهي اليوم تعادل آلافاً من الروبيات. لقد اشتريت هذه الكتب بقروش جمعتها بصعوبة في حين كانت يدي ضيقّة، وكان قد أحاط بي البؤس والشقاء.

وفي نفس الفترة التي كنت أدرس فيها اللغة الأردية شففت حباً بجمع النقود النادرة وغيرها من العجائب، و كنت أبحث في تلك الفترة عن كتب خطية ونادرة. وقد كان بلغني أنه كانت في عائلتي كتب خطية لا تُحصى، ثم أقيمت تلك المخطوطات في كيس كبير في بئر. وقد بقي حتى زمن أبي مصحف نسخه جدي الأكبر، ولكنه قد ضاع قبل أن أولد وأبلغ الحلم، إلا أنني وجدت مجموعة خطب قديمة يوجد في نهايتها الخطبة الثانية لل الجمعة وخطبة العيدين مما قد كتبها هو، وفي نهايتها ضبطت السنة 1297هـ. خطها عربي جيد، وهي محفوظة لدى إلى الآن. وقد بقيت في عائلتي شهادات لنيابة القضاء قد حفظتها بعدم الصلة الأوراق في ظهرها، ولكنها أيضاً قد ضاعت بأيدي أفراد عائلتي الجلاء، إلا أنني قد نقلتها في تلك الفترة، ثم نشرتها في كتابي "ماثر ومعارف". فلم يبق سوى شهادة. وكذا عثرت في تلك الفترة على نسخ خطية لـ"قصة شاه جمجمة" و"الله خدائ" فحفظتها إلى اليوم.

وكان أحد شيوخ الحي الحاج ولی الله تاجر كتب بازار يعرض كتبه على صفة "قدم رسول" يوماً في الأسبوع. فكنت أزوره، وأقرأ الكتب. فلما شهد ولعي بالكتب أعطاني نسخة خطية نادرة لـ"تفسير مرتضوي". هذا تفسير منظوم لبعض سور للشيخ غلام المرتضى بن الشيخ تيمور الحنفي الإله آبادى المعروف بجنوب والتي كتبت عام 1198هـ. وربما توجد نسخة أو نسختان لهذا التفسير في الهند، فكتبت في نهايته بقلبي ما يلي: "ایں نسخہ قدیمه متبرکہ در مبارک پور یکے از تاجران کتب که پیر کھن سال بود، نامش حاجی ولی اللہ بود ودر دیار عرب یک زمانہ فروکش ماندہ بود مرا بطور هدیہ در 1354ھ عنایت فرمود، وبعد چند سال انتقال کرد، نزد من یک اول منظوم تفسیر

مجلة الهند

است كه بزيان اردو مسلسل گفته شد، والله أعلم بالصواب. وأنا العبد الأفقر القاضي عبد الحفيظ أطهر المباركپوري، غفر له ول المتعلقة أجمعين".¹

ولقد اشتريت كتيباً خطياً جميلاً من أحد تجار القصبة بست آنات ضبط فيه أسماء شهداء بدر وأحد بخط جميل بالعربية. جدولها وما بين الأسطر مذهب فكتبت في طرف منه ما يلي: "ملكت هذا الكتاب المبارك بالبيع الشرعي يوم الخميس 29/شوال 1357هـ وأنا القاضي أبو المعالي عبد الحفيظ المباركفوري، بخواب اندر متعلق اين نسخه مباركه مرا بشارت شده بود".²

والكتب التي كانت توافق ذوقى، ولم أقدر على شرائها كنت أنقلها. وكنت أعتنى بذلك كثيراً؛ فكنت أقوم بتسطير الأوراق السميكة، وأشتري القلم الجيد، وأصنع المداد الذي لا يزول، وكانت أضبطة اليوم والوقت والسنة في نهاية كل كتاب. ومما يجدر بالذكر بعض الكتب التي نسختها:

1. كتاب النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن علي بن عيسى الرمانى (ت 384هـ). هذا الكتاب في 32 صفحة، ونسخ في 12/ صفر 1354هـ. قدّمت للكتاب، وذكرت ترجمة الكاتب في نهاية الكتاب بالعربية.

2. كتاب الألفاظ المترادفة لأبي الحسن علي بن عيسى الرمانى: هذا الكتاب في 16 صفحة، ونسخ في 14/ جمادى الثانية 1354هـ. قدّمت له بالعربية حيث ذكرت ما هو المترادف، وما هي أسبابه آخذاً من مختلف الكتب.

3. ديوان امرئ القيس: نقلت أبيات امرئ القيس من شرح ديوان امرئ القيس المطبوع، ثم زدتتها آخذاً من مختار الصحاح وغيره من الكتب. هذا الديوان في 33

¹ ترجمة: أهدي إلى هذه النسخة المباركة الحاج ولی الله أحد تجار مبارکبور العجائز والذي أقام بالعالم العربية لمدة في 1354هـ ثم توفي بعد ذلك بسنوات. هذا أول تفسير أردو منظم للقرآن لدى، والله أعلم بالصواب.

² ترجمة: لقد بشرت بهذه النسخة في المنام

مجلة الهند

صفحة ذكرت في بدايته ترجمة الشاعر في خمس صفحات. نسخته في شهر رمضان 1354هـ.

4. مختصر الجرجاني في أصول الحديث للعلامة مير سيد شريف علي بن محمد بن علي الجرجاني: هذه الرسالة في 16 صفحة، وتم نسخها عصر الاثنين العاشر من شهر صفر 1355هـ.

5. ديوان الفرزدق: هذه النسخة أعدتها من ديوانه المطبوع من بيروت. في بدايتها ذكرت ترجمة الشاعر بالعربية، ثم جاء الديوان كله 114 صفحة. تم نسخ الديوان ضحى الجمعة السادس عشر من جمادى الثانية 1355هـ.

6. أنباء الأذكياء في حيات الأنبياء للإمام السيوطي: هذه النسخة نقلتها من نسختها المنشورة. هي في 14 صفحة، وتم نسخها في 7 / ربيع الأول 1358هـ.

7. كتاب الدرات للأصمي: هذا كتاب موجز للغاية، ونشر من بيروت مع بعض الرسائل تنتهي على 83 درة ثم تأتي رسالتان للحريري "سينية" و"شينية". وهي في 12 صفحة، وتم نسخها في 20 / صفر 1355هـ.

8. العروض والقوافي: هذه الرسالة نشرت من بيروت فنقتها. وقرأتها على الحال محمد يحيى في ثلاثة جلسات.

9. نقلت سيرة النبي بكمالها من الاستيعاب.

10. فقه اللغة: نقلت الفصل الأول منه والفوائد اللغوية والأدبية وتاريخ الأدب العربي والمختار من الأبيات والألغاز آخذًا من فقه اللغة وغيره من كتب اللغة والأدب.

وكذا نقلت قصص العلماء وأخبارهم في مذكرة على شكل كتاب صغير، وهي موجودة إلى الآن. ولم تقطع سلسلة الأخذ والجمع من الكتب العربية طوال زمن دراستي. وهكذا فقد كتبت المئات من الصفحات.

وبالجملة فقد كان توفر لي مكتبة غنية للمخطوط والمطبوع من الكتب خلال فترتي الدراسية، وهي كانت تحتوي على المصادر الأولوية والمراجع القيمة، وكانت أقضى جل

مجلة الهند

نهارياً فيها، ثم أبىت بين ظهرانيها. فكنت أضعها في رف بصورة منتظمة، ولم أكن أدع أي كتاب بدون ترتيب، وكانت أضع الأوراق البيضاء في بداية الكتاب حين تجليده. وكانت أعتني بذلك، وأكتب فيها الفوائد والمعاني المفيدة للكتاب آخذاً من الكتب الأخرى، وكذا كنت أصون الكتب من تكريها، وكانت حذراً للغاية في تناولها. وأما أصدقائي وزملائي فلم تكن لهم أي رغبة في هذه الكتب "غير المفيدة"، فلم أضطر إلى الضرب بكتبي هذه "القيمة" ولم أكن أخاف ضياعها. ولأجل رغبتي في الكتب فقد توفرت لي مكتبة ثرية لأمهات الكتب جمع فيها ذخيرة عظيمة للمخطوطات والمنشورات العربية، ضاقت الحجرة عن سعتها.

كتابة المقالات وتأليف الكتب: كانت مكتبة جدي لأمي الشيخ أحمد حسين الرسوليوري عظيمة جدًا وكانت تحتوي على ثلاثة رفوف كبرى منها مطبوعات ومنشورات العربية والفارسية والأردية بترتيب جميل. كان جدي لأمي يرجع من دكا في العطلة، وكان يشتغل ليل نهار بقراءة الكتب وتأليفها وصنع الأدوية. وكانت الكتب تلقى على الحصير، وكان يقتبس ويأخذ منها. وأما أنا فكنت أرى شغله العلمي، ولكن لم أجرب على التقرب منه، فإن غادر المكان كنت أقلب أوراقه ثم أتركها كما هي. وفي بعض الأحيان كان يشعر بذلك فكان يسأل: من جاء هنا؟، وعندما يسمع اسمي يسكت ولا يقول شيئاً.

كان جدي لأمي يقيم خارج الديار لأجل التدريس كما كان يفعل خالي لأجل الدراسة فإن وفقت الذهاب إلى رسوليور حين غيابه كنت أقرأ الكتب من مكتبه، ثم أعيدها في نفس المكان وفي نفس الحال. وكان معظم الكتب يعلق عليها جدي ويوضع الحواشى حتى أن بعض الكتب كان يكتب في بدايتها صفحات عديدة فكانت أمعن النظر فيها والحال أني كنت عاجزاً عن فهمها، ولكني وفقت ذوق الأخذ والاقتباس من هنا فجعلت أنقل ما ترکه حسب مستطاعي زمن دراستي للأردية. ولما دخلت في الصحف العربية، ورغبت في قراءة الكتب ومطالعتها فاستضفت من هذا النور، فمللت إلى كتابة المقالات وتأليف الكتب.

لم يعط أستاذة ومسؤولو مدرسة إحياء العلوم ذوقاً للكتابة والتأليف. فذات مرة طلبت منظمة "بزم أحباب حيدرآباد" (منظمة رفقاء حيدرآباد) من طلاب المدرسة مقالة

مجلة الهند

في سير الأئمة الأربعه فقد أجهد الأساتذة أنفسهم، وكابدوا الصعوبة في ترتيبها، ومن ثم شعرو بخلق ذوق الكتابة في الطلاب وبقيام المنظمة لهم باسم "جمعية الطلبة"، واشتروا الكتب المستندة من مختلف العلوم والفنون لاسيما التاريخ والأدب، واشترت الجرائد والمجلات العلمية والأدبية والدينية، وأصدرت مجلة خطيبة شهرية باسم "الإحياء" التي لم تتقدم وراء بعض الأعداد. ولقد انتعفت كثيراً من هذه الكتب والرسائل لاسيما كتب دار المصنفين وندوة المصنفين والجامعة المليلية الإسلامية ودار الترجم، ومجلات "معارف" و"برهان" و"جامعة". إن هذه الكتب كانت تحمل هوماشن وإحالات في التي دلتني على مصادر العربية ومراجعها الأولوية فتاقت نفسي في الانتفاع المباشر منها فاشترت العديد من كتب التاريخ والطبقات.

ولما قدرت على الكتابة والتأليف نقلت أخباراً موجزة لسير وترجم الخلفاء الأربع، والأئمة الأربع من كتب أمي الحنون، وجمعتها في كراسة صغيرة طبق ذوق آنذاك، وقامت بتجليده بالسلك، وجعلت له لوحًا فوقه أحمر وأسفله أسود. كان هذا أول ثغر من ذوق التأليفي والكتابي. فلما دخلت في الصف الثاني أو الثالث الأردوي جعلت كراسة صغيرة مجلدة لذكر المعاني الصعبة للكلمات، وكذا جمعت أبيات المديح النبوى في كراسة صغيرة للغاية في تلك الفترة، ثم قمت بتجليدها الجميل. وذوق تأليفي في الطفولة هو الذى تسبّب في تأليف الكتاب.

بداية كتابة المقالات: لما بدأت أدرس العربية نما في ذوق كتابة المقالة بجانب القريض، وبدأت أفگر في كيفية نشرها في الجرائد والمجلات. فأول ما نشر اسمي بشأن لغز هو في مجلة "بيام تعليم" الصادرة عن الجامعة المليلية الإسلامية بدلهمي. ولما بلغ الخبر الشيخ شكر الله دعاني وهنأني به، ثم نشرت مقالة موجزة لي في "أخبار الجمعة" بدلهمي بعنوان "واردتها کی خطرناک تعليي اسکيم" (مشروع واردها التعلييي الخطر)، ثم نشرت لي مقالة في صفحة واحدة في موضوع "مساوات" (المساواة) في مجلة "مؤمن" ب بدايون في 1353هـ، وتعتبر أولى مقالاتي، ثم نشرت لي مقالة أخرى في صفحتين فيها بعنوان "رها دين باقی نه إيمان باقی" (ما باقي الدين ولا تبؤا الإيمان) وفي نفس الفترة نشرت لي مقالة بعنوان "بلاکشان إسلام" (من امتحن إسلامه) في صحيفة "العدل" الأسبوعية بعوچرانواله

مجلة الهند

(بنجاب). ولقد نشر المدير هذه المقالة في مكان الافتتاحية. وبعدما نشرت هذه المقالات جنّ جنوبي بكتابة المقالات بحيث نظمت لها فاشترت من السوق طاولة بروبية وانتين كما اشتريت مقعداً بست آنات، وصنعت مقلمةً كبيرةً وجميلةً، ثم طلبتها باللون الأسود، وكتب على ظهرها بالأحرف العربية البيضاء "علم بالقلم"، ثم أعددت مداداً أحمر وأخر أسود، واشترت أقلاماً من أنواع عديدة، ثم وضع على الطاولة الكواخذ والأقلام بترتيب جميل، وشرع في قراءة الكتب وكتابة المقالات وقول الشعر. لم يهبني في الشعر سوى ذوقٍ فشجعني الاعتماد على النفس فلم يهبني أحدٌ إلى توفير المعلومات وتتنوع الأساليب؛ فكنت أكتب المقالة مراً وتكراً ثم أشطبها وهي لا تتوافق ذوقٍ إلا بعد جهد جبيد. وكذلك كنت أفكّر في قبولها للنشر أو ردها، ولكنها حينما تنشر بدون تغيير كبير، فكنت أشجع من جديد، وأقعد لإعداد مقالة أخرى.

الشيخ سيد محمد ميان ومجلته "قائد": وفي هذه الأثناء (1357هـ) جاء الشيخ سيد محمد ميان المرحوم من مدرسة شاهي بمراد آباد ليترأس الجلسة السنوية لجمعية الطلبة عندنا، والشيخ محمد ميان هو الذي قد أصدر مجلة "قائد" من مدرسته. فأنشد له صديقي الشيخ عثمان بعض أبياتي التي نشرها الشيخ في مجلته لطفاً بي، وأكد على أن أكتب لها المقالات. وهكذا فقد جعل الشيخ المرحوم ينشر مقالاتي وقصائدي في مجلته، وأصبحت من مسامحها المنتظمين، فتحقق أمني، وهمت غراماً بالكتابة. وكنت أعدّ المقالات تترى؛ أوفّر لها الكتب، وأهذب المقالات، وأقوم بإصلاحها بنفسي. وحينما أتم مقالة كنت أرسلها بدون تأخير. وكان الشيخ ينظر في هذه المقالات فيجعلها تبلغ المستوى العالي، ويشجعني في رسائله إلى. كتب إلى ذات مرة مخاطباً إياي بـ"الشيخ القاضي عبد الحفيظ أطهر المباركفوري المتخرج من دار العلوم بدبيوند": "مقالاتك تبلغ المستوى العالي. ولا أطريك مخافة أن تعبر المجلة أدنى من أن تنشر فيها مقالاتك" فردت عليه بكل احترام وتقديم: "إني أدرس في مدرسة إحياء العلوم، وأقرأ "المهداية" وما شاهبها من الكتب". ثم ارتحلت إلى الجامعة القاسمية وتلمذت عليه، وكانت مقالاتي تنشر في مجلة "قائد" مادامت المجلة تصدر. ذات مرة سألت الشيخ المرحوم كتاب الخراج للإمام أبي يوسف فأعطانيه الشيخ ملاطفاً عليّ

مجلة الهند

فغلفته بكافعند جيد، وكتبت اسم الكتاب وصاحبه بالأحرف الضخمة الجميلة. فلما رجعت الكتاب إليه أخذه وقال: ظننت أنك ألغفت هذا الكتاب، فقلت له أن يدعوه الله لي. فلما نشر كتابي "رجال السنن والهند"، وأرسلته إلى الشيخ المرحوم كتب مثيراً إلى ذلك الحادث في زمن الدراسة: "هذه بركة دعائكم وفضل عنايتكم أني حريت أن أؤلف الكتاب". الواقع أن الشيخ المرحوم هو أول من أحسن إليّ، ورباني في هذا الأمر. فإن لم يلتفت إلىّ، ولم ينشر مقالاتي في مجلته عسى أن لم أكن قادرًا على التأليف والكتابة، ولذهبت مواهبي الفطرية ضحاياً أوضاعي غير الملائمة.

وبعدما نشرت مقالاتي وقصائد قدم ذوقى للتأليف والتحقيق خطوة أخرى جريئة وعازمة جنباً بجانب الشعر والكتابة، فقمت بتأليف خمسة كتب زمن دراستي: اثنان منها بالعربية والثلاثة الباقية بالأردية. وهي كما يلي:

1. قمت بشرح قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير بالعربية، وسميتها بـ"خير الزاد في شرح بانت سعاد". وهو في 20 صفحة ذات حجم كبير. يستهل الشرح بمقدمة بالعربية في ثلاث صفحات ذكرت فيها أخبار كعب بن زهير، وسبب القصيدة، وتقطيع الأبيات. هذا الشرح موجود لدى حتى الآن، واعتبره خطوة أولى لي في مجال التأليف.
2. جمعت أخبار وأحداث العلماء السلف وأئمة العلم والفن تحت عناوين مختلفة آخذاً من وفيات الأعيان وتذكرة الحفاظ وفهرست ابن النديم، وأعددت رسالة بالعربية باسم "مرآة العلم" في 54 صفحة بحجم متوسط. تنتهي هذه الرسالة على أبيات عن العلم وأصحابه في ست صفحات. توجد هذه الرسالة لدى كذلك.
3. بدأت سلسلة المقالات بعنوان "أئمة أربعة" (الأئمة الأربعة) في مجلة "قائد"، وبدأت هذا التحقيق آخذاً من وفيات الأعيان وتذكرة الحفاظ وتهذيب التهذيب وفهرست ابن النديم طبقاً لمستوى ذلك الوقت؛ فأولاً أخذت المجلد العاشر من تهذيب التهذيب من مكتبة الشيخ عبد الرحمن المباركبورى وانتفعت منه. انتهت هذه السلسلة على الإمام مالك لأسباب لا يعني هذا الموضوع ذكرها، ثم رتبتها في صورة كتاب بعد أيام. وهي كانت تشتمل على سير موجزة للأئمة الأربعة. ونسخها مركز

مجلة الهند

تنظيم أهل سنت بلاهور حينما كنت مقىًّا بلاهور لأجل النشر في حين انقسمت البلاد الهندية في 1947م، و كنت في وطني. فبلغتني النسخة لإصلاحها. فقمت بالتصحيح، ورجعتها إلى عنوانها، ولكنني لم أعرف ماذا حدث بعدها. وقد أبقيت نسخة منها. ولما ذهبت إلى مومباي في 1368هـ، زارت شركة سلطان بهندي بازار فأعطيتها النسخة الثانية، ولكن مالكها قد هاجر إلى باكستان الشرقية (بنغلاديش حالياً) بعد أيام. فلم أعرف مصيرها إلى اليوم. كانت هذه المجموعة جامعة للسير، ولو أنها كانت موجزة في مئة وخمس وعشرين صفحة تقريباً.

4. اخترت أخبار وأحداث الصحابيات (رضي الله عنهن) الممتعة والمفيدة من الاستيعاب والإصابة وأسد الغابة، ورتب كتاباً باسم "الصالحات"، وأعطيته لملك دين محمد وأولاده تجار الكتب بالسوق الكشميرية (بلاهور). فلا علمت عن نهاية الكتاب، ولا امتلكت نسخة أخرى له.

5. وفي الفترة نفسها أعددت كتاباً منظوماً باسم "أصحاب صفة" (أصحاب الصفة) مشتملاً على 225 بيت، وكان الأسلوب مولئاً مليئاً بالتكريم والاحترام؛ فقد جمع فيه أسماء وأخبار أصحاب الصفة على طراز "شاهنامة إسلام"^١ ولما رأها الشيخ السيد فخر الدين أحمد أعجب به، وأصلاح في مكان منه، ثم أرسله الشيخ سيد محمد ميان إلى الشيخ إعزاز علي لإعادة النظر فيه. فقام الشيخ إعزاز بإصلاحه، ورجع الكتاب إلى. ولما رجعت إلى الوطن ترجمت بعض الكتب لشركة شباب بمومباي (أبناء المولوي محمد بن غلام رسول السورتي) لنفس السنة (1359هـ)، وكذا أعطيتها "أصحاب صفة"، ولكنه لم ير النور، ولا أجد نسخته لدى. ولقد تأسفت عليه شديداً. فقد كان عملاً جيداً للغاية.

نماذج بدائية للمقالة والشعر: وقد سلف أني جعلت أكتب شيئاً ما منذ تعلمي اللغة الأردية. ولما بدأت أتعلم العربية ازدادت رغبتي هذه. وفي تلك الفترة جاء الشيخ محمود

^١ "شاهنامة إسلام" ملحمة الإسلام لصاحبها حفيظ الجالندي (ت 1912م) وهي باللغة الأردية وكتها الشاعر على طراز "شاهنامة" لفردوسي الشاعر الفارسي الشهير.

مجلة الهند

الحسن مدیر تحریر "مومن" الصادرة عن بدايون جاء مبارکبور لتوسيع نطاق الاشتراك لمجلته، فلم أزل ألقاه وأكرر زيارته. فلما شهد رغبتي قال لي أن أكتب المقالات واعداً بأنه سينشرها، فشجعني قوله هذا، وتعجلت بإعداد مقالتين وإرسالهما إليه. إحدى هاتين المقالتين كانت تعنون "مساوات" وهي نشرت في عدد ديسمبر 1934م (1353هـ). كانت هذه أول مقالتي فكتبت فهما:

"تحقيق المساواة بطريقة عادلة بين البشر ضروري إلى حد لا يمكن تنظيم دولة بدونها، ولن تزدهر بغيرها أمة من الأمم العالم. فالدين أو القانون الذي يفرغ من المساواة يكون غير تام إلى حد بعيد، وهكذا الجماعة أو المجتمع الذي يفشل في تحقيق العدالة التامة بين أعضائه يجب فناؤه من صفحات العالم اليوم أو غداً. فالشيء الذي يسير كل نظام أو مجتمع هو المساواة حفراً. ولا نجد اليوم قوماً من أقوام العالم أو دينًا من أديانه لا يدعى بتحقيق المساواة، إلا أنه لما يقوم رجل عادل بامتحانه وتفحصه فلا ينبع في هذا الامتحان سوى دين الإسلام، وهذا هو الواقع أن الإسلام قد أقام المساواة في هذا العالم في حين كان العالم كله محاطاً به من حبّ الظهور والإعجاب بالنفس. يشهد أن الإسلام قد جاء لكي يمحو الوثنية من العالم، ولا شك أنه قد محا عبادة الأوثان المصنوعة من العالم، ولكنه كذلك محا أوثان الكربلاء. فالعرب الذين كانوا غارقين في الافتخار بالشرف العرقي والقبلي كما كانوا يعبدون الأوثان والأصنام التي صنعتها أيديهم ذاتها، وكانوا يظلمون الضعفاء والبائسين فلما جاء الإسلام أزال هذه اللعنة من وجوده العرب، وأنعم على الفقراء، واعتنى بالموالي، الأمر الذي أوجد في العرب قوة اجتماعية سيطروا بها على العالم كله في وقت قليل للغاية، وأصبح الإسلام دينًا عالميًّا في مدة غير طويلة. هذه حقيقة تاريخية لن تنكر عن انتشار الإسلام وإذاعته، ولكنكم إذا تفكّرتم قليلاً اتضحت لكم أن المساواة هي التي لعبت دوراً رياضياً في ازدهار المسلمين المعتبر، ولذا فلم يغفل عنها الإسلام في حال من الأحوال في عصر من عصوره. ونجد الكتب الإسلامية في عصرنا مليئة بهذه الفكرة الأساسية الطاهرة، وأن كل بند من بنوده، وحكم من أحکامه توجد فيه المساواة التامة فلا تجد شعبة من شعبه أو قسمًا من أقسامه إلا وقد اعنى فيه بهذا الجانب المهم".

مجلة الهند

ومنذ دراستي للغة الأردية نما فيّ ذوق الشعر وكانت آنذاك ابن 13 سنة أو أكثر، ولم أتلمذ لشاعر ما في مجال الشعر كعادتي في الكتابة فهداي ذوق في هذا المجال كذلك، وتقدمت واثقاً بنفسي فخضت فيه خوضاً وكانت المشاغل مثل قراءة الكتب غير الدراسية بجانب قراءة الكتب الدراسية، وكتابة المقالات وقرض الشعر تجري جنباً بجنب. وزد عليها أعمال وخدمات البيت فكنت أقرض منظومات ملية وقومية وسياسية ودينية في جلساتها كل يوم. وفي تلك الفترة عزموا على التبرع العام للمسجد الجامع الجاري بناؤه، وكان الناس متجمسين للغاية. فكنت أقرض حتى خمس منظومات في يوم واحد فقد بلغت من الشعر غاية الهيام والجنون، وكانت الأبيات تتدفق من داخلي تدفق الماء من العين؛ وفي بعض الأحيان كان الجمهور يحيط بي، ويطلب مني قرض المنظومة عفو الخاطر، لأنهم قد عزموا على زيارة أحد المخربين. فكنت أسرع لهم القريض، وكانوا ينشدونها فكان الروبيات تنزل نزول المطر من السماء. وكان الشيخ شكر الله يشجعني أمام الجماهير ويطربني. فذات مرة أرسلني إلى حكيم في دكانه، فأعطاني الحكيم معجونة يقوى ذهني وذاكري. فعدت به إلى الشيخ، فأوصاني بتناوله في الصباح وفي المساء، وبين لي أنه يزيدني قوة في الحافظة. فقلت له إنني لاأشعر بضعف في قوة حفظي، فرجعته إليه. وفي تلك الفترة نشرت بعض غزلياتي ومنظوماتي، فأول منظومتي نشرت هي "مسلم کی دعا" (دعاء المسلم) في مجلة "الفرقان" (عدد جمادى الثانية 1357هـ).

ولقد قرضت منظومات لا تحصى عن التبرع لبناء المسجد الجامع فجمعت كلها بعنوان "آذان كعبه" فلنقرأ بعض أبيات منظومة من هذا النوع:

نظر جب (جب)¹ اٹھائی جا رہی ہے

چلک کعبہ کی پائی جا رہی ہے²

¹ زدتھا من عندي لاستقامة الوزن

² ترجمة: كلما نرفع أنظارنا نجد لمحۃ عن الكعبة

مجلہ الہند

نظر میں نور پیدا ہو رہا ہے یہ دل شاد تمنا ہو رہا ہے
زمیں پر عام چرچا ہو رہا ہے فلک پر شور بربپا ہو رہا ہے
کوئی مسجد بنائی جا رہی ہے¹

بناؤ جامع مسجد بناؤ بڑھاؤ دین کی شوکت بڑھاؤ
کماو دولت عقی مکاؤ بلاو روح حاتم کو بلاو
یہاں ہمت دکھائی جا رہی ہے²

مسلمان! سن ذرا گوش صفا سے مسلمان! کام لے جود و سخا سے
مسلمان! جوڑ رشته مصطفیٰ سے مسلمان! تیرے مذہب سے خدا سے
محبت آزمائی جا رہی ہے³

تعالیٰ اللہ یہ پر نور مسجد حقیقت میں ہے رشک حور مسجد
ہے نگہ خاص کی منظور مسجد سدا اطہر! رہے معمور مسجد
بہت بہتر بنائی جا رہی ہے⁴

¹ ترجمة: وأن البصر يجد نوراً جديداً، وأن القلب يفرح بما قد تمنى، وأن الأرض يعلن فيها، وأن السماء تضجّ بأن مسجداً يتم بناؤه.

² ترجمة: قوموا ببناء المسجد الجامع قوموا، وزيدوا شوكة الدين زيدوا، واكتسبوا بثروة الآخرة اكتسبوا، وفاخروا روح حاتم فاخروا فالناس كلهم يتجرأون.

³ ترجمة: أيها المسلمون! أصتوا لما تقول صفا، وقوموا بالجود والسماء، واتصلوا برباط المصطفى، وبرباط الدين والله فهذا امتحان محبتكم.

⁴ ترجمة: تعالى الله، هذا مسجد فيه نور، ولا شك أنه مما تغبطن به الحور، وأنه بنى بعناية خاصة، عمر الله هذا المسجد للأبد، إنه يبني جميلاً وجذاباً.

مجلة الهند

ولقد كتب ابن رشيق في باب "من رفعه الشعر ومن وضعه" لكتابه "كتاب العمدة" عن شعراً علا ذكرهم أو أحمل بسبب شعرهم، فقد أعاد شاعري الفطري في رفع ذكري كثيراً؛ فكانت منظوماتي وقصائد تنشر بكثرة في جريدة "زمزم" بlahor وجريدة "مسلمان" (كثير فيما بعد)، واشتهرت كشاعر إسلامي. وهذه هي السمعة التي بلغتني مركزاً أهل سنت بأمرتسار، وجريدة "زمزم" بlahor، وهذه هي التي تسببت في وصولي إلى ممбائ. وهكذا فقد أفادتني شاعري كثيرة، ولكن اليوم لا علاقة لي بها. فلا أدرى هل بنتها أو دللتني هي على طريق سوي ثم غادرتني.

والقريض في العادة لا يفيد الدارس خلال فترة الدراسة، ولكنه لو مارسه الدارس بأسلوب متزن مقتصد لاستحسن وأفاد فإنه يصلق الذهن والتفكير.

دراسة الأدب العربي: ولقد تعلمت العربية على أساتذة منحدرين من أربع قصبات في مدرسة لها منهاج دراسي قديم من مقرراتها اللغة العربية وأدابها. وتدرس في مثل هذه المدراس الكتب القديمة للشعر والأدب بطريقة قديمة، لأن لغة الكتاب والسنة هي اللغة العربية القديمة. والمدارس العربية في الهند تهدف إلى تعليم الكتاب والسنة مباشرة بالعربية، ولكن هذا المنهاج الدراسي قد خلق كتاباً كباراً في الهند تعتبر مؤلفاتهم ذات مستوى عالٍ نظراً لحواشيها وشروحها لكتب العربية وأدابها.

ذوق للعربية نتيجة القراءة لمقامات الحريري وديوان الحماسة وديوان المتنبي والسبع المعلمات ودراسة كتب اللغة والأدب. ففي 1355هـ كتبت شرحاً عربياً لقصيدة "بانت سعاد" فكتبت مقدمتها كما يلي:

"الحمد لله الذي أسبغ علينا من النعم، وجعل في لسان العرب من اللطائف والحكم. والصلوة والسلام على حبيبه نبينا المكرم المبعوث إلى كافة الأمم. وعلى آله وأصحابه الذين هم مصابيح الظلم. صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم. أما بعد فيقول العبد الأحرق القاضي عبد الحفيظ محمد أطهـر المـبارـكـفـورـيـ إـنـيـ أـرـدـتـ أـنـ أـشـرـحـ قـصـيـدـةـ "ـبـانـتـ سـعـادـ"ـ التي طارت شهرتها في أطراف العالم والأبعاد لكتعب بن زهير بن أبي سلمي رضي الله عنه ووفقني الله في منتصف شوال المكرم سنة خمس وخمسين وثلاثمائة بعد الألف فشرحتها

كيفما قدرت طاوياً كشح القيل والقال لئلا يوجب الملال والاختصار لئلا يكون سبباً للكلال، وسمّيته "خير الزاد في شرح بانت سعاد". وهذا أول جولان يراعي في ميدان القرطاس وأنا غمر جاهل من مثل هذا الشأن فإنه ما أغير مذنيطت عنني التمام ونبيطت بي العمائم إلا برهة من الزمان وأنا معترف بعجزي وألتمس من السادة الكرام، أن يصفحوا عن زلاتي ويعرضوا عن أن يأخذوني عرضة للملامة. والمسؤول من الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم ومنه التوفيق والعصمة ومنه الاستعانة في كل أمر".

الميل الطبيعية: ولعل فرتني الدراسية كلها مضت في عسر وبؤس فقد فضلت القناعة والبساطة في الطعام واللباس، فلم يكن رخاء العيش ورغدته، في تلك الأيام، كما نجده اليوم؛ فقد كان الناس عادة متعودين على الخشونة والبساطة في الشؤون الاجتماعية، فلم يكونوا يشعرون بالبؤس والعسر، بل كانوا كلهم مقتنعين بما هم فيه وراضين بما وفقوا له، كما كانت حياتهم هذه ذات خير وبركة. وأما أنا فقد كنت أوفر ما أحتاج إليه حسب ذوقي وميلي، ولم أشعر في وقت من الأوقات بأنني أدنى منزلة.

فقد كنت ألبس، عادة، القميص والإزار الأبيضين المصنوعين من القماش الخشن الغليظ، ولم أكن ألبس الشيروانى إلا قليلاً، ولكني كنت أواري القميص بالصدرية. وأما الكوفية فكانت مثل القارب مصنوعة من قماش غالٍ. وكانت أحذبي ثمينة بالمقارنة لذلك العصر، وكانت أحمل قارورة العطر في جيبي دائمًا، وكانت أغسل الملابس بيدي. ولم أترك هذه العادة حتى الآن، ولكني أشعر بأن هذه الغاية من البساطة لا تستحسن، بل تضر في بعض الأحيان وتتبئ عن البخل وتسبب الحقاراة.

طلاب المدرسة الذين كانوا يأتون عادة من القصبة وضواحيها من القرى المجاورة كانوا يجتمعون لدى مصلى العيد بعد العصر، وهو مكان واسع في شماله غدير كبير لسمودي (Samūdī)¹ وفي الجزء الخلفي سلسلة أشجار النيم وفي جنوبه ميدان لا حد له وفي ضواحيه زرع أخضر يخلب اللب. كان هذا كله يقدم مشهدًا جذابًا ساحرًا كان

¹ اسم غدير أصله الشيخ محمود فبدلت الشين بالسين وحذفت "خ+مح" في العامية وزيدت الياء للنسبة

مجلة الهند

"كنار آب رکن آباد" و "گلگشت مصلی" المذكورين في غزليه حافظ الشيرازي¹ قد قدّما هنا وفي نفس هذه الفترة كتبت منظومة بعنوان "برسات کي چاندنی رات" (الليلة المقمرة في موسم المطر) جاء فيها الشعر التالي:

دور کچھ یاں سے سمودی کے کنارے آم پر اک پیچھا دے رہا تھا جاں پیا کے نام پر

ترجمة: كانت زلاء تنتحر لأجل حبيبها البعيد من هنا، وهي على شجرة للمانجو على ساحل من سواحل سمودي.

وبعد صلاة العشاء كنت أنشغل بقراءة الكتب الدراسية التي كانت أربعة في العادة، وكانت أحراول أن أحلى بالليل ما استصعب من الدروس التي سوف يتم تدريسها في اليوم القادم، ثم كنت أخوض في قراءة الكتب غير الدراسية وكتابة المقالات وقرض الأبيات. وبعدما كنت أفرغ منها أقصد السرير من حيث لا أغفل عن قراءة كتاب من الكتب غير الدراسية أو قرض منظومة من المنظومات والقصائد.

وبجانب الأنشطة العلمية والتعليمية فقد بلغ بي علوّ الهمة والعزمية والاعتصامية ذروة الكمال، ولكنني لم أكن أغفل عن تكريم الكبار واحترامهم غير متجاوز الحدود فيها. ففي بعض الأحيان كان أغنياء القصبة وأثرياؤهم يدعون الطلاب وشيوخهم فكنت أحتمل كيلاً أحضرها، وأقتنع بما وفّري من الخبز الجاف.

ولما ذهبت إلى مراد آباد كنت مضطراً أن أحمل طعامي من بيت من البيوتات. وفعلت هذا لبضعة أيام مخفياً عن أعين الناس مجبراً نفسي على هذا، ثم أخذت منحة من المدرسة قدرها روبيتان ونصف، وهكذا نجوت من هذا الذل والهوان، وبدأت أتناول الطعام في فندق فوجبة منها كانت تكلفني ست بيسات. ولم أصرف إلا ستين روبية، على

¹ هذه التلميحات أخذت مما يلي من شعر حافظ الشيرازي (ت 792هـ):

بده ساقى مئه باقى که در جنت نخواهي یافت کنار آب رکن آباد وگلگشت مصلی را
ترجمة: أهلاً الساقى! ناولنى ما بقى من الخمر بساحل "رکن آباد" و "گلگشت مصلی" لأنك لا تجدها
في الجنة.

مجلة الهند

الأكثر، أخذتها من داري حين إقامتي بمراة آباد. وهكذا فقد فرغت من نيل العلوم والفنون، ولم أصرف إلا قليلاً.

ولقد أفادني كثيراً في حياتي المستقبلية القناعةُ والبساطةُ ومعرفةُ الذات وقلةُ الاختلاط بالناس. وهذا من فضلها أنه لم أختلط بأهالي مومباي ولو أنه أقمت بها لعدةٍ غير قصيرة، ولقد ردت العديد من المدح والمناصب السامية التي قدّموها لي بكل احترام وتقدير، وكرهت التملق ولم تذهب ضحيةَ سحرها وثروتها الطبيعية التي رُبِّيتُ عليها في رحاب المدرسة، والحمد لله على أنه قد لزمه حجرة ضيقَة في هذه المدينة، وقمت بأعمال لا يقام بها إلا برواتب عالية في معاهد التأليف والتحقيق ومن ثم يكتسب بها.

ما اكتسبت من مؤلفاتي ولا أخذت أجرة على تأليفها ولا قمت بالكتابة لهذا الغرض، بل كل ما كتبت قمت به تحت عاطفة خدمة العلم ونشره ومن ثم أعطيتها للناشرين لكي يعمّموا نفعها.

وأول زيارة لي كانت حين إقامتي بمراة آباد، فوققت الذهاب إلى ندوة المصنفين، ولقيت مدیرها الشيخ المفتي عتيق الرحمن العماني. وكان يرافقني صاحبي الشيخ عثمان. وفي هذه المرة أيضاً عرف بي الشيخ عثمان بأسلوب ملؤه المبالغة والإطراء فقال لي المفتي المرحوم أن أكتب المقالات لمجلته "برهان". وقد خطر بي تواً أن مقالاتي لا تبلغ مستوى هذه المجلة، ولكن بفضل الله العلي الكبير أن المفتي المرحوم قد نشر ثمانية كتب لي من هذا المجمع في صورة جيد، والآن جاء دور إدارة التحرير الشرف لمجلته الغراء.

ولقد شغفت حبّاً بالكتب التي طبعت على الأحرف الحديدة فكنت أكثر شراءها، وكانت أغبطة بنشر الكتب عليها، وأأمل أن تنشر مؤلفاتي فيها ومن ثم كان يطرق بعقولي وذهني أنه رجل لا ظهير له ولا ناصر فهذه الأمنية ليست لي سوى أضغاث أحلام، ولكنها أيضاً تحقّقت بفضل الله فقد طبعت ثلاثة كتب لي من كل من مومباي والقاهرة على هذه الأحرف كما نشرت ترجمة كتابي الأردوين من القاهرة والرياض.

مجلة الهند

كنت أهتم بالسنن والنواوel كثيراً في طفولتي، وكانت معظم أحلامي صادقة. وكنت أحبّ بيان أسماء الناس بعد رؤية وجوههم، وكان ظني هذا يصدق تسعين بالمائة إلا أنّي لم أخض في الدعاء والتيمية، ولكنّي كنت أقرأ في هذه الفترة الكتب مثل "أعمال قرآن" و"تعويذ سليماني" و"نقش سليماني" و"حرز سليماني"، وكانت أشهد كرامات أخيلي وأفكاري فإنّي واصلت السير على هذا الطريق كان من الممكن أن أصبح صوفياً زاهداً معروفاً. وهذا هو السبب في أنني أندوّق الإحسان والتتصوف فكريّاً حتى الآن ولو أنني بعيد عنه فعلاً، وأحبّ التتصوف الحقيقي، وأكرّم الصوفية الصالحين، وأمتنّ نفسي كثيراً بقراءة تراجم وسير المشايخ والرجال الصالحين.

لما نما في ذوق الشعر بالغت فيه حتى جعلت أكتب المنظومات والقصائد في المنام فلو بقيت هذه الحال لأصبحت شاعرًا حفلاً، وأما التعليم والتدريس فقد بدأت سلسلته منذ دراستي، وأردت أن أقضي حياتي فيه، فإنّي كان جو المدرسة صافياً في هذه حياة هادئة مباركة، ولو قبلني أصحاب المدرسة لأصبحت مدرساً ناجحاً، ولكنّي على الرغم من ذلك واصلت هذه السلسلة بطريقه أو أخرى. إلا أن هذه الميلول عليها طابع البحث والتحقيق من حيث أنني مع قضاء حياتي كلها في الشغل الحقير كالصحافة (سوى الفترة البدائية القصيرة التي قضيتها في مجال التدريس) لم أحبي أن أصبح صحفياً أو مراسلاً للصحافة، بل جعلتها سبباً من أسباب المعاش فقط، وشغلت نفسي بالبحث والتحقيق، وأديت وحدي ما استطعت أن أوديّه من خدمات العلم والفن.

"مقال في بلاد البنغال" دراسة تحليلية

- د. أورنوك زيب الأعظمي^١

مدخل:

لم يزل العرب يزورون الهند منذ زمن سحيق إما لأجل التجارة أو لأخذ الثقافة أو لنشر الدين أو لسبب السياسة. وهذه الدوافع والأسباب تدل دلالة واضحة على أن قامت علاقة وطيدة بين البلدين منذ أن لم يعرف التاريخ مرحلة الضبط والتداين. وقد قام بعض هذه الزوار والرجالات بتداين مذكراً لهم أو بحكاية ما شاهدوه من المناظر وما كابدوه من المشاكل، وهذه كلها منشورة في غضون صفحات كتب التاريخ العربي، وأبرزها أخبار الصين والهند وعجائب الهند وفتح البلدان ورحلة ابن بطوطة وكتاب الهند ولكن هذه كلها قصة الهند القديمة حينما لم ينظر إليها غراب البين والقسمة. فالرحلات التي دونت بعد القسمة أيضًا ليس قليلاً عددها وأبرزها رحلة محمد بن ناصر العبودي الذي جال في العالم كله ليطلع على أوضاع المسلمين وأحوالهم من كل جانب فدرس عن كثب أوضاعهم المادية والاجتماعية والدينية. ومن بين بلاد العالم التي زارها محمد العبودي الهند وبنغلاديش وباكستان ونيبال وبورما وكتب عن كل منها كتاباً خاصاً. وأما الهند فقد ألف عنها كتاباً عديدة لاتساع أرجائها فكتب عن كشمير وكتب عن أوتار براديش وكتب عن غوجرات وبهار ومدراس إلا أنه ازدوج رحلته لبنغال وبنغلاديش فكتب عن أخبارها وأوضاعها بعنوان "مقال في بلاد البنغال".

موجز عن العبودي: محمد بن ناصر العبودي (1345هـ-1930م) أديب ومؤلف ورحلة سعودي ولد في مدينة بريدة، كان تعليمه دينياً. شغل العبودي منصب الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي. أتاح له عمله في الرابطة وقبلها في الجامعة

^١ مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليلية الإسلامية، نيو دلهي،

مجلة الهند

الإسلامية زيارة معظم أصقاع العالم، فكان لمشاهداته العديدة واطلاعاته أن تثمر أكثر من مئة وستين كتاباً في أدب الرحلات ويكون بهذا قد حقق رقمًا قياسياً في كتب الرحلات العربية. منح الشيخ محمد ميدالية الاستحقاق في الأدب عام 1394هـ. من أبرز أعماله جولة في جزائر البحر الزنجي، ورحلة إلى جزر مالديف، ورحلة إلى سيلان، وصلة الحديث عن أفريقيا، وزيارة لسلطنة بروناي الإسلامية، إطلالة على أستراليا، والأمثال العامة، وسوانح أدبية، والعالم الإسلامية والرابطة، وهذا ما استوحىته من الناس، ومعجم أسر عنزة، وكتاب الكلمات الدخيلة في لغتنا الدارجة.¹

هدف هذه الرحلة: زار محمد بن ناصر العبودي هذه البلاد لسبب سياسي وديني وذلك لي درس أوضاع المسلمين من جوانب شتى ومنها الاجتماع والمادة والسياسة والدين فيقول في مقدمته:

"وكنت في زيارة رسمية لجزر المالديف التي عدت منها إلى كولمبو عاصمة سيلان أو (سيلنكا) كما صارت تسمى الآن، وقد كتبت كتابين عن رحلتي في مالديف وسيلان وكتبت هذا الكتيب عن رحلتي السريعة إلى بلاد البنغال".²

وقال مثيراً إلى هذه الرحلة:

"وهي رحلة عاجلة لم تستغرق إلا أياماً معدودة ولذلك لم تكن الكتابة عنها شاملة موسعة".³

وقال مثيراً إلى احتواء هذه الرحلة على أخبار وأوضاع المسلمين:

"وقد تعودت من قراء العربية الكرام أن يتقبلوا ما أكتبه عن البلدان الإسلامية أو عن الجماعات المسلمة بالإقبال بل والتشجيع، لأن الحديث عن الإسلام والمسلمين أمر بهم الجميع".⁴

¹ الموسوعة الحرة

² مقال في بلاد البنغال محمد بن ناصر العبودي، مطباع الفرزدق التجارية، الرياض، الطبعة الأولى، 1993م، ص 5

³ المصدر نفسه، ص 5

⁴ المصدر نفسه، ص 5

مجلة الهند

وقال مثيراً إلى تفاصيل أحوال المسلمين اللاجئين إلى بنغلاديش:
"ووجدت في مطار كوكس بازار جميرا من المستقبليين على رأسهم الأستاذ مير قاسم علي مدير مشروع الإغاثة الذي تقوم به رابطة العالم الإسلامي في مكة لإخواننا اللاجئين المسلمين من بورما، وهو المقصود بزيارة لهذه المنطقة".¹

وقال كذلك:

"تدارسنا الأوضاع العامة في هذه البلاد بصفة عامة والأوضاع الإسلامية بصفة خاصة".²

بدأ محمد العبودي زيارة كولكاتا من الثاني عشر لشهر ديسمبر سنة 1978 م³ وغادرها في اليوم الثالث عشر لنفس الشهر⁴ فأقام بها ليومين ثم غادرها لزيارة بنغلاديش وأقام بها لثلاثة أيام.⁵

نظرة سارحة على محتويات هذه الرحلة: هذه الرحلة تحتوي على 111 صفحة. تبتدئ الرحلة من الصفحة الخامسة التي تشتمل على مقدمة ذكر فيها الدافع على رحلته إلى هذه البلاد كما وأشار إلى أشياء أخرى تتعلق بها. ثم يأتي عنوان "مرور بالهند" على الصفحة الثامنة. وأما الصفحة التاسعة فهي تحوي خريطة الهند وذكر موقع البنغال فيها وذكر سفره من كولمبو إلى مدراس في الصفحات 10-18 ثم ذكر ركوبه للطائرة وما مارسه من الأمور والتجارب. تبتدئ قصة كولكاتا من الصفحة العشرين وتنتهي هذه القصة على الصفحة التاسعة والثلاثين؛ فذكر فيها إقامته بها ومعاملة أهلها معه كما وصف رجالها ونسائها وأوضاعها السيئة وذكر تجارتها ومواصلاتها ووضعها القديم البالي. ثم يأتي عنوان "إلى بنغلاديش" وتبدئ قصتها من الصفحة

¹ المصدر نفسه، ص 86

² المصدر نفسه، ص 53

³ المصدر نفسه، ص 22

⁴ المصدر نفسه، ص 36

⁵ المصدر نفسه، ص 53

الثالثة والأربعين؛ فذكر مقدمة وجيدة كما ذكر تاریخها آخذًا من كتاب "الهند في العهد الإسلامي" للسيد عبد الحفيظ الحسني ومن خلال حديثه عن بنغلاديش ذكر مطار داكا وجوولته في مدينة داكا فذكر مساحتها ورجالها ونساءها وملابسهم وبعثة المساجد وقرية كتوبارا وهي المسلمين الفقراء وبيت المكرم وشيتاكونج ومطارها وكوكس بازار وضواحيها ومعسكر دوها وبالن سبب نزوح البورماوين إلى بنغلاديش يوم النصر وقرية رامو وقرية شرنقا وسوق دوهابازاري. هذه القصة تنتهي على الصفحة الثمانية بعد المئة ثم يأتي في المحتويات من الصفحة التاسعة بعد المئة حتى الصفحة الحادية عشرة بعد المئة. ومن خلال جولته القصيرة تحدث العبدلي عن رجالها ونساءها وبيوتها ومعاملاتهم وأوضاعهم الاجتماعية والدينية والسياسية وزيارة المطاعم والفنادق ووضعها السيء ومنتجات بنغلاديش وفقرها في الصناعة وما شاهدها من الأمور والأوصاف التي سأذكر الكثير منها في هذه المقالة تحت عناوين مختلفة.

المقارنة: وخلال حديثه قام محمد بن ناصر العبدلي بالمقارنة بين بلاده وبلاد الهند، وبين كولكاتا وبنغلاديش، وبين الشرق والغرب فنؤد فيما يلي أن نشير إلى بعض مباحث هذه المقارنة:

يقارن بين شوارع الهند وبنغلاديش فيقول:

"أما الطرق التي مررنا بها فإنها جيدة جدًا بالنسبة إلى الطرق الموجودة في الضواحي الهندية للمدن الرئيسية ولا يفضلها إلا أجزاء معينة في مدينة دلهي العاصمة وسوف نلاحظ أن الأحياء الحديثة من مدينة داكا العاصمة أحسن من الأحياء الحديثة في المدن الهندية".¹

ويقارن بين موصلات الهند وبنغلاديش كما يلي:

"أما العربات التي يسجّلها الرجل بالركاب على قدميه فلا توجد أصلًا هنا كما لاحظت أيضًا هنا على ندرة استعمال عربات الثيران لحمل الأثقال كما هي مستعملة في الهند".²

¹ المصدر نفسه، ص 53

² المصدر نفسه، ص 58

مجلة الهند

ويقارن بين قرى الهند وبنغلاديش فيما يلي:

"القرى هنا حتى الآن في المسافة التي نسير فيها ليس متتشابكة كما هي في الهند وذلك لا يعني أن العمارة ليست متصلة بل هي كذلك ولكن التجمعات السكانية ليست متصلة".¹

ويقارن بين البنغال وبنغلاديش كما يلي:

"وقد بشرني في هذه المدينة الإسلامية مستوى النظافة العامة فيها والذوق العالي في تخطيط شوارعها وتنسيق حدائقها، والمباني الحديثة المبهرة المنظر التي لا يكاد يوجد لها مثيل في كثير من المدن الهندية، وبخاصة إذا قورنت بمدينة كلكتا التي هي من البنغال الذي ينتهي إليه أهل هذه البلاد من حيث الجنس واللغة إلا أنهم يبتعدون عن أولئك من حيث الدين وحتى من المظهر فهو لاء المسلمين أنظف ثياباً وأصيح أبداً، وأكثر نضارة حتى إنك تستطيع أن تقول فيهم بالنسبة إلى بنغال كلكتا ما تقوله في بنغال كلكتا بالنسبة إلى باقي الهند و هو أنهم منهم ولكن هناك فروقاً بينهم وبينهم لا تترجم عن أن يكونوا منهم".²

ويقول في مكان آخر:

"وانطلق السائق بعربته وسط شارع عريض جميل، وبين مارة هم ومن في المطار إذا قارنتم بهم يفترض أنهم من جنسهم من البنغاليين في كلكتا رأيت هؤلاء أنظف ثياباً، وأبداً، وأكثر صحة، وأندى أجساماً، وهذا الشارع لا يوجد له نظير في كلكتا من حيث النظافة والتنسيق والذوق الفني".³

ويقارن بين طهارة بصر الرجل الهندي مقابل الرجل العربي:

"--- حتى أن المرأة الأجنبية التي تختلف المرأة الهندية في كل شيء تقريباً فإن الرجل الهندي لا يلتفت إليها، ولا يتبعها بصره كما يفعل العربي مثلاً ولا تراه يلتفت إلى زميله

¹ المصدر نفسه، ص 100

² المصدر نفسه، ص 55

³ المصدر نفسه، ص 50

مجلة الهند

أو رفيقه يلفت نظره إليها فضلاً عن أن يتبعها بالمشي أو يطري جمالها بشيء يعبر به عن إعجابه كالصغير مثلاً¹.

ويقارن بينها وبين البلاد العربية بالنسبة لتغلبهم بالحضارة الأجنبية الحديثة:

"وهذا من أعجب العجب أن يحافظ هؤلاء الإخوة، أو قل: أن يستطيعوا أن يحافظوا على هذا القدر من عدم خروج النساء من المنازل في الوقت الذي كانوا فيه تحت الاستعمار الإنكليزي ثم في الوقت الذي كانوا فيه مشتركون في الحكم مع باكستان التي لا تمنع خروج النساء إلى العمل والشوارع فيها. على حين أن أهل بعض البلاد العربية قد أخذوا يتسابقون إلى تقليد الغرب تسابقاً حتى وصلوا إلى مضماره في هذا المجال وربما فاقه بعضهم فيما يضرّ ولم يلحق به فيما ينفع البلاد ولكنهم في الانطلاق والسفور لا يقتصرن عنهن باعاً"².

ويقول بعد ذكر راتب أستاذة مدرسة بنغال الضئيل:

"إن ذلك مبلغ زهيد ولو رأى فقراونا من أهل البلدان العربية حالة هؤلاء الإخوة وعلموا بها لاستطاعوا أن يتبرعوا بما يكفيهم فكيف بالأغنياء"³.

العبودي يثني على الأخلاق والخدمات: وبما أن هذه البلاد يندر فيها وجود الأخلاق الحسنة والخدمات الجيدة فقد أثنى الزائر حيث وجدها فمثلاً يثني على محاسن أخلاق ومعاملات سائقي السيارات:

"ويلاحظ المرء أن سائقي سيارات الأجرة في هذه البلاد والعاملين الآخرين على وجه العموم يتمتعون بأخلاق عالية، ومعاملة حسنة للراكب والمتعامل معهم رغم ما توجي به مظاهرهم وهنadamهم ورغم انخفاض معيشتهم ---"⁴.

¹ المصدر نفسه، ص 34

² المصدر نفسه، ص 61

³ المصدر نفسه، ص 76

⁴ المصدر نفسه، ص 16

مجلة الهند

ويثني على خادم وفي وجده:

"--- وكان فرجي غامراً حين أعطاني بطاقة الدخول لأن ذلك سوف ينجيني من ضياع يوم على الأقل أنا في أشد الحاجة إليه، وإذا بالحمال الوفي لا يزال واقعاً رغم طول الوقت يضع حقيبتي في الميزان ثم يذهب ليديلني على قاعة الانتظار الخارجية فأعطيته من الحلوان (البقشيش) ما أرضاه".¹

ولعل العبوبي لم ينظر إلى التزام الخادم حتى يأخذ الحلوان، وهذه من عادات خدام البنغاليين أنهم لا يزالون يتذمرون بك حتى تعطهم شيك ثم يبتعدون عنك ولقد مارست هذه العادة منهم كثيراً حينما كنت في البنغال فربما احتجت إلى نهرهم وطردتهم غير مرة.

ويثني على أدب أهل كولكاتا للغير وهدوءهم:

"ومع ذلك فإني رأيت عندهم هدوءاً في الركوب وأدباً للغير عند المرور والتزول قل أن يوجد له نظير في البلاد العربية".²

ويثني على خدمة المضيقات وهذه من عادات المضيقات أنهن يخدمن إلى حد النهاية:
"أما المضيقات أنفسهن فإنهن من البنديات ولكنهن كلهن هذه المرة من الشمال يظهر ذلك من سحنن ومن بياض بشرتهن إلا أن أشكالهن غريبة حقاً فهن بين الجنس المغولي والجنس الهندي والظاهر أنهن من سكان جبال الهيمالايا، أو ما قرب من تلك الجهة، وخدمتهن جيدة، وهن يجاملن الركاب ويصبرن على تلبية حاجاتهم الكثيرة من الماء والوسائل والاستفسارات".³

والسفرور عام في الهند ولاسيما في المدن فنرى البنديات سواء كن مسلمات أو غير مسلمات لا يعنن بالتحجب بينما قد أمرهن نبیم ﷺ بهذا ولكن من لي تمثل بأمر الرسول ﷺ. يقول العبوبي وهو يثني على أدب الفتاة المسفرة:

¹ المصدر نفسه، ص 17

² المصدر نفسه، ص 18

³ المصدر نفسه، ص 20

مجلة الهند

"وفي شوارع هذه المدينة الهندية الكبرى وفي شوارع غيرها من المدن الهندية وفي ميادين تلك المدن ومحلاتها العامة كالفنادق والمطاعم يرى الغريب المرأة الهندية سافرة الوجه بل ظاهرة الظهر والبطن ولكن لا يرى أبداً مناظر معاكسات أو مغازلات أو أشياء في الشارع يخجل منها المرء، أو يندى جبينه، فالرجل لا يفعل ذلك مع المرأة والمرأة لا تفعله مع الرجل حتى مع الرجل الغريب فإنهما تمضي في سبيلها وإذا لفت نظرها الغريب فإنهما تنظر إليه كما تنظر إلى شيء غريب آخر أو هكذا تظاهر للناس فلا فرق في نظرها - في الظاهر - بين نظرتها إلى الرجل حتى وإن أعجبها مظهره وبين نظرتها إلى الطفل أو حتى إلى السيارة وذلك لأن تربيتها قد فرضت عليها ذلك وهي وأهل بلدها قد اختاروا هذه التربية أو اختيرت لهم من أسلافهم فساروا عليها".¹

وحتى يثنى على الرقص الهندي الذي يتسم بأشياء نفقدنا في الرقص الآخر:

"--- فالرقص الهندي مشهور عندنا بأنه لا يقصد منه الإغراء أو إظهار مفاتن الجسم، كما هو معروف عندنا عن رقص النساء، وقد تبيّن بعد ذلك أن ما سمعناه صحيح".²

المجتمع البنغالي: المجتمع البنغالي مجتمع مختلف عن مجتمعاتنا في أشياء ولذلك نقول في معظم الأحيان إنه مسلم بنغالي أو هنودسي بنغالي وهذا يعني أن لهم بدعات محدثات تبيّنها عن غيرهم من أهالي الهند ولقد فصل العبودي هذا المجتمع ولو أنه لم يذكر كل ما تحتاج إليه فنشير إلى ما أشار إليه ونملا الفراغ من عندنا فإني قد مارست هذا المجتمع لخمس سنوات:

يكتب العبودي ويستوي بين أهل كولكاتا وأهل بنغلاديش وذلك لأنهم من جنس واحد وأن كلتا المنطقتين كانتا واحدة قبل قسمة البلاد:

"--- وبذلك تكون الحركة كلها داخل منطقة واحدة هي المنطقة البنغالية من الهند القديمة غير أن أغلبية السكان في البنغال الشرقي الذي أصبح يسمى الآن

¹ المصدر نفسه، ص 33

² المصدر نفسه، ص 35

مجلة الهند

"بنغلاديش" تدين بدين الإسلام ولذلك صار جزءاً من باكستان بعد تقسيم الهند إلا أن سوء الإدارة الباكستانية وغلوة الثقافة الهندوسية البنغالية ---¹.

وهذا هو الحق أن أهالي كلتا المنطقتين هندوس ثقافة أكثر من أنهم مسلمون متخلون بالثقافة الإسلامية، ولقد مارستهم فلم أجد إلا قليلاً نادراً من يعرف كيف يقراء السلام حتى كلام لقيتهم وذكرت لهم اسمي سألوني: هل أنت مسلم؟

ومن تشابههم واتحادهم في الموضوع أنهم يفتخرن بثقافتهم البنغالية ولغتهم ويفضّلوا هما على غيرهما فكتيراً ما قلت لهم إن هذه ليست إسلامية فقالوا إنها ثقافتنا البنغالية. وأما عصبيتهم للغتهم فقد ذكرت لي بعض النساء المسنات في بنغلاديش والتي كانت حاضرة القسمة إن بلادنا انفصلت عن باكستان لأنها اضطررتنا إلى تعلم اللغة الأردية وثقافتها. يقول العبودي:

"--- إلا أن سوء الإدارة الباكستانية وغلوة الثقافة الهندوسية البنغالية التي من أهمها كون اللغة البنغالية هي السائدة في تلك المنطقة واستغفال الأهالي الذين خدعوا بالوطنية البنغالية، وقيام الهند الحاقدة على الإسلام، والمعادية لباكستان وتأييد القوة الخارجية بل اجتماع القوتين الخارجيتين العظيمتين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي على تأييد الهند ضد باكستان كل ذلك جعل الجزء الغالي من الوطن الباكستاني أو قل من الوطن الإسلامي الكبير في القارة الهندية ينفصل عن شقيقه باكستان الغربية ويقلب اسمه إلى الاسم الهندي القديم: بلاد البنغال".²

ويقول كذلك:

"--- هم (البنغاليون) يعانون نقصاً في كل شيء إلا شيئاً واحداً هو عنجهية الوطنية البنغالية مع أنهم مسلمون وممّا كان الإسلام معترضاً بالوطنية الضيقـة؟"³

¹ المصدر نفسه، ص 48

² المصدر نفسه، ص 48

³ المصدر نفسه، ص 99

مجلة الهند

وأما عصبيتهم للغتهم البنغالية فلنقرء قول العبودي التالي:

"--- ولكن يلفت النظر أن اللغة التي تكاد تكون هنا وحيدة هي اللغة البنغالية بحروفها السنسكريتية غير المتناسقة فيما يظهر للناظر الغريب --- ولم تستطع اللغة الهندية الوطنية وهي مأخوذة من السنسكريتية القديمة أن تحل محلها إلا على نطاق محدود وفي ولايات محدودة".¹

ويقول في موضع آخر:

"وقد رأيت لافتات مكتوبة على أوراق وخرق بيض في المسجد معلقة فيه ولكنها كلها بالبنغالية".²

ويقول حينما وجد مدرسة كتب عليها بالعربية:

"كانت المكان الوحيد فيما شاهدناه الذي عليه حرف بالعربية إذ كتبت عليها عبارة (المدرسة الهاشمية) باللغة العربية وباقى اللافتة بالبنغالية إلا أنها عندما دخلناها وجدناها مركزاً من مراكز تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي ---".³

ولنقرء ما يلي كذلك:

"هذه حالة هذا الطريق الطويل الممل في هذه المنطقة الموجلة في أدغال بلاد البنغال التي لا أثر ولا وجود فيها لغير اللغة البنغالية فلا تعرف منها شيئاً ولا أثر ولا وجود فيها لغير الجنس البنغالي المسلم فلا ترى وجهاً لأدمي من جنس آخر".⁴

ولو سميّناه إرهاب البنغالية وثقافتها لما جانبنا الصواب.

وبعد الحديث عن عصبيتهم الثقافية واللغوية بيان الكاتب عن لونهم فيقول:

¹ المصدر نفسه، ص 56

² المصدر نفسه، ص 74

³ المصدر نفسه، ص 96

⁴ المصدر نفسه، ص 99

مجلة الهند

"أخذت أتأمل سحنات الوجوه، وأبصر حركات الناس فإذا هم وكأنهم جنس آخر من الناس إلا أنهم لم يخرجوا بذلك عن دائرة الجنس الهندي وهذا من عجائب الهند ففهم من سحنة الهند وسمرتها كما في سائر أهل الهند".¹

ويمضي قائلاً:

"فأهل كلكتا على وجه العموم سمر ولكلهم ليسوا أكثر أهل الهند سمرة بل هم أقل سمرة من أهل مدراس ---".²

وعلى هذا فلا يجد الرحالة العربي أي جمال فيهم لا جمال خلقي ولا جمال فطري فيقول:

"وبعد هذه الجولة المتعبة التي كان مصدر تعبيها من المشي عدم رؤية الأشياء الجميلة لا من أهل البلاد الذين كانوا لعمر الحق مؤدبين مع الغريب ---".³

"والمناظر لا تكاد تختلف خصراً طبيعية ليس فيها أي أثر لمراجعة الجمال بل هي خصراً لم يراع فيها التنسيق ---".⁴

وبعد النظر على الجمال الخلقي والفتري يعود إلى ملابس الرجال والنساء في بنغلاديش فيشير إلى ملابس النساء أولاً ثم يدلّ على ملابس الرجال فيقول:

"--- هنّ قد لبسن لباماً كلباس الباكستانيات قميص طويل يضرب إلى حوالي الركبة وسراويل يصل إلى الكعبين إلا أن سراويلهن ليست واسعة كسراويل الباكستانيات ---".⁵

"ولباس النساء اللاتي رأيتهن وهم يعملن في وصفته وأما النساء القليلات اللاتي رأيتهن في الشارع فهو اللباس الساتر الطويل الذي يستر البدن كله".⁶

¹ المصدر نفسه، ص 27

² المصدر نفسه، ص 27

³ المصدر نفسه، ص 31

⁴ المصدر نفسه، ص 102

⁵ المصدر نفسه، ص 60

⁶ المصدر نفسه، ص 61

مجلة الهند

ويقول عن ملابس الرجال:

"وأما الرجال فإن لباسهم الأغلب الأعم هو الفوطة التي تلف حول الخصر حتى تصل إلى الكعبين من الأسفل ومن فوقها قميص عادي".¹

"وفي بعض الأحيان وهذا قليل جداً يكون اللباس القميص والسروال الأفريجي".²

ثم يرفع البصر فيجد المبني المصنوعة من الحصير والعود إما كان ذا طابق أو طابقين فيقول وهو يصف مسجداً:

"وصلنا المسجد الآخر في الركن الجنوبي من المعسكر فإذا به أيضاً مثل غيره أشبه بعشرة من الحصير والأعواد إلا أنه منسق البنية وفيه زيادة لاحظتها وهو أنهم قد بنوا سطحه على شكل سنام من الحصير مثل غيره ولكنهم أضافوا سقفاً آخر كما يكون في البلدان المترفة مستعراً للتجميل فهم هنا وضعوا حصيراً فوق رؤوس المصلين على شكل مستوى مسطح وهو زائد لا حاجة إليه في الوقاية من المطر".³

ولعل السبب وراء هذا هو سوء حال أهاليها فيصف الرحالة فقر وبؤس أهالي كولكاتا:

"وفي المساء ما بعد العصر إلى قرب العشاء كانت جولة أخرى في مدينة كلكتا الكبيرة - -- فدخولهم المالية منخفضة وأجسامهم ليست ضخمة وما كلهم ليست كما كل الآخرين وحاجتهم أو أقل ما يتحقق لهم من حاجاتهم هو أقل من غيرهم بقليل ---".⁴

ولهذا ولأسباب أخرى يمشي أغلبهم حفاة فيقول الرحالة:

"--- وأكثر أهالياً يمشون وهم حفاة الأقدام ربما كان ذلك بسبب رطوبة أرضهم".⁵

ويعدّ الأمراض الفاشية فيه فيقول:

¹ المصدر نفسه، ص 61

² المصدر نفسه، ص 61

³ المصدر نفسه، ص 74

⁴ المصدر نفسه، ص 32

⁵ المصدر نفسه، ص 100

مجلة الهند

"ومن هناك كان الاطلاع على غوفة نوم المرضى من الرجال --- وأكثر هؤلاء لا تظير عليهم علامات نقص التغذية مع المرض وهناك من هم مرضى بأمراض عادبة وقال لي الأطباء: إن أكثر الأمراض شيوعاً عندهم هي الملاريا وفقر الدم الذي هو في الحالات العادبة ليس مرضًا وإنما هو بسبب فقد التغذية".¹

وبجانب فقرهم وضيق يدهم لا يكفي أنفسهم في الاكتساب والحصول على الأموال الكثيرة فيقول الرحالة:

"--- والفرق بين الاثنين هو الفرق بين الناس في البلدين فأولئك قوم متعلمون يقدمون للحياة كثيراً من العمل ثم يستعملون كثيراً من وسائل الحياة، وهؤلاء الهندود قانعون بما هم فيه يقدمون اليسير من العمل، إما اليسير كيّفاً أو اليسير مقداراً، ويقنعون بما يتمتعون به من الحياة على مقدار ما يبذلون من عمل".²

ومن بين هذه المسائل تأتي مسألة المرأة فقد وجد الرحالة أغلبيتهم غير خارجات من البيوت أو إذا خرجن فهن متبرجات إلا القلائل منهن في القرى أو ما جرّته زخرفة الحياة الحديثة:

"من أهم ما يلفت نظر القادم من الهند إلى هذه البلاد أو حتى من باكستان الغربية الفرق الواضح بينهما وبين داكا في موضوع المرأة وخروجها في الشوارع فهي تكاد تكون غير موجودة أصلاً بل إنه ظهر لي من خلال هذه الجولة أن خروج المرأة في داكا رغم الاستعمار الإنكليزي الطويل هو أقلّ من خروجها في بلادنا في الرياض مثلاً وإن كان خروجها في الرياض يكون وهي متوجبة فهي هنا لا تخرج أصلاً وإن خرجت وهذا قليل نادر فإنّها قد تكون متوجبة".³

"--- إضافة إلى بعض القرويات أو الفلاحات اللاتي رأيتها يمشين غير متبرجات على أطراف المدن وبعدد محدود أيضاً".⁴

¹ المصدر نفسه، ص 90

² المصدر نفسه، ص 39

³ المصدر نفسه، ص 60

⁴ المصدر نفسه، ص 60

مجلة الهند

"وكنا نرى النساء وبعضهن هزيلات بشكل ملفت للنظر وبعضهن أحسن حالاً وكلهن من المسلمات ولكن كلهن سافرات فهن في حالة لا يستطيعن معهاهن أو ذووهن التفكير في موضوع الحجاب الذي يتمسك به أهل المدن في هذه البلاد حتى أهل العاصمة".¹

وأما عن مأكلهم فقد حكى لنا الرحالة عن وقودهم وأحب أنواع الطعام لديهم ووجود الفلفل فيها وطريقة تناولهم ووقد احتمل غسل الأيدي وتناول الحلوي وما شاهبها فنقتبس طرفة من أقواله وحكاياته كما يلي:

"ثم ارتفعت الطائرة فأصبحنا نرى ما يشبه الدخان على الأرض اعتقد أنه ناشئ عن كون معظم الأهالي يوقدون على عشائشهم بالحطب إذ هو الوقود الرئيسي عندهم".²

"وقد قابلنا بعض السيارات التي تحمل الحطب من الغابات للوقود لأن الإيقاد بالحطب هو الغالب على أهل هذه النواحي".³

"ومررنا بسوق فيه بعض الخضراوات وهي ليست كثيرة كما قلت مما يدل على أن الأهالي لا يعتبرونها مهمة في الغذاء وإنما يعتمدون كل الاعتماد على الأرز والسمك".⁴

"--- وطلبت سمكاً وأرزاً فجاءوا بالأرز قليلاً وجاءوا بالسمك في وسط المرق ولا أدري أي نوع من السمك ولكنه ليس له طعم السمك الذي نعرفه وله عظام كما تكون العظام التي هي بين عظام الغنم وعظام الدجاج".⁵

"--- ولكن لحم الدجاجة هو أنفس اللحوم وأغلاها في هذه البلاد --- إن لحم الغنم عندهم رخيص بالنسبة إلى الدجاج --- إن المطعم هذا لا يقدم إلا الدجاج".⁶

¹ المصدر نفسه، ص 72-73

² المصدر نفسه، ص 49

³ المصدر نفسه، ص 88

⁴ المصدر نفسه، ص 59

⁵ المصدر نفسه، ص 82

⁶ المصدر نفسه، ص 81

مجلة الهند

"وكان العشاء من الكاري واللحم والأرز طلبت منهم أن يكون خالياً من الفلفل فجأوا به ناراً تأجج منه".¹

"--- وبدأ الزملاء يأكلون مثل ما كل الناس يأكلون إذا جاءهم صحن الأرز يلمم الرجل أطرافه بأطراف أصابعه كأنما يخلطه بها ثم يمرس بعضه مع بعض ليدخل الإدام إليه ثم يبدأ الأكل بيد واحدة ولا يستعملون الملعقة في الأكل مطلقاً".²

"--- عندما كنا نحضر الماء مع الصابون ليفسّل الضيوف أيديهم في وعاء فرفضت ذلك وقلت أرجو أن تدلّوني على حوض الحمام حتى أغسل فيه يدي".³

"وخرجت من هذا المطعم وأنا نادم على دخوله لأنني عندما ذهبت لأغسل يدي رأيت الناس يغسلون أيديهم اليمنى وأفواههم وهم لا يتحاشون من رفع الصوت بالنخنخة وما يتبعها".⁴

وبعد الفراغ من الطعام عادة ما يأكلون الحلوي أو التنبول فيقول الرحال:

"--- فذهب معي في جولة على السوق واستراح مني الرفاق على أكواب من الشّيري المخلوط بالبن وهو من إنتاج بلادهم وعلى شيء من الحلوي".⁵

"وعندما تنبّل أخيونا الدكتور مستفيض الرحمن سأله: ما فائدة هذا التنبول؟ فقال: ما فائدة الشاي والقهوة؟ فقلت: الأمر مختلف --- وشيء آخر وهو أنه يسرّ النفس --- وهذا أيضاً يدلّ على أن فيه شيئاً".⁶

هذا في جانب وفي جانب آخر وجد العبودي أن فنادقها أيضاً تخلو من النظافة فيقول:

¹ المصدر نفسه، ص 105

² المصدر نفسه، ص 82

³ المصدر نفسه، ص 95

⁴ المصدر نفسه، ص 83

⁵ المصدر نفسه، ص 103

⁶ المصدر نفسه، ص 82

مجلة الهند

"وقد عرض علي الأخ (مير قاسم) أن أشرب معه كأساً من الشاي أو أتعشى في إحدى هذه المقاهي فاعتذررت إليه عن ذلك مع أنني محتاج إليه ولكن مستوى الخدمة والنظافة فيها يمنعني من تناول ذلك".¹

ولقد وصف الرحالة أخلاقهم وعاداتهم فنؤود أن نذكر طرفاً منها كما يلي:
ينتقد كسلهم في اكتساب شيء في الحوار الذي جرى بينه وبين الترجمان: "--- ألا يستطيعون أن يعملوا ويشتروا بأجرهم ماعزاً أو غيره؟ فقال: ومن أين العمل؟ وكيف يعملون؟ إن الأقواء الأشداء الذين لديهم خبرة فيه يعوزهم العمل، وهؤلاء لا يعملون ولم يتعودوا ذلك".²

يشير إلى بخل أغانيائهم في معونة فقراءهم: "--- ولكن ألا يستحق المسلمون الأثرياء الذين علموا بحالتهم ولم يتقدموا لمعونتهم أن يلاموا على ذلك؟".³

ويشير إلى انتهازية البنغاليين بمناسبة:
"--- وقد صحبني من الجمرك إلى موظف الصحة الذي يفحص البطاقات الصحية الصفراء للمسافرين المغادرين على خلاف العادة وحاولت أن أردد هذا الموظف ولكنه لم يتركني إلا في قاعة المسافرين في المطار وطلب مني أن أعمل شيئاً لجعله يذهب إلى البلاد العربية فاعتذررت إليه".⁴

وينبئ عن حجمهم للمال وأصحابه:
"هذا وقد لاحظت أن العربي في هذه البلاد الهندية يعظمونه ويكررون له لأمرير أحدهما ماله يرجون منه نوّالاً أو مجرد تعظيم ذي المال ---".⁵

¹ المصدر نفسه، ص 103

² المصدر نفسه، ص 73

³ المصدر نفسه، ص 77

⁴ المصدر نفسه، ص 108

⁵ المصدر نفسه، ص 108

مجلة الهند

وأما عن التعليم فقد أشار الرحالة إلى حالة المعرف في بنغلاديش فنود أن ننقل من رحلته مقتبسات كي يسهل فهم عناية أهاليها بالتعليم ومستواهم فيه:

"--- إن التعليم فيها يسير على الطريقة التقليدية --- طلابها أقوياء العربية بالنسبة إلى غيرهم وإلى ضعف اللغة العربية في جميع بلاد البنغال بل عدم وجودها في أكثر الأحيان --- إن الدراسة في هذه المدرسة على ثلاث مراحل: الأولى مدتها ست سنوات ونسمّها مرحلة الداخل والثانية أربع سنوات واسمها الفاضل، وأنسأنا حديثاً مرحلة أعلى أسميناها مرحلة الكامل وندرس فيها أمهات كتب الحديث كالصحيحين والمسند".¹

وبخصوص تلاوة القرآن فقد رأيت أغلبية البنغاليين لا يجيدون تلاوة القرآن فيفرح الرحالة حينما وجد طالباً أجاد تلاوة القرآن فيقول:

"وفي ختام الزيارة قدم المدير أحد الطلبة وقال إنه يريد أن يسمعكم شيئاً من تلاوة القرآن الكريم واسمه محمد شاه فقرأ آيات من القرآن الكريم بتلاوة مديدة جيدة".²

ولقد وجدت إمام المسجد الجامع في حيي الذي كنت أقيم فيه يتلو: أرأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي (يدعو) اليتيم بدلاً من (يدع) والفرق بين يدعا ويدعٌ واضح لكل عارف بالعربية.

منتجات بلاد البنغال: ولو أن العبودي لم يقم بدراسة مسائية لمنتجاب ومحصولات بنغلاديش إلا أنه أشار إلى ما رأه بعينيه هاتين فيقول إن بنغلاديش متخلفة في مجال الصناعة:

"وهناك الصناعات اليدوية القديمة التي في حوانيت الحدادين والتجارين، ولم أستطع الوقوف عليها والاطلاع على أعمالهم فيما بسبب الزحام وضيق الوقت وإن كان يظهر عليها من البعد أنها بسيطة غير متقدمة فليست مظاهر الصناعات القوية أو الدقيقة موجودة لديهم".³

¹ المصدر نفسه، ص 96-97

² المصدر نفسه، ص 97

³ المصدر نفسه، ص 59

مجلة الهند

ويقول معلقاً على يوم النصر:

"وهو اليوم الذي جرّدهم من أسباب قوتهم فأصبحوا لا حول لهم ولا قوة لا من القوة الاقتصادية ولا الصناعية ولا العسكرية ولا حتى الكفاية من الأشياء الضرورية إذ لا يزالون يستوردون الغذاء الرئيسي لهم وهو الأرز من باكستان وهم يعانون نقصاً في كل شيء إلا شيئاً واحداً هو عنجهية الوطنية البنغالية ---".¹

ومع ذلك إنه يشير إلى بعض المنتوجات والمحاصولات فيقول:

"--- وأراني شيئاً قليلاً من الأوعية التي صنعت من الخوص والأخشاب ---".²

"وتجولنا في السوق فرأيت أواني من الفخار المحلي الأحمر الجميل اللون فسألت عن ثمن الواحدة فأجاب البائع إنه تاكا ---".³

ويقول عن حقول الأرز الغذاء الرئيسي لديهم:

"وأكثر ما يراه المرء هنا حقول الأرز في حياضه التي بعضها غارق في المياه وبعضها يبتدره الفلاحون أو يعالجونه بالشتل ---".⁴

ويقول عن الفواكه التي وجدتها:

"--- وأن هناك فاكهة محلية يمكنه أن يستعيض عنه بشرائها مثل الموز الذي يوجد في جميع فصول السنة ومثل المانجو التي توجد في فصل الصيف ---".⁵

ويقول عن النارجيل وفائدته:

"--- وقد اشترينا منه بعض ثمار النارجيل بغية التزود بماءها للشرب لأنه نظيف ولذيد ومفيد للجسم ترأى لي من التجربة".⁶

¹ المصدر نفسه، ص 99

² المصدر نفسه، ص 67

³ المصدر نفسه، ص 104

⁴ المصدر نفسه، ص 87

⁵ المصدر نفسه، ص 57

⁶ المصدر نفسه، ص 86

مجلة الهند

ويذكر النمر من خلال الحديث عن الغابات:

"وقال لي الأستاذ مير قاسم علي إنه يوجد فيها من الحيوانات المفترسة النمر".¹

وأنه لم يجد حماراً من بين الحيوانات فقال:

"--- والناس عنها (الركشا النارية) في شغل بلقمة العيش أو السلامة من السفر بالأرجل ولو كان ذلك على حمار مع العلم بأنني لم أر في كل هذه الأرياف حماراً واحداً".²

فهذا يعني أن بنغلاديش لم تكن تنتج قدرًا ملحوظاً من أنواع الصناعات والأغذية والفاواكه بل كانت فقيرة وعائلة على بلدانها المجاورة.

يوم النصر: يوم النصر بالنسبة لأهالي بنغلاديش هو اليوم الذي انفصلت فيه بنغلاديش عن باكستان وذلك على الاختلاف الواضح فيما بينهم في اللون واللسان والثقافة فالباكستانيون أجمل منهم ولغتهم الأردية وثقافتهم إسلامية بينما البنغاليون فلا يوجد فيهم جمال وأما لغتهم فهي البنغالية وثقافتهم هي التي عضوا عليها بالنوажд فلا يميلون عنها قيد أنملة ولو دعاهم رب أو دينه أو رسوله ﷺ. انفصلت بنغلاديش عن باكستان وأعانتهم فيه الهند وأشياها وبذلك أصبحت بنغلاديش كلحام على وضم للهند. يقول العبودي مثيراً إلى هذا الجانب الحزين للبلاد:

"من سوء حظنا أن كان هذا اليوم هو الذي يسمونه يوم النصر وهو يوم انفصالهم عن شقيقهم باكستان وتأسيس الدولة البنغلاديشية وهو في الحقيقة يوم النصر الحقيقي للهند لا لهم ولا لغيرهم من المسلمين فقد تركهم هذا اليوم لقمة سائفة للهند تفعل بهم ما تريد دون أن تخشى من أن يكون لذلك رد فعل من أحد، وهو اليوم الذي جردهم من أسباب قوتهم فأصبحوا لا حول لهم ولا قوة لا من القوة الاقتصادية ولا الصناعية ولا العسكرية ولا حتى الكفاية من الأشياء الضرورية إذ لا يزالون يستوردون الغذاء الرئيسي لهم وهو الأرز من باكستان وهم يعانون نقصاً في

¹ المصدر نفسه، ص 88

² المصدر نفسه، ص 98

مجلة الهند

كل شيء إلا شيئاً واحداً هو عنجهية الوطنية البنغالية مع أنهم مسلمون ومتى كان الإسلام معترضاً بالوطنية الضيقة.¹

ويقول وهو يقارن بينها وبين باكستان:

"إذاً هذا اليوم يذكروا نحن المسلمين الحريصين على قوة الإسلام بيوم من أيام نصر الأعداء ويوم من أيام إضعاف المسلمين وليس ذلك مقتضياً علينا بل كثير من أهل البلاد يعرفون ذلك ولكنهم يذكرون لك مظاهره فإذا سألهم عن الأرض أرخيس هو؟ أجابوا: إنه رخيس في باكستان. والفاكهة؟ إنها رخيسة في باكستان حتى الحجاج سألهم عن عددهم من بلاد البنغال هذه؟ فأجاب الحجاج إنهم من باكستان كثير".²

تجارة بنغلاديش: حال التجارة في بنغلاديش لم تكن حسنة في تلك الفترة فقد زار الرحالة أسواقها فوجدها سيئة للغاية فيقول كما يلي:

"ومررنا بعدة قرى لم نقف فيها أو على الأصح بعدة أسواق للقرى لأنهم يجعلون السوق على الطريق الذي لا طريق غيره مبنياً بالأسفال لسهولة المواصلات ويأتي أهل القرى يحملون بضائعهم على رؤوسهم ويبيعونها ويشترون بثمنها ما يحتاجونه من الأسواق".³

ويقول في مكان آخر:

"السوق مليء بالبضائع الخفيفة التي يحتاجها أهل القرى وليس فيه من المنتجات الثقيلة شيء".⁴

والواقع الذي ذكره الرحالة أن بنغلاديش لم تكن تصنع شيئاً مهماً فلم تكن تصدر البضائع وبدلًا من ذلك أنها كانت تورّد الأرز وما كانت تحتاجه إليها إلا أن حاجياتهم

¹ المصدر نفسه، ص 99

² المصدر نفسه، ص 100

³ المصدر نفسه، ص 102

⁴ المصدر نفسه، ص 101

مجلة الهند

كانت محدودة وتلك إما لفقرهم أو لبخلهم المعروف الذي شهدته خلال فترتي التعليمية الممتدة لخمس سنوات فلا يأكلون في الصباح إلا الأرز المقلي الذي يأكلونه في الظهر وفي العصر كذلك ويهتمون له كأنهم يأكلون الدجاجة.

جوانب سيئة لبلاد البنغال وأهلها: ومن خلال إقامته لثلاثة أيام شهد الرحالة عديداً من مساوى أخلاق البنغاليين فنشر إلى البعض منها فيما يلي:

(1) **الخصوصة**، يقول الرحالة: "وذلك الطعام الذي جرت الخصومة حوله لو رأه الواحد منا في بلادنا لأصابه الجوع ---".¹

(2) **وسخ كولكاتا**، يقول الرحالة: "مع أن كلكتا مشهورة بأنها أكثر المدن الكبرى في الهند تأثيراً من حيث النظافة والخلاف في المرافق العامة ---".² و"الفنادق النظيفة ليست كثيرة في كلكتا".³

(3) ضررها أكبر من نفعها، يقول الرحالة: "كلما أوغلنا في المدينة زادت كثافة المارة وازدحام البيوت حتى وصلنا قلب المدينة الغاص بالناس فإذا به ذو بيوت متلاصقة، وأرصفة غير مصونة، وأرض مسفلة، ولكن سفلة صرحتها أكثر مما نفعها ---".⁴

(4) **عدم الأمان**، يقول الرحالة: "لا يحسن الدخول إلى المدينة (كلكتا) في الليل لأن المرأة لا يأمن في ذلك الوقت، وإنما الأفضل لك أن تقضي الليلة في فندق المطار وهو ليس بعيداً عنه ثم تدخل البلد في الصباح".⁵

(5) **كثرة التنبول**، يقول الرحالة: "أول ما تعجب له هو كثرة الحوانيت الصغيرة التي تبيع التنبول للمارة ويكون صاحبها في الغالب متربعاً على دكانه وفي الغالب يكاد يكون قد شغله كله بجسمه لأن الدكان يكون صغيراً لعدم حاجته إلى الكبر والاسعة، وترى المارة يقفون عنده ويشترون ويضعون في أفواههم، وبعضهم تراه

¹ المصدر نفسه، ص 19

² المصدر نفسه، ص 22

³ المصدر نفسه، ص 26

⁴ المصدر نفسه، ص 23

⁵ المصدر نفسه، ص 20-21

مجلة الهند

وقد وضعه قبل ذلك فأصبح فمه أحمر كمؤخرة القرد، وتراه يبصق في بعض الأحيان فتشتمئز من ذلك ولكنك ربما تعتاد على رؤيته لأن البصاق في شوارعها كثير.¹

(6) سوء حال المبني في كولكاتا، يقول الرحالة: "--- وصلنا إلى بعض العمارات الحديثة --- إنها للجي-ش وقد لاحظت أن أكثر البناء في كلكتا كيبة المنظر إذ قل أن تجد عمارة ذات طلاء بهيج بل قل أن ترى عمارة يخيل إليك أنها جديدة وربما كانوا لا يهتمون بالظهور كثيرا."²

(7) طوفان ركشاوي، يقول الرحالة: "ولم يكن بد من أن يستعمل السائق بوق سيارته باستمرار، ويتأني في مشيته حتى يستطيع أن ينفذ من بين هذا الجموع من عربات الركشا المعتادة التي تتحت عنها حتى العربات الأخرى من الركشا المتخذة من الدرجات النارية وإذا بي أرى سيارتنا تقاد تكون السيارة الوحيدة في هذا الطوفان الركشاوي إن صح التعبير لأن هذه العربات هي وسيلة الانتقال الشخصي المفضلة عندهم فهي رخيصة الثمن وسهلة الاستعمال ولا تتطلب وقوداً وتدخل في كل مكان".³

(8) العبادة، يقول الرحالة: "--- ثم خطب باللغة العربية التي لا يفهمها منهم أحد خطيبين متوسطي الطول إدحاماً وهي الأخيرة من الخطب التقليدية التي كنت أسمعها في بلادنا تكرر كل جمعة منذ أن عقلت، ولا شك في أنه لم يفهمها منهم أحد وكان يمد الكلام المسجوع في الخطبة مدائياً ويتغنى بها تغنى ---".⁴ وبعد انتهاء الصلاة جعل الإمام يدعوا دعاء طويلاً مسجوعاً باللغة العربية أول الأمر والناس يؤمنون على دعائه وهم لا يعرفون معناه ثم أخذ يدعو بالبنغالية --- وقد استغرق ذلك أكثر من وقت الصلاة بكثير والناس منتظرون لم يتحرك منهم أحد

¹ المصدر نفسه، ص 28 وكذا انظر الصفحة 101 للرحلة

² المصدر نفسه، ص 38

³ المصدر نفسه، ص 58

⁴ المصدر نفسه، ص 78-79

مجلة الهند

من موضعه ---¹. وبعد أن فرغ من هذا الدعاء الطويل قام الناس إلى صلاة النافلة وقامت وصايتها ركعتين كعادتي ولما فرغت أردت أن أخرج ولكن لا تزال الصنوف قائمة تغلق الطريق على من يريد الخروج ---².

البقرة وتقديسها وتعظيمها: البقرة كانت مقدسة في الهند منذ زمن قديم فقد عدّوها مباركة ومقدسة حتى اعتبرت بعض كتب الديانة الهندوسية ذبحها أعلى أضحية وأفضلها لدى الآلهة. ولكن هذا الجانب الديني قد تحول اليوم إلى جانب سياسي. وفي كل زمان أساء الحكام استخدام الدين فأخذوه ما دام الدين أفادهم وبنزوه وراء ظهورهم حينما لم يحتاجوا إليه. ولنقراء ما شهد الرحالة بالنسبة للبقرة. عندما ركب الرحالة الطيارة خيرته المضيفة عن نوع الطعام؛ لحم أو نبات فيقول الرحالة إنه قد خطر بباله أن يقول إنه يريد لحم البقرة ولكنه امتنع عن إظهار ما بخاطره مخافة أن يغضب منه الهندوس:

"حال موعد توزيع الطعام وإذا بالمضيفة تأتي بطعمان بين يديها في صحف من اللدائن الصغيرة وهي تخاطب الركاب بكلمة ظهر لي كأنها واحدة فيجيبونها بنعم أو لا --- وما جاءت وقالت لي ذلك قلت لها: لا، بل أنا من أكلة لحوم --- وأردت أن أقول البقر، لا البشر بطبيعة الحال ولكنني ذكرت أنني في البلاد التي تعبد البقر فقلت: لا داعي للخصومة وسكت ---³".

ويقول في موضع آخر:

"اببدأ الطريق وهو ذو اتجاهين يفصل بينهما جزيرة غير عريضة مزروعة بالحشائش والنباتات غير المزهرة ومسورة بالأسلام حذرًا من أن تأكلها الأبقار السائية التي هي معظمة، بل مؤلهة في هذه البلاد الهندية".⁴

¹ المصدر نفسه، ص 79

² المصدر نفسه والصفحة ذاتها

³ المصدر نفسه، ص 19

⁴ المصدر نفسه، ص 23

مجلة الهند

وعلى هذا فيشير إلى كثرة الأبقار:

"--- وأحواض للأرز بعضها حديث أخضر وأكثرها قديم قد قطف حبه وبقي قشه في الأرض ترعاه الأبقار --- والأبقار كثيرة كثرة ملفتة للنظر فهي أكثر هنا في الهند ويلهمها في الكثرة مما يُؤكل الدجاج".¹

وبهذه المناسبة نوّد أن نذكر مقتبساً من "مشاهدات في الهند" حيث انتقدت أمينة السعيد درجة البقرة وعبادتها في الهند:

"وأول ما يسترعي النظر في كراتشي وفي غيرها من المدن الهندية، كثرة البقر في الطرقات، وما لها من سلطان على الحياة العامة، فصاحبة الجاللة البقرة الهندية تتمتع بتكرير وتبجيل وحرية لا تتوافر لخیر أفراد الشعب، وذلك لأن الهندوس يعبدونها، ويعتبرونها أم الله، لأنها تدرّ لبنيّا يهب الحياة للناس ومن أجل هذه المنزلة الرفيعة تجول قطعان البقر في الطرقات كما يحلو لها، فلا يجرؤ أحد على إيداعها أو إبعادها عن طريقه. وقد تقتحم الحوانيت في بعض الأحيان، فإن كان صاحب تلك الحوانيت هندوسياً، تركها تعيث في المكان فساداً؛ أما إذا كان مسلماً، وحاول إخراجها قسراً، قامت معركة دينية حامية بين الطائفتين قد تراق فيها الدماء، وتذهب الأرواح".².

لغة هذه الرحلة: لغة هذه الرحلة، كما رأيتم نماذج منها، ليست أدبية، إنها لغة الرحلات التي يفضل فيها الرحالة السهولة والوضوح ويدرك ما يشهده أو يحكي ما شهده الآخرون غيره، ولكن وجدنا من خلال دراستها نماذج جميلة لوصف بعض ما شهده إلا أنه أيضاً يخلو من الصبغة الأدبية كما رأينا في رحلة "مشاهدات في الهند" لأمينة السعيد التي لغتها أدبية على الرغم من لغة الرحلات الأخرى مثل "رحلاتي في

¹ المصدر نفسه، ص 102

² مشاهدات في الهند لأمينة السعيد، دار المعارف للطباعة والنشر، مصر، أغسطس 1946م، ص

35-34

مجلة الهند

"العالم" إلا أن السعداوي تخطئ في اللغة والبيان بينما العبودي بريء من هذا إلا في مواضع تزل فيها أقدام العرب عادة.

فيصف العبودي سائقاً كان يسعُ طول الطريق:

"--- فأحضرها وركبت معه وليتني لم أركب فقد كان يسعُ طول الطريق بشدة وبطريقة مؤلمة لنفسه من يسمعه وكان الطريق الذي يبلغ طوله من المطار إلى الفندق عشرين كيلومتراً يعج بالحافلات التي تنفث دخان дизيل المؤذى إلا أنني اضطررت أن أفتح نافذة السيارة وأن أخرج رأسي من السيارة ما استطعت فراراً من الهواء داخل السيارة الذي لو ثه السائق بسعاله ونفائه".¹

ويصف غرفة الفندق ذي الدرجة الأولى كما يلي:

"ونزلت في الفندق في غرفة تقرب من أن تكون من غرف فنادق الدرجة الأولى غير أن كل ما فيها هو من منسوجات الهند ولكن بعضها يصعب علينا استساغته من ناحية الفندق مثل الكرامي الخشبية التي يصعب تحريكها وزحزحتها، ومصابيح الإضاءة المغلفة بأغلفة كبيرة جداً من الزجاج والجبار وهي مدلاة في السقف تصرب رأس الذي لا يفطن لها، إضافة إلى أن الغرفة تحتاج إلى ترميم".²

ويصف الركشا وما يخلق في نفس الرجل المترجم من قلق واضطراب:

"ومن عربات الركشا التي يؤلم منظرها النفس، ويحز في الفؤاد ذلك بأنك ترى رجلاً قد يكون ضعيف البنية هزيل البدن مصفر الوجه، وإن كان وجهه لا يعدم بقعة حمراء فيه تلك هي فمه الذي يكون أحمر من أكل التنبول تراه وهو حافي القدمين قد أمسك بيديه خشبتين أو قل اثنتين من العصي - جمع عصا - قد ربطنا إلى عربة ذات عجلتين قد ركب فيها شخص أو شخصان وقد يكون الراكبون أسرة أكثر من شخصين وهو يجر هذه العربة بهم بين زحام الناس والسيارات وهو إذا وصل مكاناً

¹ مقال في بلاد البنغال، المصدر نفسه، ص 13

² المصدر نفسه، ص 14

مجلة الهند

مرتفعاً جمع جسمه وبذل كل جهده لكي يستطيع أن يجرّ منه العربية وإذا بلغ منخفضاً حاول أن يقف حتى يخفف من اندفاعها ومن حسن حظه وأمثاله أن المرتفعات والمنخفضات هنا قليلة.

والمؤلم أن الراكب الذي يبدو سعيداً في مركبه المظلل حتى عن الشمس والمطر وهو يرى ذلك الإنسان الشقي يجر به العربية ماشياً في الشوارع حتى يصل به إلى مقصداته مع أن الراكب قد يكون أقوى جسماً وأكثر لحماً من السائق.¹.

ويصف البنغاليين كما يلي:

"فأهل كلكتا على وجه العموم سمر ولهم ليسوا أكثر أهل الهند سمرة بل هم أقل سمرة من أهل مدراس ولهم أكثر نحواً في الأجسام، وأقصر قامات، وأمارات العوز ظاهرة على وجوه جمهورهم، وشيء أهم من ذلك هو أن المرأة يستغرب من عدم التناسق في تفاصيل أجسامهم مثل ما يشعر بذلك إذا رأى بعض أهالي سيلان".²

ويصف بركة السباحة كما يلي:

"ثم رأيت بركة للسباحة ليس فيها سابحون لأن الوقت ليل وإنما أحاطوها بأنوار جميلة نثرت بينها الموائد وعلى بعضها أناس يأكلون وأردت الدخول لتناول شيء خفيف من الطعام في هذا الهواء الطلق ولكن رجلاً عند الباب اعترضني قائلاً: أتيت هنا لتنعشى؟ فقلت له: إنني أريد أن آكل شيئاً خفيفاً. فقال: ذلك يكون في كوفي شوب أي في المقصف وإن كانت ترجمتها الحرفية حانوت القهوة ولكهما تطلق اصطلاحاً على المقصف الذي يقدم مأكولات خفيفة على مدار الوقت أو أكثر الوقت من الليل والنهار".³

ويصف نافورة جميلة وجدها:

¹ المصدر نفسه، ص 24-25

² المصدر نفسه، ص 27

³ المصدر نفسه، ص 51

مجلة الهند

"وكان مما مرناه عندما استأنفنا الجولة ميدان تتوسطه نافورة على شكل زهرة كبيرة مفتوحة بيضاء وأوراقها خضراء وأرصفة ممتازة وأشياء من المباني والشوارع كل أن يوجد منها سواء في أصل تخطيطها أو العناية بها في الهند وقالوا لنا إن كل هذا كان من زمن الاشتراك في الوحدة مع باكستان، ولم ي عمل شيء منه بعد ذلك".¹

ويصف ميناء نهرياً كما يلي:

"--- وكان من أهم ما رأيته ذلك الميناء النهري العظيم الذي اشتهرت به هذه المدينة وفيه عدد من البواخر ومن أهم ما يلفت النظر فيه المصنع الكبير للأسمنت ومعدات نقل المواد الخام من البواخر إلى المصنع ثم نقل الأسمنت بعد ذلك للتصدير إلى أماكن أخرى في البلاد".²

وبجانب تمهر الرحالة في الوصف فقد نجد في هذه الأوصاف جوانب عديدة من البلاد التي زارها ومما تملكها من المشاهد والمناظر التي تلفت النظر إليها.

¹ المصدر نفسه، ص 57 وهكذا كل ما تتمتع به بنغلاديش من المفاخر يرجع فضلها إلى باكستان، يقول الرحالة عن بيت المكرم: "البيت المكرم وهو مسجد جامع ضخم واسع ليس في ساحاته وأفناه فقط وإنما فيما يستوعبه من عدد المصلين بني في عهد حكومة باكستان ويطل على ميدان في العاصمة، عليه إستاد رياضي وسوق شعبي مسقوف والمسجد نفسه مؤلف من سبع طبقات، أي نعم إنه مسجد مؤلف من سبعة طوابق أسفلها حوانيت وأسواق تجارية ثم المصلى هو وما فوقه أماكن للصلوة"، المصدر نفسه، ص 78

ويقول في مكان آخر وهو ينتمي سوء بالبنغلاديش بعدم انفصالت عن باكستان: "دخلت السوق فإذا بي أتيقن أن البنغال هذه التي رضيت أو رضي القائمون على أمرها بأن تنفصل عن باكستان ليست من البلاد السعيدة في الصناعة والإنتاج الزراعي المتعدد الجهات ---" ، المصدر نفسه، ص 56 ويقول متقدداً حكومة مجتب الرحمن: "ولم أجد أي أثر للحكومة التي تسعي نفسها (جمهورية بنجلاديش الشعبية) فإذا كان ذلك يدل على أنها تعمل لخدمة الشعب فأي خدمة ألزم من خدمة هؤلاء المساكين الفقراء الذين تركوه للأجانب الذين يخالفونهم في الدين يفعلون بهم ما يشاؤون" ، المصدر نفسه، ص 71

² المصدر نفسه، ص 105

مجلة الهند

سيرته الذاتية: عندما يكتب كاتب أو يفرض شاعر فلا بد من أن تتجلى شخصيته أو أن يbedo طابعه الخاص في كتاباته أو أبياته. ومن هذه الناحية كلما نعيد النظر إلى هذه الرحلة نجدها تحتوي على جوانب خلقة من حياة كاتبها محمد العبودي فمثلاً ينتقد معاملة السائقين فيقول:

"أما سائق السيارة التي أركمها فما رأيت أمهر منه في هذه البلاد، ولكن ما رأيت أقل رحمة منه لهؤلاء الساحبين لعربات الركشا ولا لأولئك المارة البائسين، فهو إذا حاذى أحدها منهم ألح على بوق سيارته القوي ينذرهم ويحذرهم دون أن يقف أو يخفف من سببه فيضطرون هم للوقوف أو الانحراف والابتعاد عن طريقه، أما أنا فقد اجتمع على عاملان من التأثر أحدهما من منظر أولئك البائسين من الحفاة الساحبين للعربات. والثاني: الخوف من منظر حادث يضيع سائق السيارة فيه نفسه ولكن ذلك لم يحدث حتى وصلنا إلى بناء ليس بذلك من بعيد ---".¹

ويقول كذلك إنه لا يود أن يتعب الآخرين غيره:

"رغم كون السفارة قد تلقت برقية من رابطة العالم الإسلامي بأنني سوف أصل، ورغم كون السفير السعودي هو الأستاذ فؤاد الخطيب وهو صديقي --- فإني لم أبرق له بوصولي إلى داكا لأنني لا أحب أن أتعب أحداً من جهة ---".²

ويقول وهو يمدح التبشير وخدماته:

"--- على أن الذي ينبغي التنويه به أنه ليس كل من قدم من الأوربيين معونة للجمعيات المسيحية لكي تقدمها للمحتاجين في العالم إنما يريد بذلك أن يدخل المعاني في النصرانية فهي أولئك من يقدم ما يقدمه من عمل خيري بدافع إنساني يدفعه وهو يرى ما يتقلب فيه من نعمة وثروة إلى أن يقدم شيئاً من ذلك للمحتاجين والمعوزين".³

¹ المصدر نفسه، ص 25

² المصدر نفسه، ص 52

³ المصدر نفسه، ص 77

مجلة الهند

وكذا إنه يمنع أن ينفق على المسؤولين فيقول:

"... وبعد الخروج بصعوبة من المسجد الجامع رأينا جماعة قد نصبوا مكبّراً للصوت وهم يخطبون قالوا: إنهم من الجماعة الإسلامية وعند السيارة عاد الشحاذون يلحفون ويلحفون ولكنني لم أعط أحداً منهم لأنك إذا أعطيت واحداً لم تتخلص من الآخرين إضافة إلى أن مظاهر الاستجداء الجماعي بهذه الطريقة مما يشوه صورة هذا الاجتماع العظيم في النفس".¹

ويقول مثيّراً إلى ما يقوم به الفقراء من جهد مضن للحرث مما يأكله الأغناء:

"وأكثر ما يراه المرء هنا حقول الأرز في حياضه التي بعضها غارق في المياه وبعضها يزدريه الفلاحون أو يعالجونه بالشتل ونحوه فتراهم وقد غاصت أرجلهم في الوحل الأسود وهم يحاولون الانتقال من مكان لآخر فيه والعمل وسط هذا الوحل فلا يسعك إلا أن تتنذكر أنك كنت في بلادنا العربية تأكل الأرز ولا تدرى من تعذب من خلق الله في زرعه وحصاده وتهبّته ---".²

ويقول مترحّماً على الأطفال الفقراء الذين يجمعون الحطب للبيع:

"وأكثر الأطفال الذين يحضرون الحطب هذا نصفهم الأعلى عارٍ من الثياب وقد رأيت بنية عمرها في حدود العاشرة أو الحادية عشرة معها حزمة من الحطب فسألتها عن الثمن فلم تعرف الإنكليزية كما لا يعرفها عامة أهل الريف هذا وإنما ترجم لي أحد الرفاق فأجابت أنها تبيعه بستة تاكات أي ريال وربع فقلت لها: بخمسة فامتنعت ولو باعوني إيه لأعطيتها ثمنه وتصدقـت بالحطب علمـها وإنما سـأـلتـها لأـعـرـفـ ثـمـنـهـ فـهـيـ قدـ حـمـلـتـهـ منـ مـكـانـ لاـ شـكـ فيـ أـنـهـ لـيـسـ قـرـيـاـ وـبـقـيـتـ تـبـيعـهـ فـتـرـةـ وـأـهـلـهـ كـمـ عـاـنـواـ فيـ قـطـعـهـ مـنـ الـأـخـشـابـ وـتـكـسـيرـهـ كـلـ ذـلـكـ بـرـيـالـ وـرـبـعـ وـلـكـ الـرـيـالـ وـالـرـبـعـ قـدـ يـكـوـنـ فـيـهـ لـهـمـ سـدـادـ

¹ المصدر نفسه، ص 81

² المصدر نفسه، ص 87

مجلة الهند

من جوع في شيء يشترونه من الأرض الذي كان رخيصاً عندهم فارتفاع ثمنه نسبياً بعد انفصلهم عن باكستان.¹

ويقول وهو يفضل المساواة في الانتظار:

"وهذا آلمني كثيراً إذ ماذا يضيرني إذا انتظرت حتى يأتي دورني وماذا ينفعني إذا قدمت على غيري؟ إلا أن أشعر بأنني قد أساءت إلى إسلامي بجعلني غير المسلمين من الأوروبيين وغيرهم يأخذون فكرة عن المسلمين بأنهم لا يحبون العدل والإنصاف الذي يقضي بأن يكون من يحضر قبل غيره له حق التقديم على من جاء بعده".²

ويقول وهو يبين الفرق بين العمل والنسب:

"--- لما قلت لأحد علمائهم: أرجو أن تكون عند حسن ظنكم بنا في التمسك بالدين، قال: يكفي أن تكونوا في جوار الحبيب، فقلت له: شكراً ولكن هذا لا يكفي لأن المكان لا يقدم أحداً وإنما يفيد الإنسان عمله وما كسبت يداه".³

الختام:

بدا مما كتبنا آنفًا أن البنغال وبنغلاديش ولو أنهما بلدان ينفصل أحدهما عن الآخر إلا أنهما تتشابهان في كثير من الأمور والتقاليد، وتعصبان في العناية باللغة البنغالية وثقافتها. زارهما الرحالة لأمر رسمي لكي يطلع على أوضاع المسلمين الدينية والاقتصادية والاجتماعية في البلدين ولكنه حاول خلال رحلته أن يسلط الضوء، قدر المستطاع، على جغرافييا هذين البلدين من حقولهما وجبالهما ومشاهدهما الفطرية، وعلى محصولاتهما ومنتجاتهما وأسوقهما التجارية. ولقد أسهب الرحالة في ذكر المجتمع البنغالي وخصائصه وميزاته مما يصفه أو يقدر، وبصرف النظر عن بعض الموضع فقد أصاب الرحالة في آرائه وانطباعاته فالبنغاليون قوم يقطنون فينا

¹ المصدر نفسه، ص 101-102

² المصدر نفسه، ص 107

³ المصدر نفسه، ص 108

مجلة الهند

ولكن ليسوا منا بل هم ليسوا من أحد من العالمين، لهم لغتهم وثقافتهم ولهم مذهبهم الخاص في الأمور الدينية. أثني الرحالة على ما أرضاه من عاداتهم وأخلاقهم ومعاملاتهم كما انتقد ما لم يرض عنه من المعاملات والتقاليد.

مما تتميز به هذه الرحلة أنها تنبئ عن السيرة الذاتية للرحالة فلا يتحيز الرحالة في رحلته إلى أي بلد أو قوم حين القيام بالمقارنة بل يرجح الحق في القول ويتحرى الصدق في الانطباع حتى أنه ينتقد العرب في عديد من الأمور والعادات ولا يخاف لومة لائم. لغة هذه الرحلة سلسلة وبريئة عن الأخطاء والزلات سوى في بعض الموضع حيث يخطئ العرب أو يتسلل الخطأ من أجل المطبع.

النيلوفر

(The Lotus)

- الأستاذ بدر جمال الإصلاحي¹

النيلوفر نبات مائي جميل من فصيلة النيلوفرات، وورقه كبير مستدير يعوم على سطح الماء، وأزهاره جميلة، كثيرة القوالات، تعوم أيضاً، منه أنواع تعيش في مستنقعات وببحيرات في القارات القديمة، ومنه نوع جعل منه المصريون الأقدمون موضوعاً فنياً.

أشهر هذه الأنواع تلك التي تنبت في المناطق المعتدلة، منها نوع كان مرغوباً فيه بمصر القديمة للطحين الذي كان يصنع من ساقه وحبوبه، منها أنواع تزرع للتزيين قد يبلغ قطر ورقتها مترين.

والنيلوفر ينبع في المياه الراكدة، له أصل كالجزر وساق ملساء تطوى بحسب عمق الماء، فإذا ساوت سطحه أورقت وأزهرت.

ويقال له أيضاً "اللينوفر"، وهي كلمة فارسي أصلها،² أو هي سنسكريتية. وكلمة النيلوفر مركبة من "نيل" معناه أزرق و"أُثْ پَلْ" معناه وريقة فمعنى هذه الكلمة المركبة: الزهرة ذات الوريقات الزرقاء.³

إن النيلوفر ذو منافع كثيرة وهو تنجذب الأنظار إليه لحسن منظره وجمال أزهاره وهو يتفتح بألوان مختلفة. وله أنواع كثيرة، بعضه ينبع في الأنهار والغدران بنفس

¹ كاتب هندي كبير نال جائزة رئيس جمهورية الهند لخدمته للغة العربية وأدابها

² المنجد في اللغة: كلمة النيلوفر

³ فرهنك آصفية: كلمة النيلوفر

مجلة الهند

الفطرة بينما يزرع بعض أنواعه في غدران الحدائق للزينة في مختلف ألوانها الأحمر والأبيض والأصفر والأزرق وغيرها.

وله فوائد اقتصادية أيضًا، تحصل من بعض أنواعه بذورها، فتحمّص وتسعمل في الحلويات والأدوية، هذه البذور تكون كالبندق في حجمها وصلابة قشرها، وتسعمل أصوله الناعمة الطويلة المنتشرة في الغدير كالخضار، ويصنعون منها الإدام اللذيذ المقوّي للبدن، ويأكلونها أيضًا مسلوقًا مع الزبادي وهي مقوية لذيدة لذيدة جدًا.

وفي الزمن الماضي كان الهنود يأكلون الطعام على أوراقه المدوره الغليظة الصلبة الواسعة، يبلغ حجمها إلى القدم والنصف تقريبًا، ويسمّون أوراقه في لغتهم "هوج پتر" (Bhoj Patr) ورق الطعام أي الورق الذي يوكل فيه.

وكان الهنود القدماء يكتبون على أوراق النيلوفر، فأولاً كانوا يحكّونها بالخزائر الكبيرة و يجعلونها ناعمة الملمس ثم يكتبون عليها الرسائل والكتب، حفظت مثل هذه الرسائل والكتب في بعض المكتبات والمتحف.

ويوجد نوع من النيلوفر في الغدران والوديان، يستخرجون من ثماره حبات صغيرة كالخردل ويأكلونها محمصة أو نيئة، وكذلك يستخرجون من طين الغدران أصوله ويأكلونها مسلوقة أو نيئة.

ينبت هذا النوع في الغدران في شهر يوليو، وتتفتح الأزهار في شهرى أغسطس وسبتمبر على السيقان التي تكون تحت الماء، والأزهار تعود على سطح الماء. وتنضج ثمارها في شهرى أكتوبر ونوفمبر.

وكل أنواع النيلوفر لا يتحمل برد الشتاء فتموت أوراقها وسيقانها ولكن يبقى في الغدران والأودية أصولها وبذورها، فينبت مرة ثانية في الموسم. إن أزهار النيلوفر وأوراقها تملأ الغدران حسناً وجمالاً في الصيف ويصبح منظرها جميلاً جداً جداً. يتمتع المارّون بمنظرها البهيج.

مجلة الهند

رحب الهنود القدماء في جمال النيلوفر، فرسموا صور أزهاره وأوراقه وسبقانه على جدران معابدهم، وصوروه في كتبهم، وجعلوه زهراً وطنياً لهم.

والهنود يشتهون القلب بالنيلوفر، يقول الشاعر الهندي حيدر علي آتش:

ہمیشہ جوش گریے سے رہا پانی میں اے آتش

کبھی تازہ نہ میں نے اپنے اس دل کا کنول دیکھا

ترجمة: وإن كان نيلوفر قلبي سقي بماء دموعي ولكن ما رأيته قط طازجاً وطيباً بل يكون، دائمًا، مضمحلاً حزيناً.

إن أهل الهند وفارس يسمون بناتهم بالنيلوفر لجماله وبهائه وبركته ومنافعه. والنساء اللاتي يسمين بالنيلوفر كثيرات، ومنهن نيلوفر خاتون زوجة أدر خان وأم مراد الأول. يروى أن عثمان خان مؤسس السلطنة العثمانية كان يمضي في بعض أسفاره في 1299 م فرأها أمام بيت أبيها فأراد أن تكون عروسه لابنه أدر خان، فقبض عليها وذهب بها إلى بلاطه وكان عمرها آنذاك 12 سنة وبعد بضع سنوات زوجها من ابنه أدر خان، وقد أنجبت لبعضها مراد الأول سليمان باشا، وكانت نيلوفر خاتون مخيرة ذات فضل كبير، فقامت بكثير من الأعمال الرفاهية منها تأسيس خانقاہ في "بروسا" وتعمير القنطرة على نهر "بروسا" وكلاهما تسميان باسمها "نيلوفر"، وقد دفنت بعد وفاتها في مقبرة "بروسا" بجوار بعلها أدر خان.¹

ومن أنواع النيلوفر نيلومبوجزي أو النيلوفر الهندي (Indian Lotus) أو النيلوفر المقدس (Sacred Lotus) وهو نوع من النبات يتبع جنس النيلومبو من الفصيلة النيلومبية، نبات مائي عمر ذو جذور رizومية، الأوراق قرصية كاملة الاستدارة، يتوسطها ساق قوسية طولها من 30-100 سم فتصبح طافية فوق سطح الماء، الأزهار كبيرة بيضاء أو وردية يصل قطرها من 30 سم، وتظهر في أواخر الربيع والصيف والثمار كثيرة الثفوب.

¹ أردو دائرة معارف إسلامية، 22 (نيلوفر)

مجلة الهند

يتكثر النبات بالبنور والريزوبيات واحتلت زهور النيلوفر درجة كبرى في حياة المصريين القدماء والهنود، فكانوا يقدمونها للضيوف تحية لهم ونقشوها على جدران معابدهم وأبوابها، كما قدموها لآلهتهم.

يتميز نبات النيلوفر الهندي المقدس الطويل ذو الجذور المجوفة بلونه البني ونسيجه المقرمش الصلب، وهو ينمو في المستنقعات وله أوراق خضراء كثيرة تستعمل لمعالجة مرض ذات الرئة، تطفو زهرته البيضاء التاجية الشكل على وجه الماء وتكثر زراعته الصين في هذه الأيام.

يفضل تناول جذور النيلوفر الهندي مطهواً على طريقة التقليدية السريعة في الخضر الجذرية الأخرى مثل القرطب أو الأعشاب البحرية مثل الأرامي والمهيجيكي أو يسلق على طريقة النيشمي مع الشิตاكي والفجل أو داخل صلصة التتبيل كما يتوافر النيلوفر بشكل جذور مجففة أو مسحوق أو بذور.

يساعد النيلوفر على إذابة الدهون والمخاط من الرئتين وال الشعب الهوائية والحلق والجيوب الأنفية خاصة الدهون المتكونة من استهلاك منتجات الألبان أو البيض، كما يساعد شاي جذور النيلوفر على تهدئة احتقان الرئة، وإزالة أي مشكلات في الجيوب الأنفية، وكذا يخفّف من السعال المزمن. وتساعد اللصقة الطبية المصنوعة من جذور النيلوفر على تفتيت المخاط وإزالة المترسب في الجهاز التنفسي.¹

أسماء النيلوفر في اللغات المختلفة:

النيلوفر الزهر الوطني للهند، ويكون زهره جميلاً وكبيراً في الحجم، وله شهرة فائقة في الهند، والهنود يعرفونه ويعرفونه بجماله وفوائده منذ قديم الزمان ويسمّونه بأسماء مختلفة. توجد أسماؤه في اللغة السنسكريتية (لغة الهند القديمة) Kamal (كمال) Padam (پدم) Pankaj (پنكج) Saroj (سروج) Utal (سروج) (أتيل) Nilotpal (نيلوتپل).

¹ لينظر الموضع على الشبكة: zepcodezoo

مجلة الهند

والكلمة الأخيرة عندما وصلت إلى فارس صارت نيلوفر ومن هناك وصلت إلى البلاد العربية فصارت نيلوفر.

ويسمى في الإنجليزية باسم Lotus (لوتس) واسم العلمي Nilumbian Nucifera (نيلمبين نيوسي فيرا).

وشجيرته تنبت في الماء وتوجد في المناطق الحارة من فارس والهند وأستراليا، والبلاد الإفريقية والأمريكية، وتكون أزهاره بيضاء وحمراء عادة، وله ألوان مختلفة متعددة كالأزرق والأسود والأصفر والبنفسجي وغير تلك وأوراقه تكون مدورة كالمجنة.

ويستخرجون من قصبان أوراقه ليقاً يصنعون منها الفتيلات التي يستعملونها لإنارة السرج وكذا ينسجون منها الثياب الثمينة الغالية. يحصل الشفاء من كثير من الأمراض بلبسها. وجذوعه تكون مخلخلة مستقيمة وتنشر تحت الماء في الوضوء. وتنبت الجذور والنباتات الجديدة على عقد الجذوع. يوجد النيلوفر في أكثر بلاد العالم، ولاسيما في البلاد الحارة المطيرة، ينبع في البحيرات والغدران وحتى في الحقول والأودية. والنيلوفر ينتشر ببذوره وجذوعه وله أنواع كثيرة لوناً وشكلاً. وعادة ما تكون ألوانه الأبيض والأحمر والأزرق والأصفر، وأوراقه مدورة كالصحون الكبيرة، ويتصل سطح ورقها بالقضيب الدقيق الناعم ذي الثقوب المتعددة، وهذا القضيب يكون مختلفاً في الماء ويكون لونه أخضر خفيفاً، ويشرع يتفتح في أخير شهر مارس، ويجري عمل التفتح إلى سبتمبر، ويستحصل من قضيب النيلوفر ليف يصنع منه الفتيلات التي تنور بها السرج. وكانوا ينسجون الثياب من هذه الألياف في قديم الزمان، وجاء في البيد (كتاب الطب القديم) أن ليس الثوب المنسوج من ألياف النيلوفر يذهب بالحمى، وتفتح أزهاره بالصبح وتذوم طول النهار، ووريقات أزهاره لا تتساوى في العدد، ويكون بين الوريقات ثماره، تحيط بها شعيرات ويجذب أريج أزهار النيلوفر الذبابات والفراشات إليها والنحل يمسح رحيقها لتصنع منه العسل. وعسل النيلوفر مفيد جداً لأمراض العيون.

يوجد في العالم أنواع كثيرة للنيلوفر، ولزهوره أشكال وألوان مختلفة حسب أنواعه، وفي جزيرة (أمرا) بأمريكا نوع من النيلوفر يكون حجم زهره خمسة عشر إنشاً وحجم ورقه ست أقدام والنصف، وبعد سقوط وريقات الأزهار تشرع ثماره في النمو، وبعد

مجلة الهند

أيام قليلة تتكون فيه البنور. ثماره بيضاوية الشكل خضراء اللون ولكن بعد النضج يصير لونها أسود وتكون البنور لذينة توكل نيتاً ومسلوقه ومحمد صة، ويصنع منها الإدام الشهي وهو يستعمل في الأدوية أيضاً، تكون جذوره غليظة ذات الثقوب. وعندما تجف الغدران يستخرجون جذوره الغليظة ويأكلونها ويصنعون منها الطحين بعد تجفيفها، تكون براعمه في الماء بيضاء ناعمة، تكون لذينة حلوة في الأكل، ويستخرجون الزيت من أزهاره، يوجد النيلوفر في جميع أنحاء الهند، ويسمون النوع الأحمر منه Raktutphal (ركتوت فل) أي النيلوفر الأحمر ويسمون النوع الأزرق منه Nilotpal (نيلوت فل) ومن هذه الكلمة الأخيرة أخذ في العربية اسمه "النيلوفر".

ينبت النيلوفر الأزرق في كشمير ولاسيما في شمالها ويوجد أيضاً في بعض أنحاء الصين، والنيلوفر الأصفر ينbart في أمريكا وسائيريرا وألمانيا الشمالية وغيرها.

ويوجد في العالم كثير من أنواع النيلوفر وبعض الناس يسمون الزنابق المائية بالنيلوفر خطأ. ينbart النيلوفر في الماء الراكد أو شبه الراكد ويتميز من الزنابق المائية بأن الماء ينزلق عن أوراقه ولا يمكنه أبداً ولتكن يمكث الماء على أوراق الزنابق المائية ويبتلله، والفرق الثاني بينهما أن أوراق النيلوفر ترتفع عن سطح الماء بينما أوراق الزنبق المائي تفترش على سطح الماء.

تكون أزهار النيلوفر الهندي وردية اللون دائمًا والنيلوفر الأبيض والأحمر والأبيض والأصفر يكون في الحقيقة الزنابق المائية، يقال له في السنكريتية Jal Padam (جل بدم).

والزنابق المائية تنبت في المناطق الحارة وتعوم أزهاره وتفترش أوراقها على سطح الماء وتكون قضبانها ذات ثقوب وتشتمل أزهارها على وريقات كثيرة مرتبة، وجذورها منتشرة تحت الماء في الوحل.

استخدامات النيلوفر:

لكل حصن من النيلوفر فوائد طبية يصنع منها الأدوية في الطب الآيورفيدي وفي العلاج بالمثل وفي الطب اليوناني أيضاً ولاسيما أهل الصين والهنـد وماليزـيا يستعملونـها في علاج الأمراض المختلفة.

مجلة الهند

أهمية الثقافية:

إن النيلوفر معروف في بلاد العالم كلها لجماله وبهائه، ويقف المازون على الغدران والمستنقعات التي تكون أزهاره متفتحة فيها معجبين بها ليتمتعوا بحسنها وبهائها، وجاء ذكر النيلوفر في كتب الهند القديمة، وكانوا يحسبونه مباركاً ويعتقدون بتقديسه، وله أهمية دينية وثقافية في الأديان الهندوسية والبوذية والجينية ولذلك جعله أهل الهند زهراً وطنياً لهم.

وجاء في كتب الهندوس القديمة أن الإله برهما تولد من نيلوفر نبت من سرة الإله فيشنو، ولقب الهندود القدماء آلهتهم "لكشي" "پدما" و"كملا" و"كملاستا" ومعنى هذه الكلمات السنسكريتية "النيلوفر".

يعتقدون أن الإله فيشنو ذو الأيدي الأربع. قد قبض بأيديه الأربع على Shankh (شنك: الخرزة الكبيرة التي ينفخون فيها فيصدر منها أصوات عالية) وChakr (چكر: الدائرة) وGada (گدا: الحجر المدور الملحق بالقضيب الحديدي) وPadam (پدم) النيلوفر.

وتوجد صور النيلوفر وعلاماته منقوشة على جدران المنادر¹ في الهند وأكثر تماثيل بوذا توجد غالسة على زهر النيلوفر.

وكذلك كان قدماء مصر يحبون النيلوفر بل كانوا يقدسونه فنجد صور النيلوفر ونقوشه في كتبهم ومعابدهم ورأى بعض العلماء أن النيلوفر مهد الأصلي مصر ومن هنا ورد في الهند. والهنود يشيدون الوجه واليد والرجل الجميلة بأزهار النيلوفر الحمراء، والعين الجميلة بأزهار النيلوفر الزرقاء، كما يقول الشاعر الهندي:

لوگ بھولے سے جسے نیل کوں کہتے ہیں
وہ تری جھیل سی آنکھوں میں کھلا کرتا ہے

¹ مَنَادِرُ عَلَى زَنَةِ مَسَاجِدِ جَمْعٌ مَنْدِرُ كَلْمَةٌ سَنْسَكَرِيَّةٌ قَمَنَا بِتَعْرِيهِا وَهِيَ تَعْنِي الْمَعَابِدُ الْهَنْدُوسِيَّةُ. ولقد نعكف على هذه الكلمة لأن "المندر" كلمة خاصة لمعبد هندوسي بينما المعبد كلمة عامة

مجلة الهند

ترجمة: التي يسمونها "النيلوفر" وهم فأرها تتفتح في عينيك مثل البحيرة.¹ وجاء في كتب الهند التاريخية والدينية أن أزهار النيلوفر تتفتح عند طلوع الشمس وتغلق عند غروبها، وأن جذوره غذاء شهي للفيل والتمّ، يأكلونها برغبة شديدة. في الهند تصنع من أوراق النيلوفر المراوح ويُزعمون أن مراوح النيلوفر يتسلّى بها العاشق ويتصبّر. والجدير بالذكر في هذا المكان أنه في الهند تعيش المرأة الرجل وتهيم به على عكس أمة العرب حيث يعيش ويموت الرجال النساء. وقد قسم كتاب "كام شاسترا" (كتاب الشهوة الجنسية) النساء إلى أربعة أقسام فمنها القسم الأول "پدمى" ومعناه اللفظي (النيلوفر).

النيلوفر في الأساطير الهندية القديمة:

في الثقافة الهندية القديمة نال النيلوفر أهمية كبيرة فجاء في "وشنو بران" أن "إندرا" وهي إلهة الغيوم والأمطار مدحت "لكشي" وهي إلهة المال والثروة، فقالت: إن إلهة المال "لكشي" جالسة على النيلوفر وأيديها كجذوع النيلوفر في البياض والنعومة وعيونها كأوراق النيلوفر، ويا من وجهها كزهر النيلوفر ويا من عشيقة من نبت من نافة النيلوفر (أي الإله فيشنو) إني أعبدك".

فاتضح جلياً مما ذكر أن النيلوفر كان ولا يزال في الثقافة الهندية مقدساً ومباركاً ويعتبرونه رمزاً للجمال والطهارة والخير والبركة.

الناسك الأكبر ويد وياس ألف كتاباً عظيماً عن حقيقة الكون والإنسان يحتوي على ثمانية عشر جزءاً، يسمى الجزء الثاني منه Padam Purāna (كتاب النيلوفر). قد ذكر فيه:

"إن خالق الكون الإله برهما الذي ولد من النيلوفر الذي نبت من نافة "فيشنو" وأن الإله فيشنو خلق الكون وبين أصول خلق الأرض والسماءات والنجوم والشمس والقمر".

¹ فيريد الشاعر أن يقول إن الزهرة التي تتفتح في عينيك يجب أن تسمى "نيلوفر" لأنها تتفتح في العين والعين تعني "بن" بالسنسكريتية بينما هي شبرة بنيلوفر" والحال أن "نيل" تعني البحيرة. فالناس يخططون في تسمية هذه الزهرة.

مجلة الهند

ويزئنون الكتب وجدان المعابد وسقوف القباب وجدرانها والعمود بصور أزهار النيلوفر، وتوجد في أيدي أغلب آلهة الهندوس أزهار النيلوفر المقدس ومن مشاهير آلهتهم التي لها علاقة خاصة بأزهار النيلوفر براهما (فيشنو) ولकشمي وغيرهما.

وفي معبد الآلهة Jagdamba (جگدمبا) الواقع في مدينة كاجوراهو (Khajurao) تمثال إلهتهم اسمها Chatrbhuji (تشتر بھجي: ذات أربع أيدي) قدها نحو سنت أقدام، تحمل في يدها زهر النيلوفر ولهنا أيضًا نصب صورة الشمس على شكل رجل طوله خمس أقدام وفي يديه أزهار النيلوفر.

وفي أوديفور (Udaipur) براجستان معبد هندوسي اسمه Padmāvatī Mātā Jal Kamal (پدماتي ماتا جل كامل مندر) معبد الإلهة ذات النيلوفر وقد بني على شكل زهر النيلوفر، وفي هذا المعبد نصب تماثيل الإلهات بدماوي، ولکشمي، وسرسوتي، وأمبيكا. كل هذه التماثيل جميلة جاذبة للغاية، وقد صنع تمثال بدماوي بالرخام الأبيض.

وفي مديرية دهولفور (Dholpur) بولاية راجستان موضع يقصده الزائرون من كل أنحاء الهند، توجد فيه حديقة يزرعون فيها النيلوفر.

وفي مديرية أورنخ آباد (بولاية بهار) معبد الشمس صنعت قمته على شكل النيلوفر، ونقشت صورة نصف النيلوفر على عمود الملك أشوكا المنصوب هناك.

وقد بني معبد "بهائي أپاسنا" في دلهي على شاكلة زهرة النيلوفر المفتوحة، فلذلك يسمونها "Lotus Temple" (معبد النيلوفر). وإن مركز قوات الجسم السبع المذكورة في (اليوغا) يسمى بالنيلوفر.

طريقة زرع النيلوفر في الحديقة:

وأفضل طرق زرع النيلوفر أن يحفر الغدير وترصف أرض الغدير بالأجر والسمنت وأسلاك الحديد، وجدران الغدير تصنع أيضًا بالأجر والسمنت، ويكون عمق الغدير ثلات أقدام على الأقل، وأن طول الغدير وعرضه يكون حسب الحاجة، ويتغير كل شجر النيلوفر مئة مربع قدم، وإن كان الغدير أقل من ذلك فيصير بلا فائدة، ويحسن

مجلة الهند

أن يكون تحت الغدير ثقبه ليسهل إخراج مائه حيناً بعد حين، ويمكن تنظيفه فلا بد أن يكون فيها الميزاب، ويلقى التراب الممزوج بالسماد في الغدير ويكون سmk التراب نحو قدم واحدة ثم يلقى الرمل على التراب ويكون سmk الرمل إنثا واحداً.

وإن كان الغدير كبيراً جداً فالمناسب أن تستعمل الصناديق الكبيرة من الخشب فلا يلقى التراب والسماد إلا في الصناديق فهكذا ينجو الزارع من مشقة ملأ الغدير بكثير من التراب والسماد، وعلى ذلك يسبب تراب الغدير كدورة الماء لأنه أكثر الأحيان يحتاج إلى قطف أزهار النيلوفر

وجني ثمارها أو يحتاج إلى تنظيف الغدير من أوراق النيلوفر القديمة الفاسدة فيسبب التراب كدورة ماء الغدير.

تزرع بذور النيلوفر تحت التراب نحو إنшин في أول مارس ويحسن أن يحصل على شجيرات النيلوفر فتغرس في الغدير المعد لزراعة النيلوفر، وينبغي أن يكون الغدير مملوءاً بالماء النظيف دائمًا.

والغدير المحفور الحديث يملأ ماءً ثم يخرج ماءً ثم يصفر الماء من النور والأوساخ لأن النور والأوساخ تضر بالنبات وينبغي أن يلقى التراب والسماد قبل ستة أو خمسة أشهر من غرس النيلوفر. وماء الغدير المملوء يصير في أول الأمر أخضر ثم يصفر ويصير لونه أبيض لاماً، وينبغي أن يملأ الغدير بماء النهر أو المطر أو بماه البئر العذب ولا يملأ بماء الأنابيب لأنه يكون ممزوجاً بكلورين. والكلورين يضر بالنبات ويمرضه ويوقف نموه. وينبغي أن يكون الغدير أمام الشمس كي يستفيد نبات النيلوفر من أشعتها وحرارتها ولا يكون في ظلال الأشجار الساحقة والجدران العالية.

مجلة الهند

المصادر والمراجع

1. العديد من الكتاب: المنجد في اللغة، دار المشرق، بيروت، 1997 م
2. المولوي السيد أحمد الدهلوبي: فرهنك آصفیہ، نیشنال اکادمیہ، دلی، 1974 م
3. اردو دائرة معارف اسلامیہ (دائرة المعارف الإسلامية بالأردية)، جامعہ بنجاب، لاہور، پاکستان، 1989 م
4. الموقع على الشبكة: zepcodezoo
5. الموقع على الشبكة: the planet lust

مجلة الهند

استعراض كتاب:

استعراض: غياث الإسلام الصديقي الندوي¹

عنوان الكتاب: صفحات من حياة المغفور له بإذن الله تعالى السلطان سعيد بن تيمور سلطان مسقط وعمان
اسم الكاتب: الدكتور صالح البلوشي
عدد الصفحات: 200
الناشر: روزورد بوكس، نيو دلهي، الهند
سنة النشر: 2016 م

لا يقتصر هذا الكتاب على السيرة الكاملة للسلطان سعيد فحسب بل يتطرق إلى أهم جوانب حياته ومساهماته لعمان وأهلها متحدثاً عن نشأته وتعليمه، وجولاته في الميدانية الداخلية، وتسليميه لمقاييس الحكم، والوضع المالي للدولة ورحلته حول العالم، كما يلقي ضوءاً وافياً على مقاومته العنيفة والبطولية لاقطاع ولاية جواهر العمانية لصالح باكستان، إضافة إلى خلفية تاريخية عن جزر كوريا موريا (الحاليات)، ويقدم قصة البحث عن النفط في عمان، وجهود السلطان سعيد لتقديم خدمات أفضل لعمان وأهلها من بريد وبرق ورعاية طبية وغيرها.

¹ باحث، قسم اللغة العربية وأدابها، جامعة دلهي ومحاضر ضيف، قسم اللغة العربية وأدابها، كلية ذاكر حسين دلهي التابعة لجامعة دلهي.

مجلة الهند

في بداية الكتاب شكر المؤلف كل من ساعدته في تأليف وطبعه هذا الكتاب بنصيحة ومشورة وما إلى ذلك. وهو يشكر على وجه الخصوص الدكتور أورنوك زيب الأعظمي أستاذ اللغة العربية وأدابها في قسم اللغة العربية وأدابها بالجامعة المليلية الإسلامية، بنيو دلهي، على مراجعة هذا العمل وإخراجه وطبعه. وفي المقدمة سرد المؤلف خلاصة هذا الكتاب.

كان السلطان سعيد بن تيمور سلطاناً سابعاً من سلاطين مسقط وعمان، ووالده تيمور بن فیصل بن تركي بن سعيد بن سلطان بن الإمام أحمد بن سعيد البوسعیدي. ولد السلطان في 13 أغسطس 1910م، وتسلّم الحكم في عمر 22 عاماً، وفترة الحكم من 11 فبراير 1932م إلى 23 يوليو 1970م، وتوفي في 19 أكتوبر 1972م.

التحق السلطان سعيد بكلية مايور بمدينة أجمير الواقعة في ولاية راجستان الهندية بتاريخ 14 فبراير 1922م، وهذا ما تعرّز به الهند. وكان السلطان مشهوداً له بحبه للدراسة والمطالعة والتعلم. ولم يكتف السيد سعيد بأن يتلقى العلم من داخل الصفوف الدراسية لوحدها بل قرر أن يخرج منها ليرى بنفسه أحوال البلاد والعباد فعرف بشغفه الشديد للتجول والترحال كلما أمكنه ذلك خلال الإنجازات الدراسية سواء بالسفر إلى مسقط لرؤيه أهله أو بالسفر داخل الهند، وهو ما أمكنه من زيارة أماكن عدّة في الهند من بينها حصار، وأمبala، وغيرهما فاكتسب علمًا عمليًا وفهمًا وإدراكًا لحقائق الحياة، ومعرفة بتاريخ البلاد التي يعيش فيها هو وأهلها، وحياتهم ومعاشرهم ومعاناتهم خلال الأزمات وخاصة خلال الحرب العالمية الأولى.

وحينما بلغ السيد التاسعة عشرة من عمره أي في عام 1929م، عينه والده رئيساً للمجلس فعمل على ضبط الأمور المالية للدولة. ومن بين الأمور البارزة التي عملها أنه لم يجدد عمل وزير المالية عند نهايته في ديسمبر 1930م، ومع اهتمامه في الشؤون المالية أصبح في يوليو 1931م وزيراً للمالية بحكم الواقع لأنّه كان يدير كافة الأمور المالية.

كان السلطان سعيد في الثانية والعشرين من عمره حينما أصبح سلطاناً لمسقط وعمان وذلك في 10 فبراير 1932م. ولكونه رجلاً يتمتع بشخصية قوية فقد تحمل المسؤوليات الملقة على عاته وواجهها بجلد وقوة شديدة رغم صغر سنه.

مجلة الهند

عندما استلم السلطان حكمة مسقط وعمان كانت خزينة الدولة خالية بسبب الديون، وأصيّبت البلاد بضرر موجة الجفاف، فقاوم السلطان كل ذلك بحزم وعزيمة. ألقى المؤلف الضوء على جهود السلطان سعيد في هذا المجال فقال في مقدمة الكتاب:

"سيظل التاريخ يذكر أن السلطان سعيد واجه كافة الظروف غير المواتية بعق وحكمة مقرئين بالحزم فبدأ بنفسه قبل غيره فكان أول عمل قام به عند وصوله لسدة الحكم أنه خفض راتبه من سبعة آلاف روبية في الشهر إلى ثلاثة آلاف روبية وباع يخته وسيارته، كما تولى الإشراف المباشر على إدارة الموارد المالية للدولة، ووضع نظاماً مالياً صارماً، وكبح جماح الإنفاق غير الضروري، ونظم الجمارك حتى تمكن بعد سنين من الجهود المضنية من موازنة الإيرادات مع المصروفات". (صفحات من حياة المغفور له بإذن الله تعالى السلطان سعيد بن تيمور سلطان مسقط وعمان، ص 9-10)

وبعد تقلّد مقاليد الحكم كان من بين أوليات السلطان أن يزيد معرفته وعلمه بأحوال الآخرين فقرر القيام بجولة حول العالم من 28 يونيو 1937م إلى 24 يونيو 1938م، فرحل إلى عدّة بلدان بما فيها الهند، وسنغافورة، واليابان، والولايات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وفرنسا وألمانيا، ومصر.

والجدير بالذكر أن السلطان سعيد زار الولايات المتحدة الأمريكية بدعوة من رئيسها روزفلت فرانكلين الذي استقبله في البيت الأبيض في 3 مارس 1938م. وبذلك أصبح أول حاكم دولة عربية يزور أمريكا. خلال الحرب العالمية الثانية جاهد السلطان سعيد للتخفيف من معاناة شعبه. ومن بين الأمور التي قام بها في هذا المجال أنه أصدر أوامره بتوزيع المواد التموينية بنظام الحصص أي أن يحصل كل فرد على قدر معين من المواد التموينية كل شهر.

تميّز السلطان سعيد بمهارات هائلة في المحادثات والتفاوضات والمناورات السياسية كما ظهر في التمسك برأيه في معاملة منطقة جوادر وجزر كوريا موريا. أراد السلطان أن يدخل التعليم الحديث إلى عمان فافتتح في عام 1936م المدرسة السعيدية في

مجلة الهند

منطقة صلالة. وفي عام 1940م افتتح السلطان المدرسة السعیدية في مسقط. ومع ظهور التباشير الأولى لإنتاج النفط خطط السلطان سعید لإعادة تأهيل المدرسة الابتدائية في ولاية "صور" وتوفير احتياجاتها بتكلفة قدرها خمسون ألف روبيه.

وفي عام 1969م أصدر السلطان أوامره لإصدار عملة وطنية موحدة على شكل أوراق مالية ونقود معدنية. وفي مايو 1970م بدأ تداول العملة السعیدية الجديدة والتي كانت من فئات 100 بيسة، وربع ريال، ونصف ريال، وريال واحد، وخمسة ريالات، وعشرة ريالات.

وفي آخر الكتاب ملحوظ أولها برنامج الزيادة الرسمية للسلطان سعید بن تيمور إلى دلهي، الجمعة 12 نوفمبر إلى الاثنين 22 نوفمبر 1937م، وثانيها برنامج الزيادة الرسمية للسلطان سعید بن تيمور إلى لندن من 28 مارس إلى 12 أبريل 1938م، وثالثها معاہدة التجارة والملاحة بين المملكة المتحدة وسلطان مسقط وعمان الموقعة بمسقط في 5 فبراير 1939م، ورابعها معاہدة تنازل بين صاحبة الجلالۃ ملكة المملكة المتحدة لبريطانيا العظمى وأيرلندا الشمالية وسلطان مسقط وعمان فيما يتعلق بجزر كوريا موريما (صلالة بتاريخ 15 نوفمبر 1967م)، وخامسها كلمة السلطان سعید بن تيمور سلطان مسقط وعمان عن تاريخ الوضع المالي في السلطنة في الماضي وما يؤمل أن يكون عليه الحال في المستقبل بعد تصدير النفط (شوال 1387هـ/يناير 1968م)، وسادسها اتفاق بنكي بين سلطان مسقط وعمان وبين إيران الملكي بتاريخ 10 يوليو 1948م.

وأتبعها المؤلف سبع خرائط في سبع صفحات وهي لسلطنة عمان وشبه جزيرة مسندم، وجزيرة مصيرة، وجزر كوريا موريما وخرائط مكبّرة لجزر وجزر كوريا موريما، وشبه جزيرة جوادر وخليفة ولاية جوادر. وأتبعها المؤلف صور السلطان بمناسبات مختلفة في ست صفحات، والطوابع لريالات سلطنة مسقط وعمان في صفحتين، ونماذج الطوابع البريدية العمانية في صفحتين.

مجلة الهند

وبما أنّ الدكتور قد اختار لنفسه موضوع حياة السلطان سعيد بن تيمور، فقد جمع ما تشتّت في حياته وسيرته، وجاء بتحقيق علمي جميل. ويبدو من قراءة الكتاب أن الكاتب قد بذل قصارى جهوده في تحقيق أهم الأحوال والظروف التي مرّ بها السلطان سعيد في مراحل حياته المختلفة. فجاء هذا الكتاب في أسلوب علميٍّ حديثٍ وهو يشتمل على 200 صفحة من القطع المتوسط، ويحتوي على تقرير، ومقدمة، ومدخل، وتفاصيل حياة السلطان، وستة ملاحق، والمصادر والمراجع لهذا الكتاب، وبسبعين خرائط بجانب صور السلطان في مناسبات مختلفة، وطبعات الريالات العمانية، والطوابع البريدية العمانية، والفهرس. ونشره مطبع "روزورد بوكس"، نيودلهي، الهند، في عام 2016م.

إنّ الهدف الأساسي من تأليف هذا الكتاب هو تسليط الأضواء على صفحات من حياة سلطان عمان الراحل، رحمة الله تعالى، والذي قاد البلاد لما يقارب من أربعة عقود من الزمن، وإنه لحق من حقوق الأجيال المعاصرة والمقبلة أن يعرف حقائق أحداث من التاريخ العماني المعاصر.

قام بمراجعة هذا الكتاب وطبعاته الدكتور أونك زيب الأعظمي، أستاذ اللغة العربية وأدابها في قسم اللغة العربية وأدابها بالجامعة المليلية الإسلامية، بندي دلهي، الهند. وقرر الدكتور قصيدة عربية لتقرير هذا الكتاب وهي تحتوي على ثلاثين بيتاً. ويبدو من هذه القصيدة أنّ له اليد الطولى في الأدب العربي ولا سيما في قرض الشعر باللغة العربية.

ندعوا الله - عزّ وجلّ - أنْ يوفق المؤلف القدير مَزيداً من خدمة اللغة العربية وأدابها وأعلامها البارزين، فإنها لغة المسلمين، ولغة العلوم والفنون، ولغة أهل الجنة. والله هو الموفق وهو الهدى إلى سبيل الرشاد.

مجلة الهند

الدكتور أورنك زيب الأعظمي:

قصيدة في تهنئة الدكتورة هيفاء شاكري بتشرفها بجائزة رئيس جمهورية الهند

فَإِنْ رَئِيسَ الْهَنْدِ قَدْ أَكْرَمَ الْوَرَى	تَعَالَوْا نَقْمَ بِالنَّحْرِ فَالشُّرْبُ فَالسَّخَا
وَقَامُوا بِأَعْمَالٍ يَبْجِلُهَا الْدُّنْيَا ^١	وَفَضَلَ كُلَّ النَّاسِ جَاءُوا بِيَدْعَةٍ
تَجَدَّدَ مَا خَلَفُوا مِنَ الْعِلْمِ وَالسُّمَاء٢	لَهُمْ ذَكْرِيَاتٍ فِي مَجَالٍ يَخْصُّهُمْ
فَتَاهَ لَهُمَا خَلْقٌ وَخُلُقٌ مَعَ النُّبَرَى٣	وَمِنْهُمْ زَمِيلٌ ^٤ الَّتِي يَعْنِي اسْمُهَا
فَرَكَبَ مَا شَاءَ بِأَحْسَنِ مَا يُرِى٥	فَتَاهَ لَقَدْ أَنْشَأَهَا إِلَهٌ بِرَغْبَةٍ
وَبِالْفَجْرِ وَالظَّهَرِ، وَبِالْغَرْبِ وَالضَّحْي٦	فَتَاهَ يَجْنُونَ الْبَرَّ ^٦ رَؤْيَا هَا بِالْعَشَا
وَيَدْعُو لَهَا النَّاسُ وَتَدْعُو لَهَا النَّسَاء٧	فَتَاهَ لَهَا مَا زَالَ يَدْعُو الْمَلَائِكَ٨
وَجَدَتْ لَهَا حَظًّا وَفِيرًا مِنَ الْخَجْنِ ^٨	لَهَا خَيْرٌ أَخْلَاقٌ: فَلَمَّا لَقِيَهَا
لَهَا عَزَّةٌ قَعْسَاءٌ ^٩ قَدْ صَانَهَا التَّقْرِبَى١٠	وَجَدَتْ لَهَا عَلَمًا وَبَرًّا وَمَا طَغَتْ ^٩

الدُّنْيَا جَمِيعًا الدُّنْيَا: الْعَالَمُ^١

السُّما: المُفخِّرة²

³ الزميل على وزن القتيل للصفة وهو يذَّكُر وبؤْنَث

⁴ اسمها هيفاء وهي تعنى فتاة جميلة ذات خلق عظيم وعقل حاد

النہی: العقل⁵

البر: عامة الناس⁶

⁷ النساء، حذفت الألف للاقافية

الحياة: الخجي⁸

٩ اتقٰتِي طفتِي ما

10 ثابتة قديمة: عساي

مجلة الهند

لقد أنشأتها أمّها والتي سمّت
وتكره كل السوء، مكثرة لما
وأاما أبوها والذي كان عالماً
وثم توهّى جامعات العرابة⁶
وبعد الفراغ من تعاليمه التي
وكان شغوفاً بالعلوم وبالذى
وكان أدبياً شاعراً باحثاً لها
فقام بتحرير التأليف جودة
ولكن حواه الداء يأتيه بالشلل
فناداه رب العرش نحو جواره
ولو عاش حتى ينظر ما قد تفضّلت
لقد فضّلوا هذى الفتاة، وأنصفوها،
لقد علمت شعبين: هنداً وأعزّا¹²

مميّزة بالعلم والحلم والقرى¹
يصدّ² سبيل الهنزو³ واللغو والمذى⁴
تخرّج من دارٍ تشهر بالعلى⁵
لكي يشبع منها وينهل ما استقى
تحصّلها، قام يهذّب من بدا⁷
رووه، بعدلٍ، من أحاديث مصطفى⁸
لكي يأثر ما ينتج الذكر والعلى⁹
تعلم لغة الفرس، حّقّ ما حرى⁹
فأوشك أن يفني وسار إلى الودى¹⁰
فلبّى النداء بالسرور وبالرضى
به بنته الهيفاء، ليس لها السوى¹¹
على ما حوتة من فعالٍ ومن علّى
فصارت تثّقف مهدّ الكفر والهوى

¹ القرى: الضيافة

² يصدّ: يمنع

³ الهنزو: المنديان وهو كلام لا يعني

⁴ كل نقد فارغ بالهزء

⁵ أي دار العلوم بدبيوند الشهيرة في العلوم الإسلامية

⁶ أي الجامعات العربية

⁷ استخدمت هذه الكلمة للإشارة إلى العرب الذين كان معظمهم بدؤاً في زمان من الأزمان

⁸ الحديث النبوى

⁹ ما حرى: كتابات الحريري المسماة بالمقامات

¹⁰ الودى: الهلاك والفناء

¹¹ ليس لها السوى: هي فاقدة النظير

¹² مثيّراً إلى تعليمها للهنود والعرب على السواء

مجلة الهند

أضاءت بها دنيا العلم والفن والمنى^١
وتبلغ ما لا تبلغ الهند بالسما^٢
تباهي بها العرب، وتهبّت الحجى^٣
لها ما يثير العصر، حقاً، على القنا^٤
فقد صدقت ما ظنّت من الأمل^٦ والتوى^٧
بما نالها هذه الزميلة من على
بحتها الحسنى، وبالعلم والتقوى

وقادت بتأليف الرسائل التي
لهاترجمات لونها فصاحةً
تحدىنا دوماً بعامتها التي
لها خير أعمال كتاباً وخدمة
فإن كرمها الهند بالعز والصهى^٥
فيغمزنا كل السرور، ونفخر
فندعوا الإله أن يزيد من عمرها

^١ المُنى: الخيال (الأدب)

^٢ السما: الصيت البعيد الحسن

^٣ الحجى: العقل

^٤ القنا: البغض والحسد

^٥ الصهى: المال الكثير

^٦ الأمل والأمل: بسكون الميم وفتحها سواه

^٧ التوى: الأمنية

الندوة الدولية حول: الحكمة الهندية: بانتش تانтра (كليلة ودمنة)، تقاليد، تاريخ، وثقافة

- غياث الإسلام الصديقي الندوبي^١

نظم قسم اللغة العربية وأدابها بجامعة دلهي بالتعاون مع الأقسام الفارسية والنسكريتية والأوردية، ندوة دولية لفترة ثلاثة أيام حول الموضوع "الحكمة الهندية: بانتش تانترا (كليلة ودمنة)، تقاليد، تاريخ، وثقافة" في الفترة ما بين 10-8 مارس/آذار 2016م.

وقبل افتتاح هذه الندوة، اهتمَّ القسم نفسه بعقد المحاضرة التاسعة من سلسلة محاضرات البروفيسور خورشيد أحمد فارق التذكارية بمساعدة مالية من المجلس الوطني لترويج اللغة الأوردية التابع لوزارة تنمية الموارد البشرية للحكومة الهندية، في الساعة 10:00 صباحاً في قاعة المحاضرات لكلية الآداب بجامعة دلهي. وقام بإلقاء المحاضرة الدكتور سيد منور نينار حول "تأثير اللغة العربية في اللغات الهندية"، تقدم فيها بدراساته المقارنة القيمة عن هذا الموضوع؛ نسقاها الأستاذ الدكتور سيد حسنين أختر. وألقى مدير الندوة البروفيسور محمد نعمان خان وهو رئيس اتحاد أساتذة وعلماء اللغة العربية لعلوم الهند ورئيس قسم اللغة العربية وأدابها بجامعة دلهي سابقاً، ضوءاً وافياً على حياة البروفيسور خورشيد أحمد فارق وأعماله القيمة في مجال اللغة العربية، كما قام البروفيسور ولی آخر الندوبي رئيس قسم اللغة العربية وأدابها بجامعة دلهي، بتعریف الضيف المحاضر، وأبرز خدماته الملموسة في مجال

^١- باحث الدكتوراه، قسم اللغة العربية وأدابها، جامعة دلهي.

مجلة الهند

مجلة الهند

وفي الجلسة الوداعية أعرب البروفيسور راميش هاردواج رئيس قسم اللغة السنسكريتية بجامعة دلهي، عن خواطره تجاه الانسجام الطائفي في المجتمع الهندي ودور اللغات المختلفة في تقويته، وبالتالي عبر الضيف الشرف البروفيسور زير أحمد الفاروقى رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الملية الإسلامية سابقاً، عن الفرح والسرور لاهتمام القسم العربي بتعريف حكمة الهند عن طريق هذه الندوة، بينما قدّم الضيف الشرف الدكتور رافي تيك تشانداني وهو مدير المجلس القومى لترويج اللغة السندھيّة التابع لوزارة تنمية الموارد البشرية للحكومة الهندية، التهنئة إلى القسم العربي على عقد هذه الندوة، ونوه بمساعي المساهمين فيها والقائمين عليها.

و بهذه المناسبة قال الضيف المجلـ السيد بي شرما رئيس الأمانة الوطنية للكتب، في كلمته: "يحسن بنا أن نعيش منسجمين وناصحين للجميع، هذا ما يعلمنا كتاب كليلة ودمنة/بانتش تانترا عن طريق القصص والحكم على لسان الحيوانات والبهائم. وهذا ما يفتح لنا أبواب الفضائل والمصالح الاجتماعية، ويجنبنا من الأعمال الشائنة. وأخيراً فقد ألقى البروفيسور ارتضى كريم مدير المجلس القومى لترويج اللغة الأوردية التابع لوزارة تنمية الموارد البشرية للحكومة الهندية، كلمته الرئاسية، حيث فيها الحضور على الاستفادة من الحكم الهندية المذكورة في كليلة ودمنة/بانتش تانترا.

استغرقت الندوة الدولية ثلاثة أيام (8-10 مارس)، ألقيت فيها حوالي ستين مقالة علمية قيمة باللغة العربية والأوردية والإنجليزية والهندية والفارسية، تتعلق بالموضوع، وشهدها عدد ملحوظ من الضيوف من جمهورية مصر العربية، والجمهورية التونسية، كما حضرها كثير من الأساتذة من مختلف الجامعات الهندية وفي مقدمتهم البروفيسور شريف حسين قاسي رئيس قسم اللغة الفارسية بجامعة دلهي سابقاً، والبروفيسور عبد الحق رئيس قسم اللغة الأوردية بجامعة دلهي سابقاً، والبروفيسور كفيل أحمد القاسي رئيس قسم اللغة العربية بجامعة علي كراه الإسلامية سابقاً، والبروفيسور مسعود أنور العلوى رئيس قسم اللغة العربية بجامعة علي كراه الإسلامية، والبروفيسورة عائشة كمال، والبروفيسور حبيب الله خان، والبروفيسور رضوان الرحمن، والبروفيسور عليم أشرف خان، والبروفيسور

مجلة الهند

توقيع أحمد خان، والدكتور نسيم أختر الندوى، والدكتور قطب الدين، والدكتور أصغر محمود الندوى، والدكتور محمد قاسم عادل الندوى رئيس قسم اللغة العربية في كلية ذاكر حسين التابعة لجامعة دلهي، والدكتور سيد محمد طارق الندوى، والدكتور عامر جمال، والدكتور ظفير الدين القاسمي، والدكتور مشتاق أحمد قادرى، والدكتور علي جاويد، والدكتور شميم، والدكتور مشتاق أحمد قادرى. وشارك فهما عدد كبير من الباحثين من مختلف المعاهد الهندية الحكومية التي تعنى بتعليم اللغة العربية وأدابها.

وصلت الندوة إلى نهاية المطاف بعد ما نوه منسق الندوة الأستاذ الدكتور سيد حسنين أختر بجهود الأساتذة والطلبة في إنجاح هذه الندوة وقام الأستاذ الدكتور مجيب أختر بإدلاء كلمة الشكر لجميع الضيوف والمساهمين والحضور.

الأستاذ بدر جمال الإصلاحى ينال جائزة رئيس جمهورية الهند لخدمته للغة العربية وأدابها للسنة 2016م

- محمد معتصم الأعظمي¹

تمنح حكومة جمهورية الهند أربع جوائز على خدمة اللغة العربية وأدابها. إحدى هذه الجوائز تمنح لمن لم يتجاوز عمره خمساً وأربعين سنة. وأما الجوائز الثلاث الباقيـة فهي تمنـح لـمن تجاوز عمره ستـين سـنة. الجائـزة الأولى تسمـى "Maharishi Badrayan " بينما الجائـزة الثانية تسمـى "Vyas Samman ".

الأستاذ بدر جمال الإصلاحى بدأ دراسته من قريته حيث شدّ من العلم ثم التحق بمدرسة الإصلاح بسرائمير، أعظم كره من ولاية أوتار براديش (الهند)، وتخرج فيها عام 1967 م فتعلم فيها اللغة العربية ودرس كتب الأدب العربي وعلوم القرآن والأحاديث والفقـه وما إلى ذلك ثم ذهب إلى مدينة سهارانبور من ولاية أوتار براديش (الهند) حيث التحق بـ"مظاهر العلوم" وأسكن غـليلـه العلمـي فيها ثم الحقـبـاـ بـ"دار السلام" عمـراـبـادـ من ولاية تـامـلـنـادـوـ (الـهـندـ) وتـخـرـجـ فـيـهاـ وـحـصـلـ عـلـىـ شـهـادـةـ الفـضـيـلـةـ عـامـ 1978ـ مـ.ـ وـعـدـمـاـ فـرـغـ

منـ المـنـقـولـ وـالـمـنـقـولـ منـ الـعـلـومـ جـعـلـ يـخـدمـ الـعـلـمـ وـالـفـنـ فـعـلـمـ فيـ مـخـتـلـفـ الـمـدـارـسـ

الـإـسـلـامـيـةـ كـمـاـ عـمـلـ فيـ مـخـتـلـفـ الـجـرـائـدـ الـيـوـمـيـةـ وـالـمـجـلـاتـ الشـهـرـيـةـ حـتـىـ أـلـقـىـ عـصـاهـ فيـ

"مـدـرـسـةـ إـلـاصـلـاحـ"ـ الـتـيـ هـيـ بـمـثـاـبـةـ الـمـدـرـسـةـ الـأـمـ لـدـيـهـ.ـ وـهـوـ كـانـ يـدـرـسـ فـيـهـ قـوـاعـدـ الـلـغـةـ

الـعـرـبـيـةـ وـالـأـدـبـ الـعـرـبـيـ وـالـتـرـجـمـةـ مـنـ الـعـرـبـيـةـ إـلـىـ الـأـرـدـوـيـةـ وـبـالـعـكـسـ.ـ تـقاـعـدـ عـنـ هـذـهـ

الـمـدـرـسـةـ فـيـ عـامـ 2016ـ مـ.

¹ عـضـوـ تـحرـيرـ الـمـجـلـةـ وـبـاحـثـ فـيـ مـرـكـزـ الـدـرـاسـاتـ الـعـرـبـيـةـ وـالـإـفـرـيقـيـةـ،ـ جـامـعـةـ جـواـهـرـ لـالـهـرـوـ،ـ نـيـوـ دـلـهـيـ،ـ الـهـندـ

مجلة الهند

وبجانب هذا عمل الأستاذ الإصلاحي كمدرس للغة العربية والفارسية في كلية مولانا آزاد بـ"أسرته" من مديرية جونفور (أوترباديش) عام 1968م، وكذا درس في قرية "ميرزافور" من مديرية أعظم كره عام 1971م، ودرس اللغة العربية والفارسية والعلوم الإسلامية في قرية "مانغراوان" من أعظم كره عام 1972م، ودرس اللغة العربية والفارسية في الجامعة الإسلامية بـ"مدن فوره" وفي "جامعة الفلاح" ببلريا غنج من مديرية من مديرية فارانسي منذ عام 1973 إلى 1977م، وفي "جامعة الفلاح" ببلريا غنج من مديرية أعظم كره في الفترة ما بين 1978-1979م، وكذا سافر إلى السعودية العربية وعمل بها كمدرس اللغة العربية للأطفال العرب في مدرسة بـ"بريدة وعنيزة" منذ عام 1982م إلى عام 1986م، وهكذا انسلك في سلك".جامعة الرشاد" عام 1987م وعمل فيها كمدرس اللغة العربية وأدابها حتى عام 1992م،

وكان مولعاً بالكتابة والتأليف منذ نعومة أظفاره فكان المقالات والبحوث في مختلف موضوعات الدراسات العربية والإسلامية وكانت الكتابة عن الحيوان والطير والزهر موضوعاً رغيباً لديه فكتب عن "الببر" والأسد" والفيل" والبقرة" والطاووس" و"النيلوفر" و"الوردة" وغيرها وكذلك قام الأستاذ الإصلاحي بترجمة بعض الكتب من العربية إلى الأردية وبالعكس وأبرزها "الأحرف المقطعة" الذي نشرت ترجمته في مجلة "الرشاد" الشهرية الصادرة عن جامعة الرشاد بأعظم كره. أبرز هذه المقالات والترجمات ما يلي:

1. الكركند الوحيد القرن الهندي الكبير
2. والأسد
3. والببر
4. والطاووس طائر هندي جميل
5. والمهما: جمال الأدب العربي
6. والفيل

مجلة الهند

7. والإبل

8. والكلب

9. والبقرة في مختلف الأديان والحضارات

10. وعلاقة مولانا آزاد بجامعة الأزهر

11. والشيخ عبد السلام الندوبي

12. والشيخ ألطاف حسين حالي والدراسة النقدية لشعره

13. والشيخ أختار أحسن الإصلاحي

14. والأميرة جهان آرا وحياتها الحافلة بالعلم والأدب والزهد

صدرت له أربعة كتب قام بكتابتها أو ترجمتها إلى العربية. وهي كما يلي:

1. التبيان لما في الهند من الحيوان: هذا الكتاب يتحدث عن الحيوانات الهندية مثل الأسد والفيل والبقرة.

2. الهدية الهنية في الشخصيات الهندية: هذا الكتاب ينطوي على الشخصيات الهندية من مثل الأمير خسرو وجهان آرا وألطاف حسين حالي ومحمد علي جوهر وغيرهم من الشخصيات الكبيرة في الهند.

3. منشي نولكشور: حياته وأثاره: هذا الكتاب يتناول الناشر الهندي الشهير منشي نولكشور والذي قام بنشر العديد من كتب العلوم العربية والإسلامية والفارسية كما وظف المسلمين ولم يشب جانبه شيء من العصبية.

4. قرآن پاک میں حروف مقطعات: هذه ترجمة كتاب "الأحرف المقطعة" ألفه كاتب عربي

نهى الأستاذ بدر جمال الإصلاحي على فوزه بجائزة رئيس جمهورية الهند للشيخ، التي تسمى بـ "Certificate of Honour" والتي أعلنت عنها يوم عيد استقلال الهند 15/أغسطس لهذا السنة وسيتم تسليم الجائزة في حفل يقام في قصر الرئاسة الهندية إن شاء الله تعالى.

مجلة الهند

والجدير بالذكر أن الأستاذ هو ثاني اثنين من بين العلماء الإصلاحيين الذين نالوا هذه الجائزة الفخمة فالإصلاحي الأول الذي نال هذه الجائزة هو الشيخ ضياء الدين الإصلاحي. ويناسبنا بهذه المناسبة أن نذكر أن الدكتور أورنوك زيب الأعظسي، مدير تحرير هذه المجلة، قد نال جائزة رئيس جمهورية الهند للشباب في سنة 2014 م كما نالت هذه الجائزة إحدى أعضاء هيئة التحريرية الدكتورة هيفاء شاكري في العام 2015 م.